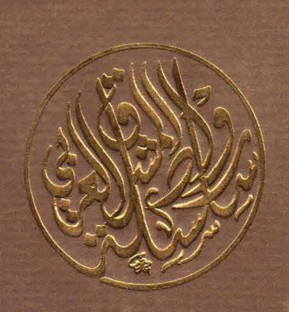


رحلة عبر الجزيرة الفراتيّة

إلى الخليج العربي عام 1893 م

تأليف: هنري سواينسون كاوپر

ترجمة: رنا إيبش

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

رحلة عبر الجزيرة الفُراتيّة

إلى الخليج العربي
عام 1893 م

للرّحّالة البريطاني

هنري سواينسون كاوپر

ترجمة

رنا إيبش

مراجعة وتحرير

د. أحمد إيبش

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS48. 2 . C8712 2012

Cowper,Henry Swainson, 1865-

رحلة عبر الجزيرة الفراتية إلى الخليج العربي/ للرحالة البريطاني: هنري سواينسون كاوبر؛ ترجمة رنا إيبش؛ مراجعة وتحرير: أحمد إيبش. - ط. 1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص. ؛ سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب: Through Turkish Arabia. A journey from the Mediterranean to Bombay by the Euphrates ad Tigris valleys and the Persian Gulf.

تدمك: 4 - 158 - 17 - 9948 - 978

1. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات. 2. الشرق الأوسط -- وصف ورحلات. أ. إيبش، رنا. ب. إيبش، أحمد. ج. العنوان. د. السلسلة.

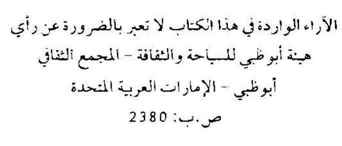


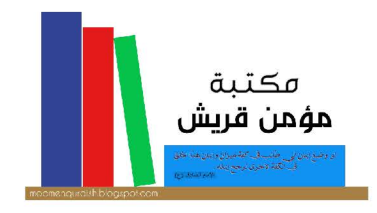


الطبعة الأولى 1434هـ 2012م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae





رحلة عبر الجزيرة الفُراتيّة

إلى الخليج العربي

سلسلة

روّاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من هذه السّلسلة الثقافيّة التّراثيّة تحت عنوان: «روّاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنا بصدد ذكر تُراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروپيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التّركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلات هيرودوتوس ونيارخوس، ورحلة الأناباسيس لكسينوفون الأثيني)، وكذلك في عصر الرّومان (كرحلة إيليوس غالوس، وتطواف البحر الإريثري). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشّام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها أخفقت وارتدّت على أعقابها.

فلمّا أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشّرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروپيّين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تتابع «هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة» اليوم نشره بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسّياحة والثقافة

هذا الكتاب

نقدّم للقرّاء الكرام اليوم كتاباً يتناول رحلة شائقة لرحّالة بريطاني قدم من أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط، وجال في بوادي سوريا والعراق في أرجاء الجزيرة الفُراتيّة، وصولاً إلى البَصرة على السّاحل الشمالي للخليج العربي، والبحرين وجزيرة هُرمُز ذات التّاريخ العربي العريق، فقدّم لنا نصاً مفيداً وممتعاً تحت عنوان:

Through Turkish Arabia

A Journey from the Mediterranean

To Bombay, by the Euphrates and Tigris Valleys

غير أنّ هذا العنوان: «عبر جزيرة العرب التّابعة لتركية» يبدو بغير شك مشوّشاً وغريباً اليوم، ففضلّتُ استبداله بعنوان آخر يدلّ بشكل أوضح على ماهيّة الموضوع: «رحلة عبر الجزيرة الفُراتيّة إلى الخليج العربي».

أمّا مؤلف الكتاب هنري سواينسون كاوپر Henry Swainson Cowper فهو ضابط وكاتب بريطاني، له عدّة مؤلفات في فنون الحرب والأسلحة. ولد عام 1865 وأبوه توماس كريستوفر كاوپر - إسِكس. خدم في الجيش البريطاني برتبة لفتنانت في كتيبة المتطوعين الأولى، سريّة لانكستر الملكيّة عام 1883، ثم ترفّع إلى رتبة كاپتن عام 1887، وتقاعد عام 1890.

* * *

قام برحلته هذه إلى المشرق في عام 1893 كما يذكر في مقدمته «من البحر المتوسط إلى بومباي عبر وادي دجلة والفُرات ومروراً بالخليج العربي»، ويلفت انتباه القرّاء إلى «أن هذا الكتاب ليس سرداً لرحلةٍ خياليّة أو استكشافاً علمياً بغية إغناء كتب المؤلفين الرّحّالين»، بل هو مجرّد رواية شخصية لرحلة مفعمة بالحيويّة والوصف التّفاعلي الشّائق، ممّا يجعلها واحدة من أمتع رحلات أواخر القرن التّاسع عشر، وتذكّرنا برحلة الأميركي أ. لوكر التي كان مسرح أحداثها غير بعيد عن هذه، وجرت عام 1868.

لكن الملاحظ في هذا الكتاب اتّساع حلقة بحثه وتتبّعه لمصادر نادرة لا نجدها لدى سواه، وخاصة في نقله عن بعض الرّوّاد الپرتغاليين مثل دي آلبوكيرك وتيشيرا، والدّنماركيين مثل كارستِن نيبور، والفرنسيين مثل تاڤرنييه وشاردان، والطليان مثل ماركو پولو ودِلّا ڤالِّه وبالبي، والإنكليز مثل موندرل وهربرت ورَسل وفِتش وراوولف وغيري وأينسوورث ودرايك وبَكِنغهام ورِتش وهاميلتون وپنكرتون ورولنسون ولايارد وبُرتون وبلَنت، والألمان مثل أوپرت وكيپرت وفون أولدنبورغ، والهولنديين مثل ڤان إغمونت، والإسپان مثل بنيامين التَّطيلي، والأميركان مثل ساوثغايت، ممّا يعطي نصّه بالفعل أهميّة ومصداقيّة كبيرتين.

أمّا حواشي المؤلف فقد ميّزتُها عن سواها، وكل ما عداها فهو لي. وأرجو أن يكون في عملنا هذا ما يفيد ويمتع.

والحمد لله على ما وفّق وأعان.

جبيل، *17 مارس 2012*

د. أحمد إيبش

نقاط حول التّرجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبيّة، يواجه القارئُ العربي دوماً خللاً كبيراً لم تتمكن مجامعنا اللغويّة من حسمه إلى اليوم. لكن بما أنّ هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقتصر هنا على ذكر سبع نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتّبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتّباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسپانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاچين، سَلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويماثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسپانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يماثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويماثله في التركيّة حرف ç كقولك:.çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الأسماء: چِستر، فرانچيسكو، چيكو، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّچ، شلونچ، پاچِة. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرقّقة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويماثلها في الفرنسيّة والپرتغاليّة j والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والپولونيّة ż والچيكيّة ž.

3 - أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغويّة، فاسم Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعوديّة: قوقل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: ڨوڨل، وفي فلسطين: چوچل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعاد، چدعون، چَدُول، رامات چان (علماً أن גן هي ذاتها جَنّة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟ وكم أشعر بالغرابة عندما أقرأ: لقزس، قوديز، كِلوقز، قَلف. ومن مظاهر التشويش الذي يفرضه الأمر أن بعض الكلمات صارت تُلفظ مغلوطة بجيم شجريّة: جَلَنط Galant، كتالوج Catalogue جَندول Gondol.

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تمييزاً له عن (الجيم الشّجريّة) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق (في الوقت الحاضر) اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغُش، أراغون. لكن على أن نَسِمَه بثلاث نقاط: (ڠ) تمييزاً له عن الغين العربيّة المُشبعة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: أي جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن بقلم المُسنَد الحِميَري اليماني، أو جيماً كنعانيّة، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأُردو. لكن متى ترانا نفعل؟! ولماذا الجيم دون الغين أو الكاف؟ لأن «اللسانيّات التّيمانيّة» تحتمل الإقلاب بين الجيم المشبعة وهذه الجيم اللّهويّة، التي حافظت عليها القبطيّة بمصر كاليونانيّة γ المفتقرة إلى جيم مشبعة، وبقيت في لهجة اليمن عن أصل العربيّة الجنوبيّة القديمة، وما زالت في العبريّة والسّريانيّة كالجيم المصريّة.

الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما

في اسم: Guillaume (غيّوم). وكذلك حلّ الطّليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلّة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلّة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كييڤو).

وأمّا الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجريّة كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گـ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصّصوا حرف g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرچك)، وحرف c للجيم الشّجريّة، كقولهم: geceler (غِجلار)، Avcı (آوجی)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجريّة أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غِڤير)، وإن أرادوا رسم الاسماء العربيّة لقوا التباريح، كقولهم في «جبل»: Dschebel، حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسپان، فحرف G له أحكام يطول شرحها، فالأصل في القشتاليّة أن يُلفظ جيماً لهويّة (غ)، وإن تلاه e أو i يلفظ خاءً، ولذا يضيفون u عند اللزوم كما في: Miguel ميغيل. ومن الناحية الصّوتيّة اللفظيّة ثمّة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة مَن يلفظ اسم Aragon: «آراغون»، وليس آراغون. هذا عدا عن أنّ حرف G يلتبس لفظياً مع J الذي يُلفظ أيضاً خاءً مع كل حرف صوتي، كقولك: Jerez, Jiménez, Jaén, Juan, Jordi.

لكنّ التعبير في العربيّة عن حرف الجيم اللهوي بكتابته جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السّعوديّة) يمكن حسم بُطلانه بلحظة واحدة: احتكِموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقلة. ثم إنّ الجيم لا تصلح للتعبير عن جميع الكلمات الأجنبيّة، وحتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، بُرتُجال،

بَلجاريا، مِجنَطيس، إجريق.. أم هل نسمّى البُرغُل مثلاً: بُرجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركيّة bulgur).

4 - ثمّة أسماء في اللغة الفرنسيّة تنتهي بكسرة مُمالة ممدودة، على غرار اسم: Colet أو René أو Garnier أوGervais ، ونظراً لانعدام وجود الكسرة الممالة في العربيّة (كما هي في السّريانيّة والعبريّة مثلاً) فإنّ التباساً ينشأ في طريقة نقل الاسم إلى العربيّة. وفي المغرب العربي تشيع طريقة غير صحيحة البتّة باستخدام الياء وحدها كقولهم: لويز كولي (وهي أديبة ورحّالة فرنسيّة)، رغم أنّ اسمها هو: Louise Colet والياء هنا لا تؤدّي المنطوق الصّحيح أبداً. كذلك نلاحظ في أسماء الأرمن مثل: Vahé, Shahé أنهم يكتبونها بالعربيّة في لبنان وسوريا: واهي، شاهي.

فإذا عدنا إلى عهد عظماء كتّاب العربيّة في العصر العبّاسي، نجد أنّ هذه المعضلة التي واجهتهم في الأسماء الأعجميّة قد حلّوها على نحو أدقّ باستعمال ياء وهاء، كقولهم: سيبويه، خسرويه، خُمارويه، خالويه، نفطويه. وهذا يضارع أسلوب زمرة اللغات الكنعانيّة باستعمال الكسرة والهاء، كقولك: أرييه، موشيه. وهو قطعاً الحلّ الأمثل للمعضلة، وسنتّبعه فنكتب الأسماء الفرنسيّة: كوليه، رُنيه، غارنييه، جِرڤيه. والأسماء الإسپانيّة: خوسيه، پيكيه.

أمّا في الأسماء الإنكليزيّة، فرغم تشابه حرف a أو ثنائيّة ay مع الكسرة المُمالة، تبقى مَدّتها طويلة، ولذا نكتب Gray: غراي، Mabel: مايبل.

أمّا في الأسماء التي تنتهي بكسرة مُمالة قصيرة، فتكفي بالعربيّة كسرة وهاء، كما في الاسم الإسپاني Condé كوندِه، أو Enrique إنريكِه، والألماني Porsche پورشِه، أو Pritzke پريتسكِه، والهولندي Goeje خوْيِّه، والپولوني Tyskie تيسكِه، والإيطالي Simone سيمونِه، أو Michele ميكيلِه.

5 - نصرّ في هذه السّلسلة على كتابة الأسماء الأجنبيّة كما ترد في لغاتها، لا كما تمّت قولبتها بالإنكليزيّة والفرنسيّة. فالأصح بالألمانيّة: مدينة لايپتسيك وليس

لايبزغ، زولنغِن وليس سولنجن، كولن وليس كولونيا، ڤِلهِلم وليس وليَم، ريخارد وليس ريتشارد. ثم نكتب أميرِكا وليس أمْريكا، ڤارشاڤا وليس وارسو، پراغا (پراها) وليس براغ، بيجينغ وليس پكين. وفي البرتغاليّة الأصح لفظ: كريشتيانو، كوشتا، جوزيه، جُواو. ولكن ثمّة أسماءً رسخت بشكل مغلوط في الأذن العربيّة مثل: برشلونة (وصوابها بالقطلانيّة: بارثيلونا)، دون كيشوت (وصوابه بالقشتاليّة: دون كيخوتِه)، باريز أو باريس (وصوابه بالفرنسيّة: پاري)، لويس (لوي)، ملك القدس جاي أوف لوزجنان (غي دى لوزينيان)، وليَم الصُّوري (غِيّوم)، برج إيڤِل (وصوابه: آيفِل).

لكن أعجب ما أسمعه هنا في لبنان، أنّ أحفاد كنعان العاشقين للفرنسيّة يصرّون على لفظ الكنى الأرمنيّة المنتهية جميعها بلاحقة: ian بلفظ فرنسي فيه غُنّة، كما لو كانوا يلفظون اسم Evian أو Partisan، حتى لم يسلم من ذلك الاسم التّركي إردوغان Erdoğan الذي بات وكأنه فرنسي ابن فرنسيّ، علماً أنّ ثمّة شيئاً في التركيّة يسمّى: Yumuşak Ge أي الجيم الطريّة، تلفظ كمَدّة مكبوتة لا كغين، كقولك: Doğan دوآن، أو: Ağaç آآچ.

6 - حرف H يُكتب ولا يُنطق بجميع اللغات اللاتينيّة: الإيطاليّة والإسپانيّة والپرتغاليّة والفرنسيّة والرّومانش والرّومانيّة، ما خلا حالة في الپرتغاليّة بآخر الكلمة مع الألف والواو فيقرأ ياءً، مثل: Covilhã كوڤيليا، filha فيليا، ilha إيليا، Mourinho مورينيو. وعلى ذلك، فمن الخطأ لفظ الاسم الفرنسي Henri هنري بل أُنري، وهو بالإيطاليّة إنريكو، والإسپانيّة إنريكِه. وأيضاً ڤيكتور أوغو Victor Hugo وليس هيجو أو هيغو.

7 - وأغرب الأمثلة هي الأسماء العربيّة التي ترد على ألسنة المسلمين من غير العرب، فنستوردها بصيغ لفظيّة مختلفة دون انتباه لأصولها العربيّة، كالاسم التّركي ميرڤَت Mervet الذي ترنّمت به الأسماع دون إدراك أنّ أصله: مَروَة. أو اسم فتاة الشاشة التّركيّة Tuba الذي يُكتب لدينا بالعربيّة «توبا» على أنّه اسم تركي فريد، وما هو إلا اسم من القرآن الكريم: طوبَى.

وثمّة كنية عريقة في لبنان: جانْبَيْه، يطيب للنّاس أن يلفظوها بلكنة فرنسيّة: Jean-Béy بينما الاسم تركي قديم يعود إلى عصر المماليك، ولفظه بالتركيّة: Can-Bey (جان بيه)، ومعناه: رُوح أو نّفْس. وكذلك اسم قَبلان، وصوابه: Kaplan ومعناه بالتّركيّة: نمر.

والأعجب من هذا وذاك اسم سوريا، الذي هو صيغة هيلّينيّة (إغريقيّة) Συρία (سُوريّا) مقولبة لاسم «آشور» الدّولة العظيمة في بلاد الرّافدين، سمّيت بها بلاد الشام الواقعة على البحر الأبيض بما يشمل اليوم سوريا ولبنان، على اعتبارها كانت في وقت مضى تتبع لها. غير أنّ المضحك أن حرف الشين لا يوجد في الألفباء اليونانيّة، فأُقلب سيناً وما زلنا إلى اليوم نلفظه مغلوطاً بعد 27 قرناً من الزّمان. وكذلك فمن الخطأ كتابته: سورية، لأن الهاء بآخر الكلمة ترد بالتسميات العربيّة والكنعانيّة، لا اليونانيّة.

وللبحث صلة..

د. أحمد إيبش

THROUGH TURKISH ARABIA.

A JOURNEY FROM
THE MEDITERRANEAN TO BOMBAY
BY THE EUPHRATES AND TIGRIS VALLEYS
AND THE ARABIAN GULF.

BY

H. SWAINSON COWPER, F.S.A.

"This shadowy desert, unfrequented woods,
I better brook than flourishing peopled towns."

—*Two Gentlemen of Verona.*

LONDON:
W. H. ALLEN & CO., LIMITED.
13, WATERLOO PLACE, S.W.
1894.

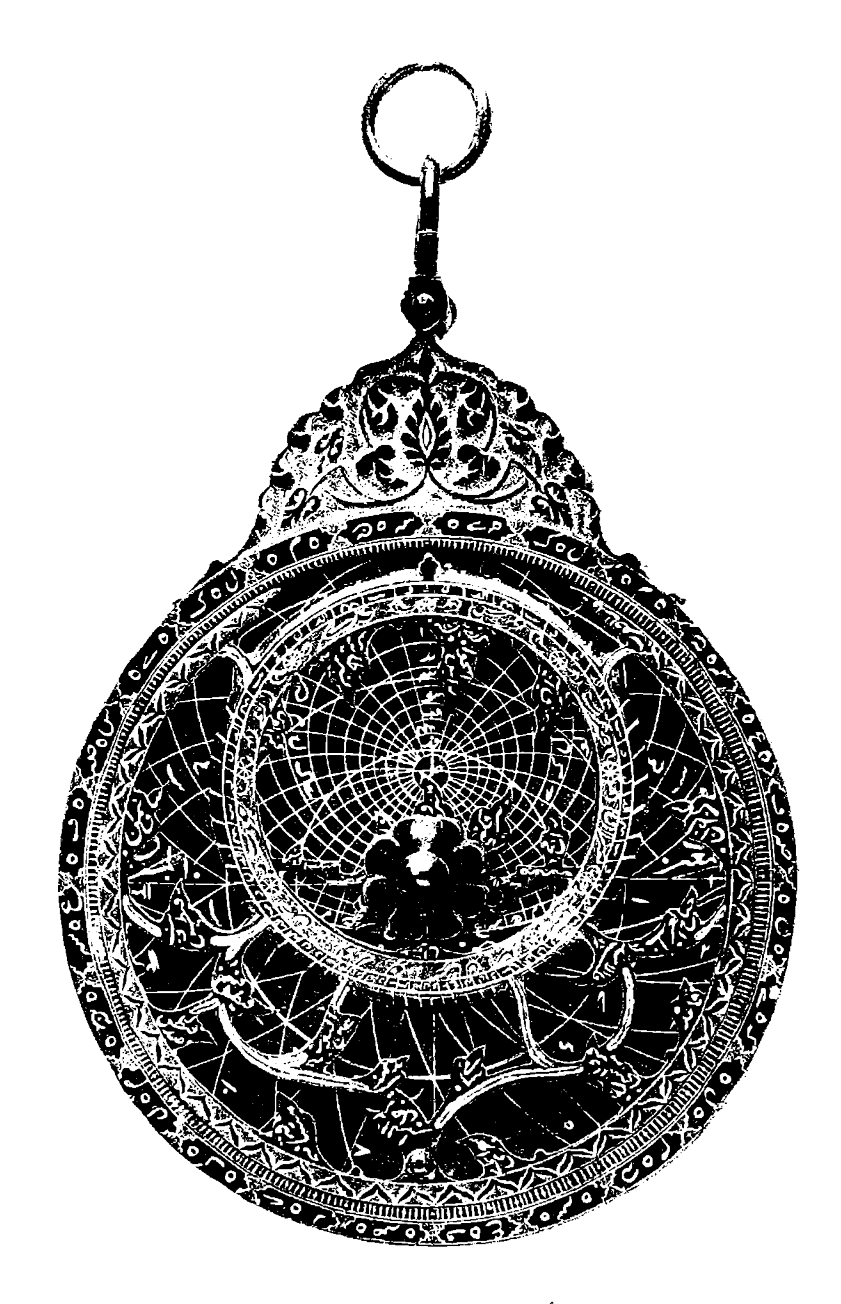
نموذج عنوان الطبعة الأصلية، لندن 1894



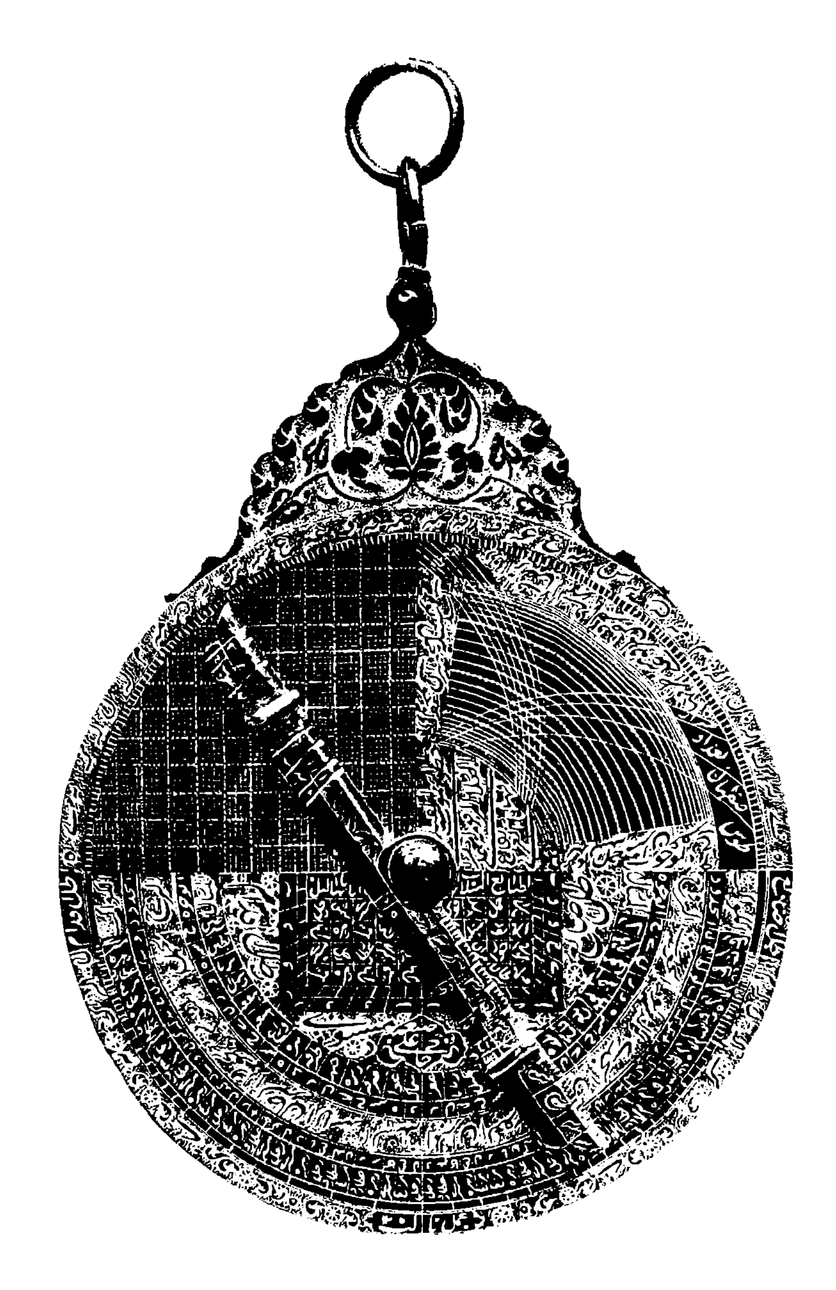
لوحة زيتيّة تمثّل المؤلف، هنري سوانسون كاوپر

للرسّامة: جون مانينغ ساندرز *Joan Manning-Sanders*

رُسمت عام 1928



وجه الأسطرلاب الذي اشتريته في بغداد



ظهر الأسطرلاب الذي اشتريته في بغداد

مقدمة المؤلف

هذا الكتابُ ما هو إلا شرحٌ مبسّط لرحلةٍ شخصية قام بها رحّالةٌ من البحر المتوسط إلى الخليج العربي عبر وادي دجلة والفُرات، هذين النّهرين العظيمين الواقعين في غرب آسيا. وهنا لا بد من لفت انتباه القارئ إلى أن هذا الكتاب ليس سرداً لرحلةٍ خياليّة أو اكتشافاً علمياً بغية إغناء كتب المؤلفين الرّحّالين، لذلك أردّ على النّاقدين بتواضع لكل من يقول إن الكتاب يفتقر إلى قوّة الملاحظة والأسلوب الجيّد.

حسب ما علمت، فقد تم وصف ما يدعى بطريق القوافل على نهر الفُرات من حلب إلى بغداد مرة واحدة فقط في كتاب جديد ممتع للرّحّالة الإنكليزية الليدي آن بلَنت وهو «عشائر بدو الفُرات»[1]. وهذا الوادي بحد ذاته قد نال حصّة كبيرة من مؤلفات علمية إحصائية هي ثمرة جهود «بعثة وادي الفُرات» عام 1836 م. لكن هذه المؤلفات التزمت الخط النّهري في سير البعثة ولم تمتدّ إلى الطّريق البرّي. وبشكل غير متوقع لم يكن لها أي أثر في كشف الوادي أمام الرّحّالين الإنكليز، ولهذا بقيت منطقة الفُرات وما يحيط به حتى وقتنا الحاضر، باستثناء ما ذكر قبل ذلك، «أرضاً مجهولة» دون أيّ وصف أدبي خاص بها.

إنّ الأسباب جليّة الوضوح، فالمسافر يجد كثيراً من المتعة في السّفر من البحر المتوسط إلى بغداد أو الخليج العربي مروراً بطريق أورفه - دياربكر أو ماردين والموصل، مع العلم أن هذه الطّرقات تفتقر إلى الشّمس المشرقة التي تتميّز بها طريق

---

(1) قمت بترجمة هذا الكتاب المهم، وأقوم بإعداده للنشر في السلسلة:
Lady Anne Blunt, *Bedouin Tribes of the Euphrates*.

الفُرات – عدا منتصف فصل الشّتاء – لكن يوازي هذه الصّفة السّلبية ما يروى من قصص كثيرة عن أخطار غزو القبائل البدويّة في الصّحراء العربية الشّمالية مما يجعل الرّحّالين الحذرين يتخلّون عن قصد هذه الطّريق. لكن هذه الأخطار يعتريها شيء من المبالغة، والكثير يجهلون هذه الحقيقة، كما أنه لا يمكن إنكار الصّعوبة المحتملة أثناء السّفر على طول النّهر الذي لا يصلح للملاحة في جزء كبير منه، وهو الممتد بين مَسْكَنَة والفَلّوجة. هناك اعتراض مهم آخر على سلوك طريق الفُرات هو قلّة المؤن هناك، إذ أن هذا الطّريق هو في الواقع طريق صحراويّ لكنه في الوقت نفسه يحتوي على مخزون وافر من المياه. وبذلك لا بدّ للمغامر، الذي يجرؤ على سلوك طريق «الغزو» مع وجود الغزاة من الأعراب والزّاد القليل لديه، من أن يسرع منطلقاً من دمشق عبر طريق البريد القديم أو طريق تدمر. وفي حال تعرّضه إلى عملية «غزو» من عرب عْنِزَة أو غيرهم وهو في طريقه فإنه لن يكترث كثيراً، بسبب قلة ممتلكاته، بل ستزيده هذه المغامرة شهرة في عالم الرّحّالين الشّرقيين وستروى كالقصص الرّومانسيّة.

للأسباب آنفة الذكر، غامرتُ بتدوين هذا الجزء من يومياتي الذي يتعلق بهذا الجزء من رحلتي، مع ما يوجد فيه من بعض التفاصيل المملة أحياناً. لكن لا بدّ أن نتذكر أن الواديَ ينتظر مستقبلاً واعداً، إن لم يكن بسبب كونه طريقاً لسكة الحديد الهندّية – الأوروبيّة، فإنه مع ذلك يمثل طريقاً تعبره البواخر باستمرار.

إنني على يقين بأنه مع التقدّم العلمي الذي نعيشه اليوم فإنّ هذا الكتابَ لن يحظى باهتمام كبير، ولكنني متأكد أن مواضيعه ستهّم الكثيرين، وإنني على ثقة بأنه سيكون مرجعاً عن الطّريق بين حلب وبغداد وبين بابل وكربلاء. بالإضافة إلى المعلومات الجغرافيّة العلميّة، التي لها أهميّة كبيرة عند المسافرين على طريق القوافل الشّرقيّة القديمة، فإنّ هذه اليوميات الدّقيقة هي أيضاً ذات قيمة عظيمة لهم.

كان مرافقي في الطّرق المذكورة (هـ. ج. كونينغهام H. J. Coningham من سريّة لينستر Leinster Regiment) وهو الآن لسوء الحظ في الهند بعد رحلة دامت ثمانية عشر شهراً في بلاد فارس ووسط آسيا، لهذا فأنا لا أستطيع أن أطلعه على هذه

الصّفحات قبل النّشر، كما كنت أتمنى، عن الرّحلات المثيرة التي قمنا بها سويّاً.

إن الرّحلة من بغداد إلى بومباي تمرُّ بالطبع بمناطق متحضّرة وهي معروفة إلى حدّ بعيد مع ذلك فأنا أتمنى أن يجد القارئ فيها شيئاً من المتعة.

أمّا بالنّسبة إلى تهجئة أسماء الأماكن، فقد حاولت قدر المستطاع التنسيق مع ما ذكرته الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة، فمثلاً (بغداد Bagdad) لم أجد حرفي (gh) اللذين يستخدمان بشكل عام للفظ العربي (غ) لأنه عندما يلفظ هذا الاسم فلا يشوبه شيء من الخشونة كلفظة كلمة غزو (ghazu) حيث يكون الحرفان (gh) أقوى لنطق الحرف.

وأما بالنّسبة لعنوان الكتاب، فأنا أتفق مع السّيد ولفريد بلنت وآخرين بأن الخط الوهمي الممتد من خليج العقبة إلى مدخل شط العرب لا يمثّل الحدود الحقيقيّة لشمال جزيرة العرب. بل على العكس، فإنّ كل الصّحارى الممتدة من شرق وغرب الفُرات والتي يسكنها البدو العرب هي عربيّة كحضرموت أو اليمن. صحيح أن الأتراك قد سيطروا على مدن بغداد والبصرة والفُرات، إلا أن ضواحي هذه المدينة هي عربيّة في الصّميم وإن الرّحلة من أبواب حلب حيث يتدفّق تيار المياه القاتم إلى البحر عند الخليج العربي، هي خطوة تخطو بها داخل بلاد عربيّة خاضعة للأتراك.

لقد تردّت حالتي الصّحيّة وتضاءلت حماستي، الأمر الذي دعاني إلى التخّلي عن الكثير من المشاريع التي لو قُيّض لي إنجازها لكانت أغنت هذه الرّحلة، كالسّفر إلى مشهد علي ونهر كارون الذي افتتح مؤخراً، ولكن من يعلم، ربما يكون قدري أن أجتازها يوماً ما في المستقبل.

هوكشيد Hawkshead

أكتوبر1893 **هـ. س. كاوبر**

مسرد فصول الكتاب

الفصل الأول

من لندن إلى الإسكندرون

خططي - الاستعدادات - سرير لُقانج - الكوليرا والإنفلونزا - الانطلاق نحو الشّرق - في البحر المتوسّط - القاهرة - مقام الخديوي - مولد السّيّدة زينب - المغادرة إلى سوريا - يافا - بيروت - الاقتراب من الإسكندرون.

الفصل الثاني

من الإسكندرون إلى حلب

الإسكندرون - فندق سوريّ - مناخ رديء - عربتي والأربعة - بيلان - جليل - خان قرا - سهل أنطاكية - سيّدات سوريّات - العمق - الحمّام - خان عفرين - القنصل اليوناني وأصدقائي في غرفة النّوم - بداية باردة - الوصول إلى حلب.

الفصل الثالث

في حلب

فندق العزيزيّة - هزة أرضيّة في السّرير - جليل - المطبخ التُّركي وشرب العرق - القنصليّة البريطانيّة - الطّرق إلى بغداد - الخدم في حلب - قصّة تلميذ - القرار بسلوك طريق الفُرات -- التّختروان - تأخير وثوران - تحضيرات وإعاقات - صعوبات

أخرى – اشتريت مركبة المطران – التّذاكر وجوازات السّفر.

الفصل الرّابع

شيء عن حلب

التاريخ – المركز الإنكليزي – الوصف – الأبعاد – الأسوار والبوّابات – قلب المدينة – البيوت والطرقات – الأسواق – المساجد – القلعة – زيارتي لها – خان الوزير – الفخامة – الضواحي – المقابر – الآبار – الشّيخ بكر – التمازج السّكّاني في حلب – التهذيب في حلب – قلّة التعصّب – الزّيّ – الطّقس – حبّة حلب – حياة الشّارع.

الفصل الخامس

على الطّريق

الاستعداد للرّحيل – البقشيش – جبرين – القرية المكتظّة – العنف مع حيوانات القوافل – السّباخ – بحيرة مالحة – الوصول إلى دير حفر – الخان – حديث الدَّرَكي – البراغيث – التَّختروان – نظام السّير – خدمي – السّحليّة المزعجة – لصوص الأغنام – المشهد الأول للفرات – مخيّم عْنِزَة – مسكَنَة – بالِس – الشّيخ غنى – أبو هريرة وقلعة جَعبَر – اللقاء مع عم أصدقائي – الدَّرَكي التُّركيّ – زبدة اللّبن والتمور.

الفصل السّادس

مواصلة الرّحلة

رحيل عرب عْنِزَة – الهودج – الزّي والسّلاح – مشاهدة الرّقّة – العرب فوق القِرَب المنفوخة – مدير أفندي – درويش المتألم – زوّار غير مرغوب بهم – الاستحمام في

مياه النّهر والعواقب السّيّئة - نصب الخيام في مناطق الغزاة - الوصول إلى الدّير - الخان - وصف المدينة - فقرها - زراعتها - «الكرد» - السّكان العرب - أهميّتها السّياسيّة - ظهور رجل «إنكليزي» - رواياته عن نفسه وذكر مزاياه - جمع الوقود الخشبيّة - ظهور ألتون مجدداً - الصّحراء المرعبة - زوّار - وصول الپاشا - الحاج محمّد «ذو البطن المنتفخة» - سائقو البغال الأشدّاء.

الفصل السّابع
من الدّير إلى عانة

مغادرة الدّير - السّراب - قلعة الرَّحبة - «رحوبوت على النّهر» - الميادين - قطط أخرى - المرور بالصّالحيّة - عاصفة رمليّة - أصوات البغال - طقس بارد - الدّراويش المتجوّلون - المرافق البدوي - البوكمال - الخنفساء الذكيّة - الآثار الضخمة - الغيم - غزو بدو عْنِزَة - سُئلت إذا كنت أرغب بقطع عنقي - خطر على الطّريق - الوقوع فريسة المرض - أدوية الصّحراء - الخنزير البرّي - اجتياز رحوة - الوصول إلى عانة.

الفصل الثامن
من عانة إلى بغداد

عانة، المدينة ذات الطّابع العربي - المرض - وادي فهمين - نزاع - حديثة - وادي البغدادي - عاصفة رعديّة - الوصول إلى هيت - المدينة الكريهة - ينابيع القار - رمضان - رجالي يقبضون على لصّين - قلعة الرَّمادي - الاتصال بالحضارة - المرور بين المستنقعات - بغل يرهقه التعب - حادثة التَّخت - قارب الفُرات - قوارب الكوفة - الفَلّوجة - رحلة في الليل - أضعنا الطّريق - القنوات البابلية - عقرقوف - منظر بغداد - مستنقعات أخرى ومصاعب - الوصول إلى بغداد.

الفصل التاسع

بغداد

موقع المدينة - مزايا الموقع - أسوارها وأبوابها المتهدّمة حاليّاً - المواقع القديمة في الثكنات - الشّوارع - البيوت - هندسة الدّار البريطاني - السّراديب - المقاهي - الأسواق - التسّوق في بغداد - المال - المساجد - ضريح السّيّدة زبيدة.

الفصل العاشر

المزيد عن بغداد

محلّة الكاظمين - تراmواي بغداد - جامع الإمام موسى الكاظم - مناراته وقبابه المذهّبة - سكان بغداد - الوباء - العرب - اليهود - وصف بنيامين التَّطيلي لليهود - الأرمن - الكنائس المسيحيّة - المناخ - الصّادرات - الوضع الرّاهن - رمضان - فندق بغدادي - حبّة العمر - يوسف أنتيكا - التجهيزات للرّحلة إلى بابل وكربلاء.

الفصل الحادي عشر

استعراض تاريخي عن بغداد

نشأة المدينة - الخلفاء الأوائل فيها - البويهيّون - انحطاط الخلافة - أوّل ظهور للأتراك - انتقال بغداد إلى الضفّة الشّرقيّة من دجلة - جنكيز خان - المستنصر - هولاگو - نهاية العبّاسيين - اضطهاد المسيحيّين - تيمورلنك - الشّاه إسماعيل - استيلاء السّلاطين العثمانيين على المدينة.

الفصل الثاني عشر
من بغداد إلى بابل والحلَّة

مغادرة بغداد – خان الزّاد – خان المحموديّة – قافلة الحجيج – الكاجَويه – خان بير يونس – الوصول إلى خان حصوة – الطّراز العمراني للخانات العجميّة – النّوم في أحد المقاهي والقلق من البراغيث – مغادرة خان حصوة – مشاهدة آثار بابل – مقابلة اثنين من الأميركيّين – الوصول إلى الآثار – بابل – المقيلبة والقصر – عمران بن علي – الذهاب إلى الحلَّة – إصابة امرأة مسنّة.

الفصل الثالث عشر
الحلَّة وبِرس نمرود

الوصول إلى الحلَّة – سيّد حسن – الحلَّة – الانطلاق إلى بِرس نمرود – منظر فريد – اللقاء برحّالين روسيَّين – البِرس – وصف الأثر – نظرة من فوق – كلام بنيامين التَّطيلي عن البِرس – نظريّات عن أصله – بورسيپا – النّبي إبراهيم والاعتقادات العربيّة – اختفاء مظلتي – قوة الاسم البريطاني – العودة إلى الحلَّة – زوار – حصان يوسف يسبب بعض الحرج – الطّريق إلى المُسيِّب – أولاد مسلم – الوصول إلى المُسيِّب.

الفصل الرّابع عشر
طريق الحج

المُسيِّب – طريق الحج – عاصفة ليليّة – مشهد الحسين – حصى كربلاء – التعصّب – استشهاد الحسين – قوافل الجثامين – كربلاء – في زيارة لنوّاب – الموت بسبب البعوض – حادثة غريبة – افتراقنا عن مضيفنا – مغادرة كربلاء – العودة إلى المُسيِّب – ركوب مرهق – خان الإسكندريّة – الوصول إلى بغداد – إشاعات عن

ثورات عربيّة على دجلة - حلّاق بغدادي - أحدب البصرة - السّفر في دجلة على متن سفينة بخاريّة.

الفصل الخامس عشر

من بغداد إلى البصرة

حركة البواخر في نهر دجلة - باخرة نهريّة - البحّارة الكلدان - الدّليل - مغادرة بغداد - طيسفون - القبائل العربيّة - حركة النّقل القليلة - ضحايا الطّوفان من العرب - العَمارة - الصّابئة - مناظر من فوق المركب - ثورة الشّيخ سعود بن منشد - ضريح عِزرا - الذعر - القرنة - شط العرب - ميناء البصرة - زيارة المدينة - فرار السّجناء - نقاط تاريخيّة - الوضع الصّحّي في البصرة.

الفصل السّادس عشر

الخليج العربي

المحمّرة - الصّناعات المحليّة - صيد الأسماك - أهل شُستار - التاريخ - الفاو - عبور العقبة - الخليج العربي - القرصنة - المناخ - الرّياح - الصّحّة - بوشِهر - سوق وايتلي الفارسي - وصف المدينة - قلّي (لعبة) - الوصول إلى البحرين - المياه العذبة في عمق البحار - صيد اللؤلؤ.

الفصل السّابع عشر

الخليج العربي

الجبال المحيطة بميناء لنْجَة - ميناء لنْجَة - مخزون المياه - مضائق هرمز - موقع

بندر عبّاس - المدينة - حرارة عالية - جزيرة هرمز - تاريخها - روايات قديمة - مشهد رائع - السّمكة الطّائرة وثعابين البحر - السّلاحف والأسماك السّوداء - بومباي - المغادرة إلى إنكلترا - طقس عاصف في البحر الأحمر.

الملاحق

1 - الخانات على طريق الزّيارة إلى كربلاء - الحلَّة - بغداد في خلال ساعات.

2 - أبو نواس، نديم هارون الرّشيد.

3 - شراء أسطرلاب من بغداد.

4 - مقاييس وأوزان مشوّشة.

5 - رحلة بالبي من بغداد إلى البصرة.

6 - تقرير هاميلتون عن البصرة.

7 - قصّة مؤثرة من الخليج العربي.

فهرس الصّور

- الأسطرلاب.
- القاهرة.
- عازفون متجوّلون على طريق حلب.
- نخيل وأهرامات.
- الشّيخ بكر.
- أباعر لعشيرة عُنِزَة عند مَشْكَنَة.
- بيلان.

- عرب عْنِزَة في ترحالهم.

- الهودج.

- مخيّمي الخاص.

- خان الدّير.

- خيّال من عشيرة عْنِزَة.

- غزوة عربيّة.

- التَّختروان الخاص بي.

- ناعورة في عانة.

- مسجد زكريّا في حلب.

- مدخل قلعة حلب.

- امرأة بغدادية.

- بغداد وجسر القوارب من الضفّة الغربية.

- خان الزّاد.

- على مياه بابل.

- حُجّاج في المُسيِّب.

- مضيفي وولده.

- شارع في بغداد.

-زورق بَلَم من زوارق البصرة.

- أحد أبراج الصّمت في بومباي.

الخرائط

- طريق المؤلف من الإسكندرون إلى الخليج العربي.
- الخليج العربي.

الفصل الأول

من لندن إلى الإسكندرون

خططي - الاستعدادات - سرير لُقانج - الكوليرا والإنفلونزا - الانطلاق نحو الشّرق - في البحر المتوسّط - القاهرة - مقام الخديوي - مولد السّيّدة زينب - المغادرة إلى سوريا - يافا - بيروت - الاقتراب من الإسكندرون.

عند عودتي إلى أرض الوطن، وبعد قضاء شتاء جميل على النّيل في القاهرة بين عامي 1889-1890 م قرّرت أن أقوم بزيارة لمدينة بغدادَ العظيمة، الرّومانسيّة، النّاطقة بالعربيّة، وموطن الكتّاب الأوائل، وخصوصاً بعد أن تلاشت من رأسي تلك الأفكار والأوهام التي سكنت مخيّلتي، وأحسستُ بأنني سأحظى بكثير من المتعة عند زيارتي لمدينة كانت تلعب في السّابق دوراً مهماً في بلاد المشرق.

عندما حاولت قراءة كتابات الرّحّالين الجدد، وجدت أنني كنت على خطأ وقد استنتجت أن أهميّة بغداد تكمن في ماضيها فقط وصلتها الرّومانسية بقصص «ألف ليلة وليلة»، كما اكتشفت أن الوصول إليها ليس بالأمر السّهل إلا إذا كانت الرّحلة بأكملها عن طريق البحر والتي ستستغرق نحو خمسة أسابيع. أما الطّريق الذي من شأنه أن يكسبنا المزيد من المعرفة، لكنه أصعب من سابقه دون شك، فهو الطّريق البري بعد نزولنا في أحد الموانئ السّوريّة والسّير برّاً إلى بغداد، وهي تجربة لم أعهدها من قبل، وحسب ما علمت وقرأت أنه طريقٌ لا يخلو من المخاطر وخصوصاً لشخص قليل التجارب مثلي.

لكنني مع ذلك اتخذتُ قراراً وعزمت على الالتزام به. وبالطّبع لن أذهب عن طريق البحر إلى البصرة لأن السّفر بحراً يعتريه مخاطر كثيرة منها: اختلال إفراز الصّفراء والبدانة والجهل. لذلك قرّرت السّفر براً، ومن بين الطّرق كلها، كان أمامي خياران اثنان: إما طريق بيروت - دمشق أو الإسكندرون - حلب.

لم يسترعِ الطّريق الأول انتباهي بالرغم من أنني سأنعم بمشاهدة آثار تدمر على الطّريق، لكنني سأضطر إلى قطع الطّريق الصّحراوي من دمشق إلى نهر الفُرات على ظهر الجمل لأيام طويلة وهي بالطّبع رحلة مرهقة، لذلك قرّرت سلوك الطّريق الثاني إلى حلب وأترك للقدر ما يخبّئه لي من أحداث، حينها سأقرّر ما إذا كنت سأسلك طريق الفُرات مباشرة أو أشق طريقي إلى الموصل ودجلة.

لم تكن حمولتي كبيرة، فقد ابتعتُ خيمة صغيرة بطول 8 وعرض 6 أقدام من السّادة پيغوت Piggott وهي مربّعة الشّكل، لها قائمتان منتصبتان وواحدة أفقيّة وعند طيّها يبلغ وزنها 65 پاونداً ولا تأخذ حيّزاً كبيراً، حيث إنّ قوائمها تتداخل بعضها ببعض. اشتريت كذلك شيئاً غريباً يدعونه بسرير لُڤانج levinge، وهو عبارة عن كيس من الكتّان يُربط عند نهايته المفتوحة بستارة طويلة لتحميك من البعوض. إنه اختراع عبقري حقاً يمكن استخدامه ليصبح غرفة نوم صغيرة بواسطة عيدان الخيزران المحنيّة، ويمكنك الدّخول إليها عن طريق رقبة من الكتّان يتم غلق فوهتها بأشرطة، وبذلك تكون محميّاً من جميع أنواع الحشرات الطّائرة والزّاحفة والرّقود بسلام. وإنني أدين لمخترعها بالنّوم المريح، إذ أنها بالفعل اختراع عظيم يُستخدم في الخانات والنُّزُل في الشّرق. ويجب الاعتراف أنه عند المبيت في خان قرية بدائيّة وربّما متعصّبة دون وجود قفل على الباب، فإنك تكون بأمسّ الحاجة إلى شيء يعطيك شعوراً بالأمان وكأنك مربوط بإحكام في حقيبة بحيث يكون التحرّر منها أمراً مستحيلاً. وأحياناً أصاب بالهلع لمجرّد التفكير في حالة طارئة تمنعني من الخروج بسرعة من سرير لُڤانج levinge. أما في الأيام الهادئة فلا بد من امتلاك البراعة والفكر الثاقب للخروج منه بأمان دون تمزيقه.

كانت أمتعتي عبارة عن مجموعة من البطّانيات وملاءة مانعة لنفوذ الماء وحقيبتين

جلديّتين كبيرتين تحويان أشيائي الشّخصيّة وحقيبة من نوع غلادستون Gladstone. عندما انتهيت من إعداد جميع حاجيّاتي، ذهبت إلى الرّيّف لقضاء عطلة عيد الميلاد على أمل مغادرة إنكلترا في الرّابع عشر من يناير على متن الباخرة الشّرقية «أوريزابا» *Orizaba*. لكن الكوليرا المنتشرة في دمشق وحلب آنذاك كانت سبباً محتملاً لتغيير مخططاتي. وعندما أخذ المرض بالتراجع استأنفت رحلتي ثانية حيث أصبت أثناء حفلة عيد الميلاد بإنفلونزا قويّة أنهكت قواي، لذلك اضطررت إلى تغيير موعد السّفر واستبدلت السّفينة التي كنت قد اخترتها بواحدة أخرى هي سفينة «الشرق» ***Orient*** التي تبحر في التّاسع والعشرين من الشّهر ذاته. قرّرت المرور بالقاهرة أولاً وبذلك يتسنّى لي التحقـّق من خطوط سير السّفن التي تعمل على طول السّاحل السّوري.

كما هو مقرّر، وفي التّاسع والعشرين من شهر يناير صعدت متن سفينة «الشرق» *Orient*. كانت الإنفلونزا منتشرة كأشد ما يكون وكان كل فرد في قمرته ينظر إلى رفيقه بتوتر ليرى إن كان يعاني من أعراض هذا المرض العنيف. كان رفاق غرفتي محامياً شاباً أيرلندياً، وبحّاراً طاعناً في السّنّ كان في حالة انهيار بسبب معاقرة الخمرة وفراقه لعائلته وإصابته بالإنفلونزا. لقد أمضى فترة ما بعد الظهيرة إمّا راقداً فوق الأريكة أو شارباً لعدّة كؤوس من الخمرة أو معتذراً مني، ثم بين الفينة والأخرى يجهش بالبكاء الشّديد. كان يغلق الباب ويتناول وجباته في القمرة لشعوره بالإحباط، لذلك غدا رفيقاً مزعجاً في السّفر، ولحسن الحظ فقد انتقل في اليوم التالي إلى قمرة أخرى.

إن بواخر الشّرق، كما يعرفها الجميعُ، من أفضل السّفن التي تسير بين إنكلترا وأستراليا. ورغم أنه خط جديد نسبيّاً، فإنه أقل من مستوى سفن P&O من حيث أمكنة الإقامة والمعدات. لقد تمت صناعة السّفينة *Orient* طبقاً لمتطلبات إمارة البحار لصناعة السّفن حيث يمكن تحويلها إلى سفينة حربيّة وهي في الواقع بين أقدم ثماني سفن تبلغ حمولتها 5000 طن وتبلغ قوّتها 6000 حصان وحمولتها 5400 طن. لها أربعة ساريات ومدختنان وطولها 27 قدماً. فيها صالونات وغرف للموسيقى وأقسام لإقامـة السّيّدات. ورغم أنها ليست بنفس فخامة السّفن الأخرى لكنّها مريحة جداً.

أما السّطح فهو مكان جميل يصلح للنزهة وتجري عليه مباريات عديدة في الكريكِت.

كنّا في بداية شهر فبراير وكانت السّماء مزدانة بالضباب الخفيف على الرّغم من اعتدال الطّقس، وقد استطعنا الجلوس على ظهر السّفينة وهي تمخر عباب البحر مجتازة خليج بيسكاي. بقينا حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً دون الشّعور بالبرد. كان اللسان البرّي الممتد داخل البحر في منطقة سانت ڤنسِنت وساكر سبباً في هذه الحشود التي وقفت على ظهر السّفينة لأخذ الصّور السّاحرة. بإمكانك من هنا رؤية كهوفٍ ومحطةَ إرسال بيضاء مشيّدة على قمة الجبل. سارت السّفينة *Orient* مسافة نصف ميل ثم ما لبثت أن خففت سرعتها لرؤية قارب الصّيد ذي الشّراع المثلث الذي رسمت على أقواسه عين كبيرة، وقد وقف الصّيادون البرتغاليّون أمامنا ليعرضوا لنا سمكة الأنقليس الضخمة التي اصطادوها. كان بالفعل يوماً رائعاً بنسيمه العليل في منطقة جبل طارق، لهذا نزلت لأزور السّاحل والمدينة الإسپانيّة، التي لا بد من غض النّظر عن قذارتها مقارنة بمناظرها الخلابة. وأثناء العودة فاجأتنا عاصفة بحريّة من الخلف أدّت إلى دفع السّفينة إلى الأمام لحسن الحظ.

في السّابع من شهر فبراير، استيقظنا من النّوم لنجد أنفسنا في خليج ناپولي وكان الضباب يلفّ المكان لكون الطّقس دافئاً، كما كانت الغيوم الكثيفة تغطي بركان ڤيزوڤ. وفي السّابعة والنّصف تم إرساء السّفينة وسرعان ما زكمت أنوفنا رائحة نتنة توقظ الموتى.

عند وصولنا إلى ناپولي فقدنا الكثير من أصدقائنا الذين جمعتنا بهم صداقة على متن السّفينة. وأظن بأن الصّداقة التي تنشأ في البحر تكون أكثر قوة من تلك التي على اليابسة، فقد قضيت مع مجموعة من ثلاثة أشخاص يوماً كاملاً نزور مدينة رومانيّة قديمة ونبدي إعجابنا بعجائب بومباي والمتحف والأوپرا.

كانت السّماء صافية والشّمس ساطعة في جزيرة سترومبولي وفي مضيق مسّينا حيث كان السّاحل الإيطالي يستمتع بالدفء والحرارة. أما السّاحل الصّقلي فقد كان

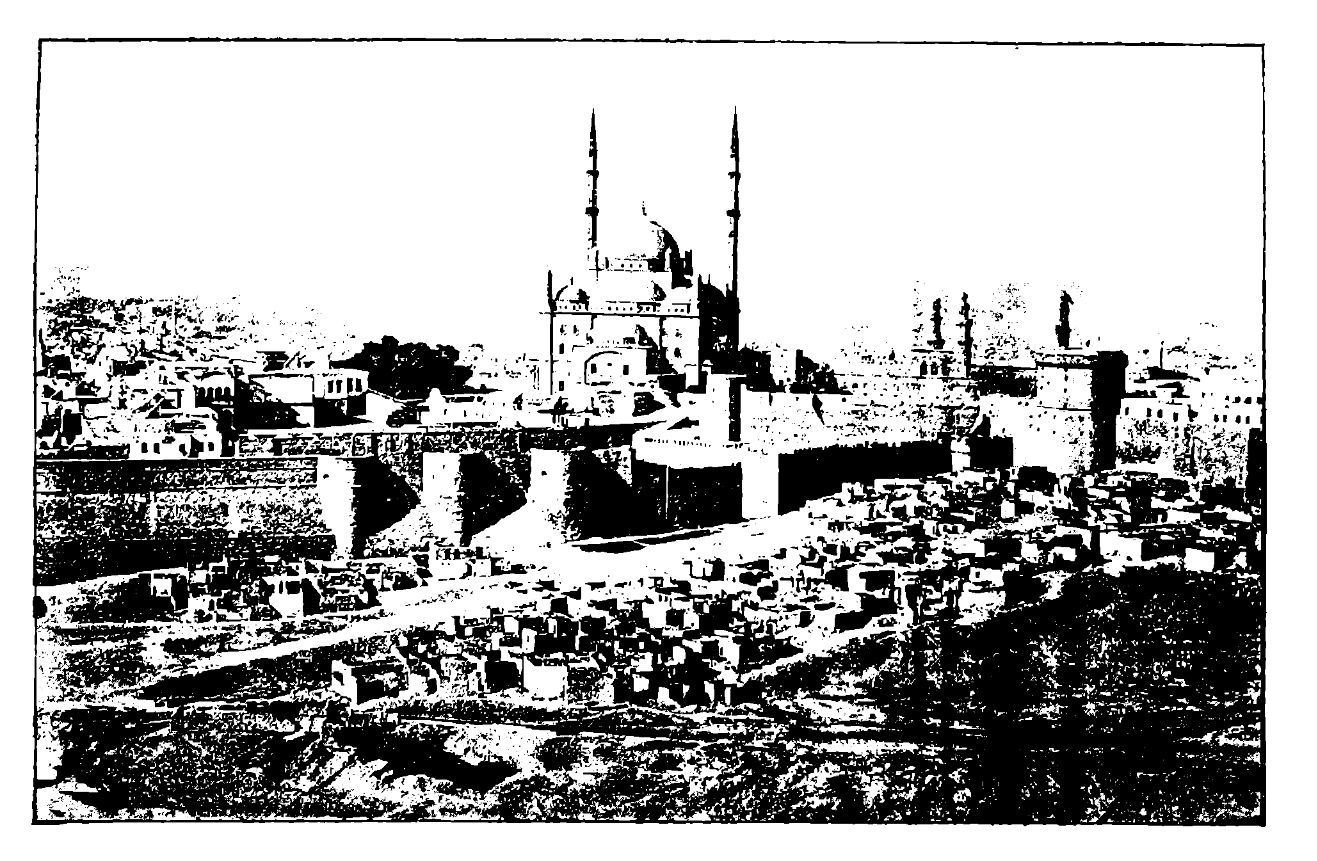
يلتفّ بالضباب والكآبة. استطعنا إلقاء نظرة سريعة على غروب الشّمس فوق بركان «إتنا» Etna لكون معظم الجبل محاطاً بالغيوم السّوداء الكثيفة. في الحادي عشر من فبراير وصلنا إلى ميناء پور سعيد، وفي الثالثة من صباح اليوم التالي وصلنا فندق الإسماعيليّة حيث وجدت هناك طباخي القديم يعمل نادلاً. وفي مساء يوم الثاني عشر من فبراير كنت أقف في فندق النّيل بالقاهرة.

منذ اللحظة التي وصلت بها، بدأت أستفسر من وكالات السّفر عن وضع الكوليرا في سوريا والموانئ التي جرى الحجر عليها، لكن يبدو أن لا أحد يعرف عن هذا الموضوع، وقد أخبروني أن سفن الخديوي وسفن لويد النّمساويّة لا تصل إلى ميناء الإسكندرون، أما في شركة Messageries فقد سمعت من شركة كوك وأبنائه Cook & sons أن السّفن تصل إلى هناك بالفعل، وبالمقابل أبلغتني شركة Gaze أنّ ذلك غير صحيح. وبكثير من اليأس اتصلت بصديقي السّيد موس R. J. Moss من الإسكندرية إذ إنّني على يقينٍ بأن معلوماته عن هذه المواضيع تفوق كرمه وضيافته، وسرعان ما أكد لي بأن سفن Messageries ترسو فعلاً في ميناء الإسكندرون. وعلى ضوء هذا الخبر حجزت مكاناً على ظهر الباخرة «سِنِغال» *Senegal* وغادرت الإسكندريّة في الحادي والعشرين من فبراير. لم أكن قد تأكدت من أي شيء بخصوص الكوليرا، وقد اعترفت الوكالاتُ السّياحيّة والموظفون والجميع بجهلهم التام حول الموضوع. ولكن من الطّبيعي أن الوباء ما زال يلفظ أنفاسه الأخيرة في ذلك المكان ولكوني لم أحصل على إجابة شافية فقد قرّرت إبعاد هذا الموضوع عن تفكيري وتقبل الأوضاع على وضعها الحالي.

عند وجودي في القاهرة، كنت محظوظاً بحضوري واحدة من المراسيم الدّينيّة المهمة هناك، فقد توفي خديوي مصر محمد توفيق پاشا في السّابع من يناير، وتبعاً لعادات البلد ينبغي توزيع وجبة طعام من الخبز و اللحم على الفقراء على مدى أربعين يوماً. سمعتُ أن هذه المراسيم تستمر أكثر من ذلك ليوم أو يومين، لهذا وفي الرّابع عشر من يناير سرتُ نحو أضرحة الخلفاء حيث قاموا بدفن الخديوي، وكان برفقتي

فتىً صغيرٌ تعلق بي فأبقيته معي كدليل. وبعد اجتياز تلال شرق المدينة بصعوبة باتجاه أضرحة الخلفاء، بلغنا موقعاً خلف المسجد الجميل لضريح قايتباي. وعندما وصلنا تجمّعت حولنا حشود من الفقراء يستعطون القليل من المال. ثم مرّت أمامنا عدة عربات تحمل أوروبيّين من البلاد الثريّة في طريقهم لزيارة الضريح. وعند وصولي، وجدت بناءً غاية في الزّخرفة يحيط به جنود أحنوا رؤوسهم عند دخولي، حيث وجدت نفسي في ممرّ مغطى بالستائر، وعلى الجهة اليمنى جلس عدد من الأشخاص معظمهم من الإنكليز وعلى الجانب الأيسر باب يؤدي إلى الضريح. قدّم لي أحد الموظفين كرسياً وفنجاناً من القهوة التُّركيّة وسجائر. وبعد فترة قصيرة، طُلب مني تسجيل اسمي في سجلّ الزّيارات، ثم ألبسوني خفين فوق حذائي وأرشدوني إلى الضريح الذي يتكون من غرفتين يوجد في منتصف الأولى الهيكل الضخم وقد غطّته الزّهور بالكامل وبقربه جلس عدد من الأشخاص يرتّلون القرآن بصوت حزين. وإلى يسار هذه الغرفة كان هناك الضّريح الملَكيّ وقد رُسمت عليه زخارف على الطّراز التُّركي وعُلّقت الثريّات الزّجاجيّة فوقه، وكان هناك أيضاً رجالٌ يرتّلون وقد سمحوا لي بالمرور ومشاهدة الضريح.

بعد خروجي وتجوّلي حول ذلك البناء وصلتُ إلى باب بهو واسع ويتم هناك توزيع الطّعام تحت رقابة عدد كبير من الجنود وعدد من الأفنديّة. لقد لفت انتباهي منظر غريب، فقد كان هناك أعداد كبيرة من البشر في انتظار توزيع الطّعام، وقد جلس الرّجال على الجانب الأيسر والنّساء على الجانب الأيمن وأعداد كبيرة من الأطفال، وقدّرت أعداد هؤلاء العرب بحوالي ألف شخص. كان جليّاً من خلال ملابسهم الرّثّة أنهم من الطّبقة المعدمة. في البداية قدّموا لهم الخبز والخضراوات في أطباق معدنيّة كبيرة، طبق لكل مجموعة، وسرعان ما اختفت محتويات الأطباق. وفي حالات كثيرة يتم تقديم وجبة إضافيّة. بعد ذلك تقدّم وجبات من لحم الضأن والبقر بالطريقة ذاتها. يتم تقديم اللحم بقطع كبيرة، واحدة لكل شخص. يترك هذا المشهد أثراً في النّفس، فما إن تقدّم الأطباق حتى تتخطفها الأيادي الصّغيرة السّمراء. مع ذلك جرى كل شيء



القاهرة

بنظام تام، ولم يكن هناك سطو أو أخذ حصة من حصص الجار أو حدوث شجار من أي نوع، مع أنه في حالات كهذه تحدث عادة جلبة كبيرة وضوضاء. وقد شهد عدد كبير من الإنكليز هذا المشهد كونه يجري في اليومين الأخيرين من الأيام الأربعين.

أكملتُ يومي بالصعود إلى قمة جبل المقطّم يرافقني خادمي الصّغير الذي ألحّ بأن يأخذني في اليوم التالي على حماره الذي يسمّيه «الغابة المتحجّرة» ولكنني قاومتُ بشدة.

كان المشهد الآخر الذي رأيته خلال إقامتي هو الاحتفال بما يسمونه (مولد السّيدة زينب) ابنة علي وفاطمة وحفيدة النّبي محمد. يقع الجامع في الحي الجنوبي الغربي من المدينة قرب الخليج وفي نهاية درب الجماميز. ذهبت إلى هناك بعد الغداء في اليوم ذاته لزيارة قبر الخديوي. وعند اقترابنا من الحي، كانت الشّوارع فارغة غارقة في الظلام، وقد بدا في جانب منها بعض الحيويّة، فقد كانت الحانات تعرض الحلوى الخاصة بهذه المناسبة مشرِّعة أبوابَها لتبيع حلوياتها المشكّلة على هيئة دمى بشريّة. اقتربنا من أحد الأبواب لاستراق النّظر فلم نحظَ إلا بوهج من النّور السّاطع. كانت شعائر الذِكر تجري في الدّاخل. كانت الشّوارع وما يحيط بها ساطعة تُعلّق في أعلاها الرّايات والأشرطة والكرات الزّجاجيّة الملونة وعدد من الثّريات. وفي الخارج كان المشهد أكثر بهجة وروعة، فقد نُصبت العلّيات والخيام على جانبي الطّريق ووُزعت الأراجيح بأشكال مختلفة، وهي تشبه إلى حد كبير تلك التي نراها في المعارض الإنكليزيّة، وقد جلس الموسيقيّون مع آلاتهم البدائيّة على مصطبة يعزفون لحناً عربيّاً رومانسيّاً. وخلف هذا المشهد ترى خيمةً كبيرةً تشبه السِّيرك، وهذا ما استطعنا رؤيته ونحن على ظهور الحمير.

وعلى الجانب المقابل من الطّريق وبالقرب من هذه الخيمة، كانت هناك فتاة ترقص وبالقرب منها خيمة أخرى فيها شاب يرقص. وإلى اليسار رأينا رجلاً يعتمر خوذة رومانيّة ويحمل سيفاً، وقد جذب شكله وتهريجه جمعاً كبيراً من النّاس وأضفى نوعاً من المرح على المكان، بالإضافة إلى خيم كثيرة موزعة هنا وهناك وبداخلها عروض

متنوّعة من الألعاب والعروض المسليّة، وكان الأقباط يقفون بين الحشوديستمتعون بالعروض. كان الازدحام شديداً، لذلك ووجدنا صعوبة في شق طريقنا بين الحشود. كانت المراجيح والألعاب الأخرى مستمرّة في حركتها والضجيج عالياً، لكن النّظام كان مستتباً. في طريق العودة إلى المنزل عرّجنا على منزل أحد الأشخاص الذي تُتلى فيه الأذكار، وتوقفنا ننظر من خلال النّافذة المفتوحة فخرج صاحب الدّار قدّم لنا قدحين صغيرين من شراب ساخن فيه توابل لم أعرف ما يسمّونه.

في العشرين من الشّهر ركبتُ متن الباخرة «سِنِغال» *Senegal* في الإسكندريّة وعلمت بأنني سأكون الرّاكبَ الوحيدَ في الحجرة، لكن سروري لم يكتمل فقد شاركني الغرفة دَزينتان أو أكثر من البعوض الإسكندراني الذي أزعجني للغاية في الليلتين الأوليين حتى بدا رأسي وكأنه قد تلقى لكمات عديدة. وكان سرير لُقانج هو الدّواء الشّافي، فأسرعت إليه وبذلك تجنّبت لسعات هذه الحشرات المزعجة. على الرّغم من أن الباخرة *Senegal* كانت قد أعلنت أنها ستغادر في العشرين من هذا الشّهر، فإنها لم تغادر إلا في صباح اليوم التالي. عند الظهر كنا قد ابتعدنا عن منارة رَشيد Rosetta. كانت المياه عند مصب النّيل عكرة مليئة بالرمال ومضطربة. لم يكن بين الرّكاب أي راكب إنكليزي، لكنني تعرّفت إلى راكب ايطالي أخبرني أنه ذاهب إلى الإسكندرون وحَلَب، وقد أكّد لي أن هناك عربةَ خيول *diligence* تتنقل بين هذه الأماكن، وهو شيء لم أكن قد سمعت به من قبل. كنا كلانا نتحدّث القليل من الفرنسيّة والعربيّة بالإضافة إلى لغتنا الأم، وكان حديثنا مزيجاً من اللغتين لهذا لم نتمكن من التحدث بطلاقة. مكثنا في ميناء بور سعيد عشر ساعات للتزوّد بالفحم وتحميل البضائع، وعندما غادرنا كان قد انضم إلى الباخرة مجموعة من السّيّاح الأميركيين المتجهين إلى يافا والقدس.

وصلنا إلى يافا في صباح الثالث والعشرين من الشّهر، وبعد الإفطار نزلت إلى السّاحل مع رفيقي الإيطالي، الذي تملّكه الذعر فور نزولنا ظناً منه أن البحر سيضطرب وستواجهنا المتاعب والمصاعب، لذا عاد أدراجه إلى السّفينة. لا بُدّ من الإقرار بأن

الدّخول إلى الميناء يكتنفه الكثير من الأخطار. في الطّقس الهادئ، يبرز حاجز نصف دائري لصدّ الأمواج وهو عبارة عن صخور طبيعيّة أمام رصيف الميناء، ويتم الدّخول إلى المياه عبر ممرّ عرضه حوالي المترين يتّسع لزورق تجديف واحد فقط. إن المرور عبره غاية في الخطورة في الطّقس السّيّئ. وبالرغم من أن صديقي قد أوحى لي بأن هذه البلاد ليست جميلة، فقد كنت سعيداً ووجدت المدينة في غاية الرّوعة. عندما تدخل مصرَ تفاجئك الأزياء المختلفة، حيث تشاهد اللباس الأوروبي أقل بكثير مما تشاهده في الموانئ المصريّة.

لقد شاهدت مشهداً غريباً، فقد كان أحد الأشخاص يلبس البنطال الاسكتلندي مع الكوفيّة مما ألّف زيّاً غريباً وجذاباً جداً. إن لباس الرّأس الذي يُلف بعقال من وبر الجمل شائع لدى سكان المدن، وقد كنت أظن أنه خاص بعرب الصّحراء، وهو يستعمل كثيراً في سوريّا والبلاد الخاضعة للأتراك، كما أنك تشاهد الطّربوش الطّويل بكثرة وخصوصاً في الموانئ السّوريّة وحلب، ويقتصر لبسه بشكل رئيسي على السّكان المسيحيّين.

قمت بنزهة في المدينة مع أحد رجال الباخرة، وزرنا بساتين البرتقال الواقعة خلفها. كانت الطّرقات ضيّقة ومزدحمة بالمارّة ومسقوفة، وقد بُنيت البيوت فوق هذه السّقوف. وجميع الطّرقات القريبة من الميناء كانت شديدة الانحدار، والأسواق مليئة بالمشاهد السّوريّة المتميّزة. لقد أكملت نزهتي في بستان البرتقال خلف المدينة وألقيت نظرة على سهل شارون، ثم التقيت برجل إنكليزي في أحد الشّوارع وسررت لما علمت أنه سيرافقنا على متن الباخرة سنغال في طريقه إلى إسطنبول.

تمتلك شركتا كوك Cook وكيز Keys وكالات وفنادق هنا، إذ تمثّل هذه المدينة نقطة بداية الرّحلة إلى الأراضي المقدّسة. تقع الوكالة التابعة لشركة كيز بالقرب من بساتين البرتقال خلف المدينة ويبدو أنها شركة في غاية النّظافة والرّاحة. وهنا تعرّفت لأول مرة على العملة التُّركيّة وهي في غالبها من المعدن الرّخيص؛ لقد أقمت في تركيا مدة ثلاثة أشهر وأنا لا أزال أجد صعوبة في التعامل بالفئات النّقدية العديدة فيها،

وعندما تريد شراء شيء من أحد المحال فإنّ التاجر يدوّن المجموع على ورقة، ومن المستحيل أن يعرف الرّقم المضبوط بشكل دقيق أو المبلغ الذي يتوجب عليه إعادته للزبون بالرغم من وجود تنوع كبير من الفئات النّقدية.

تبدو يافا من البحر ذات شبه كبير بمالطا، إذ تحيط بها الرّمال الصّفراء وبالإضافة إلى سلسلة جبال زرقاء في البعد تضفي جمالاً على المنظر الطّبيعي.

لقد استلمنا خطاباً ونحن في يافا أنه تمّ رفع الحجر الصّحّي، لذلك توجهنا في الرّابع والعشرين من الشّهر إلى بيروت. يُعتبر خليج بيروت من حيث الجمال بمثابة خليج ناپولي، ومن البحر تستطيع مشاهدة جبال لبنان الشّامخة يبرز من بينها جبل صنّين المهيب المكسو الثلج كسيّد لها. إلى الأمام وفي الجهة اليمنى تقع مدينة بيروت التجاريّة المزدحمة رغم أنها مدينة شرقيّة، وإن أهلها، لسبب ما، متفوقون على معظم الشّرقيين، وهناك جزء صغير من المدينة ما يزال محتفظاً بسمته الشّرقية القديمة. يكمن سبب ذلك بشكل رئيسي إلى كون المدينة ميناء لفلسطين وعلى تماس دائم مع التجارة المتوسطيّة والحضارة علاوة على أنها تقع في نهاية طريق دمشق.

كان هناك فندق صغير جيد يديره أحد المواطنين، تناولت فيه وجبة ممتازة. وبالقرب منه جلستُ على رعن صخري لأدخن الغليون، وفيما أنا على هذه الحال مرّت أمامي امرأتان أخذتا تنظران إلي وأنا أجلس القرفصاء. في البداية لم أفهم ما تريدانه بالضبط إلى أن اقتربت مني إحداهما وأومأت برأسها محاولة إفهامي أنهما تريدان الاستحمام في البحر، لذا عليّ المغادرة. غادرت وتوجّهت إلى الأسواق المزدحمة ثم خرجت إلى مكان فسيح على الجانب الأيسر يُعرف بموقع كانون، وهنا شاهدت مشهداً غريبا للغاية فقد تمدّد رجل في أحد الشّوارع يرتدي بنطالاً مرقّعاً مع صدريّة مهلهلة كاشفاً عن صدره وبطنه وتبدو على أضلاعه آثار جروح عميقة تتخللها قطعٌ من خيوط الصّوف. كانت الدّماء تسيل من أنفه وفمه وأذنيه وقد تجمّع حوله حشد من النّاس لكنهم ما لبثوا أن تفرّقوا وهم ينظرون إليه ببرود، أما أصحاب الحوانيت وأغلب المتفرّجين فلم يُبدوا أيّ اهتمام يذكر. كان يرافقه شاب يجمع الصّدقات النّقديّة في طربوش. أعطيته صدقة

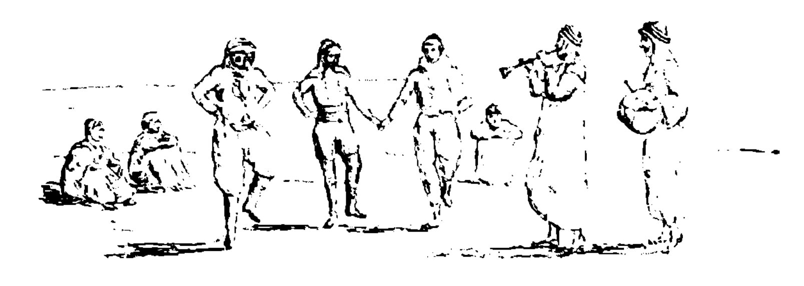
صغيرة، ثم سألت أحد المتفرّجين عن الموضوع ولكنني لم أفهم شيئاً لعدم معرفتي باللغة جيداً، فقط استطعت الفهم أنه ليس من الدّراويش.

كان المنظر مؤلماً ومثيراً للاشمئزاز ولا أعلم فيما إذا كان الرّجل يمرّ بنوبة مرضيّة مخيفة أو أن الأمر هو مجرّد حيلة لجمع المال. على أي حال كان المنظر غريباً في مدينة متحضّرة كبيروت. غادرتُ المكان وسلكت طريق دمشق الذي كانت حوانيت النّسّاج تنتشر على يمينه ويساره إلى أن وصلت بعد انتهاء صف البيوت إلى مكان تغطيه أشجار الصّنوبر التي تقف بشموخ خلف المدينة حيث شاهدت منظراً ساحراً لسلسلة جبال لبنان والخليج الواقع بين المدينة ونهر الكلب. وعند عودتي أخذت السّلسلة تختفي تدريجيّاً.

تحفل بيروت بالمدارس والبعثات التبشيريّة، أما الأسواق فهي مليئة بالأثاث الخشبي المصنوع محلّياً لكنه على الطّراز الفرنسي.

وصلنا إلى طرابلس في صباح اليوم التالي، ثم اللاذقيّة في اليوم ذاته بعد الظهر، إلا أن فترة مكوثنا في هذه الموانئ كانت قصيرة لا تسمح لنا بالنّزول إليها. أخبرونا أننا سنصل إلى ميناء الإسكندرون في وقت مبكر من اليوم التالي. كان برفقتي في هذا الميناء ابنة القنصل الإنكليزي السّابق في حلب وعائلة فرنسيّة وسيّدتان مسيحيّتان من أهالي البلاد وجميعهم متوجهون إلى حلب. أما صديقي الإيطالي فقد غيّر رأيه، لا أدري لماذا، في اللحظة الأخيرة وبدلاً من أن ينزل في الإسكندرون ظلّ على ظهر السّفينة قاصداً إسطنبول.





عازفون جوّالون على طريق حلب

الفصل الثاني
من الإسكندرون إلى حلب

الإسكندرون - فندق سوريّ - مناخ رديء - عربتي والأربعة - بيلان - جليل - خان قرا - سهل أنطاكية - سيّدات سوريّات - العمق - حمام - خان عفرين - القنصل اليوناني وأصدقائي في غرفة النّوم - بداية باردة - الوصول إلى حلب.

ذكر ڤيليبراند فون أولدِنبورغ Willebrand von Oldenburg، الذي قام برحلة في القرن الثالث عشر إلى هذه المنطقة أن ألِكسندريتا أو (الإسكندرون أو إسكندرون) كما تدعى حالياً، قد أنشأها الإسكندر المقدوني كمكان لإقامة سلالة خيوله. وسواء كانت هذه المعلومة صحيحة أم لا، فإنه لا شك أن أصل كلمة الإسكندريّة يعود بشكل ما إلى الإسكندر الأكبر. ويخبرنا روشيت Rochette أيضاً في كتابه «تاريخ المستعمرات الإغريقيّة» *Histoire des Colonies Grecques* أن ملوك أرمينيا قد حصّنوا هذا الموقع، لكن هذا الحصن لا يبدو للعيان اليوم[1]. تقع المدينة على خليج فسيح هو

(1) كتب المؤلف: انظر كتاب أينسوورث:

خليج الإسكندرون الحديث ومدينة إيسوس القديمة، فوق سهل ذي مستنقعات كثيرة وظروف صحيّة سيّئة. وإلى الشّرق منها ترى مرتفعات الأمانوس الشّاهقة بالإضافة إلى جبال أخرى، التي تجد أسماءها الحديثة بشكل مختلف عن تلك الموجودة في الخرائط مما يشكل إرباكاً كبيراً في تعيينها بدقّة.

وقد وصف المنطقة رحّالة آخر هو موريسون Moryson، الذي قام برحلة عام 1596 ميلاديّة إلى الإسكندرون، بأنها قرية فقيرة مبنيّة كلها من الطّين والقش عدا عن بعض بيوت العمال المسيحيّين المبنيّة من الخشب والطّين. إن هذه القرية محاطة من ثلاثة اتجاهات بالهواء الخانق، وهو السّبب الذي دعا العمّال إلى الهروب منها. أما الجانب الرّابع فيقع على البحر. وفي الجانب الشّرقي خلف المستنقع هناك جبلٌ عالٍ جداً يحجب الشّمس من الوصول إلى الإسكندرون، وبسبب وجود المستنقعات الكثيرة في هذه المنطقة فإنّ الهواء الفاسد يغمر المكان من كل الاتجاهات. وفي الجانب الآخر نحو الشّمال (على ما أذكر) في الطّريق المؤديّة إلى إسطنبول، يقع مستنقع آخر وجبال، إلا إنها لا تحجب الشّمس. لقد أصبحت الإسكندرون سيئة السّمعة بسبب هذه المستنقعات والأبخرة الفاسدة، وقد قيل بأنها كانت المسؤولة عن موت الكثير من المسيحيّين[1]. ويخبرنا ڤان إغمونت Van Egmont الذي جاب المنطقة عام 1759 م أن عددَ البيوت فيها لا يتعدى السّتين. أما البيت الإنكليزي فيتميّز بالأناقة والجمال، وقد قامت الشّركة التُّركيّة ببناء المستودعات الضخمة بالقرب منه، ويقال إن معظم قاطني الإسكندرون يونانيّون حيث يقيم هناك الأسقف اليوناني، بالإضافة إلى وجود دير لآباء الأرض المقدّسة[2].

"Personal Narrative of the Euphrates Expedition", 1888.

(1) كتب المؤلف: انظر كتاب "Natural History of Aleppo" «تاريخ حلب الطبيعي» للدكتور ألكسندر رَسل، عام 1794 (جزءان).

(2) كتب المؤلف: انظر كتاب "Travels through Europe, Asia Minor, etc,." «رحلات عبر أوروپا وآسيا الصّغرى، إلخ» من تأليف القس ڤان إغمونت، الموفد الخاص للأقاليم المتحدة إلى بلاط ناپولي، ومستر جون هايمن أستاذ اللغات الشرقية في جامعة لايدن. لندن 1759.

في صباح يوم السّادس والعشرين من الشّهر، وجدنا أنفسنا في خليج الإسكندرون الجميل. كانت الغيوم السّوداء ترتفع فوق جبال طوروس العظيمة والأمطار الغزيرة تروي المكان ليلاً. أما المنحدرات المرصّعة بالثلوج فهي تخبر أن الصّيف لم يأتِ أوانه بعد، وأننا ربما سنتذوّق طعم الشّتاء خلال رحلتنا إلى حلب. أما سلسلة الجبال الممتدة في وسط البحر فهي في غاية الرّوعة، تشكّل مع المدينة الصّغيرة منظراً يخلب الألباب. في تمام العاشرة نزلنا إلى السّاحل ودفعنا البقشيش لإخراج أمتعتنا من الجمارك. وفجأة وجدتُ نفسي وراء صف طويل من العتّالين ذوي الأحذية الحمراء أحاول شق طريقي للوصول إلى مكتب شركة[1] بلفانتِه وكاتوني Belfante & Catoni، حيث يعمل الأخير نائباً للقنصل البريطاني، لكن أقدامي غاصت داخل الطّين والمياه. لم يكن المستر كاتوني موجوداً في المكتب، لكن المستر بلفانتِه رحَّب بي ألطف الترحيب ووعدني بإجراء الترتيبات لرحلتي إلى حلب. كنت أرغب بامتطاء الخيل لكن الأمطار الغزيرة حالت دون ذلك، فوجدْتني مضطراً لاستئجار عربة مغطاة أخبروني أنها ستكون جاهزة في صباح اليوم التالي مع أربعة خيول لتقلّني. بعد تناول وجبة الغذاء مع المستر بلفانتِه، حجزتُ غرفة في فندق صغير يديره رجلٌ مشرقي Levantine. وبما أن الغرف تتضمّن سريراً وكرسياً وأثاثاً، وطالما كان المضيف اللائق جاهزاً لجلب الطّعام إليك، فإنّ الفندق يستحق هذا الاسم. أما الوصول إليه فيستدعي المرورَ من خلال مستنقع من الوحل، وكانت غرفة النّوم متسخة وغير لطيفة، وكان السّرير قد استعمل كما هو واضح لفترة غير قليلة دون تغيير الملاءات ممّا عُدّ أمراً غير ضروري.

لحسن الحظ، كنت أحمل معي ملاءاتي الخاصة، ولدى سؤال الرّجل العجوز المكلّف بهذه الأمور راح يطلب مني كلفة هي ابتزازٌ صريح، ولكن بما أنني لم يكن بوسعي إعداد سريري في المستنقع في الخارج، وبما أن المستر بلفانتِه كان لا يستطيع

---

(1) هذه الشركة التي يوجد مقرها في لندن ما تزال موجودة إلى يومنا الحاضر وبالاسم ذاته، وهي تتعاطى التجارة مع تركية وبلدان البحر الأسود وبحر قزوين. وأما الاسمان، رغم كون مركز الشركة في لندن، فهما لعائلتين إيطاليتين.

استضافتي لكونه يقيم في منزل للعزاب، فقد اضطررتُ للإذعان بعد أن أعربت للرّجل العجوز عن رأيي فيه بصراحة. ولحسن الحظ، أنقذني حُسن ضيافة المستر بلفانتِه من الاضطرار لتناول الطّعام في هذا النُّزل البائس، وهذا ما جعلني في غاية الامتنان له. خرجت من الغرفة أتجوّل تحت المطر وذهبت لمشاهدة معالم المدينة وشراء الحاجيّات للسّفر.

وبالفعل فإنّ إسكندرون لم يطرأ عليها أي تطّور منذ أيام موريسون Moryson وڤان إغمونت Van Egmont الصّدوق. كانت الطّرقات غير المعبّدة والغارقة بالمياه والوحل تُصعّب على المرء التنقّل والتجّول بين الحوانيت والأسواق. مع ذلك وجدت حانوتاً أو اثنين ملكاً ليونانيين، وكان صاحب الفندق يرافقني في هذه الجولة. اشتريت دجاجتين وشيئاً من البسكويت وسمكاً مقدداً وجبناً وخبزاً وبرتقالاً. ومن المؤكّد أن العباءاتِ الحمراءَ المطرّزة وأحذية الفلاحين الطّويلة وقوافل الجمال التُّركمانيّة المشعثة التي تدخل البلدة باستمرار آتية من حلب، تضفي شيئاً من المتعة للغريب القادم حديثاً إلى المكان. مع ذلك كان رأي المستر بلفانتِه أن المدينة أكثر صحّة من السّابق. بعد تناول طعام الغذاء مع صاحب الفندق، عدنا أدراجنا ونحن نغطس بالوحل ونتمايل على أنغام أصوات ملايين الضفادع التي تنّق في المستنقع المجاور، وسرعان ما أحسست بالمرض يزحف إلي، لذلك استعجلت المغادرة.

أمضيت في الفندق ليلتي الماطرة على نحو مخيف، وتجهزت في التاسعة صباحاً للمغادرة. أعلمْتُ صاحب الفندق باستعدادي للرّحيل، لكن العربة لم تصل. كانت السّماء ترسل أمطارها بشكل متقطّع، وبشعور من اليأس توجّهت بنفسي للبحث عن الإصطبل واستعجال الرّجال. كان المالك رجلاً أرمنيّاً ثرياً يتمتّع ببنية قويّة، يرتدي الزِّيَّ الأوروبيّ وكان قبل يوم مضى يريدني استئجار عربته ليس إلى حلب بل إلى بغداد، وقد أكد لي - إذ رآني استغربت الأمر - بأن الطّريق إلى بغداد سالكة وأنه قد سلكها من قبل، وأكد المستر بلفانتِه على كلامه. وبعد طول عناء وجدتُ الرّجل واصطحبته إلى الإصطبل وتم إخراج العربة وربطها إلى الخيول. كانت العربة متداعية،

قديمة، قد أكل عليها الدّهر وشرب. هيكلها مزعزِع، عجلاتها مجدّدة بخشب من دون دهان، وربما تمّ في حلب صبغ الأجزاء الأصليّة منها على عجل. وكان شكلها يدّل على أنها لم تقم برحلة مماثلة من قبل. تمّ إخراج الخيول الكستنائيّة الأربعة وربطها إلى العربة بكثير من الحبال والخيوط، وتمّ وضع أمتعتي المؤلفة من ثلاث حقائب كبيرة وخيمة وعدد من البطّانيّات في مقدمة ومؤخرة العربة وبداخلها. وفي تمام السّاعة العاشرة أصبح كلّ شيء جاهزاً للانطلاق. سدّدت حسابي لصاحب الفندق وودّعت المستر بلفانتِ وشكرته على ضيافته، ثم اتخذت مكاني في العربة التي بدأت تغوص بالوحل منطلقة نحو الجبال.

الآن فقط أحسست أن الرّحلة قد بدأت، فالإسكندرون، هذا الميناء المتوسطي، يمثل حلقة اتصال بين الحضارة الغربيّة وآسيا الحديثة التي تواكب مسيرة التحضر. وإلى الخلف مني يمتد البحر المتوسط الأزرق بسفنه وشواطئه المشرقة، بينما تمتد إلى الأمام تركية الآسيويّة بطرق قوافلها الطّويلة. وعلي الاعتراف أنني عندما أغلقت شباك العربة اتقاءً للوابل الجليدي الآتي وانطويت على نفسي في الزّاوية وأشعلت غليوني، ساورتني بعض الشّكوك عن مدى عقلانيّة القيام بهذه الرّحلة بمفردي والتي ربّما تستغرق شهراً كاملاً بالإضافة إلى ما يكتنفها من متاعب وصعوبات دون هدف سوى رؤية البلد.

كان الطّريق يتعرّج وسط عدد من المستنقعات التي تنفث أبخرتها الممزوجة برائحة العفن، مما اضطرني إلى التوجّه إلى الشّبّاك الآخر وتدخين الغليون بقوة مضاعفة. ولحسن حظّي فقد أخذ الطّقس يتحسّن رغم أن الجو العام كان بارداً ورطباً، والشّمس تصارع الغيوم للظهور ونشر أشعتها الذهبيّة لتدفئ الجو الرّطب. أما الجبال فما زالت تغط في نوم عميق رازحةً تحت طبقات من الغيوم الكثيفة والثلوج.

كان الطّريق أمامنا على طول السّهل بحالة جيّدة، ويبلغ عرضه حوالي ست ياردات. وعندما تصعد الجبل، تفاجئك بعض الأحجار الطّينيّة الآتية من أعلى المنحدر لتقطع عليك الطّريق. كانت القوافل تتكبّد أشدَّ الصّعابِ في اجتياز طريق الجبال، فالأرض

موحلة ووعرة. ولا بد لك من مشاهدة الجمال القويّة التي تقطع طريق الجبل بغضون عشر دقائق وهي تقدّر بستّين إلى سبعين جملاً. وهناك أيضاً الحمير والبغال التي ترّن أجراسها باستمرار ورعاة الغنم الذين يعانون أشدّ المعاناة مع هذه الطّرق شديدة الانحدار والبرد القارس، وقد لاحظت بين هؤلاء رجلاً يحمل رمحاً طويلاً، وهو مشهد قلّما تشاهده في حياتك. بعد السّير المتعرج في أنحاء الجبل، وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى بيلان Beilan، يتردّد عليها أهالي الإسكندرون وأهالي حلب، وهي تُعدّ في المواسم الحارّة كمنتجع صحّي. تقع هذه القرية في أعلى الجبل الذي يصل ارتفاعه إلى حوالي 1580 قدماً عن سطح البحر، وقد تمّ بناؤها على منحدر جبلي على جانبي وادي صغير ضيّق، وتقع بيوتها الواحد فوق الآخر وتبدو كأنّها عش كبير للزّنابير، وبالنّسبة إلى القادم من مصر وفلسطين يفاجأ بشكل البيوت ذات السّقوف الآجرّية التي تدّل على أنها تنعم بالمطر الغزير. ويقال إن هذه القرية هي الموقع الحالي لبينارا Pinara الواردة لدى المؤرخ پليني وبطليموس وموقع إيرانا Erana الواردة لدى شيشرون[1].

توقّفنا في بيلان لتأخذ الخيول قسطاً من الرّاحة، وهنا انتهز سائق العربة الفرصة لتناول القهوة والخبز في دكان أحد أصدقائه. أما أنا فقد ذهبت لأفتّش عن مكان أشرب فيه قليلاً من الحليب، لأنني وبكل بساطة نسيت أن أحضر معي أي نوع من المشروبات، إلا أنّ النّاس هناك كانوا متجهّمين ومنطوين على أنفسهم وغير مبالين بتقديم أي شيء لي. وتذكرت هنا ضيافة المصريّين ووجوههم الباسمة. ربما سكان بيلان هم على الأرجح من أصول نصف تركمانيّة ونصف سوريّة مع قليل من الصّفات الجيّدة للعرب الأذكياء المتحضّرين. يقال إنه يوجد في بيلان خان جيّد، لكنني لم أزره. وفي مدخل المدينة هناك آثار يقال إنها بقايا قنوات مائية رومانية بالإضافة إلى بعض التحصينات.

عندما كنا في بيلان، جاءت عربة أخرى قادمة من الإسكندرون تحوي بداخلها

---

(1) كتب المؤلف: انظر كتاب أينسوورث:

«Personal Narrative of the Euphrates Expedition», 1888.

عائلة فرنسيّة، وقد جلس على صندوق العربة صبيّ ظريف من أهالي المنطقة يضع على رأسه طربوشاً، لكنه كان يرتدي ملابسَ خفيفة لا تناسب هذا الطّقس شديد البرودة، فأفسحت له مكاناً بجانبي في العربة وكان في غاية السّرور، وبدأ بسؤالي عن اسمي وعملي والغاية من قيامي بهذه الرّحلة. بعد أن أجبته على أسئلته كلها، أخبرني أن اسمه جليل وهو في الرّابعة عشرة، من عائلة سوريّة كاثوليكيّة، إلا أن جدّه لأمه فرنسي، وقد علمت منه أنه قد أمضى في بيروت بعض الوقت للعلاج أولاً ولنهل العلم ثانياً، وهو الآن عائد إلى عائلته في حلب. ولأنه لا يستطيع السّفر بمفرده، فقد دفع ثلاثة مجيديّات وأخذ مكاناً شاغراً في إحدى العربات. كان جليل يتحدّث العربيّة والفرنسيّة والإيطاليّة وقدراً لا بأس به من التُّركيّة والأرمنيّة، وكان قادراً على تدبر أموره بشكل جيد، وقد أخبرني أن لديه شقيقين في مصر، أحدهما جندي في أسوان. كنت أنظر إليه وهو يمتصّ برتقالة ويرمقني بعينيه السّوداوين الكبيرتين، وطلبت منه أن يحدّثني بالعربيّة فقط. وبذلك توطدّت علاقتنا وأصبحنا صديقين في السّفر.

بعد وقت قصير، وصلنا إلى قمة الممرّ الذي يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر أكثر من ألفي قدم. وما إن هممنا بالنّزول، حتّى هبَّت عاصفة قوية من البرَد فوق الجبل، فسلكنا الطّريق الذي على هذا الجانب، وهو أقل انحداراً من الطّريق الممتد بجهة بيلان. كانت السّفوح جميلة جداً ومزروعة بالأشجار في بعض أجزائها. وفي السّاعة الثالثة بدأت السّهول تظهر والجبال تختفي وحللنا في سهل أنطاكية المنبسط. وبعد ساعة وربع دخلنا قرية صغيرة غريبة الطّراز فيها أكواخ من الحجارة وجذوع الأشجار، وتقع على حافة نهر جارف. كان هناك خانان، وقد أخذت القرية اسمها Khan Kara (خان قرا) من أحدهما، الذي يبعد عنها حوالي 150 ياردة. دخلت العربة الفرنسيّة الخان الأول، ودخلنا الثاني الأبعد قليلاً. يقع خان قرا عند سفح الجبال التي اجتزناها والتي لا تزال الغيوم تغطي قممها. وأمامها يمتد سهل العمق والهور، الذي يصل حتى شمال شرق بحيرة أنطاكية. وإلى الشّمال والشّمال الشّرقي، تستطيع رؤية سلسلة منخفضة من الجبال الأرجوانيّة.

يتكون الخان الذي دخلناه من ساحة مربّعة، يحيط بها سور وإصطبل في إحدى الجهات، أما في الجهة المقابلة للطريق فهناك بناء خشبي مؤلف من طابقين. يتكون الجزء السّفلي منه من غرفتين يسكنهما (الخانجي)، وبينهما ممر لمرور القوافل إلى الخان عبر الطّريق. أما الطّابق العلوي الذي يمكنك الصّعود إليه بسلّم خارجي، فيتألف من غرفتين أو ثلاث لاستقبال المسافرين. كانت الغرفة التي قدّمها صاحب الخان لي خالية من الأثاث، لكنها نظيفة ومريحة. ثم جلب لي قطعة من الحصير لأضع فراشي عليها، وكانوناً على الفحم لتدفئة الغرفة، وطبقاً من اللبن الطّازج، وهو أحد مشتقات الحليب ويشبه اللبن الزّبادي. كذلك أحضر لي كرسيّاً ومنضدة ووضعهما في مكان كالشرفة خارج الغرفة. وهنا تناولتُ غدائي الأول براحة معقولة. إن هذا الخان وخان عفرين الذي بتُّ فيه الليلة الماضية، هما الخانان الوحيدان اللذان تتوقف عندهما العربات الذاهبة والقادمة منذ إنشاء خط العربات، لذلك كانا متطوّرين نوعاً ما أكثر من الخانات الواقعة على طريق المعتاد للقوافل.

كنت أهمّ بإشعال غليوني عندما جاءني رجل وأخبرني أن العربة التي تقل الآنسة «B» وسيّدتين من أهل البلد قد وصلت، وأنهن الآن في الخان الآخر. كانت الآنسة «B» قد بقيت مع السّيدة كاتوني في الإسكندرون، ونتيجة للعاصفة التي هبَّت في الصّباح فقد غادرت بعدي بساعتين. توجّهت نحوهن لإلقاء التحيّة ولأسألهن كيف تجاوزن تعب النّهار. وبعد مروري بغرفة كبيرة معتمة يجلس فيها عدد من سائسي البغال وسائقي العربات، أدخلوني إلى غرفة صغيرة بائسة حيث وجدت السّيّدات الثلاث (بينهن الآنسة B) يجلسن على الوسائد ويرتشفن القهوة. تعرّفت إلى السّيدتين السّوريتين بعدما بذلت جهداً في التحدث معهن. كانت السّيدة المسنّة ذات الوجه المليء بالتجاعيد تدخّن النّرجيلة بمتعة. أما ابنتها المتزوجة، فكانت شابة ذات مظهر حسن، وتبدو على حركاتها وكأنها سيّدة إنكليزيّة، فقد كانت ملامحها منسّقة وعيناها كبيرتان مليئتان بالثقة، إلا أن جسمها مكتنز، يفتقد إلى الرّشاقة. كانت السّيّدتان تلبسان نوعاً من الزِّيِّ الأوروبي المهجّن، الذي أظن بأنه يُعدّ قمة في الأناقة بين أوساط

المسيحيّين السّوريين في حلب. كان زوجاهما يقيمان في بغداد أو البصرة، وهما عائدتان من هناك، حيث ذهبتا وعادتا عن طريق البحر. لقد دهشتا كثيراً لاختياري الطّريق البريّ بدلاً من القيام برحلة بحريّة طويلة ومريحة. وزادت دهشتهما عندما علمتا من خلال الآنسة «B» أنني أود أن أتفرّج فقط على هذه البلاد، فظنتا بالتأكيد أنني رجل ثري، وربّما خجلاً لم تقولا لي بأنني مجنون، فلا أحد يقوم بمثل هذه الرّحلة من أجل المتعة فقط. وحسب وصفهما لي فإنّ بغداد والبصرة هما جنّتان على الأرض، ففيهما التّمر الوفير (كتير، كتير، كتير) «keteer, keteer, keteer» وفيهما اللغة الرّئيسيّة المحكيّة هي اللغة الإنكليزيّة، والبواخر الإنكليزيّة النّهريّة منتشرة بكثرة هناك، كبواخر نهر الثايمز Thames عند Charing Cross. ومع تدخين الغليون وشرب كوب من القهوة، أمضيت ساعة ممتعة من الحديث. في طريق العودة إلى الخان الذي أقيم فيه، وجدت الخبر قد ذاع بين جميع سائسي البغال بأنني الرّجل الإنكليزي الذي سيغادر إلى بغداد، فراحوا يتهافتون على تقديم خدماتهم. اخترت أحدهم لمرافقتي، وكان متحمّساً جداً لمحادثتي، طالباً إلي بالقيام بالرحلة معاً هو وأنا «sawa sawa» (سوا، سوا)، وقد وضع سبّابتيه جنباً إلى جنب للتعبير عن ذلك، وهي إشارة دائمة الاستخدام عند العرب للدّلالة على المرافقة.

قضيت ليلة هادئة، وفي الصّباح دخلت الحمّام للاستعداد للرّحلة، فشاهدت من النّافذة العربة التي تحمل العائلة الفرنسيّة وهي تمرّ، وبعد ذلك اندفع جليل نحوي وبيده قطعة من الخبز وهو يلهث ويقول بأن وقت المغادرة قد حان. ورغم أنني لم أدعه للذهاب معي في عربتي اليوم، فقد كان يعرف ما يناسبه، ولهذا قرّر مرافقتي. دفعت مبلغ فرنكين، وهو حسابي في الخان، وبعد شرب كوب صغير من القهوة، غادرنا عند السّابعة ونحن نأكل طعام الإفطار المكون من الخبز والبيض المسلوق. كان صباحاً جميلاً، يبدو فيه سهل أنطاكية تحت أشعة الشّمس بغاية الرّوعة. طول هذا السّهل حوالي 12 ميلاً وعرضه 8 أميال. وفي السّاعة الثامنة والنّصف توقفنا في قرية تقع وسط منطقة المستنقعات، ويقطعها ممرٌ وعدة جسور طويلة مبنية بعناية، وبالقرب

منها تلال كبيرة يتّضح أنها كانت مواقع قديمة. كتب ڤان إغمونت Van Egmont عام 1759 م أن «هذا هو جسر مُراد، على اسم الصّدر الأعظم (كبير الوزراء) الذي قام ببنائه[1]. يبدأ هذا الممر بجسر وثلاثة أقواس، ويستمر بطول مسير نصف ساعة بشكل سلسلة من الأقواس الصّغيرة قليلة الارتفاع. كان اجتياز الجسر صعباً جداً على الخيول، نظراً لوعورته وحاجته للإصلاح».

يجتاز هذا الجسر الذي بناه مُراد النّهر الأسود أو (قرا صو) Kara Su الذي يتدفق عبر المستنقعات. ولقد أبحر أينسوورث عام 1835 عبر هذا النّهر حتى هذه النّقطة. وعلى مقربة من النّهر رابية تدعى (گول باشي) Gül Başı. أما اليوم فيبدو أن الجسر لا يجتاز سوى سهل مستنقعي على اعتبار أن النّهر غيّر مجراه أو تلاشى داخل المستنقع. ويقال بأن هذه المنشآت قد حلّت محلّ منشآت قديمة تعود إلى زمن الرّومان. تشاهد أيضاً أعداد كبيرة من طيور دجاج الماء في السّهل المحيط، ويمكن تمييزها عن البجع ذي الحجم الكبير[2]. كانت العربات كلّها التي غادرت الإسكندرون في اليوم المنصرم، متوقفة جنباً إلى جنب وعددها أربع؛ عربة تقلّ القنصل اليوناني في حلب وشخصين «أفندي» و«قوّاص»، وعربة الآنسة «B» والسّيّدتين السّوريتين، وعربة العائلة الفرنسيّة، وأخيراً عربتي. كان لكلّ عربة سائق خاص وخادم نشيط يعمل كسائس للخيل، وبهذا أصبحنا جميعاً قافلة رائعة.

---

(1) هذا غلط، فالجسر بني على اسم السّلطان العثماني مُراد خان الرّابع فاتح بغداد عام 1638.

(2) كتب المؤلف: «يذكر الرّحّالة تاڤرنييه Tavernier نهرين بين إسكندرون وحلب، وعلى الأول منهما كما يقول جسر طويل جداً ومتين البناء (الكتاب الثاني، الفصل الأول). ولكنه مخطئ في ذلك، فالجسر والمعبر يمتدان فوق المستنقع المذكور أعلاه. وأما الآخر فيدعوه Afrora ويقول إنه لا يمكن اجتيازه عند هطول المطر. وهو يعني بذلك نهر عفرين، الذي يسبب عبوره الكثير من الضرر لبالات البضائع، بحيث أن تجارنا المتعاملين مع تركية عرضوا قبل بضع سنين إقامة جسر عليه على حسابهم الخاص، لكن الأتراك رفضوا وتم إلغاء المشروع». نقلاً عن المبحث الجغرافي الوارد في كتاب إدوارد سپيلمان:

Edward Spelman: "Expedition of Cyrus", 1740.

غادرنا المكان، وبعد فترة قصيرة اجتزنا السّهل الفسيح ودخلنا إلى تلال هادئة مليئة بالعشب إلى جانب الطّريق الشّرقي. وعند العاشرة والنّصف وصلنا إلى خان الحمَّام، حيث توقفنا جميعاً لتأخذ الخيول قسطاً من الرّاحة لمدّة ساعة وليتسنّى لنا أخذ وجبة من الطّعام. بدأ كل واحد بتحضير ما لديه من طعام، وأحضرت الصّناديق للجلوس عليها، بينما أسرعت راكضاً إلى قمة تل مجاور مرتفع للاستطلاع. كان بالقرب من الخان عين كبريتيّة ساخنة، فحصلت في ذلك اليوم على حمّام منعش (بالرغم من البخار الكثيف والرّائحة الكريهة). بعد ذلك انضممت إلى الآخرين حيث كانت المأدبة العامرة التي فيها مزيج من أمم مختلفة، إنكليزيّة، فرنسيّة، سوريّة، يونانيّة وتركيّة. وُضع على الطّاولة لحم الطّيور والكبّة (وهي عبارة عن مقانق صلبة بشكل يشبه البيضة) والخبز والزّبدة والجبن والبرتقال والتّمور. وكان لدى المجموعة ثلاث سكاكين وثلاث شوكات.

من خان الحمَّام، انطلقنا برحلة طويلة مرهقة إلى مرتفع، وعند الثالثة والنّصف وصلنا إلى نهر صغير هو في الأغلب رافد لنهر عفرين. سرنا لمدة ساعة ونصف أخرى، لكن الطّريق أصبح أكثر وعورة. وفي الواقع فقد سرنا لبعض الوقت في أرض محروثة رغم أنه قد تم افتتاح طريق جيّد. على اليسار تستطيع رؤية سلسلة من الجبال الكلسيّة قليلة الارتفاع. وعند السّادسة وصلنا إلى خان عفرين الواقع على الضفة اليمنى لنهر صغير يحمل اسم عفرين أيضاً. إنه بالفعل يشبه خان قَرا، وكان هناك سلم خشبي يقودك إلى ثلاث غرف لإقامة النّزلاء. شغلت الأولى العائلةُ الفرنسيّةُ، والأخرى الآنسة «B» والسّيّدتان السّوريتان، ووجدت نفسي في الغرفة الثالثة مع القنصل اليوناني والأفندي والقوّاص ورجل تركي مسنّ وكدر جداً، كنا قد شاهدناه في الرّحلة عدة مرات وهو يمتطي حصانه الأبيض ويضع على عينيه نظارات واقية زرقاء، ويحمل مظلة كبيرة فوق رأسه. فرش القنصل وصديقه، بأدبهما الشّرقي، فراشهما على المصطبة المرتفعة المعدّة للنوم والمزودة بحصير، وتركوني كالخنزير أقعي على الأرض القذرة. أما السّيدتان السّوريتان فقد دعتاني لتناول طعام العشاء معهما، وعلمت منهما أننا

سنواصل الرّحلة في الصّباح الباكر. لهذا عدت إلى غرفتي وأويت إلى فراشي، ولكن للأسف لم يكن منظر الغرفة مشجّعاً على النّوم. صحيح أن الأفندي كان يغطّ في النّوم، لكن القنصل اليوناني كان يجلس عند حافة المصطبة أمام الموقد بمعطفه الضخم من الفرو وعينيه الكبيرتين القلقتين وشعره المنتصب، وقد ملأت رائحة العرق الغرفة كلها، وكان على ما يبدو قد تناول عشاءه بإفراط. حيّاني بثلاث كلمات بالإنكليزيّة، ثم سألني «هل أنت نعسان؟». ثم قال بالفرنسيّة إننا سنواصل الرّحلة في الثانية من صباح اليوم التالي. وبما أن الوقت المتبقي لا يستحق الخلود إلى النّوم، فأستطيع مرافقته إلى الغرفة المجاورة حيث لديه بعض المشروبات المنعشة، ثم نام بعد ذلك، وتلاه القوّاص. أما أنا فجلست أمام الموقد أدخن غليوني، ثم دخل أحد الخدم وأومأ برأسه يريدني أن أتبعه مشيراً إلى أن هناك الكثير من الشّراب في الجوار. كانت بالفعل ليلة صعبة، تخللها أمور جعلت نومي متقطعاً، كضوضاء المعربدين، والقطة المصرّة على فتح الباب والسّماح لتيار من الهواء الجليدي البارد بالدخول. أغمضت عينيّ لمدة عشر دقائق، ثم أيقظني القنصل ورفيقه قائلين بأنه عليّ الاستعداد للرّحيل. لم تكن السّاعة قد بلغت الثانية بعد، لذلك اعتبرته مقلباً وغططت في النّوم. لكن بعد ذلك مباشرة جاء الخادم الذي يعمل كسائس للخيل ودعاني للاستعداد للرّحلة وبدأ بالفعل ينقل أمتعتي. ورغم ذلك، لم تبدأ الرّحلة إلا في الرّابعة والرّبع. كان الوقت يمرّ ببطء شديد مع برودة الجو وظلّ الرّجال مشغولين بربط الأمتعة وتجهيز الخيول للانطلاق. انطلقت الرّحلة في العتمة أخيراً، وعند بزوغ الفجر في السّادسة، وجدت نفسي متجمداً من شدة البرد، لذلك اضطررت إلى الخروج والمشي على طول التّل لأشعر بالدفء. ورغم أن معطفي كبير فإنني وجدت من الصّعوبة استعادة جريان الدّم في عروقي. كان كل شيء حولنا مكسوّاً بالثلوج؛ والجبال والتلال، وحتى العشب كلها غُمرت بطبقة من الصّقيع، أما برك الماء فقد أصبحت قطعة من الجليد الصّلب. كنا إلى اليسار من جبل سمعان، وهذه القمة المرتفعة تطل على منظر جميل للتلال المكسوة بالثلوج والتي مررنا بها في أول يوم لرحلتنا، ثم يقودنا الطّريق إلى أرض مرتفعة تشبه الصّحراء. وفي التاسعة والنّصف، توقفنا عند خان إلى جانب الطّريق

لتناول القهوة، حيث أدّى ثلاثة موسيقيين متجولين عزفاً جميلاً. كان هذا المشهد مثيراً لمشاعر سائقي العربات الذين كانوا بسبب شراب الليلة الماضية يمرحون ويعبثون في كل مكان نتوقف عنده، بحيث أنهم شكّلوا حلقة وبدأوا بالرقص بحماس شديد على أنغام الموسيقى. غادرنا المكان واجتزنا تلاً مخروطي الشّكل، ارتفاعه ثمانون قدماً تقريباً، وبأقل من ساعة اجتزنا قرية تل الفطر بمقبرتها الكبيرة، وهي تشبه إلى حدّ بعيد القرى المصريّة. وبعد قطع مسافة صحراويّة، بدأ يتراءى لنا عند الثانية إلا ربع بعض من العمران. استطعنا رؤية قلعة ومآذن حلب الواقعة في أرض منخفضة، وعند مدخل المدينة وبالقرب من الطّريق شاهدنا اثنين إلى ثلاثة من البيوت المبنيّة بطراز جيّد يشبه الطّراز الأوروبي. ولكنني كنت مخطئاً، فالمدينة برمّتها شرقيّة الطّراز، وقد قام ببناء هذه البيوت بعض الباشوات، وهي الآن فارغة أو يقيم بها عدد من العمال فقط. وبعد المرور بتلك البيوت صعدنا جسراً يحدث صريراً فوق نهر حلب أو (قويق صو) وعلى اليسار دخلنا إلى ضاحية العزيزيّة، حيث نزلنا في خان تحت مستوى الأرض يدعى فندق العزيزية.

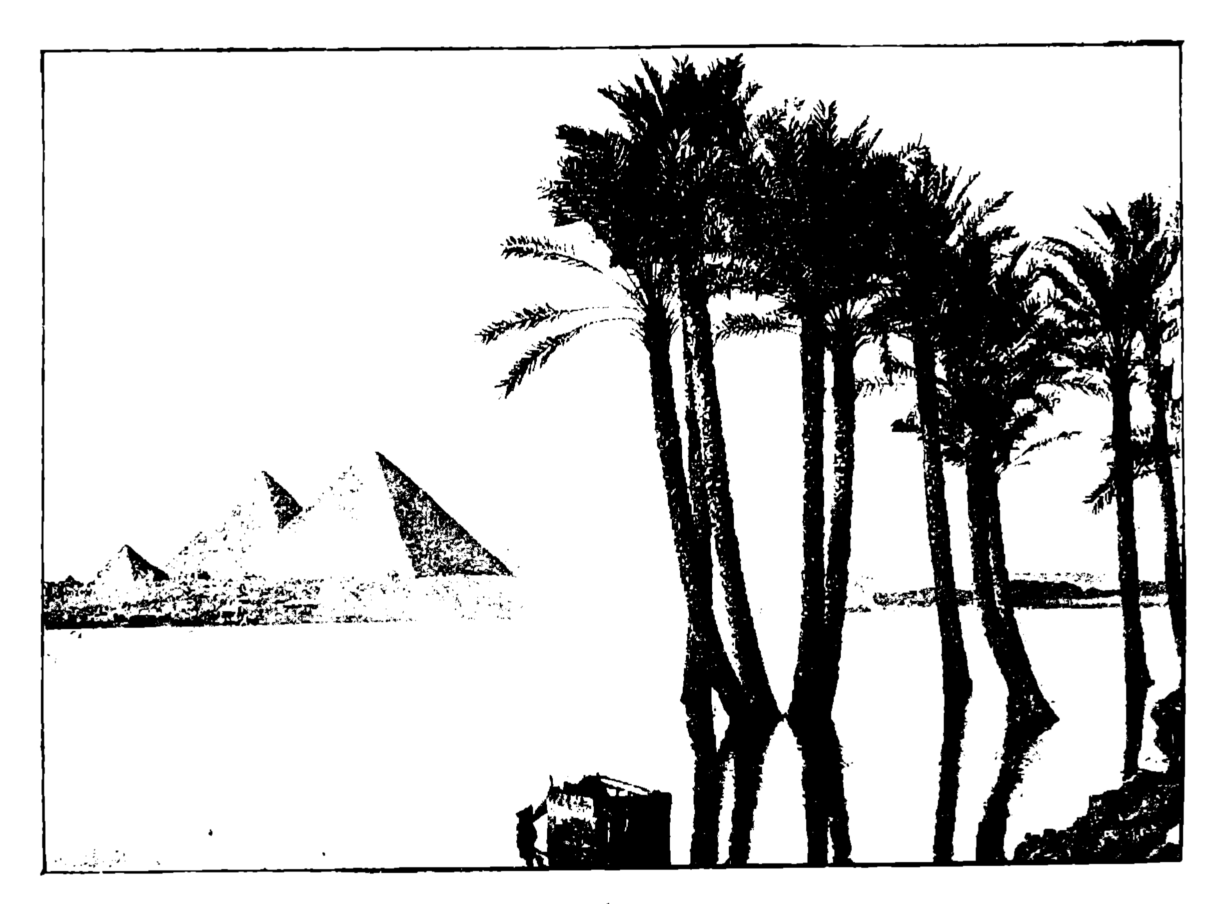


الفصل الثالث
في حلب

فندق العزيزيّة - هزّة أرضيّة في السّرير - جليل - المطبخ التُّركي وشرب العرق - القنصليّة البريطانيّة - الطّرق إلى بغداد - الخدم في حلب - قصة تلميذ - القرار بسلوك طريق الفُرات - التّختروان - تأخير وثوران - تحضيرات وإعاقات - صعوبات أخرى - اشتريت مركبة المطران - التذاكر وجوازات السّفر.

قضيت عشرة أيام في التجول في هذه المدينة، ودوّنت ملاحظاتي عن المكان لأستطيع كتابتها في وقت لاحق بسبب التأخير غير المتوقّع. وقد خصّصت صفحة أو صفحتين عن الصّعوبات التي يمكن أن تعترض من يقوم بزيارة سياحيّة إلى سوريّا للمرة الأولى.

يقع فندق العزيزيّة، الذي نزلت فيه، في ضاحية تحمل الاسم ذاته وتقع في غرب المدينة، وصاحب الفندق رجل أرمني. ومع أن المكان لا يستحق اسم الفندق، فهو مريح. حالما تدخل من الشّارع إلى الفسحة، تصادف بئراً في الوسط وعن يمينك ويسارك هناك مبنى من طابقين. والطابق العلوي، الذي بُني مؤخراً تصعده بسلم خشبي من وسط الفناء لتصل إلى أربع غرف، لكل منها شرفة. أما الطّابق السّفلي ففيه مرافق الفندق والبهو العمومي وغرفة الطّعام. عندما وصلت كانت الغرف جميعها مشغولة عدا واحدة، وكانت فارغة من أيّ أثاث، لكنها نظيفة. وفور وصولي أرسل



نخيل وأهرامات

صاحب الفندق شخصاً لتأمين سرير حديدي وبعض المستلزمات المهمّة لتأمين الرّاحة. تمَّ تجهيز السّرير أثناء غيابي في السّوق، وعندما عُدت نمت باكراً من شدّة التّعب مؤملاً نفسي بنوم مريح داخل الأغطية النّظيفة. لكن سعادتي لم تدم طويلاً، فسرعان ما أحسست بزلزلة في السّرير وأصبح رأسي ورجلاي في الأعلى وجسدي في الوسط وعلى الأرض. ربما كان الشّخص المكلف بتركيب السّرير على عجل، لذلك انزلقت الألواح الحديديّة التي تحمل الفراش. حاولت النّوم عدة مرات بثني جسمي كالرّوبيان تارة، وبالاستلقاء تارة أخرى لكن دون جدوى، فذهبت أستطلع الموضوع وكم سُررت عندما علمت أنني لم آتِ في الوقت الذي ستتكرّر فيه الهزة الأرضيّة التي حصلت عام 1822 م في حلب. عندها عدت إلى فراشي وبذلت جهدي للمحافظة على توازني. أمضيت ليلة مريحة نوعاً ما. كان أغلب النّزلاء من الأتراك، بالإضافة إلى اثنين من الأطباء العسكريين وعدد من الأفنديّة الذين يلبسون الطّرابيش، وقد أتى بعضهم للتّجارة في حلب. تناولت غدائي وعشائي مع هؤلاء الأشخاص في الطّابق الأرضي، أما الإفطار فقد تناولته في الغرفة مشاركة مع النّزلاء. سألني الخادم قره بِت عما أريد تناوله للإفطار فأجبته: «قهوة وخبز وزبدة وبيض». لكن البيض المسلوق لم يكن معروفاً في هذا الوقت في المطبخ الأرمني، واكتشفت أن البيضات الخمس التي أحضرها لي ما تزال بمحتوياتها السّائلة كما هي لدى خروجها من الدّجاجة. كانت احتجاجي بلا فائدة، فهو لم يسبق له أن قام بسلق بيضة. للعرب مفرداتٌ غريبة، فهم يقولون عن التدخين: شرب الغليون أو شرب النّرجيلة (shrub narjileh) أو التّبغ[1]. لهذا رغم اعتراضي على البيض السّائل البارد، فإنني كنت مرغماً على شرب بيضاتي الخمس المخصّصة للإفطار صباح كل يوم. ربما لم أكن لأستطيع تغيير الطّريقة التي يطهو بها الخادم إلا إذا وقفت إلى جانبه في الفناء وهو يطبخ والسّيف بيد والسّاعة باليد الأخرى.

---

(1) هذا التعبير الغريب منقول عن التركيّة: Sigara içmek أي: شرب السّيجارة، وهو يستعمل في اللغة التركيّة والعاميّة الشامية إلى اليوم.

لقد تعلّمت بعض المفردات العربيّة في السّنتين الماضيتين في مصر وتلقيت في لندن دروساً في اللهجة العاميّة السّوريّة. لكنني وجدت في اللهجة الحلبيّة اختلافاً واسعاً، بحيث أن معرفتي بالعربيّة كانت دون جدوى. بالإضافة إلى القليل من العربية كان النّزلاء في الفندق يتحدّثون التُّركيّة والأرمنيّة، لهذا كنت مسروراً عند ظهور صديقي الصّغير جليل مبدياً خدماته لمرافقتي في رحلتي إلى بغداد. ربما لم تكن الفكرة مناسبة، فأخْذ فتى صغيرٍ في رحلة بطول ثمانمئة أو تسعمئة ميل براً هو ضرب من الجنون، لكنني وجدته ذا فائدة عظيمة لي هنا في المدينة. لقد كان ذكيّاً ومسليّاً وممتلئاً بالمرح، أما فضوله وجشعه فيسبب بعض الإزعاج. لقد كان يتفحّص سترتي النّورفولك Norfolk وبنطالي النّيكربوكرز Knickerbockers، وهو زي غريب بالنّسبة إليه. وقد يسألني عن ثمنهما ويتبعه بالسماح له بأخذهما كتذكار مني عندما أغادر إلى بغداد. حاول أن تتخيل هذا الفتى وهو يرتدي هذه الملابس مع الطّربوش؛ إنه أمر مثير للضحك، ولكن لو كان هناك خياط إنكليزي في حلب لصنعت له زياً كهذا.

كان جليل بارعاً جداً بالكذب، وهي صفة لا تجدها إلا عند الصّبية الشّرقيين الماكرين. سألته في إحدى المرات إن كان يستطيع قراءة كلمات باللغة العربيّة القديمة، عمرها أربعمئة سنة، مدوّنة على بئر قديم، فأخذ يتفحّص الكتابة بجديّة ليقول بكل ثقة إنه اسم السّلطان عبد الحميد خان، الملك الحاليّ للبلاد.

كان الغداء والعشاء في الفندق حسب التوقيت التُّركي في الثانية عشرة والسّادسة على التوالي، وهو توقيت مُربك لأيّ أوروبي. والتوقيت التُّركي يبدأ منذ شروق الشّمس، لهذا تقدَّم الوجبات باكراً. هذا والطعام تركي بمجمله، حيث أن الأطباق الرّئيسيّة هي البيلاف والكباب واليوغُرت[1]. وبالطّبع لم يكن أحد يشرب الخمور على المائدة باستثنائي والطبيب اليوناني، إلا أن الأفنديّة يشربون العَرَق قبل الطّعام مباشرة حيث تراهم وهم يأكلون وجبتهم بغاية البهجة. والسّؤال هو فيما إذا كانت عادتهم أن

(1) كتب المؤلف: البيلاف أرز مع قطع صغيرة من اللحم، والكباب لحم مشوي على الأسياخ، أما اليوغُرت فهو الحليب الخاثر ويدعوه العرب اللبن.

يأتوا إلى الطّعام فرحين أفضل من عادتنا بالانتهاء من الطّعام ونحن فرحون. سألني شابٌ تركي إن كنت قد تذوقت العَرَق يوماً، فأجبته: «لا، أليس نوعاً من الخمر؟» لكنه أصيب بالهلع وقال إنه جعة مرّة، أو حسب ما نقول في إنكلترا شراب نافع للمعدة ومساعد على الهضم. كانت الدّار تعجّ بالأتراك، لذلك كانت الشّوكات والسّكاكين ضروريّة على المائدة. أما المفرش الذي يغطّيها فلم يعرف الماء والصّابون أبداً منذ افتتاح الفندق. وكان كل ضيف يمدّ يده ليخدم نفسه، فتقع أجزاء الطّعام على المائدة. ولحسن حظّي كان الجميع يتيح لي الفرصة بالأكل أولاً. وكان واحد أو اثنان منهم يتكلّمان الفرنسيّة.

لم أنظّم مصروفي في بادئ الأمر، وقد كانت الفاتورة في فندق العزيزيّة ثمانية فرنكات في اليوم تشمل الطّعام والنّوم. ولو أنني قمت بتنظيمه لكان أقل من هذا بكثير.

كان أحد أهم الأمور التي فعلتها في حلب هو الاتصال بقنصلنا السّيد جاغو Mr. Jago، الذي ساعدني كثيراً وأكرمني والسّيّدة زوجته ووضعني على الطّريق الصّحيح لإجراء استعداداتي للرّحلة، وقدّم لي الكثير من المعلومات المفيدة أثناء الجولات العديدة التي قمنا بها معاً داخل المدينة. تقع القنصليّة في حي قريب من العزيزيّة، وهي مؤلفة من دور واحد تحيط به حديقة جميلة. وفي خلال إقامتي لأحد عشر يوماً في مدينة حلب، كنت متلهفاً لأمضي ساعات من المتعة في القنصليّة[1].

لقد كنت في غاية السّرور عندما علمت أن الكوليرا لم تعد تشكل خطراً في هذه المنطقة. بينما كان هناك في السّنة المنصرمة 900 حالة وفاة و 1400 حالة في السّنة التي سبقتها. أما الإنفلونزا التي كانت تنتاب إنكلترا عند مغادرتي لها، فهي تتواجد في حلب بشكل عادي لا يدعو إلى الخوف. وهي تسمى هنا (أبو الرُّكب) "Abu Rakab" لأن المريض يشعر عند إصابته بالمرض بضعف في أطرافه. أخبرني المستر جاغو Mr. Jago بأنني المسافر الأوروبي الوحيد الذي وصل إلى حلب في السّتة أشهر

---

(1) كتب المؤلف: يوجد في القنصليّة بقايا من حملة وادي الفُرات Euphrates Valley Expedition، هي مدافع تحمل تاريخ عام 1817.

المنصرمة، وهذا دليل على أن المدينة بعيدة تماماً عن طريق المسافرين[1]. يوجد هنا في حلب القنصل البريطاني وأسرته، وأرملة، وابنة القنصل الذي كان قبله، بالإضافة إلى عدد قليل من الجنسيّات الأوروپيّة، يقيم معظمهم في ضاحية العزيزيّة ولا يوجد حيّ إفرنجي Frankish مخصّص لهم.

آخذني المستر جاڠو في اليوم الأول لزيارة رجل إيطالي يدعى ستانو Stano، يعمل الآن في إدارة شركة التّبغ الحكوميّة، وهو يعرف جيّداً معظم الطّرقات بين حلب وبغداد. كان كلامه وديّاً ومناقشاته مُجدية، وقد أخبرني أن هناك ثلاثةَ طرق للوصول إلى بغداد:

1 - طريق وادي الفُرات، ويحتاج إلى السّفر بقافلة من الجمال أو العربات إلى النّهر ثم السّير مع مجرى النّهر إلى نقطة تقع بالقرب من بغداد، يتم بلوغها بالسير مسافة قصيرة عبر الجزيرة. وتستغرق هذه الرّحلة 19-25 يوماً.

2 - طريق بيره جِك - أورفه - ماردين - الموصل، ومن هناك بواسطة الكلّك (الطوف) إلى بغداد على نهر دجلة.

3 - طريق بيره جِك - دياربكر، ومن هناك بواسطة الكلّك إلى الموصل وبغداد.

كان الطّقس في غاية البرودة في هذا الوقت من السّنة، لذلك كان اعتراضي على الطّريقين الثاني والثالث بسبب أن الممرّ الجبلي في الطّريق الثالث ربما يكون مغلقاً بسبب الصّقيع، وهذا يمثّل عقبةً كبيرةً بالنّسبة لي على اعتبار أنني تعافيت من الإنفلونزا قبل مدّة قصيرة. كما أن الأشخاص الذين يسلكون هذه الطّرقات معظمهم من الأتراك والأرمن، ولا بد أنني سأجد صعوبة في التخاطب معهم، ومن غير المحتمل العثور على مترجم جيّد ومرافق أمين في الرّحلة. لذلك اخترت الطّريق الأول، حيث الشّمس المشرقة على طول الطّريق، ويمتد بمعظمه عبر الصّحراء على أكناف الفُرات. بالطبع

---

(1) كتب المؤلف: في هذا الخصوص لا أعتقد أنه يقصد الأوروپيين المرتبطين بحلب أو ضواحيها، كالقناصل والتجّار أو المرسلين.

ستكون الرّحلة شاقّة، إلا إذا أخذت الكثير من المؤن. كما أن هناك خطورةً من تعرّضنا إلى السّلب من عرب الصّحراء. إلا أن السّيّد جاغو والسّيّد ستانو كانا قد سمعا بأن رجلاً إنكليزيّاً سلك هذه الطّريق بأمان من قبل. مع ذلك كان لا بد لي من مرافق أو اثنين من الدّرك السّوارية (الخيّالة).

بعد تسليحي بهذه المعلومات، بدأت أبحث عن خادم يستطيع تكلّم الإنكليزيّة لمرافقتي في الرّحلة. أول رجل تقدّم لهذه الوظيفة كان رجلاً يونانيّاً، أسمر البشرة، يبدو عليه الذكاء، ويرتدي الملابس الأوروبيّة، والأهم من ذلك أنه يتحدّث الإنكليزيّة بطلاقة. أخبرني أنه اشتغل كمترجم لطاهٍ في دمشق، وأنه يعرف جميع طرقات السّفر إلى الشّرق، وأن السّيّد والسّيّدة جاغو يعرفانه جيّداً، وكذلك القنصل اليوناني، ووعدني أنه سيتصل بي في اليوم التالي. لكنّه لم يتصل، وعلمت بعد ذلك أن كلَّ كلامه كان باطلاً. فهو قد وصل إلى حلب بدون أوراق، مما اضطر الحكومة إلى زجّه في السّجن، وقام القنصل اليوناني بإخراجه. لهذا كان خيراً لي أن أسافر بغير خادم من أن أرافق شخصاً مشبوهاً كهذا. المتقدّم الثاني، شابٌّ أرمنيّ يدعى بوغوص، له عينان غائرتان جميلتان. أبلغني أنه غير حاذق بأمور الطّبخ (وهو الشّيء الوحيد الذي طلبت الخادم من أجله)، وكان يتكلّم بضع كلمات بالإنكليزيّة كان قد تعلّمها في مركز لبعثة أميركيّة. وقال: «إذا أحببت خذني معك». فسألته كم يطلب لمرافقتي لمدة ثلاثة أسابيع فأجاب: «نابليون[1] واحد» وقد أذهلني ذلك، في حين طلب اليوناني 10 باوندات. وعلمت بعد ذلك أنه شخص سيّئ فصرفت النّظر. وبعده جاءني طاهٍ محترفٌ، يتحدّث العربيّة والتُّركيّة ولكنني أبعدته في الحال بسبب ملامحه البغيضة.

بعد ذلك، أخبرني الطّبيب العسكري اليوناني في الفندق أنه يعرف رجلاً ممتازاً يتحدث الإنكليزيّة بطلاقة ويتمتّع بشخصيّة رائعة. جاءني في اليوم السّادس، وكانت ملامحه تدل على الطّيبة والأمانة. كان يعرف عدداً متناثراً من المفردات الإنكليزيّة، وقال إنه يعرف الطّبخ قليلاً. عرضت عليه باوندا واحداً في أسبوع الرّحلة وباوندين

(1) النّابليون عملة فرنسيّة قديمة تساوي عشرين فرنكاً تقريباً.

لدى عودته إلى أهله من بغداد، إن أراد العودة. كان يبدو ميّالاً للقبول، لكن سيّده دخل فجأة إلى الفناء ودعاه للتحدّث معه. أخبرني عندما عاد بأنه يتقاضى 10 پاوندات في الشّهر وإذا سافر معي سيفقد عمله لأجلي، لكنني بعد ذلك علمت أنه يتقاضى 30 شلناً في الشّهر. في الوقت نفسه، فإنّ لهذا الشّاب قصة غريبة. كان طالباً في إسطنبول، ونتيجة لعوزه الدّائم للمال، عرض عليه أفندي طبيب أن يوفّر له وظيفة مقابل بقشيش مقداره 15 پاونداً. لهذا باع الشّاب جميع ما يملك، لكن سيّده الأفندي، لسبب ما، لم يفِ بوعده ولم يعد للشاب أمواله، فأصبح غارقاً في الدّين. وإن كانت هذه القصة صحيحة، فإنها تدفعني إلى عرض أجر أفضل لقبوله العرض. لذلك أرسلت في طلبه وعرضت عليه دفع المزيد، لكنه اعتذر عندما استلمت جوابه بأن مستخدمه الجديد قد رفع أجره إلى 3 پاوندات في الشّهر، وأنه قرّر عدم الذهاب معي. وبهذا كنتُ سبباً في تحسّن وضع هذا الشّاب سيّئ الحظ.

اتخذتُ قراريَ أخيراً بالذهاب بمفردي دون خدم. سأسلك طريق الفُرات، ولذلك أخذت أقوم بالاستعدادات لهذه الرّحلة. ذهبتُ إلى المدينة، وفجأة بادرني رجل طويل وسيم المظهر بالكلام وعرض عليّ أن يكون خادمي في الرّحلة. كان يتحدّث القليل من الفرنسيّة، لكنه لا يعرف الإنكليزيّة، مع ذلك شعرت بالثقة من طلتّه البهية. دعوته لمرافقتي إلى القنصليّة البريطانيّة، وفي الطّريق التقينا بالسيّد جاغو، الذي تبيّن أنه يعرف الشّخص جيّداً، فأثنى على شخصيّته وأخلاقه الممتازة. لقد كان طباخاً في القنصليّة الفرنسيّة، وكان في نيته أن يأتي معي إلى إنكلترا للانخراط في الجيش الإنكليزي، وعليّ الاعتراف بأنه لن يُلحق العار ببزّة الجيش، ولكنني أخبرته بصراحة أنه ربما لا يمكنني إبقاؤه كخادم لي بعد مغادرتي بغداد. مع ذلك فقد عرضتُ عليه پاونداً واحداً في الأسبوع طالما بقي في خدمتي ووعدته بأن أعطيَه ما هو ضروري لعودته إلى حلب، وهو مبلغ يتم الاتفاق عليه في القنصليّة ببغداد. ورغم حزنه على تبدد أحلامه، فقد وافق على هذه الشّروط، وتم الاتفاق على اللقاء في القنصليّة صباح اليوم التالي. كنت سعيداً، وأخيراً التقيت بالشاب الذي سيرافقني؛ ويبدو أن أحوالي

قد تبدّلت للأحسن. لكن فرحتي لم تدم طويلاً، فقد عاد جورج - هذا هو اسمه - في اليوم التالي على عجل وأخبرني أنه لا يستطيع توقيع العقد، فالمبلغ المدفوع قليل، وهو يريد 10 باوندات كالآخرين. كان هذا الأمر لا يحتمل، لقد تمّت رشوة هذا الرّجل الأمين ويبدو أن القصة دائماً ضدّي، فلا أحد يريد مساعدتي أو مرافقتي في رحلتي. رفض جورج عرضي، بالرغم من أن أجور الخدم في تلك البلاد رخيصة جداً. لذلك قرّرت أخيراً عدم السّعي مجدداً لطلب أي خادم، وخصوصاً أن الخبر قد انتشر في المدينة بأن رجلاً إنكليزيّاً موسِراً يريد الذهاب إلى بغداد بغية التفرّج على الأماكن، وهو لا يريد التجارة أو ما شابه. لو كنت قد أشعت بأنني تاجر إنكليزي، لكان الأمر قد اختلف. عِشْ وتعلّم.

ظهر شخص آخر قبل مغادرتي مباشرة يعرض عليّ 6 باوندات مقابل مرافقتي، لكنني كنت قد اتخذت قراراً نهائيّاً ورفضت الطّلب دون مناقشة.

قرّرت الذهاب إلى بغداد وسلوك طريق الفُرات لأسباب عدّة، أولاً أنني أعرف عدة كلمات بالعربيّة، وهي اللغة المتداولة في هذا الطّريق ذي الطّقس الجميل، في حين أن السّفر دون مترجم في أماكن يتكلّم شعبها التُّركيّة والأرمنيّة سيخلق لي المتاعب. هناك أيضاً سببٌ آخر هو أن هذا الطّريق أقصر الطّرق، وتأخير يوم أو أكثر سيضعني في مهبّ الرّياح الموسميّة في الخليج والمحيط الهندي عند عودتي إلى أوروبا. يبدو أن الصّعوباتِ قد تكالبت عليّ، فقد ظهرت حبّة مؤلمة في جنبي كانت السّبب في قلب الخطط جميعها، فأنا لم أعد أستطيع ركوب الخيل الآن ولا تحمّل إجهاد السّفر. لذلك اقترح السّيد جاغو عليّ أن أستعمل التّختروان في سفري، وهو عبارة عن صندوق خشبي - كان يستعمله الفُرس في سفرهم - مربّع، له أبواب وشبابيك وزوج من الأعمدة من الأمام والخلف، حيث يتم حمله بواسطة البغال أو الخيول القويّة. وأستطيع فيه إما الجلوس أو الاستلقاء حسب رغبتي، وبفضله لا أخشى المطر أو حرارة الشّمس القويّة.

أخذ السّيّد ستانو يبحث لي عن بغال وسائقين من خلال وكالته. ويعتمد معدّل

إيجار حيوانات القافلة على السّعر السّائد للعلف في البلاد. أخيراً استأجرت ستة بغال وتختروان من حلب إلى بغداد بـ 90 مجيدياً - أي دولار تركي - وقد تقرّر أن يرافق القافلةَ ثلاثةُ خدم هم سائق البغل (وهو القاطرجي بالتُّركيّة والمكاري بالعربيّة)، واثنين من السّيّاس (akams). كما استأجرت التَّخت، وكان سعر الإيجار أقل بخمسة مجيديّات من سعر الشّراء. أستطيع القولَ الآن إن الترتيباتِ قد تمّت. وفي اليوم الرّابع عرّفني السّيد Stano ستانو إلى طبيبٍ في الجيش اليوناني يريدُ السّفرَ إلى بغدادَ. وكانت هناك قافلة أو أكثر تستعدّ للمغادرة في السّابع والثامن والتاسع من فبراير، فاقترح عليَّ أن أرافقها. في اليومِ السّابع سمعت أن أحدَ الباشوات قد وصل إلى المدينة في طريقه إلى بغداد، لذلك أرسل الطّبيبُ إلي بأنه علينا البدء بالرحلة في التاسع من الشّهر. لم أرَ أيّة علاماتٍ تدلّ على وجود باشا في الفندق سوى خيمة مطويّة في الفناء، وكان الشّاب الهزيل، غريب الأطوار، صهر الباشا قد أضفى البهجةَ على مجلسنا. في اليوم التالي ذهبْتُ والسّيّد يوسف، وهو تاجر مسيحي كلداني من حلب. كان مقيماً في بغداد ويعمل في أحد بيوت التجّار الإنكليز، لذلك فهو يعرف كلمات متناثرة من الإنكليزيّة، ولديه خبرة وافية في تجارة القوافل مع بغداد. إنه رجل ذو فائدة كبيرة، يتمتّع بطلّة بهيّة، ويرتدي زياً أوروبيّاً على غرار باقي الأشخاص. لقد اصطحبني إلى عدّة دكاكين لشراء ما يلزم للرّحلة من شموع ولحم معلّب وشوكولاتة وقهوة وأرز وكيسٍ من البسكويت القاسي بشكل حلقات يدعونه: "kak" (كعك) وزبدة وبراندي (تحسّباً للمرض) وكميّات كبيرة من التّمر والتّين. إضافة إلى ذلك، فقد اشتريت أوانيَ للطبخ كالقدورِ والمقالي، وقنينة ماء جلديّة تسمى (المطرة)، وخرجاً كبيراً ذا قفل ومفتاح لحمل هذه المؤن كلها، ابتعته من السّيد يوسف نفسه. عندما كدّست المؤن في غرفتي، علمتُ أنني أصبحت أمتلك الكثير وأدركت للمرة الأولى أنني سأدخل الصّحراء. بعد ظهر اليوم ذاته، جاءني جليل ليقول إن الباشا سيؤجل سفره حتى يوم السّبت في الثاني عشر من الشّهر. عندما سمعت هذا النّبأ، كنت ميالاً للسّفر بمفردي، لكن بناءً على نصيحة مستر جاغو Mr. Jago والسّيد ستانو Stano كان عليَّ التحقق من أمر السّفر، وإن كانوا فعلاً سيسافرون في ذلك اليوم، فيتوجب عليّ الانتظار. كنت أشعر أنه قد يكون من

الأفضل السّفر بمفردي، لكن من جهة أخرى، فإنّ مرافقة أحد الباشوات في السّفر شيء لا يُستهان به. في اليوم التالي جاءني المكاري والسّيّاس يطلبون مالاً على تأخير السّفر. لكنني رفضت، فغادروا فرحيْنِ؛ لقد كان مجرّد اختبار.

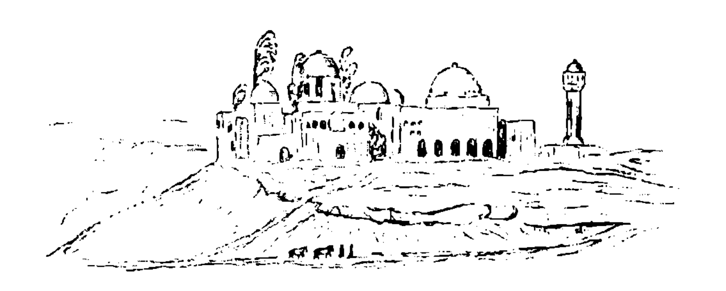
في العاشر من فبراير، ازدادت المصاعب مرة أخرى، فقد قرّر الباشا عدم السّفر في هذا الأسبوع، لذلك أرسلت إلى رجالي ليستعدوا للرّحيل في الحال. وقد حدثت مشكلة بسبب التَّختروان الذي استأجرته، وهو بناء على شكل غرفة قويّة الصّنع بحيث أني قد تحققت بالتجربة بأنني أستطيع الرّقود عليه بطولي الكامل، لكنني اكتشفت بأن التَّخت الذي يريدون إرساله الآن مختلف عن الأول، لذلك طلبت رؤيته. كان معروضاً في ساحة وملقى أمام أحد الجدران، كما كانت صناعته قديمة، مزعزعاً، ذا شبابيك وأبواب مفككة، وهو أصغر بكثير من التَّخت الأول. وعلى الفور عرفتُ أن في القضيّة خدعةً وأخبرت يوسف بالأمر وطلبت إعادة أموالي التي دفعتها وأنني لن أسافر مطلقاً إلا إذا أرسلوا التَّخت الذي طلبته أولاً. كان التَّخت الذي رأيته سابقاً ملكاً لبطريرك في أحدى الكنائس المسيحيّة في الموصل، سافر فيه إلى حلب وتركه هناك بغرض بيعه. وعندما تفاوضت مع يوسف، وجد صاحب بغال يرغب بشراء التَّخت عند وصولنا إلى بغداد حيث يحاول بيعه ويجني ربحاً من خلاله، حيث أنّ أمثال هذه التخوت تستعمل بكثرة على طريق الحج إلى كربلاء. لكن يوسف علم من أحد الأشخاص أن صاحب البغال رجل سيّئ السّمعة، لذلك قرّرت شراء التَّخت، ونجح يوسف في شرائه بـ 4 نابليونات، وهو ثمن زهيد لعربة البطريرك الخاصة.

حصلت من السّيّد جاغو على عدد من الوثائق الشّخصيّة الضروريّة للسّفر. أولاً، التذكرة[1] teskereh أو جواز السّفر التُّركي. وهي ورقة غريبة مرسوم عليها الطّريق الذي سأسلكه وعليها ستّة أختام. ثانياً، رسالة تعريف عامة ضروريّة في السّفر عبر بلاد كثيرة السّكان، لكنها في الفُرات الأسفل تفقد قيمتها في الصّحراء، إذ لا يمكن تقديم الشّخص هناك إلا لبدو عرب عُنزَة، وأبناء الصّحراء هؤلاء لا يهتمّون مطلقاً بكتب

(1) كتب المؤلف: أو بشكل أدق تسمّى: "tethkireh".

التعريف تلك، فهم لا يستطيعون قراءتها. وأخيراً، تذكرة أصغر من الأولى تسمح لي بحمل مسدس. وبعد أن تسلّحت بكل هذه الوثائق، أصبحت جاهزاً للسّفر.

* * *



تكيّة الشّيخ بكر

الفصل الرّابع
شيء عن حلب

التاريخ - المركز الإنكليزي - الوصف - الأبعاد - الأسوار والبوابات - قلب المدينة - البيوت والطّرقات - الأسواق - المساجد - القلعة - زيارتي لها - خان الوزير - الفخامة - الضواحي - المقابر - الآبار - الشّيخ بكر - التمازج السّكّاني في حلب - التهذيب في حلب - قلّة التعصّب - الزّي - الطّقس - حبّة حلب - حياة الشّارع.

لدى الحلبيّين قصة عن مدينتهم، تفيد أن النّبيَّ إبراهيم وقف على هذا التلِّ، الذي هو الآن قلعة حلب، عندما كان في طريقه إلى أرض كنعان. ولا يزال إلى الآن يوجد الجامع الذي يخلّد ذكراه عند أسوار القلعة. ويقال بأنه في ساعات معيّنة من النّهار كان الشّيخ يقوم بتوزيع الحليب على القرويّين القادمين من قرى بعيدة وتنتشر بينهم كلمات كـ «إبراهيم حَلَبَ» أو «إبراهيم حَلَبَ الشّهباء» أي أن إبراهيم يقوم بحلب البقرة. ومن هنا جاءت تسمية المدينة التي تحوّلت منذ أمد بعيد إلى (Aleppo) بالإنكليزيّة.

تمثّل مدينة حلب مدينة «بيرويا» Berœa القديمة، التي من المفترض أن من أسّسها هو سلوقوس نيكاتور مؤسس أنطاكية وسلوقية قرب بابل. وقد توقف الإمبراطور المرتدّ يوليان في هذا المكان وهو في طريقه من أنطاكية للقيام بحملته الحاسمة ضد الفُرس في القرن الرّابع. وفي عام 611 م استولى الملك السّاساني خُسرو الثاني، القادم من (هيراپوليس) على المدينة وحرقها، رغم أنه قد عجز عن اقتحام القلعة. وفي عام 636 م، حاصر المسلمون المدينة بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد «سيف الله». وقد ذكرت بعض الأخبار أن المقاومة كانت ضعيفة، بينما ذكرت روايات أخرى أن حامية المدينة قد تكبّدت خسائر بشريّة تقدّر بـ 3000 رجل، لكنها ظلّت صامدة. وبعد حصار دام عدّة أشهر، تمّ الاستيلاء على المدينة من خلال خدعة حربيّة غريبة. فقد حمل رجل عربي قوي يدعى «دامِس» عدداً من رفاقه على كتفيه، وبهذه الطّريقة تمَّ الدّخول عنوةً إلى القلعة حيث ذُبح الحرّاس جميعُهم وفتحت الأبواب أمام المحاصرين. بعدها، أصبحت المدينة عاصمة الملوك الحمدانييّن. وفي القرن العاشر، سقطت بأيدي البيزنطييّن، إلا إنها أظهرت مقاومةً شرسةً ولم يتم الاستيلاء عليها. وفي عام 1114 م تعرّضت المدينة لهزّات أرضيّة، أحالتها إلى أنقاض. وبعد عشر سنوات حاصرها الصّليبيّون بقيادة بالدوين، إلا أن ارتفاع منسوب المياه في النّهر أدى إلى غرق معسكر المحاصرين الذين اضطروا إلى التراجع إلى أنطاكية. وفي عام 1139 - 1170 م دمّرت الهزات الأرضيّة العنيفة المدينة، حيث أعاد نور الدّين زنكي بناءها. وفي عام 1183 م استولى صلاح الدّين القائد المقدام على المدينة وورثها من بعده ثالث أبنائه الملك الظاهر. وفي عامي 1260 و1280 م دُمّرت المدينة على يد المغول. حيث جرت مذبحة في عام 1260 م لمعظم أهالي المدينة من قبل القائد هولاكو المتعطّش للدّماء. أما في السّنة الأولى من القرن الخامس عشر، فقد نهبت قوات المنتصر تيمورلنك المدينة. وفي عام 1427 م أعيد بناء التّحصينات. وفي عام 1516 م أصبح السّلطان التُّركي حاكماً على حلب، بعدما تمكّن أخيراً من دحر السّيطرة المملوكية.

يقول ڤان إغمونت Van Egmont، الذي جاب المنطقة في منتصف القرن الثامن عشر: «تُعدّ المدينة مشهورة إلى حدّ ما بكونها مسقط رأس الرّجل الذي ادّعى في القرن الماضي بأنه «المسيح»، وهو تسيڤي ابن بائع الطّيور»[1].

في نهاية القرن السّادس عشر، افتُتح مركزٌ للتجارة برّاً مع بلاد فارس والهند على يد التجّار الأتراك. وكان الفرنسيّون وتجّار البندقيّة قد أسّسوا مركزاً مماثلاً فيما مضى. بعد ذلك تمّ تعيين قنصل إنكليزي في المدينة، وقد أقرّ به السّلطان. وكان أول قنصل إنكليزي بعد عام 1582 م يدعى باريت Barret.

في هذه الفترة، كانت هناك جالية إنكليزيّة تقيم في حلب. كان عدد أفرادها في عام 1605 م ثلاث عائلات فقط. تمثّل عائلة القنصل واحدة منها، والذي كان تاجراً في ذلك الوقت. وفي عام 1738 م يخبرنا پوكوك أن عدد بيوت التجّار الإنكليز بلغ ستّة أو سبعة بيوت، لكن تجارتهم لم تكن بقوّة وجودة ورخص السّلع الفرنسيّة. وفي عام 1740 م كان المركز يتألف من القنصل وعشرة تجّار وقسّ وسكرتير وطبيب. وفي عام 1753 م، ذكر أصبح عدد البيوت ثمانية عدا بيت القنصل. يقول ڤان إغمونت Van Egmont في عام 1759 م «يملك التجّار الإنكليز عشرين بيتاً، أما راتب القنصل فهو 4000 پاوند وعليه عدم ممارسة مهنة أخرى أو أي عمل تجاري». في عام 1727 م، قلّ عددُ البيوت إلى أربعة فقط. وقد أسهم افتتاح طريق رأس الرّجاء الصّالح في تسديد ضربة قاسية للمركز.

كان موظفو المركز في زمن السّيّد رَسل Russell هم القنصل والقسّ والسّكرتير والطبيب وموظف يُلقّب بتسمية[2] "chause" (قوّاص)، الذي كان يتمشّى أمام

---

(1) المقصود المتصوّف اليهودي الشّهير شَبّتاي تسيڤي Sabbatai Zevi وبالعبريّة: שַׁבְּתַאי צְבִי وبالفعل كان أبوه طيورياً. عاش في إزمير بالقرن السّابع عشر، وادّعى أنه المسيح المنتظر لدى اليهود.

(2) كتب المؤلف: بخصوص هذه التسمية، أودّ إرفاق مقطع من العمود الأسبوعي الذي يكتبه المستر سالا Sala في صحيفة (صنداي تايمز) *Sunday Times*: إنّ عبارة Chouse ذات أصل غريب جداً، يبدو أنّ الكاتب في صحيفة (دايلي نيوز) *Daily News* ليس عارفاً بها. ولقد كانت

القنصل حاملاً الصّولجان ذا الرّأس المفضّض. وهناك أيضاً مترجمان أو دليلان واثنان من الإنكشاريّة. «عندما يذهب القنصل في مقابلة رسميّة مع شخص ذي مقام رفيع، فإنّ أدلّاء الشّرف يمشون خلف جنود الإنكشاريّة اثنين اثنين يسبقهم الموظف[1] chause، ثم يمشي الأدلاء الرّسميّون، بعد ذلك مباشرة يسير القنصل ويتبعه جميع الرّجال الخاضعين للحماية البريطانيّة».

وقد بيّن السّيّد رَسل أن المقيمين الأوروبيّين في ذلك الوقت كانوا من الإنكليز والهولنديّين ومن البندقيّة. وكانت الإيطاليّة تسمّى باللغة الإفرنجيّة في ذلك الوقت. في عام 1605 م، كانت هناك خمسُ عائلاتٍ فرنسيّة وأربع عشرة عائلة من البندقيّة، إضافة إلى عائلة القنصل. وفي عام 1753 م، كان عدد البيوت الفرنسيّة التي تعمل بالتّجارة تسعة بيوت ثم قلّت في عام 1772 م لتصبح ستّة أو سبعة بيوت فحسب[2].

يروي ڤان إغمونت Van Egmont قصّة يعدّها مشرّفة للإنكليز (ولا نعلم إن كانت صحيحة) بأن جنديّاً إنكشاريّاً سكّيراً قتل خادماً أرمنيّاً يعمل عند تاجر إنكليزي. فما كان من الإنكليزي إلا أن بذل مبلغاً مقداره 1000 سكوين[3] كرشوة للقضاء للاستعجال بالحكم على الجندي، حيث تم شنقه أمام القلعة. يقول ڤان إغمونت «لقد كلّف الأمر التاجر الإنكليزي بضعة آلاف من القروش (البيزو)». ربما كان الدّافع الوطني هو الذي

تسمّى قديماً: "chiaus" أو "chiauz" أو "chaous"، وهي جميعها كلمات مصحّفة عن عبارة تركيّة تعني: الرّسول، أو الوكيل أو الترجمان. ولقد حصل في أيام حكم الملك جايمس الأول أنّ تاجراً تركياً قد نصب على بعض التجّار المتعاملين مع تركية بمبلغ كبير من المال، ولاشتهار هذه الحادثة أضحت الكلمة تعني الغش والنّصب، وهذا ما أدّى إلى ظهور فعل: to chouse. والكاتب بن جونسون يذكر "chiaus" في روايته الخيميائي "Alchemist".

قلت: أخطأ مستر سالا في تحليله، فالعبارة في التركيّة: قوّاص، كانت تطلق على الحارس الأرناؤوطي الذي يسير أمام القناصل الأجانب. بينما معنى الرّسول في التركيّة: أولاق ulak، وأما الرّسول الموفد بمهمّة فيسمّى: إلچي elçi.

(1) أي القوّاص.

(2) كتب المؤلف: حتى عام 1850 ذكر رحّالة إنكليزي أن هناك بعض التجّار الإنكليز هنا

(3) السّكوين: نقد ذهبي تركي أو إيطالي قديم.

دعا ڤان إغمونت Van Egmont إلى تصديق هذه القصّة. ولقد علّمتني التجربة أن ثُلث القصص التي تسمعها في حلب صحيحة، ومن المحتمل أن تكون هذه القصّة محرّفة.

في عام 1822 م، هزّ زلزالٌ ضخمٌ المدينة، فدمّر جزءاً منها ودُفن آلاف السّكّان تحت الأنقاض، ويقال بأن ثلثَ عدد السّكّان وثلثي البيوت قد دُمّرت. كذلك في عام 1830 م، حدث زلزالٌ آخر لكنّه أقل شدة. وفي السّنة التي تليها، فتح إبراهيم پاشا سوريّا وبقيت حلب تحت الحكم المصري حتى عام 1839 م، حتى عادت جزءاً من الإمبراطوريّة العثمانيّة بعد تدخّل إنكلترا وعادت حلب مدينة تركيّة.

تقع حلب في وسط أرض جرداء في الزّاوية الشّماليّة للصّحراء السّوريّة الكبرى. وقد بنيت على ثماني هضاب، وإلى الغرب منها ترتفع سلسلة من التلال الحجريّة الملتوية، التي لا بدّ لكل مسافر من اختراقها قبل أن يصل من السّاحل إلى المدينة. وفي أسفل المدينة يجري نهر حَلَب Kuweik Su (قويق صو) الذي ذكره كسينوفون Xenophon باسم: Chalus. وهو نهر بطيء يمرّ ببساتين أشجار الدّردار والقيقب والحور، مياهه ضحلة، لأنّ معظمها يذهب لأغراض الرِّيّ. ومن الغريب أن هذا النّهرَ لا يصّب في نهر أكبر منه أو في بحر لكنّه ينتهي إلى مستنقع يقع على مسافة سير ساعتين إلى الجنوب من حلب. تعجّ هذه الأنهار القريبة من بعضها، بالضفادع التي تحدث ضجيجاً لا يحتمل عند المساء، لكنها تتوقف عن النّقيق عندما يقترب أحدٌ منها. ولهذا جلستُ في مكان مناسب أمام النّهر لاسترق النّظر. لم تكن أكبر حجماً من الضّفادع الإنكليزيّة. ويقول رَسل إن النّهر أخذ تسميته من هذا الضجيج (قويق) وهي كلمة تشبه صوت نقيق الضفادع. وتأييداً لهذا الكلام، استشهد بمسرحيّة «الضفادع» لأريستوفانِس. وفي النّهر أيضاً سمك الجلكي الذي يسمّيه الأهالي "Sammak Inglize" (سمك إنكليزي) أي السّمك الإنكليزي. لكن رَسل ذكر أن هذه الأسماك هي من نوع Ophidium mastacembelus من رتبة Apodes (عديمات الزّعانف)، وهي تختلف عن سمك الجلكي. كان رَسل عالماً بالطبيعيّات باعتباره كان طبيباً في المستشفى الإنكليزي هناك، فقد كانت لديه فرصٌ كثيرة للتحقق ممّا يتوصل إليه،

بحيث لا أشك بصحّة أقواله. لا شك أن السّبب في تسمية السّمك بهذا الاسم هو أن أفراد المركز الإنكليزي كانوا ينظرون إليه بتقدير خاص، والآن وبعد أن أصبح القنصل الإنكليزي هو الوحيد الذي يمثل الإنكليز هنا، فإنّ المسافر يدهش لسماعه أن سمكاً يحمل هذا الاسم[1].

إلى الشّمال والجنوب من المدينة يقع وادي النّهر الصّغير الذي يغصّ بالبساتين المشجرة، أما إلى الجانب الشّرقي فتقع سلسلة من المرتفعات والتلال التي تمتدّ وصولاً إلى الفُرات. عندما يمرّ المسافر عبر المساحات الكبيرة المزروعة من حلب إلى مَسْكَنَة ويلقي نظرة على المدينة من على بُعد، فإنه يفاجأ بعدم وجود المآذن التي تعوّدنا على وجودها في أكثر المدن الشّرقيّة؛ حيث يضفي وجود المآذن جمالاً وجلالاً على معظم المدن الإسلاميّة المهمّة. فلو كان لحلب جزءٌ من هذه المباني الجميلة كالتي تتباهى بها القاهرة، لكان منظرها من الأعلى في غاية الجمال، بالرغم من أنها محاطة بمساحات قاحلة. إن السّمة الوحيدة التي تغدق على المدينة عراقةً ونبلاً وتُشعر المسافر بأنه موجود في واحدة من المدن التاريخيّة في الشّرق، هو ذلك الانحدار الشّديد الذي تعلوه التّلة وعليها أنقاض وأطلال القلعة المحصّنة. أمّا من ينظر إلى القلعة عن قرب، فإنه لا يرى سوى الخرائب، وهذا بسبب الهزّات الشّديدة التي توالت على المدينة وهي التي دمّرت المآذن بطبيعة الحال، وقد وجد الأهالي أنه لا جدوى من بناء العديد من هذه الأبنية. ولهو من العجيب حقاً أن ترى مدينة كحلب موسِرة ومزدهرة كما هي في الوقت الحاضر بعد هذه الأهوال التي تعرّضت لها.

كانت تقديرات أبعاد المدينة متفاوتة بين الأشخاص، فالدّكتور پوكوك Pococke يوضح في عام 1738 م أن محيط المدينة مع ضواحيها يبلغ خمسة أميال أو أكثر، في حين يقول رَسل Russell إنها تبلغ سبعة أميال. أما محيط المدينة فعلياً (أي ضمن

---

(1) كتب المؤلف: بعد كتابة هذه السّطور، أكّد لي مقيم سوري في لندن أن "Al hankliz" (الحنكليز) هي كلمة عربيّة لسمك الإنقليس أو الجرّيت، وهي لا تشير إلى الإنكليز. والحلبيّون يتعجلون في النّطق بكلماتهم مما أدّى لهذا الالتباس.

نطاق السّور) فهو ثلاثة أميال ونصف فقط. يقول ڤان إغمونت Van Egmont إن تقديراته عن محيط المدينة بالكامل تبلغ مسيرة ثلاث ساعات. بينما جعل «دليل مَري» Murray محيطها أقل بقليل من تقدير رَسل. وطالما أن تقديرات ڤان إغمونت Van Egmont كانت تبلغ مسيرة ثلاث ساعات، فهي بلا شك تبلغ تسعة أو عشرة أميال. ولا بدّ أن المدينة قد تضاءلت إذا كانت تقديرات الرّحالين جميعها صحيحة. قال ڤان إغمونت أيضاً إن عدد السّكان في ذلك الوقت يبلغ 300,000 نسمة. لكن هذا الرّقم فيه بعض المبالغة، فلا يمكن أن يصل عدد السّكان في ذلك الوقت إلى هذا العدد، ومن المحتمل أن تكون تقديراته عن المساحة أيضاً فيها شيء من المبالغة. ومع مدينة تتعرّض لهزات أرضيّة كثيرة، فتدمّر ويعاد بناؤها، فإنه من العسير جداً معرفة أبعادها بدقّة. تبيّن الخريطة المدرجة في كتاب رَسل موقعاً أصغر بكثير مما هو الآن، ولم تظهر فيها ضاحيتا العزيزيّة والكتّاب Kittab والضواحي الجنوبيّة. فالعزيزيّة حديثة جداً. وتبيّن خريطة بيديكر Baedeker في كتابه (سوريّا) ضاحيتين إلى الجنوب، ويبدو لي أنهما مبالغ بهما كثيراً. لقد زرت طرفاً واحداً من المدينة وأستطيع القول إن المرتفعات الموجودة على هذا الجانب من الأسوار تمثّل ضواحيَ دمّرتها الزّلازل ولم يُعَد بناؤها. ورغم أنني مشيت في المدينة سيراً على الأقدام، فإنني قد نسيت حساب زمن ما قطعته من مسافات، وأعتقد أنه بلغ أقل من ثلاث ساعات. لقد أعيد بناء التحصينات عام 1427 م بعد أن دمّرها تيمورلنك وربما يعود جزء من الأسوار الموجودة حالياً إلى ذلك التاريخ. وكونها مدمّرة ومهدّمة تماماً، فليس من السّهل تتبع آثارها ومعرفة طريقة بنائها. لا شك أن حالتها الحاليّة تدل على التدمير الهائل الذي لحق بها من جرّاء الزّلازل. لقد تمّ تدعيم السّور بأبراج عدّة مرّات، كما حُفرت الخنادق حول المدينة لحمايتها. وقد ذكر رَسل قائمة بأبواب المدينة وهي:

باب قِنّسرين[1]، ويسمى أحياناً باب السّجن. تمّ بناؤه في زمن سيف الدّولة ابن حمدان في نهاية القرن العاشر، ثم أعيد بناؤه عام 1244 م في زمن الملك النّاصر.

---

(1) كتب المؤلف: حافظت على التسمية كما يذكرها الدّكتور رَسل في كتابه.

يقع هذه الباب إلى الزّاوية الجنوبيّة - الغربيّة من السّور وسُمّي بهذا الاسم لأنه يقع على طريق قِنّسرين والتي تسمى أحياناً حلب القديمة. تحتل قنسرين موقع خالقيس Chalcis القديمة ويمكن مشاهدة بقايا البوابة حاليّاً، وهي تتكون من برجين عظيمين بينهما غرفة. والميزة الخاصّة هي أن الدّخول إليها لا يكون من وسط المبنى ولكن من الجهة اليمنى للبرج.

باب المقام أو بوابة دمشق. بدأ بناؤها أيام الملك الظاهر وانتهى في أيام ابنه العزيز. وهي بوابة حلب في أقصى جهتها الجنوبية، كونها تقع على مسافة قصيرة إلى الشّرق من بوابة قِنّسرين ويمتدّ بينهما سور، وهي على الطّراز ذاته، تقع مقابلها تلال ضخمة يبدو كأنها أنقاضٌ اصطناعيّة. يوجد على هذه التلال ضريح الشّيخ علي، الذي رُسمت عليه شعارات عديدة ورموز غريبة سنذكرها فيما بعد. تقطع هذه التلال الوادي الصّغير الذي يصل إلى البوابة مباشرة. ولولا وجود هذه التلال لظهر الطّريق المباشر المؤدي إلى حلب. ومن المحتمل أن هذه التلال تمثّل بعض المباني الموجودة خارج المدينة والتي دمّرها الزّلزال. ويوجد في هذا الوادي عدد لا بأس به من الكهوف والمغارات الكلسيّة، ولبعضها اتساع كبير، وقد أصبحت الآن مكاناً لناسجي الحرير. من الصّعوبة بمكان تحديد أصلها وعمرها كونها جميعها تقريباً اصطناعيّة، وربما كانت هذه الكهوف والمغارات مقالع للحجارة سابقاً.

باب النَّيرَب والباب الأحمر، وكلاهما على الجانب الشّرقي. وباب الحديد إلى الزّاوية الشّماليّة الشّرقيّة، أما باب النّصر فيقع إلى الشّمال وقد أعاد بناءه الملك الظاهر.

باب الفرج، ويدعى أيضاً باب الفراديس أو العبّارة، وقد بناه في الأساس الملك الظاهر. وهو يقع على الجانب الشّمالي الغربي، أما الأثر الموجود حاليّاً فهو عبارة عن مبنى متهدّم. وعلى الجانب الغربي يقع باب الجنان (الحدائق) وباب أنطاكية. وعلى هذا الجانب من المدينة تقع أهم أجزاء السّور المتبقي. هناك سبعة أو ثمانية أبراج مربّعة منيعة، الثالث والرّابع منها عليهما تماثيل لأسود تسير ورأسها إلى الأمام أما أيديها فمرفوعة إلى الأعلى. ومن الواضح أن جميع الأبراج التي شاهدتها كانت في

الماضي أعلى بكثير عمّا هي عليه الآن، والعديد منها مزوّد بإيوانات واسعة. أما الباب الخامس فهو باب أنطاكية، وهو على نفس طراز باب قِنّسرين، وفيه عدد من الكتابات وقد تمّ بناء سوق مواجه له، وبذلك بات من المستحيل ملاحظته يشكل مفصّل. وإلى الجنوب من باب قِنّسرين هناك أبراج صغيرة وضعيفة، وقد ذكر رَسل اسم بوابتين في الضاحية الشّماليّة هما الجديدة Jideida والعربان Urbain.

كان تصميم المدينة في الدّاخل مربع الشّكل، لكن الضواحي المحيطة بها جعلت شكلها غير منتظم. وقبل البدء بوصف المدينة، لا بدّ من ذكر إحصائيات ڤان إغمونت Van Egmont التي ربما تحوي بعض المبالغة كالسابق. فهو يقول: «إن المدينة مقسّمة إلى اثنين وسبعين حيّاً، اثنان وعشرون منها داخل المدينة وخمسون في الضواحي. وتحوي هذه الأحياء مئة واثنين وسبعين مسجداً وثمانية وستّين خاناً وأربعة وستّين حمّاماً وسبعاً وثلاثين مطحنة تديرها البغال، وتكيّتين للدراويش وثماني مدارس وثلاث مصحّات للأمراض العقليّة، وسجناً، وأربعةَ دور لصناعة الصّابون، وثمانيةَ مسالخ لذبح الحيوانات، وستةَ دور للصّباغة، وخمسَ كنائسَ وسبعةً وسبعين سوقاً وأكثر من خمسة آلاف دار سكنيّة».

وكأيّة مدينة شرقيّة، يُعدّ الجانب الدّاخلي منها جزءاً في غاية الأهميّة. فالشوارع مرصوفة بحجارة أنيقة، أما المباني فمتجاورة مع بعضها بشكل رائع. لكن الشّوارع الصّغيرة ضيّقة وكثيرة الانحناءات، باستثناء شوارع بعض الأسواق. وهناك شارع أو اثنان تستطيع العربة الدّخول إليهما بحرّية.

أما الطّرقات فمعظمها نظيف ومعبّد بشكل جيّد. لكن البيوت متشابهة تبعث الملل في نفس النّاظر إليها، فكلّها من طراز واحد. أسوارها مواجهة للطريق، باستثناء بعض البيوت في الأحياء غير المسلمة. يتألف معظم هذه البيوت من طابق واحد، فقد علّمتهم التجربة بعد الزّلازل والهزّات الأرضيّة التي تعاقبت عليها خطر إقامة مبانٍ عالية، والقليل منها فقط يتألف من طابقين. وبشكل عام يحيط بكل بناء فناء صغير تطّل عليه نوافذ المبنى المزيّن بعضها بالأرابيسك. وفي بعض الأحيان ترى النّوافذ

مقطعة بحجارة هندسيّة أو زخرفيّة، مما يترك لدى الزّائر انطباعاً جميلاً. وفي فناء كل بيت يوجد بئر ماء.

يقال بأن الإنسان في مدينة حلب يستطيع المرور على الجزء الأكبر من المدينة دون الدّخول إليها، وذلك عن طريق أسطح الأبنية، فهي جميعها مستوية، يقضي الأهالي فوقها معظم وقتهم.

وإنه لأمر مربك حقاً بالنّسبة إلى المسافر الذي يريد زيارة أحد البيوت، سواء كان مسلماً أو مسيحياً، فالباب مزوّد بأداة للطرق على شكل يد سيّدة مصنوعة من الحديد أو البرونز. وعند استخدامك لهذه الأداة لا أحد يفتح الباب كما تعتقد ولكن بدلاً من ذلك تسمع صوتاً حاداً من الدّاخل يقول: «مين» وهو ليس بالسؤال المناسب لمسافر لا يتقن اللغة العربيّة.

ليس في حلب شوارع أو محال أوروبيّة، لكن يوجد دكاكين تبيع السّلع الإفرنجيّة، ومعظمها تعود لمشرقييّن. وهناك محل واحد تستطيع الحصول منه على الأشياء الجيّدة الخاصّة بالرّحلات كالمؤن المعلبة والبسكويت وغيرها.

تكثر الأسواق في مدينة حلب. وهي ذات اتساع معتدل، لها أقواس أو تعلوها السّقوف. والحوانيت تكون عادة أكبر، رغم أنها أقل تميّزاً عن تلك التي في القاهرة، لكنها أفضل من حوانيت بغداد. والحوانيت عبارة عن فتحات صغيرة يجلس فيها التجّار وسط بضائعهم المؤلفة من قطن مانشستر والأقمشة المطبعة. لقد حلت هذه الأقمشة الرّخيصة مكان الأقمشة الحريريّة القديمة الجميلة التي تشتهر بها حلب. وبالطبع لا تزال صناعة الحرير رائجة في حلب والأماكن الأخرى، ويمكن شراء أشياء أخرى جميلة، إلا أن هذه الصّناعات هي للأسف في طريقها للانقراض. تستطيع أيضاً شراء القطن والصّوف والجلود، ولذلك عليك أن تمشي على طول السّوق الطّويل حيث ترى الأشرطة المتدليّة التي تحمل أخفافاً حمراء أو كوفيّات من الحرير. لقد كان السّيّد جاغو دليلي في أكثر هذه الجولات الجميلة المليئة بالمناظر الرّائعة. لقد قضيت في عرض البحر المدّة ذاتها التي قضيتها في السّوق. ولكن هل توجد الأسواق السّبعة

والسّبعون التي تكلّم عنها ڤان إغمونت Van Egmont؟ إنه لمن الصّعب العلم بذلك.

يُعتبر دكّان الحلّاق في حلب شيئاً في غاية الأهميّة، ويتألف هذا الدّكان من غرفة مربّعة تمتدّ عبرها دكّة خشبيّة مقسمة إلى عدّة أقسام منفصلة، وهي عالية جداً بحيث تكون أقدام الشّخص الذي يريد الحلاقة فوق مستوى الأرض بمسافة اثني عشر إنشاً، وبذلك يصل وجهه بسهولة إلى المستوى المناسب ليدي الحلّاق. وفي وسط الدّكان يوجد خزّان الماء الذي يُسكب بعد استعماله على الأرض الحجريّة. يكون خدم الحلّاق في العادة أولاداً ينتعلون القباقيب الخشبيّة العالية، كل حسب طوله، وهم يلبسونها كي يصلوا إلى المستوى الصّحيح لمساعدة الحلّاق.

لم نستطعْ مشاهدة المساجد في حلب إلا من الخارج، لأنه ليس من المعتاد السّماح للأوروبيين بالدخول. يسمى الجامع الكبير الواقع في الجزء الغربي من المدينة جامع زكريّا Jamah Zakari أو الجامع الأموي Amawi ، ويفترض أنه يضم ضريح زكريّا[1] وقد حلّ مكان كنيسة مسيحيّة. يتميز هذا الجامع بمآذنه المربّعة الرّائعة المقسّمة من الخارج إلى خمس طبقات متسلسلة. الطّبقتان العلويتان متعانقتان بقناطر بارزة، أما باقي البناء فهو فناء مربّع محاط بعدة صفوف من الأعمدة. من الصّعب معرفة البناء الأساسي للجامع، فقد احترق مرّتين وأعيد بناؤه كما تعرّض لهزّات أرضيّة. أما البرج الذي يقال إنه يحمل تاريخ 1290 م، فقد حافظ على حالته الجيّدة. وهنا يؤكد بعض الرّحالين أن هذا البرج هو نفسه برج الجرس في كنيسة زكريّا نفسها التي أُدمجت مع الجامع الإسلامي. وهذه الكنيسة بنتها الإمبراطورة هيلانة (انظر الصّورة).

هناك إلى الجانب الجنوبي للقلعة مقابل البوابة الكبرى، جامع صغير في غاية الرّوعة يدعى جامع السّلطانيّة. ويطلق عليه المشرقيّون أو الإفرنج اسم the Crouche Mosque (الجامع الجاثم) وهو الآن غير مُستخدم، وأبوابه مقفلة، لهذا لم أتمكن من الدّخول إليه. في مقدمته قوسٌ طويل، أما في أسفله فقع بوابة الجامع الرّئيسيّة. وإلى اليسار تستطيع مشاهدة ثلاثة أواوين مربّعة، منقوشة بالكلس من الأعلى وتمتد

---

(1) كتب المؤلف: زكريا هو أبو يوحنا المعمدان.

على طول القوس المحيط بها. وهو الآن يمثل ارتفاع البناء. يحتوي كل إيوان على فتحة مربّعة من الأسفل وفوقها شبّاك صغير مستدقّ الطّرف. وعلى اليمين هناك ثلاثة أواوين متشابهة متباعدة عن بعضها، عكس الأولى. وترتفع فوق البناء مئذنةٌ ثمانيّة وقبّتان صغيرتان. أما الرّسومات والنّقوش التي تزيّن الباب على الجانب الشّمالي، فهي مرسومة بخط عريض، وهناك رسومات أخرى عند القاعدة.

تُعدّ القلعة التي تقع إلى الشّرق من مركز المدينة المسوّرة، الأكثر أهميّة. وهي تقع على تلّة مرتفعة داخل الأسوار، وتحاط بخنادق دائريّة عميقة وواسعة وتحصينات. يبلغ محيط الخندق من الحافة حوالي ثلاثة أرباع الميل، ويبلغ ارتفاع التلّة حوالي مئتي قدم. ويقال إن هذا التلّ هو من صنع الإنسان، وكما يقول الدّكتور رَسل إنه قد تمّ العثور على كتلة من الأحجار الطّبيعيّة قرب القمّة. ومن المحتمل أيضاً أن القلعة تشغل جزءاً أو ربما موقع بيريا القديمة بأكمله، وهي تشبه إلى حدّ بعيد التلال التي تنتشر في السّهول الكبيرة لشمال سوريّا وبلاد الرّافدين. يقول الكتّاب العرب القدامى أن هذا التل يقوم على ألفين من الأعمدة، وهذه ليست سوى خيالات شرقيّة. وربّما تكون هذه الأعمدة قد اكتشفت عندما كانت حصناً للفاتحين المسلمين. وكما يقول الدّكتور پوكوك إنه قد تمّ العثور على أعمدة رخاميّة في باطن الأرض إلى الجهة الشّماليّة الشّرقيّة من القلعة. وقد رافقني السّيد جاغو في هذه الزّيارة، بعد أن أحضر لي إذناً بزيارتها.

إن المدخل الرّئيسي في الجانب الجنوبي هو أجمل شيء في هذا البناء الضخم، ويلفت نظرك مباشرة هذا الانحدار الكبير في التل، وحتى لو أنه كان من صنع البشر، فقد جرى تشذيبه وتعديله بمهارة فائقة. والغاية من هذا البناء هي بالطبع منع انزلاق التّربة. وتقودك البوابة المربّعة الضّخمة إلى جسر صخري ذي ستّة أقواس مستدقة يقطع الخندق ويؤدي إلى مدخل أصغر أو حصن أمامي موجود بجانب الحافّة الدّاخليّة للخندق. ويمتدّ من هذا الحصن نصف قوس على جدار الخندق الخارجي مكمّلاً المجموعة المتقاطعة (انظر صورة المدخل).

إن برج الحصن الأمامي مربّع ذو زوايا دائريّة وباب خالٍ من الزّخرفة، يعلوه قوس مُقرنص، وهو بغاية البساطة. وفي كل جانب من جوانبه نافذة صغيرة، وفوقه مباشرة ثلاث فتحات تُستخدم لإطلاق النار، كما هو الحال في القمّة. أما المدخل الكبير فهو بناء مهيب مربّع الشّكل مبني في سور القلعة، تدخله عبر قوس عالٍ، وترتفع فوقه فسحة كبيرة ذات زخارف ملوّنة ومنقوشة بالكلس، وهي القمّة الحاليّة للبناء. وفي جانبي المبنى كليهما وعند بداية القوس الذي يمثّل حوالي نصف الارتفاع الكلّي للمبنى، ثلاث مجموعات من الفتحات، قسم منها سداسيّة الشّكل والأخرى ثلاثيّة. وفي الأسفل ترى كتابة بالخط الكوفي تحمل اسم الملك الظاهر 605 هـ[1]. وعلى جانبي الفجوات المربّعة نوافذ صغيرة وعلى الواجهة الأماميّة رسومات نافرة كثيرة وبعضها محفور. والقلعة في وصفها الحالي لا يسكنها أحد، ما عدا عدد قليل من الجنود بسبب كون القلعة مهدّمة كليّاً من الدّاخل. إن پاشا حلب رجل يهوى إضفاء المظاهر الجماليّة على المباني وخصوصاً العسكريّة منها، بحيث يجد الأسئلة والاستفسارات تنهال عليه من الإنكليز والزّوّار الذين يمرّون بالمدينة. وفي اللحظة التي وصلنا بها إلى البوابة الكبيرة، استقبلنا أربعة حراس تحت إمرة ضابط صغير أو نقيب، تقدّم نحونا بخفّة. كان مترجم القنصل موجوداً، وأخذ النّقيب يرينا الثقوب المحفورة في الجدار والتي هي بقايا السّهام والنّبال التي ما زالت مطمورة في الحجارة، ولكن كان من الصّعب تصديق ذلك. فالسهم الذي يُطلق يدويّاً بواسطة القوس من الصّعب أن يفتح في الحجارة ثقباً بعمق بوصتين. والأمر الأرجح هو أن الثقوب قد حدثت بفعل طلقات من الرّصاص. لكن إن كانت رؤوس السّهام هي التي حفرت الحائط منذ القدم، فلا بدّ أن هناك آلة خارقة قد استخدمت لإطلاقها بجهة الأسوار. وبعد مرورنا تحت القوس، وصلنا إلى وسط قاعة عالية الأسوار تحمي جهاتها الثلاث فتحات تمّ بناؤها بنفس المستوى، وهي في الحقيقة امتداد للفتحات التي شاهدناها في الخارج. تستطيع الوصول إلى داخل القلعة عن طريق سلّم دوّار طويل وعريض، متعانق من الأعلى، يأخذك تارة يميناً

---

(1) هذا التاريخ مغلوط حتماً، على اعتبار أن السّلطان الملك الظاهر بَيْبَرس البُنْدُقداري (المؤسس الفعلي لدولة المماليك البحريّة) حكم بين 658 - 676 للهجرة.

إلى خارج الصّالة المقوّسة، ثم يدور بك عدّة دورات في كلّ اتجاه قبل أن ينتهي بك إلى مستوى سور الحصن. وتحمي القلعة أبواب حديديّة شديدة في أوقات معيّنة وهي ثلاثة على ما أعتقد - لأنني أعتمد على ذاكرتي الآن في الوصف - والباب الخارجي خالٍ من الزّخارف، أما الأبواب الدّاخليّة فهي مزيّنة بنمط غريب، حيث قسّم السّطح المعدني إلى مربعات صغيرة وفي وسط كل منها حدوة حصان مصنوعة من الحديد المطروق. وعلى أحد الأبواب كتابة في نفس السّطح المعدني. وفي الدّورة الأخيرة وقبل الوصول إلى الحصن، تطالعك إلى اليمين أضرحة اثنين من الصّالحين لم أستطع التحقق من اسميهما، وقد تمّ تزيين الضريحين بأقمشة رثة.

هناك داخل البوّابة فتحة ذات غطاء شبكي تضيء غرفة تحت الأرض، وقد قالوا لنا إنها تمثل شبّاكاً لسجن القلعة القديم[1]. وبالقرب منها هناك خزانٌ كبيرٌ للمياه تقول الرّوايات عبر العصور إنه هو الوعاء ذاته الذي كان إبراهيم يجمع فيه حليب البقرة الشّهباء التي شُرفت بإطلاق اسمها على مدينة حلب. ومن هناك توجّهنا عبر خرائب نائية نحو الجهة الشّماليّة من التل، حيث لا تزال المئذنة المربّعة تقف باعتزاز شاهدة على الأثر الوحيد الذي بقي من جامع القلعة. أحضروا لنا الكراسي للجلوس وظهر ضابط آخر برتبة أعلى وأخذ يصف لنا جمال الموقع ونحن نحتسي القهوة. ثم أحضروا لنا بعض الماء من بئر القلعة الذي يبلغ عمقه 150 ياردة وتستطيع سماع صوت هديره من العمق. ولقد حاولنا ابتلاع الماء بنفس السّهولة التي نشرب فيها الماء العادي. كان المنظر من قمة المئذنة في غاية الرّوعة، فعند قدميك، تمتدّ المدينة التي لا تُعدّ بحدّ ذاتها مثيرة باستثناء منظر فسحات الجوامع وأسطح البيوت. ولا يلاحظ المرء سوى عدد قليل من المآذن والقباب، وهو منظر مختلف عن ذلك الذي تراه من منارة القاهرة. من هنا يرى الإنسان لأول مرّة حجم مدينة حلب الكبير، ويدلّ الضجيج الذي تعّج به المدينة على العدد الهائل للسّكّان. وإذا نظرت في الاتجاه الشّمالي الغربي

(1) كتب المؤلف: وصفه تيرويت درايك Tyrwitt Drake في كتابه: "Unexplored Syria" «سوريا غير المستكشفة»، بأنه عقد منحوت من صخرة عظيمة ويقوم على أعمدة، ولعله كان بالأصل خزان ماء.

تطالعك الجبال التي تحيط بقرية بيلان التي مررت بها سابقاً. وعلى مسافة غير قليلة إلى الشّمال يقع جبل آخر أزرق اللون قليل الارتفاع، لا بد أن يكون قريباً من عينتاب ويقع السّراي بنفس الاتجاه أيضاً، بينما تقع خارج المدينة مباشرة قباب مسجد الشّيخ بكر، وهو مأوى للدراويش، وبالقرب منه تقع سلسلة من الثكنات. أما بجهة الشّرق فتمتدّ الصّحراء القاحلة لتصل إلى الفُرات. وعلى الجانب الجنوبي الشّرقي تقع بحيرة جبّول الملحيّة ويقع السّهل الأزرق على الجانب الجنوبي الغربي، هذا السّهل الذي يتعرج النّهر في بساتينه المليئة بأشجار الفاكهة. وإلى الغرب نحو الأفق ترى القمم الجليديّة القريبة من أنطاكية.

بعد مغادرتنا للمئذنة، توجّهنا رأساً نحو بئر القلعة، حيث يتم رفع الماء منه بواسطة حصان وأداة رافعة. تستطيع التكّهن بعد سماع صوت الحصاة عند وقوعها في البئر بأنه في غاية العمق. كان الجنود يتبعوننا والكراسي جاهزة بأيديهم عند الطّلب. وبعد مشاهدتنا للموقع، ظهر ضابط ثالث وكان أكثر حيويّة من زملائه السّابقين. ويبدو أنهم قد كانوا قد حجبوه ثم أظهروه لنا في آخر جولتنا كنوع من التّكريم والمعاملة الخاصّة. دخلنا معه إلى غرفة صغيرة داخل الأسوار تستخدم لاستقبال الزّوّار والضّباط عند زيارتهم للقلعة. كان فيها بعض الأرائك، وقُدّمت لنا فناجين القهوة ثم تلتها مباشرة أقداح عديدة من عصير البرتقال. وحسب أصول الضيافة، يجبّ عليك شربها كلّها، مما أدّى إلى انتفاخ بطوننا. تخلل الجلسة بعض الأحاديث المتنّوعة، ثم غادرنا مع مزيد من الانحناءات والتحيّات ورفع القبّعات ودفع البقشيش. والجدير بالذكر أن حرس الشّرف المكوّن من أربعة رجال يقودهم النّقيب، قد اندفعوا نحو «الهديّة» بحماس مضاعف عند مغادرتنا.

أخبرني السّيّد جاغو أن حرس الشّرف الذي كان باستقبالنا غير مألوف عند زيارة أحد الأوروپييّن للقلعة، حيث يقوم بمرافقته جندي واحد لتعريفه على المكان.

لقد تم تعزيز السّور المحيط بالقلعة في مرّات عديدة، لكنه الآن في حالة خراب كلّي. وهناك بعض التحصينات الخارجيّة على شكل أبراج مبنيّة في الخندق وترتبط

بالحصن الرّئيسي بواسطة الأسوار.

لقد لعبت القلعة بالطبع دوراً هاماً في الأحداث التي توالت على مدينة حلب. ففي عام 1630 م قام السّلطان مُراد الرّابع بأخذ المدافع التي كانت في القلعة واستعملها في محاصرة بغداد. يقول ڤان إغمونت Van Egmont إن القلعة كانت تحتوي على مئتين وخمسين داراً سكنيّة آنذاك، وكان عدد السّكّان حوالي اثني عشر ألف شخص، أما حاميتها فبلغت ثلاثمئة وخمسين من الجيش الإنكشاري الذين لم يضطروا إلى القتال أبداً، فالشخص يعيش ويموت في القلعة وهو بتلك الخدمة. وأعتقد بأن القلعة غير مزوّدة بمدافع أو ذخائر عسكريّة، لكن يقول البعض إن أقبيتها تحتوي على كميّة من النّبال والسّهام وعدد من الأسلحة القديمة.

ولأننا نتحدّث عن الأمور العسكريّة، فلا بدّ من الذكر أن القوّات الوحيدة التي شاهدتُها في موكب عسكري، كانت خمس مجموعات من المدفعيّة مرّت صباح أحد الأيام في حيّ العزيزيّة أثناء طريقها إلى خارج المدينة للقيام بأعمال التّدريب. كانت المدفعيّة من نوع كروپ Krupp وحالتها جيّدة، وكانت الخيول بحالة ممتازة، أما سروج الخيل التي تمّ شراؤها بثمن بخس ما بعد الحرب الأهليّة الأميركيّة، فقد كانت قديمة ورديئة.

هناك عدد من الخانات في حلب، تُكدّس فيها أكوام من البضائع ويجري فيها عقد الصّفقات التجاريّة للمدن الشّرقيّة. بعض هذه الخانات تذكّرك بقصص «ألف ليلة وليلة» بأفنيتها الكبيرة. أجملها هو خان الوزير، الذي يقع إلى الغرب من المدينة، ويتم الدّخول إليه عن طريق بوّابة جميلة في الجانب المقابل للشارع، وهي ملوّنة بالأبيض والأسود. وفي مقدّمتها لوحات منقوشة ومنحوتات على شكل أسود. أما في الدّاخل، فهناك أعمدة ذات تيجان كلسيّة يعلوها قوس مستدق. عند دخولك البوابة، تجد نفسك في بهو كبير وسطه حوض ماء، ولهذا فطراز المباني قريب من طراز الجامع القديم. وتتألف الأبنية من طابقين: الطّابق الأسفل بسيط، يتم الدّخول إليه من الفناء. أما الطّابق العلوي، فهو عبارة عن ممرّات ذات قناطر مفتوحة من جميع

الجّهات باستثناء جهة المدخل. تتراصف الأعمدة الواحدة بجانب الأخرى، وتتميّز بالبساطة، فهي أقواس بسيطة ترتكز على أعمدة مربّعة. أما في الجانب الأيسر من جهة الدّخول، فهنالك تشكيلة من القناطر التي تتميّز بالزخرفة، لها أقواس منحنية في جانبيها ومعكوسة عند القمّة، تستند إلى أعمدة عربيّة من الحجر الكلسي. كنت ميّالاً إلى الاعتقاد بأن هذا يدّل على اختلاف في تاريخ بنائها، لكن مع دمج الأسلوبين، حصلنا على عمود هجين يتألف من دعامة مربّعة مع نصف عمود مبني إلى جانبها. يحتمل أن تكون كل هذه الأبنية قد تمّ بناؤها في زمن واحد، أي قبل مئة وخمسين سنة خلت. أما النّوافذ المطلّة على الفناء، فتتميّز بزخارفها العربيّة الجميلة. حتى حوض الماء، فقد جرى دعمه بأعمدة تحمل نفس سمات الجزء المزخرف للممرّات المقنطرة.

سبق أن ذكرت أنه توجد رسوم وشعارات على الأبنية القديمة، وهي رسوم متشابهة جداً. وها هي ذي قائمة بنماذج منها:

1 – في جامع السّلطانيّة هناك قدح أو كأس على شريط معقود وفي قاعدته قدح آخر.

2 – في الجانب الشّمالي من المدينة على حوض ماء يستعمل للرّي قرب الشّيخ بكر، تجد شكل شريط معقود بين اثنين من الأوعية ذوات الرّؤوس المستدقّة وأفواهها إلى الأسفل، مع قدح يعلوه شكل معيّن وفي أسفله قدح آخر. شعارات هذا الشّكل نافرة، وفي المنتصف كتابات دينيّة ورسوم أخرى.

3 – هناك شعارات أخرى كالتي وردت سابقاً، وهي موجودة على ضريح يسمى بالشيخ علي خارج باب المقام.

4 – على شريط معقود بين الرّمز الهيروغليفي[1] على جهة اليمين ورمز

---

(1) هذا غلط، فالرّمز رغم تشابهه مع الرّموز الهيروغليفيّة القديمة لا ريب أنه جزء من رنك (أي شعار عسكري) مملوكي، لأمير دوادار. انظر ما نذكره عنه أدناه.

على جهة اليسار يوجد كأس يعلوه معيّن وفي أسفله كأس آخر. وقد رأيتُ هذا التمازج الغريب من الأشكال على جزء من السّور في غرب المدينة.

وأيضاً هناك شعارات مشابهة موجودة على المساجد المصريّة ومنقوشة أحياناً على المصابيح الزّجاجيّة للجوامع التي صُنعت في القاهرة في القرنين الرّابع عشر والخامس عشر في زمن سلاطين المماليك. وقد كتب عن ذلك السّيد إ. ت. روجرز بيه E. T. Rogers Bey، ونشر في «صحيفة المعهد المصري» "Bulletin de l'Institut Egyptien" عام 1880 م، ولكن لم تسنح لي الفرصة بالرجوع إليه. إلا أن هناك بعض الملاحظات المهمّة حول الموضوع عينه في «دليل ساوث كنزنغتون للفنون»، عن الفن الإسلامي في مصر الذي كتبه السّيد ستانلي لاين پول Stanley Lane-Poole. يخبرنا فيه أن الشّعار رقم (1) هو مزيج شائع، وأن الشّعار رقم (2) قد استُخدم فعلاً من قبل السّلطان قايتباي في مصر واستخدمه أحد قادته المدعو الأمير جان بلاط، الذي أصبح سلطاناً فيما بعد. أعتقد أن القدح يدلّ على أن حامله مسؤول عن سقي السّلطان. وفي القاهرة توجد رموز أخرى متشابهة، كزوج من عصي الپولو التي تشير إلى منصب (الجوكندار) أو رئيس الپولو، ومفاتيح خزانة المال الملكية. أما الشّعار رقم (4) فهو شكل مميّز، حيث يحتوي على الرّمز الهيروغليفي أيضاً، رغم أنه جاء بأشكال مختلفة على دروع أمراء المماليك المصريّين في القرن الرّابع عشر[1]، وهذا الشّكل الهيروغليفي شائع في الآثار المصريّة القديمة ويمثّل (إله البلاد العليا والسّفلى) وكان رأي السّيد روجرز بيه أن المماليك باستخدامهم لهذا

(1) هذا هو الصّحيح، فالرّمز المذكور هو جزء من رنك (أي شعار عسكري) مملوكي، لأمير دوادار (أي ماسك الدّواة)، وهو المسؤول عن رسائل السّلطان ومكاتباته. وقد جرت العادة في رنوك الأمراء المماليك اتخاذ رسم رمزي لرتبة الأمير، فالأمير السّلحدار يحمل رنكه رسم سيف، والسّاقي رسم كأس، والجوكندار رسم جوكان (عصا الپولو). أمّا الرّسم الوارد هنا فيمثل أدوات الكتابة التي يستخدمها الدّوادار: المحبرة والقلم وطمغة البريد (الشكل المعيّن). يذكر القلقشندي في «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»: «الدّوادار: وهو لقب على الذي يحمل دواة السّلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولّى أمرها مع ما ينضمّ إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور، وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال».

الرّمز، لا بدّ وأنهم قد فهموا معناه. إلا أن السّيد لاين پول يرى أن الأقباط هم الذين احتفظوا بهذا الرّمز وأن المماليك استخدموه دون فهم عميق له بل لكثرة تكراره. أما وجوده في شمال سوريّا، فلا يزال أمراً جديراً بالاهتمام والملاحظة.

في حلب آثار قليلة متفرقة تستحق المشاهدة. لقد بُني السّور حول بوّابة أنطاكية كساتر، إذ أن المستوى في الدّاخل أعلى منه بكثير عن الخارج. ولكن على مستوى قمّة السّور لاحظْتُ مبنىً غريباً يتألف من العديد من الأعمدة البازلتيّة والغرانيتيّة القديمة، وهناك حجر منبي ضمن السّور عليه كتابة غريبة وكأنه مقلوب رأساً على عقب. أما الرّسومات فهي مقسومة إلى قسمين، بعضها على شكل أشجار، وبعضها الآخر على شكل أشخاص، وأشك إن كان هناك من يستطيع فكّ طلاسمها[1].

تتألف ضواحي حلب من الجديدة في الشّمال والعزيزيّة في الغرب والكتّاب في الجنوب الغربي، أما الفردوس فتقع إلى الجنوب من المدينة. وإلى الجنوب الشّرقي، تجد ضواحيَ عديدة لم أستطع التّحقق من أسمائها، وربما تكون هذه الأحياء هي أقدم المناطق الواقعة خارج أسوار المدينة.

يسكن المسيحيّون في الجديدة والعزيزيّة. كانت الأولى موجودة في زمن رَسل، لكنها توسّعت في الوقت الحالي. أما العزيزيّة فهي ضاحية جديدة يفصلها عن المدينة حزام من المقابر المحيطة بالمدينة. أما أبنيتها وشوارعها فهي رائعة؛ تتألف بيوتها من طابقين وهي ذات طراز أوروپي وشبيهة ببيوت المدينة لكل واحد منها فناء. وكونها بنيت للمسيحيّين، فشبابيكها الكبيرة مطلّة على الشّارع تزينها المشربيّات كما في القاهرة، لكنها تفتقر قليلاً إلى الأناقة. والشّبابيك محاطة جميعاً بأجزاء حديديّة مطروقة بشكل جميل، تزيّنها مسامير حديديّة مزوّدة بصفائح من نفس المعدن.

بالرّغم من أن أكثر الأسواق والشّوارع في المدينة ذات سقوف، فإنها أصبحت حاليّاً غير قانونيّة. وبالقرب من الفندق هناك شارع جديد يعود يملكه شخص واحد أراد

---

(1) كتب المؤلف: أعتقد أن هذا الحجر هو الموضوع المتعلق بنقوش بُرتون ودرايك الواردة في كتاب «سوريا غير المستكشفة»، الجزء الثاني، الصّفحة 185.

تسقيفه على الطّراز القديم، فأخذ بتوزيع البقشيش هنا وهناك للحصول على الرّخصة، وقام بنصب السّقالات في اللّيل، وعند الصّباح أخذ مئتا رجل بنصب الأقواس. وما إن وصل الخبر إلى مسامع السّلطات العليا، حتى انهارت كل هذه التّحضيرات بلحظة. وظلّت الأسوار غير المنجزة وبقاياها التي تستند عليها الأقواس في مكانها.

وكما أشرت سابقاً، فإنّ المقابر تحيط بحلب من جميع الجهات ومعظمها بالطّبع مقابر للمسلمين. أما المقابر الأوروبيّة والأرمنيّة واليهوديّة، فهي إلى الشّمال من المدينة. والمقابر الأوروبيّة قريبة من حي العزيزيّة وتحوي العديد من النّقوش والكتابات تخليداً للتجّار الإنكليز والأعضاء الذين عملوا في المراكز التّجاريّة على مدى المئتي عام المنصرمة. ولو كان لدي الوقت الكافي لكنت نسخت جميع هذه الكتابات، لكني أقدّم مثالاً هو:

«تشارلز روبرت طومسون – مقاطعة وايت هيڤن – في إنكلترا – توفي في حلب في العشرين من ديسمبر من سنة 1865 م».

وبعضها تحمل أسماء لأشخاص أجانب وهي مزيّنة بشعارات منمّقة لكنّها لسوء الحظ بحالة سيئة جداً.

لقد سبق وذكرتُ النّهر والبساتين الجميلة التي تحيط به. وتُعدّ حلب بعيدة إلى الشّمال مما يعيق نمو شجر النّخيل هناك إلا بأعداد قليلة جداً، حيث توجد الواحدة أو الاثنتان في الحدائق الخاصّة، وتُعدّ شيئاً نادراً. كذلك لا ترى أشجار البرتقال في المنطقة لبرودة المناخ الذي لا يسمح بنمّوها. أما أشجار الدّردار والحور والجوز فموجودة بكثرة، وتستطيع مشاهدة أشجار التّين والزّيتون بوفرة على المنحدرات في الجّانب الجنوبي الغربي من المدينة. أما إلى الشّرق من حلب فتقبع المزارع الكبيرة لأشجار الفستق ذات الشّهرة الكبيرة والتي هي الأفضل في العالم. تتم سقاية هذه الأشجار بواسطة الدّولاب الفارسي[1] أو ما يسمّى بـ (النّاعورة) وهو يستخدم على

---

(1) تسمية مغلوطة تماماً، فالنّاعورة ابتدعها الآراميّون قبل الميلاد بقرون، ولذا فقد شاعت في البلاد التي قطنوها: الشام والعراق وشمالي جزيرة العرب.

طول نهر الفُرات حتى التقائه بنهر دجلة. هناك قناة قديمة أيضاً تستخدم لسحب المياه من مكان قريب يدعى حيلان، الواقع على مسافة قريبة إلى الشّمال. يقول رَسل Russel إن هذه القناة قديمة كما المدينة وقد أعيد تأهيلها أيام الإمبراطورة هيلينا. وفي ضواحي حلب هناك آبار وملاجئ كثيرة يملكها بعض الأمراء والأثرياء. وهي تُعدّ من دون شك أعمالاً خيريّة. وقد سبق ذكر أحد هذه الأماكن الواقعة إلى الشّمال من المدينة قرب مبنى الدّراويش الذي يسمى الشّيخ بكر. أما المبنى الصّغير الذي يضمّ قاعتين، فإحداهما تحوي بئراً أو خزّاناً للوضوء والثّانية كانت مكاناً للمصلّين باتجاه مكّة. لهذا يعتبر المبنى مكاناً لعابري السّبيل، للتزود بالماء، ومكاناً للعبادة.

يتميّز مبنى الدّراويش المسمّى بالشّيخ بكر، والذي يقع إلى الشّمال من حلب، بمزّية ملفتة للنظر، فهو يقع على تلّة مرتفعة، ويحتوي من الخارج على مآذن معماريّة قليلة وجميلة. أما قبابه الخمس ومنارته الوحيدة فتتمتّع بأثر شرقي حقيقي يبعث السّرور في النّفس، كما تزيد الأشجار العالية التي تحيط بالمكان جمالاً إضافياً. أعتقد أن هؤلاء الدّراويش ليسوا من فئة الأشخاص الذين يدورون ويرقصون. كانت إحدى أمتع النّزهات التي قمت بها في هذه المنطقة هي اجتياز النّهر وتسلّق الأرض المرتفعة التي تقع إلى الجنوب الغربي، ويقع الطّريق في جزء منه وسط بساتين الزّيتون البديعة. بعد ذلك مررنا بمبنيين كبيرين يقعان تحت جرف صخري بجهة اليمين. وقد قيل لي عدّة مرّات إن هذين البناءين هما مسجدان ومكانان لسكن الدّراويش، وأعتقد أن كونهما مسجدين هو أقرب إلى الصّحة، لكنهما مهجوران تقريباً. ومن هنا توجّهنا نحو الأرض المرتفعة حيث أمكننا إلقاء نظرة عن بُعد على مدينة حلب.

يُعدّ سكّان حلب خليطاً من الأجناس المتعددة. يشكّل السّوريّون الكم الأكبر، لكن هناك عدد كبير من الأرمن واليهود والأتراك والعديد من البدو مع حياتهم التي تفتقر إلى الاستقرار، والذين يسكنون في الجانب الجنوبي من المدينة داخل زرائب، بينما يسكن قسم منهم في أكواخ وخيام. أما العنصر الأوروبي، فهو يتألف بشكل رئيسي من اليونان والإيطاليّين وعدد قليل من الفرنسيّين والرّوس والإنكليز، يمثّلهم بشكل رئيسي

قنصلان ويقيم معظمهم في حي العزيزيّة. أما اللغات المتداولة فهي العربيّة والتُّركيّة والأرمنيّة. يتحدّث العربيّة السّوريّون من مسلمين ومسيحيّين. في حين تعدّ التُّركيّة لغة السّوق. أما عدد السّكان فقد قُدّرت له أرقام متفاوتة؛ فالكتّاب العرب القدامى يحصونهم بحوالي 250,000 نسمة، بينما قدّر عددهم المسيو دارڤيو d'Arvieux في عام 1683 م بأنّهم 205,000 فقط. أما ڤان إغمونت Van Egmont فقد أعلن في عام 1759 م بأنّهم يعدّون 300,000 نسمة. ويخبرنا الدّكتور رَسل في عام 1794 م أنّ العدد يبلغ 235,000 نسمة، منهم 35,000 من المسيحيّين و5000 من اليهود. ويقول محرّر «دليل مَري إلى فلسطين» أنه من المحتمل أن جميع هذه الأرقام تعتريها بعض المبالغة، حيث لا يزيد العدد عن 150,000. إذاً ليس هناك إجماع على ذلك، لكن عدد السّكان حاليّاً يتراوح بين 070,00 0- 90,00 منهم 16,000 أو 18,000 ربما من المسيحيّن و 3500 أو 4000 من اليهود[1] ومن غير المحتمل أن تكون المدينة قد شغلت مساحة أكبر من الأرض التي تشغلها الآن. ويشير ڤان إغمونت Van Egmont الذي قدَّم بعض الإحصاءات الغريبة عن عدد البيوت التي نشأت في مكان آخر: «يقال إنه يتمّ ذبح ستمئة رأس من الغنم يوميّاً للاستفادة من لحومها».

يفتخر الحلبيّون دائماً بأصالة محتدهم وكمال أدبهم. ربما يكون هذا صحيحاً في الطّبقات الرّفيعة من الأسر المسلمة، لكن من الصّعب تصديق ذلك في مجتمع يطغى عليه الفساد الذي يقال إنه يشمل جميع الطّبقات في كافّة أنحاء حلب. وقد لا يصادف المسافر العادي الذي يتعامل مع الطّبقات الدّنيا في الأسواق والطّرقات مثل هذا السّلوك. لكن بعد تجربتي الخاصّة أستطيع الحكم على جميع أهالي البلاد من جميع الأجناس بأنّهم شعب فظّ، وعر الطّباع، ومتقلّب. فعند الخروج من مصر، تفتقد إلى وجوه الفلاحين المبتسمة. صحيح أن المرء يتعرّض في المكانين معاً للنظرات والملاحقات، فإنّ الأشخاص في حلب يتميّزون بعدائيّة غريبة لا تجدها في مصر. يمكن تفسير هذا الأمر بأن شكل الأوروبي ليس مرغوباً في نظر النّاس، وهذا ناتجٌ دون

(1) كتب المؤلف: في عصر بنيامين التَّطيلي (القرن الثاني عشر) كان هناك 1500 يهودي.

شك عن الكراهيّة والتعصّب غير المعلنين تجاه الأوروبيّين. فعند مرور رجل إنكليزي في الشّارع في حلب، يواجَه بصياح الأطفال وهم يردّدون كلمة «فرنجي». وفي إحدى المرّات، وبينما كنت أرسم مخططاً لأحد الأضرحة إلى الجانب الشّمالي من المدينة، فوجئت بعدد من الفتيات يرشقنني بالحجارة، وكنّ يختبئن خلف شواهد الأضرحة. ولكن حالما انطلقت وأنا أحمل عصا غليظة من شجر البلّوط، تفرّقن بسرعة. هذه الأمور تدلّ على سوء المزاج الذي في النّفوس.

يحمل مسلمو حلب صفة التعصّب وعدم التّسامح. وحتى الآن لا يستطيع أي أوروبي الدّخول إلى الجوامع دون التعرّض للعقوبة. لكن هذه الحالة عامة في كل المدن التُّركيّة البعيدة عن مرور السّيّاح.

الأمر عينه يحدث في بغداد؛ فقد مُنعت من صعود مئذنة وحيدة كان مسجدها قد زال. وكما يخبرنا ڤان إغمونت Van Egmont عن موضوع التعصّب في حلب:

«هناك قصّة يتداولها النّاس بأن أحد الأثرياء الأتراك قرأ شيئاً من القرآن. وبسبب عدم فهمه أراد الاستفسار والاستزادة، فذهب إلى القاضي يسأله عن معنى ما قرأه. فقال له القاضي: «اتبعني وسوف أشرح لك»، ثم اقتاده إلى غرفة واستلّ سيفه وقطع رأسه. وهناك قصة أخرى «أن تركيّين كانا يلعبان الشّطرنج، فتأخّر أحدهما بالقيام بالنّقلة، فقال له اللاعب الآخر: «العب كرمى لأبي بكر». ولأن الأول كان غارقاً في التفكير ولا يريد المقاطعة، فقد أجابه بكلمة نابية عن أبي بكر، فقام رفيقه بإبلاغ القاضي، فحكم عليه الأخير بقطع رأسه، ونُفّذ الحكم في اليوم التّالي».

ويعطيك المسيحيّون المحليّون من جميع الطّوائف إحساساً بأنهم «حريصون على مصالحهم الخاصّة إلى حدّ يؤثّر على أخلاقهم ونزاهتهم». من بين الأرمن يمكن مشاهدة حوالي ألفي شخص يتمتّعون بملامح جذّابة ويعدّ غالبية المسيحيّين من اليونان، لكن هناك عدد لا يستهان به من الموارنة وبعض السّوريّين الكاثوليك. أما البعثات الأميركيّة فتشمل جالية پروتستانتيّة قليلة في المدينة.

أما الأزياء في مدينة حلب فهي متعدّدة الأنماط. في وسط حلب يعتمر السّكّان الطّربوش الطّويل، وهو الأكثر شيوعاً وله عدّة أشكال. وهناك النّوع الصّلب ذو الارتفاع غير المعقول مما يعطيه مظهراً مثيراً للضحك، وأحياناً يكون لونه أسود بدل الأحمر، ويُلف حوله منديل صغير على طريقة لف العمامة. كذلك يلبس النّاس العمامة المميّزة الأكثر وقاراً، لكنها ليست شائعة كالطّربوش. أما عرب الصّحراء والقرويّون وسكّان الرّيف في شتّى أنحاء شمال سوريّا فيلبسون الكوفيّة الحريريّة ذات الألوان الزّاهية والمطرّزة بخيوط ذهبيّة، أو منديلاً من قطن مانشستر ذا شكل بسيط، وهو شائع من السّاحل السّوري إلى الخليج العربي، حيث توضع الكوفيّة بشكل حرّ على الرّأس (تغطّي قلنسوة بيضاء على الرّأس) ويتم تثبيت الكوفيّة بعصابة متينة مزدوجة من الصّوف أو وبر الجمل. إلا أن هذه العصابات تختلف كثيراً، فمنها ذات لفّة سميكة كالسّجق الألماني بطول ثلاثة أقدام، ويتكون بعضها من خيوط عديدة تجمعها خيوط حريريّة زاهية. لقد اشتريت مجموعة منها من سوق بغداد. أما ألوانها فهي الأسود والبنّي والأبيض، وهو أكثرها روعة وجمالاً.

أما الآن فالحلبيّون يشوّهون الزِّيَّ الشّرقي الذي كان معتمداً سابقاً، بلبس معطف أسود طويل مفصّل على الطّراز الأوروبي بدلاً من العباءة والجبّة التي لا بدّ للعربي أو التُّركي من لبسها. ويمثّل هذا الزِّيُّ الذي تراه باستمرار مع الطّربوش الطّويل لدى السّكّان ارتداداً مؤلماً عن العباءة والجبّة المحترمة للتّركي من المدرسة القديمة. أما الأفنديّة الذين يسكنون في حي العزيزيّة فيلبسون اللباس الإفرنجي مع طربوش.

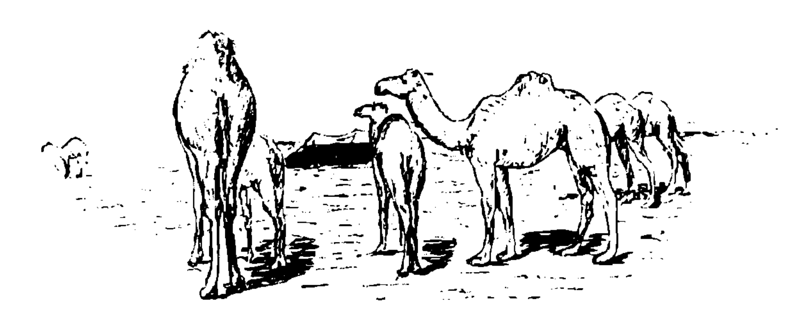
يتمتّع الجو الجميل في حلب بالجفاف، وهو يحرّك النّشاط. أما في الصّيف فالحرارة ليست شديدة. والشّتاء رغم قساوته يبقى محتملاً. ويعد الجليد أمراً مألوفاً هناك، لكنه لا يبقى لفترة طويلة. لدى المقيمين الأوروبيّين مواقد للتدفئة، أما السّكّان المحليّون فيعتمدون على مجمرة الفحم. وكمعظم المدن في هذا الشّق من آسيا، تعاني المدينة هجمات صعبة من الكوليرا، ورغم أن المدينة تبدو أكثر نظافة من باقي المدن في هذا الجزء من تُركية، فإنّ الشّروطَ الصّحيّة غير متوفرة إجمالاً. وتُعدّ دون

شك حبّة حلب أو (حبّة السّنة) التي يصاب بها المقيمون سبباً في عدول السّيّاح عن زيارة هذه المدينة التي تُعدّ عاصمة شمال سوريّا. لكن هذا المرض لا يقتصر على حلب فقط، فهو ينتشر في الجنوب في وادي دجلة والفُرات وأيضاً في بغداد، حيث يسمّى هناك (حبّة العمر) وقد كتب الكثيرون عن هذا الأمر، إلا أن أحداً لم يفهم بعد طبيعة هذا المرض الذي يعدّ وباءً بالتأكيد. تظهر في الشّتاء القروح المؤلمة في عدّة أمكنة من الجلد فتشوّهه، وتبقى لسنةٍ كاملة. ورغم اكتشاف الأطبّاء أن هذا المرض الجلدي يمكنه الانتقال من مكان إلى آخر في الجسم، فلم يجدوا علاجاً له. وفي حالة الأطفال، الذين هم أكثر عرضة له، تظهر القروح على الوجه والسّاقين بشكل عام، وقد شاهدت ستة أو سبعة أطفال أوروپيّين وعلى وجوههم وأوراكهم وأعلى أفخاذهم ثلاث أو أربع ندبات مشوّهة. وليس من المبالغة القول إنه توجد على وجوه نصف الأطفال من عمر خمس إلى عشر سنوات مثل هذه النّدوب والبثور. قد ينجو الكبارُ من هذا الوباء من الأوروپيّين الذين يأتون إلى حلب ويعيشون لسنوات دون الإصابة به، ولكن إن هاجمهم المرض، فإنه يترك عادة ندباً على السّاعد. لكنها ليست قاعدة عامّة، فقد شاهدتُ سيّدات إنكليزيّات سكنّ فترة قصيرة قرب الخليج وتظهر (حبّات العمر) على وجوههن، وأحياناً تظهر أعراض المرض عند رجوع المسافرين إلى ديارهم. أما أصل المرض فما زال مجهولاً، منهم من يقول إنه ينتج بسبب الماء الفاسد، لكن طالما أن المرض ينتشر في وادي دجلة والفُرات حيث المياه العذبة، فالفكرة مستبعدة. ويمكن تعليل السّبب بوجود نوع من الذباب إذ أخبرني السّيد جاغو أن هناك نوعاً من الحشرات يظهر في شهر ديسمبر وفي هذه الأثناء تظهر علامات المرض بشكل عام. إن المرض بحدّ ذاته غير مُعْدٍ وغير خطير، لكنه مزعجٌ ويستحقّ العناء والعمل لمعرفة سببه.

يقول ڤان إغمونت Van Egmont: «هناك حديث شائع أنه ما إن يأتي أحد إلى حلب حتى يصاب بهذا المرض فوراً، وإذا كان لديه مرضٌ كامنٌ، فإنه سرعان ما يظهر في الحال».

ربما تكون الخصال المزعجة هي من عادات الحياة الشّرقيّة في حلب كما هي في المدن الشّرقيّة الأخرى. ففي القرن التاسع عشر في هذه المدينة ذات الكثافة السّكانيّة الهائلة والتي لا تبعد سوى سبعين ميلاً عن البحر المتوسّط، شاهدتُ درويشاً على الأرض أمام سور الجامع ترتجف جميع فرائصه، وفي وضح النّهار وتحت أنظار السّلطات التُّركيّة المتنوّرة، وتتدلّى على كتفيه جدائل سود طويلة وهو يطلب الصّدقات بصوت ضعيف من المارّة. هل من المعقول رؤية هذه المشاهد حتى الوقت الحاضر؟ أما الأغرب من ذلك فهو احتفالات أيام الآحاد في حلب، الذي هو عطلة لدى المسيحيين، حيث تزدحم الطّرقات والمقاهي قرب مدخل المدينة بمدخّني النّرجيلة، ويأتي المسلمون لإلقاء التّحية والدّردشة مع أصدقائهم المسيحيّين. ومن بين هذا الخليط المزدحم لا ترى سوى القليل من الأتراك من أتباع المدرسة القديمة، حيث يلتقي الأفنديّة واليونان والأرمن واليهود مع بعضهم في فوضى عارمة. وعلى جانبي الطّريق تشاهد الرّجال على ظهور خيولهم النّشيطة، وهذه هي فكرتهم الوحيدة عن الفروسيّة. وتستطيع أن ترى بين هذه الخيول الكثيرة القليل من الجياد العربية الأصيلة.





أباعر لعشيرة عِنزة عند مسكنة

الفصل الخامس
على الطّريق

الاستعداد للرّحيل - البقشيش - جبرين - القرية المكتظة - العنف مع حيوانات القوافل - السّباخ - بحيرة مالحة - الوصول إلى دير حفر - الخان - حديث الدّركي - البراغيث - التَّختروان - نظام السّير - خدمي - السّحلية المزعجة - لصوص الأغنام - المشهد الأول للفرات - مخيم عْنِزَة - مَسْكَنَة - بالِس - الشّيخ غنى - أبو هريرة وقلعة جَعبَر - اللقاء مع عم أصدقائي - الدَّركي التُّركي - زبدة اللّبن والتّمور.

في صباح يوم الحادي عشر من مارس، استيقظت بنشاط على أمل البدء بالرّحلة باكراً، لكن سائقي البغال ارتأوا تأجيل الرّحلة إلى ما بعد صلاة الجمعة. ولأنّني لا أرغب بالتدخّل في أمورهم الدّينيّة استجبت لطلبهم وصمّمت أن أكون جاهزاً عند الظهيرة، وقد اتفقت مع حجّي محمّد، كبير السّيّاس، بأن يطبخ لي الطّعام ووعدني أن كل شيء سيكون جاهزاً. لكن بعد الغداء مباشرة ظهر القاطِرجي أو سائق البغال وأظهر تجاهله التّام لموعد الرّحلة. وقد تطوّع أحد رجال القنصل الذي جاء للاستفسار عن موعد رحيلي للذهاب مع المكاري لتفقّد التَّخت والبغال من أجل الرّحيل. سرت

قليلاً باتجاه القنصليّة، وفي حوالي الثانية أُبلغت أن الجميع جاهزون للرّحلة. أخذ السّيّد جاغو يتمشّى نحو الفندق ليواكبني في رحلتي حيث وجدنا الشّارع الضيّق مزدحماً ببغالي وأمتعتي. كان التَّخت ذو الألوان البهية من الأحمر والأزرق، يقف مثبّتاً على ظهور البغال القويّة والنّشيطة. أصبحت القافلة جاهزة للرّحيل عند الثانية والنّصف، وكانت الأجراس المثبّتة على أعناق البغال تدعو الجميع للتفرّج على قافلة الإنكليزي التي أذنت بالرّحيل. ركب رجل الدّرك المرافق لي، والذي كان قد أتى باكراً عند الثّامنة صباحاً وما زال يدخّن السّجائر حتى الآن ويتحدّث مع حصانه الصّغير المكتنز. صعد على ظهر الحيوان المسكين ببندقيّته ومسدّسه وحذائه العسكري، وتحرّك إلى الأمام، وقد جلبوا لي كرسيّاً كي أصعد نحو عربتي. وبعد مصافحة وديّة مع القنصل الكريم صعدت بعجلة وغادرنا برفقة عدد قليل من سكان المدينة الذين تفرّقوا عندما وصلنا إلى الضّواحي. لم نكد نصل إلى منطقة خالية من البيوت، حتى ظهر أحد سائقي البغال أمام عربتي يطلب بقشيشاً لرئيسه أو رئيس سائقي البغال.

لم أفهم في البداية أن هذا البقشيش هو لرئيس البغال المقيم في حلب، لكنني رفضْت وقلت له بأنني لن أدفع بنساً واحداً حتى نصل إلى بغداد. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه العادة، لهذا غادر القاطِرجي وهو في غيظ شديد، فنظرت من الشّبّاك ورأيت الحجّي يخرج شلناً من جيبه ويعطيه له. فما كان من القاطِرجي إلا أن رمى الشّلن في الطّين وهو يسبّ فالتقطه محمّد وتابعنا المسير.

كان يوماً رائعاً بنسيمه العليل، وكان الطّريق يمتد عبر سهل فسيح يشبه السّهل الذي وصلنا من خلاله إلى حلب، لكنه أقل وعورة وفيه بعض الزّروع. وفي خلال ساعة مررنا على يمين قرية مبنيّة بعدد من الأكواخ المخروطيّة وتدعى الدّير، وتتراءى لك من بعيد كأنها مجموعة من خلايا النّحل. مضت ساعة أخرى حتى وصلنا إلى قرية أخرى تشبهها ويبدو أن هذه ستكون محطتنا الأولى. كانت قرية جبرين خالية من غرف المبيت أو الخانات، لهذا قرّرنا نصب خيمتنا في المرج الأخضر المربّع وسط القرية.

كانت الأكواخ المخروطيّة تحيط به من جهاته الثلاث، أما الجانب الرّابع فمفتوح عدا عن مبنى واحد فيه فناء وجرس وله شكل الخان لكن حجّي محمّد أخبرني أنه مسجد. رغم وجود هذا العدد الكبير من الأكواخ فإنه من الصّعوبة بمكان أن تحظى بمشاهدة أيِّ شخصٍ، حتى أن وصولي لم يجلب اهتمام أحد. كان في المربّع الأخضر بئر ماء لسقاية القوافل.

تم ربط البغال إلى وتد مثبّت على الأرض ليشكّل ثلاثة أضلاع من المربّع حيث أمضت ليلتها وسروجها الكبيرة فوق ظهورها. هذه الطّريقة العنيفة في معاملة حيوانات القوافل في الشّرق أدّت إلى ظهور القروح والجروح على ظهورها بسبب الأحمال الثقيلة التي تربط بها بشكل سيّئ. ومن المستحيل إقناع سائق البغال بإزاحة الأثقال عن ظهورها عند النّوم ويكون جوابهم أن لدى هذه الحيوانات قروحاً ولدى نزعها ستصاب بالبرد وبالتالي ستصبح القروح أصلب وسيصعب شفاؤها. عند اقتراب نهاية الرّحلة، أصبحت ظهور بغالي في حالة سيّئة حتى شعرت بأنني شيطان قاس لو أنني أبقيتها في الخدمة. لكن ما باليد حيلة، فإنني لا أستطيع استئجار حيوانات أخرى في هذه الصّحراء لمدّة أسبوعين لحين شفائها.

لا أحد من رجال القافلة يفكر بهذا الأمر وقد اعتادوا مشاهدة هذا المنظر على حيواناتهم، حتى أنهم لو رأوا بغلاً أو حماراً دون قروح لظنّوا أنه نوع جديد من الحيوانات.

تمّ نصْبُ الخيمة قرب البغال، وقد حظيت بوجبة مؤلفة من الدّجاج والخبز والتّمر، ورغم الرّنين الدّائم للبغال ونباح الكلاب المزعج استطعت التنعّم بإغفاءة عميقة.

في السّاعة الخامسة والنّصف فجراً، أثناء انهماكي في تحضير القهوة، سمعت صوتاً أجشَّ يأتي من خارج الخيمة ويقول: «يا الله، صاحب» "Yallah, sahib". كانت هذه إشارة حجّي محمّد للرّحيل، فبدأت عندها بفك حبال الخيمة لطيّها. طويت فراشي وأنا أرتشف القهوة بينما انهمك الرّجال برزم الأمتعة وربط التّخت إلى البغال. وعند السّادسة والنّصف كنا جميعاً جاهزين للانطلاق. كان المطر كثيفاً في

الليل، والجوّ غائماً في النّهار. أما الرّحلة فكانت بشكل عام لطيفة وسهلة أثناء مرورنا بالسّهل. والرّيف الذي نمر به الآن يشابه تماماً الذي مررنا به الأمس. وعلى مسافة قليلة استطعنا رؤية أبنية قليلة العلو. كانت هذه التّلال المصطنعة التي تميّز المواقع الأثرية القديمة المنتشرة في كل مكان مشابهة لقرية جبرين. هناك قطعان من الأبقار والأغنام المبقّعة، تقطعها بين الحين والآخر قافلة من الجمال المتّجهة إلى حلب وطيور كبيرة تشبه مالك الحزين الضّخم. كانت هذه الحيوانات هي الوحيدة التي تكسر رتابة الطّريق، بالإضافة إلى التلال الضّخمة التي لا تقل علوّاً عن قلعة حلب. في السّاعة العاشرة مررنا بالقرب من قاعدة التّل. وفي الحادية عشرة والنّصف عبرنا نهرين صغيرين متّجهين نحو الجنوب. وعلى بعد أميال قليلة وعلى اليمين استطعنا رؤية بحيرة الملح التي يدعونها السّبخ Sabbakh أو سَبخَة الجَبّول كما يسمّيها رَسل، والجَبّول Jebool أو Jebul هو اسم القرية التي تقع على طرفها. وقد وصف هنري موندرل Henry Maundrell، القسّ التابع لمركز حلب في أواخر القرن السّابع عشر، هذا المكان في ملحق إحدى كتبه عن الرّحلة بقوله: «إنه بعرض مسيرة ساعتين أو ثلاث على مستوى واحد. ويبدو من على بعد كأنه بحيرة من المياه. تجفّ هذه المياه في الصّيف عندما تضربها أشعة الشّمس وبذلك تتكوّن طبقات من الملح، حيث يتم جمعها وتكديسها بأكوام حسب درجة نقاوتها، فبعضها يكون ناصع البياض والبعض الآخر موحل. وعلى طول أحد جانبي الوادي المتجه إلى الجبّول هناك منحدر قليل بعمق طول رجلين تكوّن بسبب استخراج الملح. يتم الاحتفاظ بمستودعات الملح في الجبّول حيث يكون بشكل كومات كبيرة جاهزة للبيع. يتم العمل في هذا الوادي لصالح السّلطان بمبلغ 1200 دولار في السّنة». وأعتقد بأن كلّ الملح الوارد إلى حلب في الوقت الحالي مصدره الجَبّول.

في الثانية والرّبع، وصلنا إلى دير حفر، وهي قرية واقعة إلى أسفل تل أثري قديم وسط مرج أخضر ناعم، وإلى الغرب من القرية استطعنا رؤية منزل صغير تحيط به أشجار قليلة كالصّفصاف. هذا المنزل هو مقّر إقامة عدد من أهالي حلب الأثرياء،

وكان هناك حول المنزل ستة مهور.

نزلنا في خان رديء، حيث قدّموا لي غرفة مزوّدة بقفل ومفتاح لكنها أسوأ من حظيرة إنكليزية للأبقار. كانت الشّبابيك عبارة عن فتحات والغرفة تفتقر إلى جميع لوازم الغرف. وقد استوطنت في السّقف الخرِب جماعاتٌ كبيرة من طيور السّنونو، لكن السّكان هناك كانوا لبقين وكرماء، فعندما طلبت بعض الحليب، جلبه لي شابٌ قرويٌّ ذو وجه حسن ورفض أخذ المال. أما في اليوم التالي فقد اشتريت بقرش واحد (ويعادل پنسين) تسع بيضات، حيث طلبت من محمّد أن يسلقها جيداً في زريبة صغيرة هي من المفترض أن تكون مطبخ الخان. بعد تناولي الفطور أخذت أتمشّى مع الدّركي المرافق لي وتبادلنا بعض الأحاديث. كان رجلاً مضحكاً ذا وجه كثيف الشّعر، ملامحه قريبة من أهل القوقاز منها إلى العرب. يرتدي كمعظم الرّجال زيّاً نصفه شعبي ونصفه الآخر مدني، ويضع على رأسه الكوفيّة المعتادة. كان رجلاً بسيطاً طيباً، لكنني لم أفهم من كلامه إلا القليل، وفتّشت في جميع المفردات العربيّة التي أعرفها لكن عبثاً. كان يقول (چتير) بدل «كثير» و(چَلب) بدل «كلب»، لكنه كان ماهراً في إفهامي بإشارات يديه. أخبرني بأنه رافق إنكليزياً ومترجمه في هذه البلاد قبل سنوات خلت. كان الإنكليزي صيّاداً بارعاً، اصطاد أربعة خنازير بريّة بطلقة واحدة، حيث مرّت الرّصاصة بسرعة في رؤوس هذه الحيوانات، وأضاف الدّركي أنه كان لديه كلب صيد أسود ينطلق بسرعة ويجلب الطّرائد. ولتوضيح هذه القصة، وضع أربعاً من الحصى الصّغيرة بخط مستقيم لتمثيل الخنازير ثم ركلها فجأة جميعها بعصاه ليمثّل اصطيادها في وقت واحد على يد الصّياد.

عند عودتي، ولأنني لم أجد شيئاً يشغلني، جلست أدخن الغليون وأراقب ما يدور في فناء الخان. كانت بغالي السّتة المربوطة بحبال منشغلة بالأكل، وكان الفلاحون ذوو الملامح الخشنة منشغلين برعاية خيولهم ذات القروح المحزنة. تصاعدت الأبخرة السّوداء الكثيفة من مطبخ الخان حيث يُعدّ الطّعام، ممّا جعل هواء الفناء أكثر إزعاجاً، بالرغم من أنني كنت أتوق لأن يفعل هذا الدّخان فعله مع الحشرات التي

أظنها الآن ف22لحافاً محشواً كي يكون سهلاً للنوم، وعند ظهري أضع لفّة فراشي. كانت معي أيضاً حقيبتي الغلادستون وفيها بعض الدّفاتر لتدوين الملاحظات. ومن الضروري بالطّبع موازنة التّخت حتى لا يكون الثقل على جانب واحد. وبعد جلوسي المريح أتناول فطوري من الخبز والبيض المسلوق وربما التّمر، ثم أجثو على ركبتي التماساً للدفء ومعي غليوني ودفتر ملاحظاتي. وبين القراءة والكتابة وربما الإغفاءة القليلة هكذا حتى العاشرة أو الحادية عشرة أخرج لأتمشّى لمدة ساعتين، ثم أعود وأفتح سلّتي لتناول طعام الغذاء من لحم الدّجاج البارد (إذا كان لدي شيء منه) والكثير من التّمر. وفي وقت معيّن من الظهر، أي حوالي الواحدة أو الثّانية بشكل عام، نصب خيامنا. وبعد أخذ حمّام من المياه الباردة في نهر الفُرات العكر، أتمشّى قليلاً قبل العشاء الذي أتناوله عند الخامسة تقريباً وهو مكوّن من الأرز مع الشّعيريّة والخبز والتّمر والدّجاج الذي يطبخه لي حجّي محمّد. لقد استمتعت بالنّعيم من خلال تناول لحم الدّجاج خمس أو ست مرّات خلال الرّحلة، حيث كنت أشتري اثنتين أو ثلاثاً منها وأطبخها مرّة واحدة. وبعد العشاء أدخّن غليوني، ثم أذهب للنوم بحدود السّابعة والنّصف أو الثامنة.

على الرّغم من أن التّخت يتمايل إلى حدّ كبير، فهو ليس بذاك السّوء الذي يظنّه البعض (حيث يشعر الأوروبيّون الذين يستعملونه لأول مرّة بأنهم سيصابون بدوار البحر) لكن باستثناء السّير على الأراضي الوعرة فإنّ السّير في غاية السّلاسة على عكس العربة ذات العجلات. ولأن المرء يستطيع الاستلقاء فيه بكامل طوله، فإنه يعتبر في غاية الرّاحة رغم أنه ثقيل الوزن فوق البغال التي لم تتعثر يوماً. أما عند عبور الأنهار أو صعود المنحدرات، فالأمر مختلف حيث يكون الارتجاج شديداً. وإذا كان الطّقس مناسباً فإنني أسحب السّتائر وأفتح الشّبابيك. أما إذا كان بارداً كمعظم الأيام وخصوصاً عند الفجر، فتراني أتدثّر بغطائي الثّقيل وأغلق كل الشّبابيك والأبواب. أما نظام السّير فهو التالي: تسير البغال الأربعة التي تحمل الأمتعة وأكياس العلف في المقدّمة بأعناقها المزيّنة بالقواقع والأصداف الصّفراء بأشكال جميلة. كان هناك

بغلٌ رماديٌّ صغيرٌ يسير خلال الأسبوع الأول في المقدّمة وإذا ما سبقه الآخرون كان ينطلق مهرولاً لاستعادة مكانه في المقدّمة، لكن المسكين اكتشف لاحقاً حماقة هذا التصرّف، وفي خلال عشرة أيام أصبح يسير مع الباقين. لا تتبع هذه البغال أيَّ نوع من النّظام، فهي تسير يمنة ويسرة، وعندما تشاهد بقعة من العشب تهرع لالتهامها، ثم يحثّها سائقها على الإسراع. يمتطي هذا الشّخص عادة حماراً صغيراً ينظّم سرعته بواسطة إبرة خياطة كبيرة متدلّية من حزامه يلكز بها الحمار. إنه أمر شائع جداً لدى سائقي البغال والحيوانات الأخرى في تُركية. قد يبدو استخدام الإبرة لهذا الغرض فيه شيءٌ من الوحشيّة بالنّسبة لنا، لكنها لا تتعدّى كونها إبرةً أو مهمازاً. لا يمكنني القول بأنها تستعمل بكثرة، ولا بد أنها ضرورية لحثّ الحيوانات على اللحاق بالقافلة.

بعد أن تصبح البغال وسائقوها «عربتي الرّسميّة» الفخمة، يتقدّم السّائسون إلى محاذاة رؤوس البغال ويسير «الدَّرَكي» في الموكب وهو ينفث سيجارته متلحّفاً بشال كما لو أنه في المناطق القطبيّة الشّمالية.

قد تكون كل من شخصيّة وزي رجالي ملفتة للنظر، فبَخيت، سائق البغال رجل نحيل لكنّه قوي ووسيم وهو من الطّراز العربي الخالص الذي ربما لم يتخلّ أسلافه عن الحياة البدويّة منذ وقت طويل. إنه رجل طيّب راضٍ عن عمله كقاطِرجي قوافل أو مكاري. لكن كما هو الحال عند السّفر مع الخدم العرب، فإنّ الرّئيس هو من يختلق المشاكل. كان يرتدي كوفيّة من قطن مانشستر بلون وردي وأبيض، مثبّتة على رأسه بعقال بنّي. كما يرتدي قميصاً أزرق مفتوحاً من الأمام ومثبّتاً عند الخصر، تتدلّى منه سكين أو إبرة الخياطة. تحت القميص الأزرق ذي الأكمام الطّويلة هناك قميص آخر بني اللون، وفوق كل ذلك سترة حمراء جميلة مفتوحة من الأمام تصل إلى ركبتيه، وهي مطرّزة بشكل رائع بخطوط صفراء وبيضاء وزرقاء وخضراء. أما الجانب الدّاخلي للسّترة، فيمتدّ إلى الأسفل. ولا يكتمل هذا الزّيُّ الجميلُ إلاّ بزوجٍ من الأحذية الحمراء الواسعة.

إن اسم بخيت هو تصغير لبخت، ومعناه ذو الحظ، لكنني لا أستطيع القول إن هذا

الاسم ينطبق على سائس البغال هذا.

كان حجّي محمّد، كبير السّيّاس وخادمي الخاص، رفيقاً ممتازاً في السّفر، وهو يتمتّع بملامح طفوليّة تنم عن الصّراحة والشّرف كما لدى العرب. لديه شجاعة الأسود وتحمّل البغال. كان فخوراً جداً بكونه قد زار مكّة. وهو في الواقع رحّالة كبير يعرف كل الطّرق في تُركية وآسيا. لقد خدمني بإخلاص طوال الأسابيع الثلاثة المنصرمة ولم يخدعني مطلقاً عدا عن خلط أرزي بأرز أقل جودة لإعداد وجبة پيلاف لذيذة. لهذا فإنّ أفعال حجّي محّمد تستحق تخصيص جزء من كتابي لاحقاً لأنها تصف جزءاً من رحلتي إلى بغداد. كانت ملابس حجّي محمّد شبيهة بملابس بخيت. سترته بنّية الأكمام، فيها بعض المطرّزات والأشرطة البيضاء والزّركشات الحمراء. تطريزها أكثف من سترة سائس البغال. أما الأكتاف فعليها ثلاثة أشكال صغيرة على شكل وردة بالأحمر والأصفر والأزرق وثلاث وردات أخرى أسفلها تشبهها. سرواله الطّويل أزرق اللون، أما جواربه الزّرقاء فمطرّزة، يلبس فوقها الخفّ الأحمر، كما يلبس كوفيّة زرقاء مع عقال أبيض.

كان حمّادي مساعد السّائس فتىً مسالماً. أما الميّزة التي يتمتّع بها - إن كانت تعد مزيّة - فهي جزله الدّائم الذي يدفعه إلى الغناء باستمرار. كانت أغانيه عاطفيّة ورقيقة، لكنها تسبّب في بعض الأحيان إزعاجاً لي بسبب ترديدها المستمر في ساعات الليل والنّهار. كان حمّادي لا يمانع بالسير تحت حرارة الشّمس الحارقة لثماني أو تسع ساعات، ليجلس بعدها أمام نار المخيّم ويسلّي رفاقه بأغانيه الحانية التي تمتد من شروق الشّمس حتى غروبها وهو يرتدي سترته البنيّة الفاقعة مع الشّريط الأخضر في ياقته والأزرق الذي يمتد من الياقة إلى أسفل الدّرزة التي على الكتف. أما الأشرطة البيضاء فتمتد إلى الأسفل أمام الأكتاف وتحت الذراعين. وتحت السّترة يرتدي قميصاً أسود وسروالاً أبيض وكوفيّة تشبه إلى حدّ بعيد كوفيّة بخيت.

كان صباحاً في غاية الرّوعة ذاك الذي غادرنا فيه دير حفر. فالسّهل كان مزداناً بأعشاب الحوذان، تغرّد فوقها طيور القبّرة بأصوات رائعة، بينما تثب السّحالي النّشيطة

في كل مكان. حالما اجتزنا القرية ثم نهراً صغيراً، دخلنا سهلاً مزروعاً في جزء منه. وبعد ذلك بوقت قصير مررنا أمام تلال عالية يسمّيها الدّركي بـ (مادوم). هذا وأخذ عدد الأراضي المزروعة يتناقص شيئاً فشيئاً إلى أن وصلنا إلى سهل متموّج قليلاً هو في الحقيقة الرّكن الشّمالي لما يطلق عليه اسم الصّحراء السّوريّة.

بينما كنت أسير صباحاً كالمعتاد، شاهدت زاحفاً صغيراً كنت أظنّه ميّتاً من شكله. كانت سحلية بطول ستّة بوصات، لها ذنب كذنب الجرذ وسيقان طويلة وفم كبير كفم الحيوان العادي[1]، ولشدّة دهشتي، بدلاً من دخولها في أحد الشّقوق والتّواري، بدأت تهاجمني بغضب شديد وأخذت تقفز في الهواء حوالي ستّ بوصات وهي تعضّ الحلقة المعدنيّة المطوّقة لطرف العصا، وتقف قليلاً ثم تتابع الوثب من جديد. وإذا أبعدت عنها العصا، تقف غاضبة ثم ما تلبث أن تقفز ثانية. وعندما علمت أنّه لا جدوى من القفز على العصا، استدارت باتّجاه حذائي. كانت أقدام هذه السّحلية طويلة بشكل ملفت للنظر. حاولت تصويرها بآلتي اليدويّة، لكنني فشلت.

بعد ذلك ظهر فجأة ثلاثة من البدو على قمّة التل يركضون، تبدو على ملامحهم علامات الهياج. قالوا لرجالي شيئاً واختفوا. بعد ذلك رأينا شيئاً أسود ملقى على السّهل، تبيّن فيما بعد أنه حمل. حمله حجّي محمّد وتم ذبحه في الحال. كان الرّجال الذين مرّوا بنا من لصوص الأغنام، تمت مباغتتهم وهم متلبّسون، فقام رجالي (سائقو البغال والدّركي) بملاحقتهم في الحال وتم القبض على مرتكب السرقة. كان شابّاً في مقتبل العمر يشير قميصه وجدائله المضفورة إلى أنه من قبيلة بدويّة تقوم بأعمال الغزو. كانت ملابسه وكذلك وجهه ويداه ملطّخة بدم الضحيّة، وعندما اقتادوه إلى حيث أجلس، انفجر بفيض من الدّموع ظنّاً منه بأنني سآمر بإعدامه فوراً، لكننا سلمّناه فوراً إلى الفلاح الذي تعرّضت قطعانه للسّرقة. كانت هذه المرّة الأولى التي أرى فيها أساليب الصّحراء وعاداتها.

---

(1) يبدو أنها نوع من العظاءة المعروفة باسم: سام أبرص (أبو بريص).

في وقت الظهيرة، وقعت أنظارنا على نهر الفُرات العظيم، وبعد مسيرة نصف ساعة وصلنا إلى الوادي الكبير. يتميّز خط الحدود الفاصل بين النّهر وواديه بسلسلة من المنحدرات الحوّاريّة متوسطة الانحدار، ويتراوح عرض السّهل من ميلين إلى ميلين ونصف. وهو مغطّى على مدّ النّظر بالخيام السّود وقطعان الأغنام والجمال والخيل التي تعود كلّها إلى قبيلة عْنِزَة التي وصلت مؤخراً من مضاربها الشّتويّة في جزيرة العرب لتنتشر في المراعي الصّيفية في البادية جنوب حلب وشرقها. كان المنظر مهيباً بالفعل، يذكّرك بمشاهد من كتاب العهد القديم. بعد نزولنا إلى السّهل، سرنا فيه بتحفّظ شديد بجوار مخيّم عْنِزَة الكبير، حيث انطلق الدّركي سريعاً نحو إحدى الخيام وعاد سريعاً بوعاء من الحليب الطّازج يكفي للجميع. كان هذا ترحيباً من العرب بمناسبة قدومي إلى النّهر الكبير، وبالطّبع دون مقابل. تُعدّ عْنِزَة القبيلة الأقوى بين وادي الرّافدين وسوريّا وهي غاية في الكرم[1]. كان العديد منهم يركبون الخيول ويحملون عصيّاً من الخيزران بطول 15 قدماً، وهم يتميّزون بسُمرتهم وقوامهم النّحيل مع جدائلهم السّود. وقد لاحظت بعض الطّيور المحلّقة فوقنا أظنّها طيور النّورس. لا أدري إن كانت قد جاءت من البحر المتوسط أم أنها جاءت إلى النّهر من الخليج. إنّها قصّة غريبة فعلاً.

* * *

انحدرنا بعد ذلك على ركن قريب لنجد أنفسنا على مقربة من عدد من المباني في قرية مَسْكَنَة، فيها خان وحصن صغير يتمركز فيه عدد من الجنود ورجال الدَّرَك. تقع مَسْكَنَة بالقرب من النّهر وهي تُعدّ ميناء حلب إذا ما افتُتح خط للملاحة في النّهر. يقول رجالي إنه لدي خيارين، إما الذهاب إلى الخان أو نصب الخيام أمام النّهر. وقد أخذت الخيار الثاني حيث تم نصب الخيمة على بعد ميل تقريباً من الفُرات وبالقرب

(1) كتب المؤلف: للحصول على المزيد من المعلومات عن قبيلة عْنِزَة وسائر القبائل العربيّة في وادي الرّافدين وجزيرة العرب تحت الحكم التركي، انظر كتاب «عشائر بدو الفُرات» للّيدي آن بلنت، حيث يقدّر السّيد بلنت عددهم بـ 30,000 خيمة و120,000 شخص.

من خيمتين عربيّتين لإحدى القبائل الرّعوية. وبعد كوب من القهوة وحمّام منعش، أخذت أتمشّى على ضفّة النّهر. كان التّيار سريعاً جداً في هذا الجزء من النّهر الذي لا يزيد عرضه عن نصف ميل.، والماء شديد الاضطراب. هذه هي الحال في نهري دجلة والفُرات على الدّوام. إن الماء شديد العذوبة، لكن لا بد لك قبل استعماله من إخراجه وتركيده بعض الوقت ليتم فصل المياه العذبة عن الوحل البنّي النّاعم الذي يترسب في القعر. لا يوجد منحدرات في هذا الموقع في بلاد وادي الرّافدين، فالأرض مستوية قرب النّهر، وتعود لتتموج بعد ذلك، ويمكن رؤية سلسلة من التلال المنخفضة على خط مستقيم. وبينما كنت واقفاً أنظر إلى النّهر، تقدّم منّي راعٍ شابٌ وخلفه قطعانه التي بدت وكأنها تفهم تحرّكاته وأوامره. حاولت التحدّث معهً. كان يريد معرفة المكان الذي أتيت منه وإلى أين أتّجه. وقد استطعت فهم القليل وهو أنه من قبيلة فلاحيّة تدعى شهر، وهو اسم لم أجده عندما فتّشت في قائمة السّيّد بلنت عن العشائر.

اشتريت البيض والحليب من رجل من جيراني في الخيمتين المجاورتين. وفي المساء، نهضت على صوت شجار قوي خارج الخيمة بين رجالي وبين الرّجل وزوجته وابنه. هرعت إلى المكان فرأيت بخيت يتربّع أرضاً وهو ينهال بالضّرب على ابنهما بيد كالمطرقة والرّجل وزوجته يصرخان ويستغيثان طلباً للنجدة. كانت المعركة محتدمة تكاد تؤدي للقتل فتدخّلت سريعاً لفك النّزاع، الذي كان بسبب سعر البيض. لم أستطع إضافة شيء على الموضوع، وسرعان ما انفضّ النّزاع وقام العرب بالرّحيل.

في اليوم التالي، اجتزنا بعد ساعة من المسير آثار قلعة بالِس، هذه القلعة العالية ذات المئذنة المثمّنة والتي تقع على قمّة التّل. كانت بالِس في السّابق ميناءً مهمّاً لسوريّا (وهي ذاتها «بارباريسوس» Barbarissus لدى بطليموس و«بارباليسوس» Barbalissus في ألواح ثيودوسيوس). ويقال إن السّهل المحيط بها هو متنزّه للمرزُبان

الفارسي بيليسيس والتي دمّرها قورش الأصغر[1]. ويعيّنها بنيامين التّطيلي بأنها (پيثور Pethor أو پيثورا Pethora) المذكورة في سفر العدد وسفر التثنية، وعندما زارها سنة 1163 م كانت تضم عشرةَ أشخاصٍ من اليهود. وقد فتحها الصّليبيّون بقيادة تانكريد سنة 1111 م. أما الآثار الموجودة في الوقت الحالي فهي عبارة عن مزيج من البناء الرّوماني والعربي. ويجري النّهر حاليّاً على بعد بضعة أميال من المنحدرات التي تقع عليها هذه الآثار. لكن من الواضح أن قاعدة هذه الأرض المرتفعة كان النّهر يغمرها في زمن ما، أو الأرجح، كما يعتقد أينسوورث Ainsworth، يغمرها فرع من النّهر، ثم يرتبط ثانية بالمجرى الرّئيسي في نقطة تقع إلى الجنوب. وقد شاهدت آثار عدة قنوات قديمة فوق هذه الأرض المستوية.

بعد اجتيازنا بالِس، سرنا على طول السّهل، مرة تحت المنحدرات الحوّاريّة وأحياناً أخرى على مسافة بعيدة عنها. وشاهدتُ على قمّة المنحدرات طبقةً من الحجارة القاسية أو الصّخور المنحوتة. وفي موقع أو موقعين من سطح المنحدر، شاهدت حفرياتٍ لها شكل القبور القديمة. كانت الغربان والصّقور ونسر أو اثنين تحلّق فوقنا، وكانت تارة ترفرف فوق رؤوسنا وتحطّ تارةً أخرى قرب القمّة. كما كنا نرى طوال الوقت أشجاراً خفيفة تشبه الطّرفاء التي أظن أنني سأشاهد منها الكثير قبل الوصول إلى وجهتي. بعد حوالي ثلاث ساعات ونصف، اختفت المنحدرات وبدأ الارتفاع الطّفيف للسّهل الذي يجري منه النّهر على الأرض الصّحراويّة، دخلنا بعد ذلك إلى الوادي حيث نصبنا الخيام لقضاء الليل في هذا المكان الرّائع بجانب تلّ قديم يسمّى الشّيخ غنى يقع مقابل جزيرة تقسم النّهر وتظللها شجيراتٌ صغيرة. في أعلى التلّ، هناك حصن من الطّين كانت الحكومة التُّركية قد بنته وجهّزته بعدد قليل من الجنود، لكن هؤلاء تركوه وسكنوا خيمةً قرب قاعدة التلّ. وقد أشار الرّجلُ المسنُّ المكلّف بالاعتناء بالمكان من فوق قمّة التلّ، فنظرت نحو قلعة جَعْبَر ذات المئذنة

---

(1) كتب المؤلف: انظر كتاب أينسوورث:
"Personal Narrative of the Euphrates Expedition".



العالية الواقعة فوق تل شديد الانحدار في الجانب المقابل من النّهر، فرأيتها تقع على بُعد مسافة شرق الشّيخ غنى. يجري النّهر هنا بهذا الاتجاه وخلف الضفّة اليمنى يوجد أثر أبي هريرة. وقد اشتريت من هذا الرّجل الجليل حملاً وأعطيته لرجالي فطبخوه وجهّز لي الحجّي محمّد عشاءً من الأرز ورأس الحمل (وهي وجبة طعام شهيّة لدى العرب). كان الجو يتقلب، لكن النّهار كان دافئاً والمساء الآن في غاية الرّوعة. كان القمر بلونه البرتقالي يظهر في السّماء غير مكتمل الشّكل، ويرتفع بظلاله الدّاكنة على تلال الصّحراء فينير النّهرَ السّاكن. كان المنظر جميلاً ومهيباً في آن واحد. كان الصّوت الوحيد المسموع في هذه الليلة المقمرة، هو العواء الكئيب لبنات آوى في الجزيرة وصوت الأسماك التي تغطس باستمرار في النّهر. لقد مرّ وقت طويل منذ أن تركنا مخيّم عْنِزَة. والآن تُعدّ الدّلالة الوحيدة على الحياة البريّة، إضافة إلى مخيّمي الصّغير، هما الخيمتان المنصوبتان قرب قاعدة التلّ.

في صباح اليوم التالي، وبعد ليلة هانئة، انطلقنا عند السّادسة باتّجاه سهل ذي زرع على شكل قطع متفرّقة هنا وهناك. وبعد ساعة وصلنا إلى منحدرات من الجبس والمرل، وعلى قمّة المنحدرات يوجد برج مستدير، ربما يكون بقايا من مسجد قديم متهدّم، وعلى علو قليل منه أثر آخر. هذا هو الموقع الذي رأيته في السّابق في منطقة الشّيخ غنى Ghana والمسمّى بأبي هريرة. ربما تكون هذه المزروعات من أعمال عرب الولدة كما يذكر أينسوورث Ainsworth. أما اللّيدي آن بلَنت Lady Anne Blunt فقد ذكرت شيئاً عن آثار أكواخ مصنوعة من الطّين، بنيت على أنها أحد أعمال الپاشوات الرّواد الذين أرادوا دفع أفراد عرب عْنِزَة للتوطّن كفلاحين، لكن يبدو أن التجربة قد باءت بالفشل.

في خلال نصف ساعة، سرّني إلقاء نظرة على القلعة الجميلة المسمّاة بقلعة جَعْبَر، وهي على الطّرف الواقع في بلاد وادي الرّافدين. إنه منظر ملفت للنظر حقاً فجانبها المرئي أمامي مربّع الشّكل، أما الجانب الآخر فيطلّ على النّهر بانحدار شديد تعلوه مئذنةٌ ضخمةٌ فوق التحصينات، وتقع بين قاعدة المنحدر والنّهر غابة كثيفة من الأشجار الصّغيرة.

لقد ذكر قلعة جَعْبَر كلّ من بنيامين التَّطيلي عام 1163 م وأبو الفداء في القرن الرّابع عشر، ويبدو أيضاً أنها أتى ذكرها بتواريخ متعددة بالأسماء التالية: داوسر Dauser وداوسارا Dausara (لدى إسطفانوس البيزنطي) وداوسِس Dauses ودابانا Dabanas، وقد ارتبطت أحداث تاريخيّة عدّة بهذا المكان. يذكر أينسوورث Ainsworth أن هذه القلعة تضم قلعة جَعْبَر وآثار أبي جَعْبَر القريب منها ودير المحارز (الذي يذكره بنيامين التَّطيلي باسم سيلا مِدبارا Sela Mid Bara. ويقول بأنه كان يضم في ذلك الزّمان حوالي ألفين من اليهود)، أمّا أبو هريرة فقد كان مركز تجمّع سكاني كبير.

بعد مرورنا حول قاعدة المنحدرات، دخلنا الصّحراء تاركين النّهر إلى وادٍ فسيح. والواضح هنا أنه كان مجرى لسيول جارفة في أوقات معيّنة. أثناء مرورنا في المكان، لاحظنا ركائز حجريّة منها المستدير وشبه المستدير، هي ذاتها التي نشاهدها في الأرياف التي تكثر فيها المستنقعات في شمال إنكلترا، وأعتقد بأنها غاية في القدم. ومن غير المحتمل أن تكون ذات أصل عربي، لكن يبقى عمرها مسألة تقديريّة. ثم مررنا عبر الصّحراء بطريق صخري وعر وصادفنا القليل من الشّجيرات النّامية. وفي غضون نصف ساعة، عدنا مرّة ثانية إلى السّهل الذي يقطعه النّهر وحصلنا هناك على حليب طازج من عرب الرّايح الذين يتمركزون بخيامهم وحولهم عددٌ هائلٌ من الأغنام لكننا لم نشاهد أيّة خيول.

أثناء النّهار كنّا نمر بين الحين والآخر بعدد قليل من القروييّن وقد سلّم رجالي الثلاثة بحرارة على أحد الرّجال كان يرافق مجموعة من الأشخاص مع بغالهم، ويبدو أنهم متّجهون إلى حلب، حيث عانقه رجالي وقبّلوه على خدّيه وكانوا ينادونه عمّي. كان من أهالي بغداد، يُشبههم كعربي يعمل مع القوافل. وبالقرب من هذا المكان صادفنا على أرض مرتفعة على الجهة اليمنى رجلين يبدو أنهما أوروبيّان. ولسوء حظّي، فقد كان الطّريق وعراً في هذا المكان بحيث لم أستطيع التّرجل عن خيمتي أو حتى إيقاف التَّخت، لذلك تركناهم خلفنا. على أية حال فقد أكون مخطئاً إذ أنني لم ألتقِ بأيّة قافلة على الطّريق.

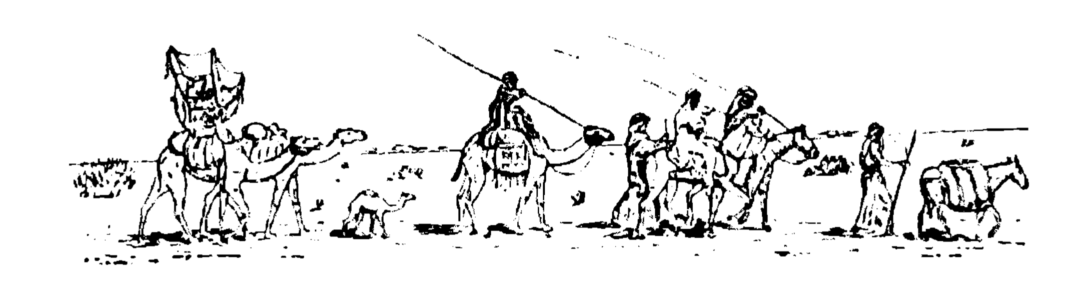
أما الجزء الأخير من هذا اليوم فقد كان على أرض صخريّة وعرة تمتد عبر تلال تكسر من استواء الصّحراء عند طرف السّهل النّهري. إن السّير على أرض كهذه داخل التَّخت أمر لا يدعو للسّرور بتاتاً، حيث كنت أتدحرج إلى مؤخّرة العربة في دقيقة واحدة، ثم أنزلق ثانية إلى الطّرف الآخر عندما تصعد البغال أحد المرتفعات أو تهبط أحد المنحدرات. أما الغذاء في التَّخت فتناوله يشبه مرورك في خليج بيسكاي. مع عدم وجود أماكن وأدوات لوقاية الأواني من الانزلاق على المائدة كما في السّفن. وفي الواحدة والنّصف، وصلنا إلى مكان جميل بالقرب من النّهر يسمى (الحمّام) وتم نصب خيمتي هناك. لا يوجد في المكان أي أثر لخيمة أو بناء من أي نوع. تأخذ الأرض من هنا بالارتفاع بشكل منتظم، بينما تكون حافتها الأخرى الواقعة على مسافة قصيرة من النّهر عبارة عن منحدر منخفض. وقد وجدت خلال سيري على الأقدام العديد من أحجار الصّوان (وربما تكون أثراً من آثار العصر الحجري المدهش الذي يبدو في كل مكان). وكانت الأرض مغطاة بأزهار السّحلب الزّرقاء الجميلة.

عند عودتي فاجأني جميل، الدّركي المرافق لي من حلب، بأنّه لن يستطيع إكمال الرّحلة معي، وقد أحضر بديلاً عنه وعريفاً لا أعلم من أين أتى إلا إذا كان رجال الشّرطة الأتراك يهبطون من السّماء. وقد أثرت اهتمامهما بخرائطي ومسدّسي الذي عرضتُه عليهما، وكان رجال الشّرطة هنا يحملون مسدّسات جيّدة من صنع أميركي.

كان الرّجل الجديد الذي أحضره جميل شيخاً عربيّاً وسيماً لا يرتدي زيّاً رسميّاً، ويبدو عليه باستثناء المسدّس الذي يحمله أكثر شبهاً بإبراهيم أو هارون من رجل شرطة. كانت خزانتي لحفظ اللحوم فارغة من الدّجاج أو اللحم، لهذا كان عليّ إقناع نفسي بعلب سمك السّلمون للعشاء. ليس هناك من شيء يؤكل أكثر كراهة من معلّبات سمك السّلمون، لكنني استسلمت لقدري مع بعض جرعات من اللبن، حيث لحسن حظّي استطعت شراء بعض منه. يعدّ اللبن شراباً منعشاً ورائعاً بعد مسيرة مسافة طويلة في يوم حار، وكنت أشتري منه دائماً كلّما سنحت لي الفرصة. وبعد أن أضع جانباً ما سوف أحتاجه، أصبّ الباقي في منديل وأعلّقه في حبل الخيمة كي أترك الماء يسيل

منه. والنّتيجة تكون حصولي على بديل ممتاز من الزّبدة، يجعل مذاق الخبز الجاف الذي فات عليه أكثر من أسبوع أكثر استساغة. أما التّمور وزبدة اللبن فتشكّل حلوى غنيّة تليق بالملوك.

* * *



عرب عِنزة في ترحالهم

الفصل السّادس

مواصلة الرّحلة

رحيل عرب عْنِزَة - الهودج - الزّي والسّلاح - مشاهدة الرّقّة - العرب فوق القِرَب المنفوخة - مدير أفندي - الدّرويش المتألم - زوّار غير مرغوب بهم - الاستحمام في مياه النّهر والعواقب السّيّئة - نصب الخيام في مناطق الغزاة - الوصول إلى الدّير - الخان - وصف المدينة - فقرها - زراعتها - «الكرد» - السّكان العرب - أهميّتها السّياسيّة - ظهور رجل «إنكليزي» - رواياته عن نفسه وذكر مزاياه - جمع الوقود الخشبيّة - ظهور ألتون - الصّحراء المرعبة - زوّار - وصول الپاشا - الحاج محمّد «ذو البطن المنتفخة» - سائقو البغال الأشدّاء.

بما أن مسيرة اليوم التالي ستكون طويلة، فقد حزمنا أغراضنا وبدأنا المسير في العتمة عند الرّابعة والنّصف. حاولت إعداد كوب من القهوة، ولأنني كنت نصف نائم فقد سكبته على سريري دون أن أشعر. وفور مغادرتنا، تدثرت بالبطانيّة بعد أن لبست معطفي ثم غرقتُ في نوم عميق. وبعد ساعة، استيقظت لأجد أننا نسير في جزء مستوٍ

مرتفع من الصّحراء. وخلال ساعة من الزّمن دخلنا الوادي ثانية حيث سرنا خمس ساعات في وادٍ فسيح وقاحل. كانت المنحدرات الكلسيّة بجهة اليمين لكن السّير لم يكن مملاً فقد كان السّهل في حركة مستمرة لعرب عْنِزَة وهم يرتحلون، حيث أخذت تمرّ من حولنا أعداد كبيرة من الخيول العربيّة القوية، يمتطيها الخيّالة، وتجري في أعقابها العديد من المهور. كانوا يحملون الرّماح فوق أكتافهم ويسوقون أمامهم قطعاناً كثيرة من الجمال غير المحمّلة، يتبعها جملان أو ثلاثة من الجمال الضخمة التي تحمل هودجاً كبيراً يشبه بهيكله الضخم عارضة السّفينة ويمكن تركيب قماش واقٍ من الشّمس فوقه في الجّو الحار.



الهــودج

يحمل هذا الهودج نساء القبيلة وأطفالهم. تلبس النّساء، اللواتي يتمتع بعضهن بالجمال الأخّاذ، حلقة في أنوفهن ويصبغن الشّفة السّفلى بلون كحلي أو أسود، وجميعهن غير محجّبات. وقد سررت للاهتمام الذي أبدينه بشأن معدّاتي الخاصة بالسّفر حيث لم يكن هناك أي تقييد لحريّتهن من أي نوع. ورغم أنّهن يعشن حياة

قاسية بين قطعان الحيوانات، فهنّ في غاية السّعادة والرّضا، وهنّ يتّسمن بالبساطة. أما رجال القبيلة فأجسامهم صغيرة لكنهم نشيطون كالقطط ولديهم قدرة هائلة على التّحمل. لونهم ضارب إلى السّمرة، إلا أن أسنانهم البيضاء النّاصعة تضيء وجوهَهم. ولأنهم لا يستخدمون منظّفاتِ الأسنان الخاصة بالحضارة الحديثة وغذاؤهم يعتمد على النّشويّات إلى حدّ كبير، فمن العسير معرفة كيف يحتفظون بمثل هذه الأسنان جميلة الترتيب. لدى العديد منهم ضفائر طويلة تتدلّى على جانبي الوجه، وجميعهم بدون استثناء يرتدون كوفيّة مانشستر. ملابسهم مختلفة، فمنهم من يرتدي ثياباً سوداء، بينما يملك بعضهم عباءة بغداديّة مطرّزة، ويحمل العديد منهم بنادق ذات زناد مصوّن ومسدّسات عليها نقوش من الفضّة وسيوف بمقابض كالصّليب. يحمل آخرون خنجراً صغيراً غريب الشّكل له طرف كالكلّاب على الجانب المقابل للنصل، أو يحملون قضيباً من عصا مستقيمة لها عقدة ثقيلة من القار على طرفها الذي يُضرب به الخصم لكن السّلاحين كليهما غير خطرين. أما الرّمح فهو من السّمات المميّزة للقبيلة العربيّة كريمة الأصل، واستخدام البندقيّة بينهم أقل مما هو عليه لدى القبائل الأصغر التي تقطن ضفاف الفُرات.

مررنا في صباح هذا اليوم بآثار سوريّة هي مدينة Thipsach أو Thapsachus أو كما يسميها أينسوورث Ainsworth (ممرّ الموت)، ولأننا نخيّم على بعد عشرين ميلاً شرق قلعة جَعْبَر، فقد تخيّلت أننا لا بدّ أن نمرّ بها قبل انبلاج الصّبح. يقال إنه لم يبقَ سوى الأطلال من هذه المدينة القديمة التي أوجز لنا أينسوورث Ainsworth تاريخها. يقود طريق، كان قد ذُكر في ألواح ثيودوس وأوغسطين، من حوران Auranitis ثم تدمُر إلى هذا الموقع. وعلى الجانب المقابل من النّهر يستمرّ إلى Edessa (أورفه) عن طريق حرّان Carrhae. وهنا يشير أينسوورث Ainsworth إلى مجموعة من الكوارث التي تلت عبور هذه المخاضة من النّهر من قبل العديد من الحملات كحملة خشايارشا الأول وقورُش الصّغير وداريوش الثالث (كودومانوس). وحملة الإسكندر الكبير نفسه الذي أسّس نقفوريوم (Nicephoruim) وهي مدينة الرّقة حاليّاً، على

مسافة صغيرة إلى الجنوب من النّهر. وسار في إثرهم كراسوس ويوليان وغالريوس وغورديانوس، وفي كل مرة كان يعقب عبور النّهر كارثة كبيرة. كان ذلك قدراً عجيباً، فبعد مرور بعثة وادي الفُرات لهذا الموقع تحطّمت سفينة *Tigris* بواسطة إعصار قوي وغرقت مخلّفة وراءها تسع عشرة ضحيّة.

في السّاعة التّاسعة، وصلنا إلى الرّقة على جانب وادي الرّافدين من النّهر. تقع الرّقة قرب مصبّ نهر بالك Balik، وهو أحد روافد الفُرات. أسسها الإسكندر الكبير وكانت تسمّى نقفوريوم ثم أصبح اسمها كالينيكوس في عهد الرّومان. أما الرّقة، أي اللامعة، فهو اسمها الذي عرفت به في عهد المسلمين. أصبحت حصناً لهارون الرّشيد الذي بنى فيها قلعة وقصراً، بالإضافة إلى أبنية أخرى. أما الآن فالمدينة عبارة عن خرائب، ومنذ سنوات قليلة كان سكانها من العرب الذين يسكنون الخيام. مع ذلك فلا تزال بقايا قليلة من العمارة الشّرقيّة موجودة فيها.

خلال مسيرنا على امتداد السّهل، شاهدتُ آثاراً لقناة قديمة، وبعد مغادرتنا الرّقة بوقت قصير، طالعتنا تلال مرتفعة شكلها غريب، يسمّيها رجالي (المنخر)، وهي مذكورة في خارطة كيبرت Kiepert باسم (تل المناخر)، وتقع على الجانب المقابل من النّهر. وبسبب انعزالها وعلوّها عن باقي الآثار، فقد غدت مَعْلَماً هامّاً للمسافرين لعدة أميال. يتجه المجرى العام للفرات من بضعة أميال غرب قلعة جَعْبَر إلى الرّقة نحو الشّرق، ثم يتّجه إلى الجنوب الشّرقي، ويحافظ على هذا الاتجاه مسافة 150 ميلاً تقريباً، بحسب طيران الغراب، ثم ينعطف شرقاً مرّة ثانية ليصل إلى مدينة عانة. كانت فترة بعد الظهر شاقّة، فكنّا نسير فوق أرض وعرة مع تلال ومنخفضات، وهي مشابهة للجزء الأخير من رحلتنا في اليوم المنصرم. حاولت تناول غدائي من سمك السَّلمون، لكنني سكبت الزّيت الموجود في العلبة على ملابسي فنتجت رائحة كريهة تُشعر بالغثيان. وفي السّاعة الثالثة، وبعد سير شاق وطويل لمدة عشر ساعات ونصف، توقفنا أخيراً لقضاء الليل في مكان يدعى السّباخ، وهو قريب من حصن للدّرك أكبر حجماً من الذي رأيناه سابقاً. بدأ رجالي بنصب الخيمة دون إشرافي، لذلك خلّفوا

فوضى كبيرة بوضعهم الأوتاد في المكان الخطأ، أما المسامير فقد أحنوها في أعلى الأعمدة. إنهم بشكل عام يرتبكون عندما يجدون أنفسهم أمام عمل جديد.

يكون تيّار النّهر في هذا المكان في غاية السّرعة. وقد شاهدت للمرّة الأولى بعض الرّجال وهم يطوفون في النّهر فوق جلود أغنام منفوخة بنفس الطّريقة التي مثّلتها المنحوتات الآشوريّة القديمة. وبسبب سرعة التيار، ينطلق هؤلاء الملاحون إلى أسفل النّهر بسرعة هائلة، ومن الصّعب معرفة كيف يستطيعون السّيطرة عليها بهذه السّرعة العالية. زارني عند وصولي المدير أفندي، رئيس الظابطيّة (الدَّرَك) هنا، وهو رجلٌ تركيٌ مسنّ يتمتّع بسمتٍ هادئ. وجدت الحديث معه في غاية الصّعوبة نظراً لجهلي باللغة التُّركيّة، إلا أنني أثرْت اهتمامه بصور البواخر الإنكليزيّة التي أحملها في جعبتي، وبعد العشاء زرته في بيته. كان يسكن في مكان أشبه بزريبة مهدّمة في الحصن الطّيني لا تليق بحصان أصيل. إلا أن الرّجلَ الوقورَ أكرمني واستضافني بتهذيب عالٍ كتركي من المدرسة القديمة. لقد صنع القهوة بيديه ورافقني إلى خيمتي عند مغادرتي، وهناك وجدته قد أرسل لي هدية هي نصف دزّينة من البيض الطّازج. كان لطفه شيئاً نادراً بالنّسبة إلى أفراد الدَّرَك التُّركي الذين التقيت بهم على طول الطّريق.

قبل العشاء مباشرة، أثار انتباهي صوت جلبة على مسافة قليلة من خيمتي، وعندما خرجت رأيت اثنين من الرّجال يركعان باتجاه مكة. كان أحدهما في شدّة البؤس يشبه الفزّاعة، يصرخ ويترنّح بشكل غريب. كان يكرّر كلامه بصوتٍ أجشّ مع كل حركة من جسده. أخذ صوته الحاد ولهاثه يرتفع تدريجيّاً حتى أصبح كالهدير، ثم أخذ ينخفض عندما أرهق بالكامل وسار مترنّحاً، ثم اختفى مع رفيقه في ظلام الصّحراء.

وفي الليل، زارني ضيوفٌ غير مرغوب بهم هم القطط. أيقظتني الأولى من نومي وهي تفتّش في سلة طعامي عن شيء تأكله، وكانت تحتوي على غذائي لليوم التالي من لحم الدّجاج البارد، ولما شاهدتني انصرفت بحذر. أما القطة الأخرى فكانت كبيرة ووقحة. أعلمتني عند دخولها بصوت (ياو) عندما شمّت رائحة الطّعام، فأمسكت بعصاً غليظة كانت بمتناول يدي وضربتها بقوّة على رأسها ففرّت بسرعة وهي تتأسف لهذه

الزّيارة غير المرغوب بها. أما الثالثة ففاجأتني وهي تقف على أقدامها الخلفيّة وتلعق المنديل الذي يحتوي على زبدة اللبن. صحت بقوة، فاختفت مسرعة في الظلام.

هطل في تلك الليلة وابل غزير من المطر، وعندما غادرنا في السّادسة إلا ربع، كانت السّماء غائمة. لكن رجالي ظلوا مبتهجين ومضوا في غنائهم ولعبهم كمجموعة من الأطفال الكبار. كان النّهار يسير على وتيرة واحدة؛ سهل مترامي الأطراف عدا عن بعض الشّجيرات القصيرة بين الآونة والأخرى. في الجزء الأول من الطّريق صادفنا مجموعة كبيرة من عرب عْنِزَة وهم يرتحلون. وأثناء سيرنا، جاءت ثلاثُ بدويّاتٍ من بعض الخيام يسترقن النّظر بفضول من شبّاك التَّخت ظنّاً منهن أن سيّدة أوروبيّة تجلس هنا. لكن حجّي محمّد طردهن فذهبن وهن يقهقهن. ليس لدى الفتيات الصّحراويّات أدنى نوع من الحياء المصطنع الذي تدّعيه نساء المدينة، بل إنهن أكثر تحرّراً من الفتيات الإنكليزيّات.

توقفنا عند الواحدة أمام بقعة كبيرة من الماء، ظننت أنها نهر الفُرات، لكنني اكتشفت فيما بعد أنه مستنقع من المياه الرّاكدة. وقد اختلف رجالي حول المكان الذي ستُنصب فيه الخيام، فقد أصرّ بعضهم على نصب الخيمة على قمّة تل قرب حصن من الطّين. كان المكان قذراً لم يسبق لأحد أن نزل فيه، فأمرتُ رجالي بنصب الخيمة على حافّة الماء، لكنّهم رفضوا لسبب مقنع هو أن النّوم أمام ماء راكد سيؤدي إلى الإصابة بمرض الملاريا. غضبت ساعتها وأخذت أشتم الرّجال لعدم طاعتهم لي وذهبت لأستحمَّ في الماء متخيّلاً أنه جزءٌ من النّهر لكنه بطيءُ الجريان. استيقظت في الصّباح التالي وأنا أعاني من الحمّى، فقد أصبت بهجمة أولية من مرض الدّزنتاريا والذي قدّر لي أن أعاني منه بقسوة قبل وصولي إلى بغداد. بعد الحمّام أخذت أتمشّى نحو تلّة على الصّحراء المرتفعة وهنا أيقنت أن هذا الذي تخيّلته نهراً ما هو إلا مستنقع ليس له صلة بالنّهر إلا عندما يصل إلى أعلى ارتفاع له فإنه يصبّ فيه. أعتقد أن كيپرت قد أشار إلى ذلك باسم (بحيرة مُغْله)، ويبدو لي أنها ليست بحيرة طبيعية. وخلال تجولي في الصّحراء رأيت بالقرب مني ولأول مرة زوجاً جميلاً من طيور القطا، وقد أسفت حينها لأنني

لا أحمل بندقيّة، إذ بالرغم من التأكيدات بأنني أستطيع الحصول على المؤن طوال الطّريق، فإنني في الأيام السّتة الأولى من الرّحلة لم أستطع الحصول إلا على دجاجة واحدة. عند النّظر من هذا المكان نحو التلال في الاتجاه الشّمالي الغربي، تستطيع بكل وضوح ملاحظة جبل منخر الذي يشكّل علامة بارزة. وعلى يساره شاهدت دخاناً كثيفاً يصعد من السّهل، لم أعرف ما هو سببه.



مخيّمي الخاص

خلال الليل، أيقظت حجّي محمّد من النّوم طالباً منه نزع الأجراس من أعناق البغال لأن ضجيجها المتواصل منعني من النّوم. وعندما غادرنا المخيّم بحلول الفجر كنت أعاني من ألم داخلي حاد، وكنت عاجزاً تماماً عن الأكل. وقد أكد رجالي أن ذلك يعود إلى الاستحمام في ماء المستنقع، لكنني لم أصدّق ذلك إذ كانوا قد أكّدوا لي قبلها أن هذا الماء صالحٌ للشرب. وبعد أيام من المرض صدّقت ذلك، وإنني أحذر جميع المسافرين من الاستحمام بماء الفُرات قبل حلول الليل وبعد التعرّض الطّويل

لأشعّة الشّمس. في السّاعة التاسعة، حاولت النّهوض والقيام بجولة على قدمي، فوجدت أننا في جزء قاحل من الصّحراء لكنه جميل، فيه بعض التلال المرتفعة. على اليمين تتكسّر الأرض إلى منحدرات خفيضة. ومن بين النّباتات القليلة هناك شاهدت الخشخاش الأحمر الذي يترك أثراً جميلاً في الصّحراء القاحلة.

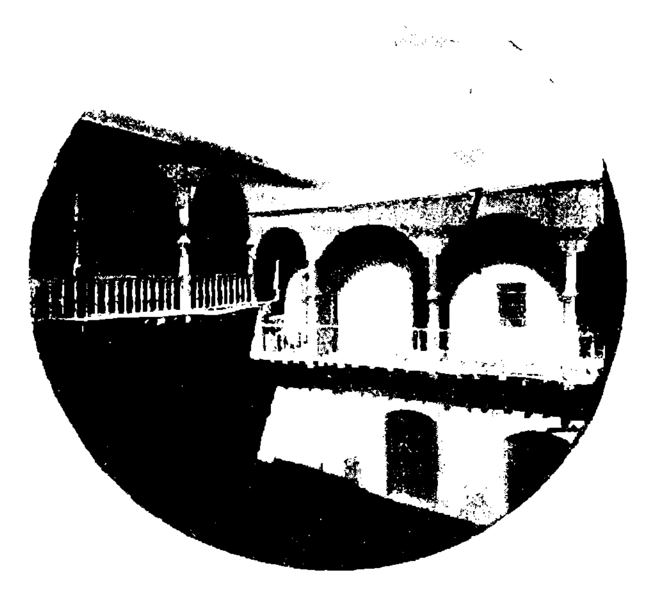
وبعد ذلك بوقت قصير بدأنا نسير ثانية في السّهل ذي الشّجيرات النّحيلة. كانت على يميننا منحدرات خفيضة من الحجر الرّملي الذي يمتد على أرض من الحجر الطّيني كثير الحصى، وهو يقع في أماكن في غاية الهشاشة. بعد شعوري بالتحسّن في فترة الظهيرة قمت بجولة أخرى، وبينما كنت أسير إذا بالبغل الصّغير الجريء يسقط فجأة على الأرض بفعل الحرارة المرتفعة والحمل الثقيل على ظهره، فما كان علينا إلا إنزال حمولته ليستطيع الوقوف ثانية على قدميه. وهنا أجفلت طيور القطا، ولكوني لا أحمل البندقيّة، فقد ظلّت سلتي فارغة تماماً. عند الواحدة، وصلنا إلى موقع جميل وشاعري يقع عند منعطف حافة النّهر أسفل رأس برّي ذي منحدرات رماديّة. يتخلل هذه المنحدرات الممتدّة إلى النّهر عدد من الوديان الصّخريّة المليئة بالشجيرات النّحيلة، يمتد أحدها ليصل إلى باب خيمتي. لم يسبق لأحد أن سكن في هذه المنطقة، إلا أنها مليئة بالعرب. وقد حذّرني رجالي من الذهاب بمفردي.، لكنني وعدتهم بعدم الذهاب بعيداً إلا والمسدّس بصحبتي.

شاهدت من فوق القمّة منظراً في غاية الرّوعة، فالنّهر السّائر نحو الجنوب يأخذ عدّة منعطفات ليشكل دائرة كاملة تقريباً. وهذه الانحناءات ترتبط مع بعضها في بداية الحلقة ونهايتها. وبعيداً عن النّهر، وتحت الغيوم البيضاء الوقورة تمتد سلسلة من جبال وادي الرّافدين، يسلّيها ضوء القمر المتلألئ في الليل. وخلفي نحو الجزيرة الفُراتيّة تمتدّ سلسلة أخرى من الجبال على مسافة قريبة. كان المشهد برمّته باهتاً ومقفراً إلى حدّ بعيد. وعند عودتي وجدت عدداً من العرب المسلحين يستفسرون من رجالي عن أمرٍ ما والرّجال يحاولون إبعادهم. وقد أخبرني حجّي محمّد في اليوم التالي أنه لم يغمض له جفن في تلك الليلة، حيث قضى الليل بطوله وهو يدور حول المخيّم.

جعلني هذا الكلام أرتاب، فلا بدّ من الرّحيل باكراً وخصوصاً أنه علينا المسير لمدّة عشر ساعات متواصلة قبل أن نصل إلى الدّير. نمنا لمدة أربع ساعات، ثم أعددنا العدّة للرّحيل بعد منتصف الليل، لكنني اكتشفت فيما بعد أن الرّحلة استغرقت ستّ ساعات فقط، وأنهم أخبروني بذلك من باب الحيلة كي نغادر باكراً ونقضي اليوم بطوله في الدّير. كان هذا درساً لي لأرفض جميع الرّحلات المبكرة في المستقبل. كانت العقبة الرّئيسيّة بالاتفاق مع سائقي البغال هي إنهم لا يلتزمون بالتوقيت. يعتقد أحدهم أنه يستطيع أن يملي عليك توقيت السّير وسرعته أثناء السّفر، وفي الحقيقة فإنه يعامل المسافر وكأنه بضاعة. وعندما يكون لديك قرارٌ حاسمٌ وتصميمٌ، فمن المؤكد أنه سيذعن لك بدرجة معيّنة. أما إذا اشترى المسافر أو استأجر البغال لمدّة يوم أو أسبوع، فإنه سيجد نفسه سيّداً لسائق البغال وحرّاً في اختيار زمان وسرعة السّير والمكان الذي يرغب بالمكوث فيه.

كانت معظم الرّحلة إلى الدّير في الظلام. وعندما أحسست بأننا نسير فوق أرض وعرة، عرفت أننا في الصّحراء. ولما بدأت خيوط الفجر بالظهور، وجدت أحد بغالي البائسة يمشي وهو يعرج بالرّغم من أنه لم يكن يحمل إلا خرجاً. وفي حوالي السّادسة، دخلنا إلى شوارع الدّير الضيّقة الفقيرة ونزلت في خان قرب مركز المدينة كان الخان عبارة عن مبنى صغير مؤلف من طابقين، ويحيط به فناء. لم يكن فيه مكانٌ أو طعامٌ للحيوانات، لذلك نزل رجالي وبغالي في الجانب المقابل من الطّريق. لقد أثار وصولي الفضول لدى السّكان، فقد تجمّعوا ليروا الرّجل الإنكليزي. خصص لي صاحب الخان أفضل غرفة لديه، لكنها كانت تفتقر إلى الترتيب، فأخذت بكنسها، لكن الحشرات من نمل وذباب بأعدادها الكبيرة أبت إلا المكوث معي. في هذه الحالة، كان أفضل شيء هو إعداد سرير لُقانج levinge لتأمين نوم هانئ. هناك أشياء أخرى شاهدتها حول الخان هي عصافير الدّوري ذات الحجم الكبير الواقفة فوق سطح المنزل والمرافق الصّحيّة للخان أي (أدب خانة) أو المرحاض، ويمثل السّطح المستوي للبناء، كما يمكن أن يكون أجمل صالة للحفلات لو لم يُخصّص لهذا الغرض.

بُنيت الدّيرُ على تلة قليلة الارتفاع. ويقال بأنها نسخة عن مدينة سابقة. من الصّعب فهم أسباب بناء نسخة ثانية من هذه المدينة المبنيّة على ضفّة الفُرات الذي تقسمه جزيرة في هذا المكان وتقع في وسط صحراء قاحلة، ليس فيها أي من معالم الجمال. لم تكن هناك نباتات ولا منحدرات قرب النّهر، الذي هو بكل تأكيد فرع من فروع نهر



خان في الدّير

الفُرات العظيم. وتتكوّن المدينة نفسها من طريق طويل يمتدّ بمحاذاة النّهر، وتتفرّع عنه طرقات عديدة تؤدي إما إلى النّهر مباشرة على الجانب الشّرقي، أو إلى المقابر التي تسدّ منفذ المدينة من الجانب الغربي. أما بيوت المدينة الفقيرة فهي مبنيّة من الطّين وكذلك هي حال أسواقها.

ولإعطائكم فكرة عن بؤس هذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها 2.500 شخص والتي تقع على ضفاف نهر الفُرات العظيم، أقول إنني لم أستطع فعل أيّ من الأشياء التّالية:

– صرافة نابليون واحد.

- شراء سمك من أي نوع.

- شراء سلة أو صندوق معدني صغير.

كذلك لم أجد مكاناً أستطيع فيه شراء أيِّ نوع من الأغذية المحفوظة أو المعلّبة. إنه أمرٌ يدعو للاستغراب. أما التّمور والبرتقال فيمكنك شراؤها بسهولة، فالتمور تأتي من بغداد والبرتقال من بيره جِك. ولأول مرة منذ مغادرتي حلب، أجد نفسي وسط واحة من أشجار النّخيل قليلة النّمو. ترتبط الواحة أو الجزيرة بالمدينة بواسطة جسر خشبي وشيك السّقوط، وهي مزروعة بشكل كثيف. تُزرع هنا الذُّرة والأرز وباقي أنواع الحبوب، وهناك بعضٌ من أشجار الفاكهة المتفرّقة كالتفاح والرّمّان. أما واسطة الرِّيّ المستخدمة فهي (الكرد) وهي عبارة عن آلة بدائيّة شاع استخدامها في بغداد أيضاً، وهي تتكون من هيكل خشبي يتدلى على حافة النّهر له بكرتان يُربط بهما حبال، ويتدلى منها آنية كبيرة من الجلد فيها خراطيم أو أنابيب جلديّة، وقد تمَّت تسوية الأرض بشكل منحدر من الضفّة. يربط بهذه الآلة حصانان أو بغلان، وعندما يسيران إلى أسفل المنحدر، يتحرك الدّولاب ويرفع الجلود من الماء. وعندما تصل الأخيرة إلى ارتفاع معيّن، ينسكب الماء على طول الأنابيب نحو مجرى الماء الذي يحمله بدوره إلى الأرض المزروعة. تدور الحيوانات بعد ذلك وتصعد المنحدر وتعود الجلود إلى الماء لتمتلئ من جديد. ربما يكون الكرد أكثر بدائيّة من الشّادوف المستخدم في مصر لأنه يحتاج إلى حصان ورجل لأداء العمل ذاته الذي يؤدّيه رجلٌ لوحده في ذلك البلد، رغم أنه يرفع في كل مرّة كميّة أكبر من الماء.

إن سكان الدّير ليسوا كغيرهم من سكان معظم المدن التُّركيّة ذات الأجناس المختلطة، بل معظمهم من العرب، لكنك لا ترى الزِّيّ السّوري هنا. يلبس الرّجال الكوفيّة، أما لدى النّساء فحلقات الأنوف والشّفاه المصبوغة هي أكثر ما يلحظه المسافر. إن سكان المدينة في الحقيقة ليسوا إلا عرباً من البادية الذين أحبّوا الاستقرار والاستفادة من مزايا التجارة، بالإضافة إلى عدد من المسيحيين والموظفين الأتراك في السّراي، وبعض القوات التُّركيّة. تعد الدّير مقر السّيطرة على البادية، وهي في

الواقع النّقطة التي اختارتها الحكومة التُّركيّة على نهر الفُرات للسّيطرة على القبائل العربيّة على جانبي النّهر. وقد وصفت السّيدة آن بلنت في كتابها الشّائق «عشائر بدو الفُرات» أسلوب الحكومة التُّركيّة في تنفيذ سياستها غير الأخلاقيّة التي تتمثّل في زرع الشّقاق بين هذه النّفوس المتمرّدة ليكسروا شوكتها. إنها مسألة تثير الشّكوك لكنها حققت نجاحاً باهراً. والدّليل هو الأمان النّسبي لطريق وادي الفُرات، فالدّير قد دخل تحت سيطرة الحكومة العسكرية التُّركيّة عام 1862 م، وأصبح الفُرات الأعلى جزءاً من الإمبراطوريّة العثمانيّة. وقبل هذا التاريخ كان من المستحيل أن يستطيع أي أوروبي المرور من هذا المكان كما أفعل حاليّاً دون حراسة، ومع ذلك فهو ليس آمناً تماماً للأوروبيين. وعرب الصّحراء ليسوا الوحيدين الذين يُخشى بأسهم، حيث تم قتل اثنين من الألمان عام 1874 م من قبل سكان الدّير أنفسهم على مسيرة يومين من المدينة[1] وذلك بهدف سرقة الحصانين. لكنني لا أعرف ماذا فعلت الحكومة التُّركيّة لمعاقبة الجناة.

بالرغم من عدم معرفة الكثير عن تاريخ الدّير، فالمعنى الشّائع للاسم هو «صومعة الرّهبان» أو «دير الرّهبان». وقد ذكر المؤرخ الإدريسي أن المدينة قد سُميت بـ (دير أبونا) وهو الدّير الذي كان قائماً في هذا المكان وأن النّبي نوح كان يقيم هنا بعد تركه السّفينة، وقد دفن هنا أيضاً[2].

فور حصولي على سكن معقول، خرج رجلٌ من بين الزّحام كان يراقب تجهيزاتي الخاصة بالسفر وأخبرني أن هناك رجلاً في المدينة يتحدّث الإنكليزيّة. ظننت أنه سيكون عوناً لي فأرسلت في طلبه، وفي خلال عشر دقائق كان أمامي. حيّاني بحرارة قائلاً: «صديقي العزيز، كيف الحال؟». كان نحيلاً، يرتدي معطفاً إنكليزيّاً وطربوشاً، كما كان زائغ البصر ويتحدّث الإنكليزيّة بتعثر. شككت بأنه سكران ولم أرتح له خصوصاً أنه كان بين الفينة والأخرى يطلب الرّحمة من الرّب وينعت سكان المدينة

(1) انظر: عشائر بدو الفُرات، المجلد 1 صفحة 103.

(2) انظر كتاب أينسوورث Ainsworth، «مذكرات شخصيّة عن بعثة الفُرات».

باللصوص. أخبرني بأنه مسيحي يدعى ألتون، وأنه عمل بوظيفة معيّنة على ظهر سفينة إنكليزيّة في غرفة المحركات. لديه أشقاء يعملون في بومباي وبغداد وليڤربول التي زارها لكنه لم يزر إنكلترا، ويريد أن يعرف المسافة بينهما. في الحقيقة أحسست بأن شخصيّته غامضة وخصوصاً عندما طلب مرافقتي إلى بومباي أو السّويس بصفته مترجماً أو حارساً، مؤكداً لي أن البلاد التي أقطعها محفوفة بالمخاطر وخصوصاً لرجل إنكليزي مثلي إذا لم يكن بحماية رجل أمين مثله.

ألحّ ألتون عليّ لزيارته في بيته ولمشاركته الطّعام أو على الأقل السّماح لزوجته بطبخ العشاء وإرساله لي. لكنني رفضت هذه الدّعوات وأرسلت حجّي محمّد ليشتريَ لي بعضاً من الكباب كعشاء متواضع. مع ذلك، أخبرت الرّجل أنه بإمكانه مرافقتي في المدينة كمترجم وأنني سأكون مسروراً لذلك. في فترة الظهيرة قمت بزيارة هذا الرّجل كي يشرح لمحمّد بعض الأشياء التي لم أستطع توضيحها له بالعربيّة. وجدته يسكن في غرفة صغيرة مع أسرته المؤلفة من زوجته، التي دعاها بـ (امرأتي) وهو يلوّح يده في الهواء، ووالدة زوجته العجوز التي تجلس القرفصاء في ركن الغرفة ويسمّيها بـ (العجوز). أما أطفاله ذوو الكتل اللحميّة الضخمة مع العيون السّوداء، فالحق يقال إنه شديد الولع بهم. كان في الغرفة أيضاً صهره الذي يبدو شابّاً جديراً بالاحترام. وقد زادت شكوكي نحو شخصيّة ألتون عندما أخرج قنينة وأقداح ودعاني لمشاركته الشّراب كأخ عزيز، لكنني رفضت بشدّة مخبراً إياه بأنني لا أشرب المسكرات أبداً خلال رحلتي. وهذا صحيح، حيث إنني أحتفظ بقنينة براندي فقط لحالات المرض، وقد تأثّر كثيراً لرفضي هذا. لقد دعوته لإعلام حجّي محمّد أنني لن أسافر مرّة أخرى عند الفجر إلا في حالة الضرورة، كون سفرنا السّخيف في الليلة المنصرمة إلى الدّير كان مجرّد حيلة لقضاء وقت أطول فيها[1]. لكن محمّداً أقسم أن المكان كان يمتلئ باللصوص وأنه كان من المستحيل قضاء الليل هناك، وبأنه قضى الليلة تلك يدور

---

(1) كتب المؤلف: يقول النّبي: «عليكم بالدّلجة، فإن الأرض تُطوى بالليل». انظر بُرتون – مكة والمدينة – الفصل العاشر.

حول خيمتي ليقوم بحراستي. ورغم أن حديثه كان معقولاً إلى حدّ ما، فإنني أحسست أنه لم يكن السّبب الحقيقي لذلك.

عند مغادرتي لمنزل ألتون، عرض عليّ صهره مرافقتي في نزهة على الجزيرة، حيث عبرنا جسراً قديماً، وأخبرني أن مياه النّهر ترتفع في وقت لاحق من هذا الشّهر عندما تذوب الثلوج فوق جبال أرمينيا، حيث يرتفع منسوب النّهر نحو ثلاثين قدماً. كان الجسر مكتظاً بالصّبيان الصّغار المنهمكين بالتقاط قطع الأخشاب التي يحملها النّهر من الغابة الواقعة على طرفي النّهر. كانوا يقذفون الحبل الطّويل الذي وضعوا في نهايته قطعة من الخشب لها أربع أشواك أو قرون. وعندما تأتي قطعة الخشب الطّافية يرمون هذه الحبال بكل احتراف ويلتقطونها ثم يسحبونها. يبدو أن هذه القطع الخشبيّة تشكل الوقود الوحيد لأهالي الدّير، لذلك يعمل الصّبيان على التقاطها باستمرار.

مررنا بحقول الذرة الذهبيّة المتموّجة التي كسرت رتابة الصّحراء بجمالها إلى أن وصلنا إلى مكان فيه الكثير من الكرود وهي تعمل. راقبتها بكثير من الاهتمام والمتعة. كان برفقتي شابٌ مسيحيّ ذكيّ من الموصل يكره المحليين ومدينة الدّير ويدعوها بلد الخنازير. ولسوء الحظ، فقد تبعنا ألتون بصحبة طفلته الصّغيرة. كان يحمل قنينة شراب وأقداحاً، وما لبث أن بدأ يروي قصة مطولة عن شقيقه قبطان البحر الإنكليزي، لكنه كان يتحدّث بأسلوب عدائي كوني لم أقبل دعوته على الطّعام ومنعه وصهره من مرافقتي.

عند عودتي، وجدت أنه من المستحيل متابعة الرّحلة في اليوم التالي لأنّ حيواناتي متعبة والبغل المسكين ما زال يعرج. لكنني لم أكن آسفاً لقضاء يوم راحة ثانٍ في الدّير. إن السّعادة الغامرة التي تجتاحني عندما أخلع ملابسي وأضع نفسي في سرير لِڤينغ ذي الملاءات النّظيفة (نسبيّاً)، لا تعدلها سعادة. كانت هاتان الليلتان الوحيدتان خلال ثلاثة أسابيع من السّفر التي لم أنم فيهما بملابسي، رغم أنه من الخطورة في رحلة بريّة في تُركية أن تنام على هذا النّحو، على اعتبار المخاطر المحيطة بك في الليل، من

مشاهدة كلاب مذعورة أو التعرّض لمصادفة بدوي مخادع. بالإضافة إلى ذلك فإنّ ليالي الرّبيع تكون باردة إلى حدّ تخاف معه أن تصاب بالزكام.

إن الرّعب الذي يحدثه ذكر البريّة أو الصّحراء لدى سكان المدينة والسّلطات، هو شيء في غاية الغرابة، ويعود ذلك لكون الصّحراء مليئة بالقبائل المتمرّدة المعتادة على الغزو والنّهب. لكنني لم أجد سبباً واحداً لهذا الهلع، حيث أنني سافرت لمدة ثلاثة أسابيع على ضفاف الفُرات ولم أتعرّض لأي من هذه الأقاويل. وفي الصّباح التالي من إقامتي في الدّير، قمت بنزهة قصيرة إلى الجانب الصّحراوي من المدينة وجلست على بعد ميل منها. لكنني لم أكد أصل حتى تبعني أحد الحراس أو الدَّرَك مدّعياً أن هذا المكان غير آمن، وأنّ علي العودة فوراً إلى المدينة أو إلى أطراف النّهر، وأن لديه أوامر من السّلطات بإعادتي سالماً. لم يكن لدي خيار آخر، ولكن إن كان هناك بالفعل خطورة لهذه الدّرجة، فماذا تفعل الحامية العسكريّة في المدينة المزدحمة بالسكان. هذا الرّعب الذي تحدثه الصّحراء في نفوس العرب المستقرّين وحتى لدى الموظفين الأتراك هو أمر شائع جداً، وإنه بالفعل مدعاة للسّخرية. فأي طريق صحراوي مهما بلغ طوله هو بنظر العرب غير آمن. لذلك لا يفكر أحد من سكان مدن الدّير أو الحلَّة بالتنزه إلا إلى ضفاف الأنهار أو في بستان ندي لقضاء ثماني أو عشر ساعات في التدخين وشرب القهوة والنّوم.

عند عودتي، وجدت حجّي محمّد في حالة مريعة من الهيجان، وعندما وقعت عيناه عليّ قال: "El hamdu lillah" «الحمد لله، أنت سالم، ما الذي جعلك تتنزه داخل الصّحراء دون حارس». ربما كان يظنني قد اختُطفت.

لم أرَ صديقي ألتون مجدداً، لكن صهره جاء لزيارتي، وبعده جاء طبيب أرمني يتحدّث الإنكليزيّة جيداً كونه قضى بعض الوقت في أميركا. لقد سمع أن إنكليزيّاً قد زار الدّير، وأن هناك روايتين: الأولى أنني القنصل الإنكليزي (أو الباليوز[1] Balios)

(1) باليوز: Balioz أصل الكلمة من الإيطاليّة من Bailo وهو لقب القنصل من جمهورية البندقية في ديار بني عثمان. وكان القنصل البريطاني في بغداد المستر ريج أول قنصل إنكليزي يطلق

والثانية أنني طبيب. وإذا كان الاحتمال الأخير صحيحاً، فهو يريد استشارة بخصوص أمراض العيون. أخبرته بكل لطف أنني سائح مشاكس، لكنني لا أحمل صولجان القنصل ولا عصا إله الطّب Æsculapius. وأخبرني أن الهنود - الإنكليز يعودون حاليّاً إلى أوروبا ولاحقاً عن طريق الفُرات. إلا أن المسافرين الإنكليز قليلون جداً. وعندما يأتي سائح إلى هذه البلاد، تنطلق جميع الألسنة بالقيل والقال. بعد ذلك زارني رئيس المسيحيين في الدّير، وهو كلداني محترم يتحدّث الفرنسيّة.

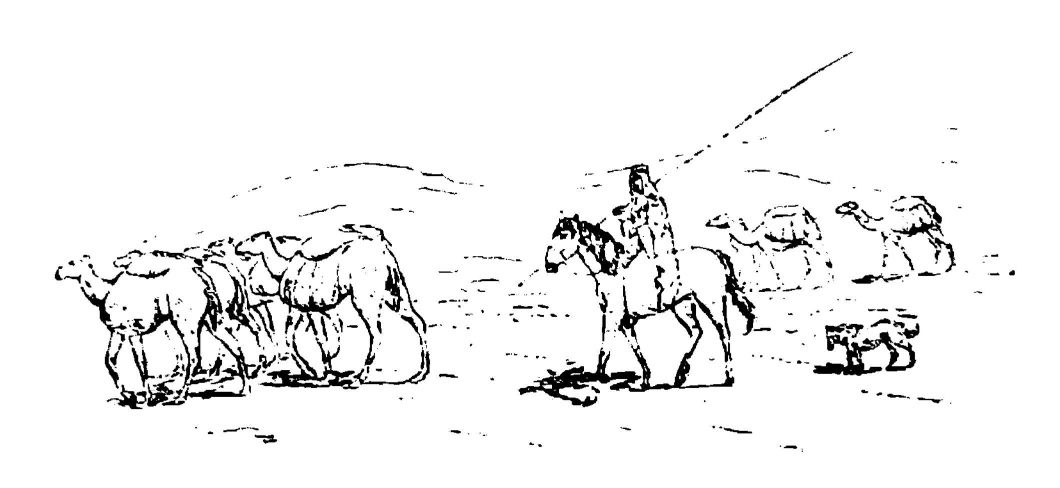
وبعد إنهاء الزّيارات، سمعت صوت رنين أجراس وجلبة في الشّارع الممتدّ أمامي، فنظرت من الشّباك وشاهدت قافلة الباشا والطبيب اليوناني اللذين كنت أنوي السّفر معهما من حلب. جاء الباشا، وهو رجل لطيف، وصعد السّلم بخطى حثيثة بينما كان الخدم يجهّزون له غرف الاستقبال، فدعوته للجلوس في غرفتي. يتحدّث الباشا التُّركيّة فقط، لكنني علمت من الطّبيب اليوناني أنهم غادروا بعدي بيومين وأمضوا الفترة ذاتها في الطّريق. كان يرافقهم حرس عسكري ضخم، بالإضافة إلى أن الباشا وصهره والطبيب كانوا مدجّجين بالسلاح وكأنهم في مهمّة عسكريّة وليس رحلة سلميّة عبر أراضيهم. لكنني شعرت بالسعادة لأنني لم أرافقهم في رحلتهم مع هذا الموكب المرعب.

جاءني في المساء حجّي محمّد وهو يربّت على بطنه وعلى محيّاه علامة الرّضا ويقول بأنه لأول مرّة يملأ بطنه منذ مغادرته حلب، وقد هنأته على ذلك لأنني أفهم شعوره تماماً. إن الخدم في الرّحلة لا يأكلون إلا القليل، لكنهم يملأون معداتهم بالماء من القربة الكبيرة التي يحملونها باستمرار. عند العاشرة، يخرج بخيت الأرغفة القديمة من جعبته لتكون إفطاره وغداءه، وفي المساء، يتناول ورفاقه شيئاً قليلاً من الأرز. أما خلال الرّحلة، فهم يتناوبون على حمار واحد ولا ينامون إلا عندما أنام. وغالباً ما أستيقظ أثناء الليل لأجدهم مشغولين بأي من الأعمال الخاصّة بالبغال. إنهم مستعدون دائماً للحركة عند الطّلب. كنت أتناول الطّعام الموجود في سلتي بكفاية

عليه هذا اللقب سنة 1808.

تامّة؛ بمعدل ثلاث وجبات في اليوم. لكنني كنت دائم الإحساس بالجوع، فاستنتجت من ذلك أن معدة الإنكليزي تفوق في حجمها معدة العربي.

❋ ❋ ❋



خيّال من عشيرة عِنزة

الفصل السّابع

من الدّير إلى عانة

مغادرة الدّير – السّراب – قلعة الرَّحبة – «رحوبوت على النّهر» – الميادين – قطط أخرى – المرور بالصّالحيّة – عاصفة رمليّة – أصوات البغال – طقس بارد – الدّراويش المتجوّلون – المرافق البدوي – البوكمال – الخنفساء الذكيّة – الآثار الضخمة – الغيم – غزو بدو عْنِزَة – سُئلت إذا كنت أرغب بقطع عنقي – خطر على الطّريق – الوقوع فريسة المرض – أدوية الصّحراء – الخنزير البرّي – اجتياز رحوة – الوصول إلى عانة.

غادرت الدّير في الصّباح الباكر، في الحادي والعشرين من شهر مارس. وكنت آنذاك مرتاحاً بعد قضاء يومين هناك. كان البغل الأعرج على حاله، ويبدو لي أنه لن يستطيع مواصلة الرّحلة إلى بغداد، لكنني لا أستطيع الانتظار في الصّحراء حتى يشفى. لدينا حاليّاً نحو عشرين حيواناً، حيث اغتنم العديد من الأشخاص الفرصة للرّحيل

معنا. كان من بينهم ثلاثة من الأشراف أي من سلالة الرّسول، وكانوا يرتدون العمائم الخضراء الزّاهية. وكان يسير بمحاذاتنا اثنان من الخيّالة العرب برمحيهما الطّويلين.

في جنوب الدّير خلف البيوت مباشرة، كانت هناك مرتفعات ومنخفضات كثيرة، يبدو أنها بقايا قناة قديمة. بعدها وصلنا إلى أرض مزروعة فيها سهل فسيح من التراب الخفيف مع القليل من الزّروع. أما الصّحراء فهي تبعد عدّة أميال إلى جهة اليمين، ورغم الحرارة والطقس الغائم فقد كان السّراب يملأ المكان، وهي ظاهرة غريبة يعزوها البعض إلى الامتدادات المستوية للأرض. يمكنك مشاهدة السّراب خلال النّهار عندما تكون الشّمس عالية، والدّليل على عدم اقترانه بالشّمس أنه موجود بكثرة في هذا الطّقس الغائم، حيث يظهر وكأنه بحيرات كبيرة ساكنة في الأفق، وفي بعض الأحيان يقطعه مرتفع أو تلّ قديم في الصّحراء ليظهر وكأنه منفصل عنه تماماً. كذلك تظهر قافلة الجمال على بعد مسافة معيّنة وكأنها قطيع من الأغنام في حين يظهر قطيع الأغنام من بعيد بظلال ممتدة وكأنه جمال. ويبدو صفّ الشّجيرات المنخفضة على طول الصّحراء وكأنها غابة على حافة بحيرة شاسعة حيث تنعكس صورة الأشجار كلها بشكل واضح على سطح يبدو كالماء. وفي بعض الأحيان يبدو لك تلّ أو مبنىً في غاية الارتفاع أنه صغير للغاية، في حين أنه يبعد عنك مسافات شاسعة ومقاييسه مختلفة. وفي إحدى المرّات وأثناء سيري من بغداد إلى بابل، رأينا آثار بئر يقع على مسافة مئتي ياردة بصورة ضبابيّة بحيث أنني ورجل من بغداد قد أشرنا إليه في نفس الوقت أنه آثار عقرقوف الكبيرة قرب بغداد والتي يبلغ ارتفاعها 130 قدماً وتبعد حوالي عشرين ميلاً أو أكثر.

سرنا مدة ثلاث أو أربع ساعات إلى الجنوب من الدّير فوق كميّات من قطع الفخّار المكسّر. كانت ملونة بالأزرق والأخضر والأحمر القاتم، وهي تشبه إلى حد بعيد المزهريّات الموجودة لدينا حاليّاً. كانت هناك أيضاً قطعٌ من الزّجاج العادي. تغطي قطع الأواني الخزفيّة هذه مساحات كبيرة تستطيع رؤيتها بوضوح لانعدام وجود التلال. لكنني لا أملك أدنى فكرة عن تاريخ هذا الموقع. كما يوجد بجوارها قطع من

الصّوّان المشغول. وقد لاحظت أن السّحالي الموجودة هناك ذات اللون الرّمادي، تغطي جسمها بقع وخطوط حمراء، وهي تشبه السّحالي التي شاهدتها في الشّمال. كذلك شاهدت طائر باز أبيض. لم ألتقِ بأيٍّ فرد من قبيلة عُنِزَة، إلا أنه مرّت أمامنا في الصّباح قافلة من الجمال، وبعدها بوقت قصير قافلة أخرى تحمل تختين على متنهما أحد الپاشوات وحريمه في طريقهم إلى حلب. كان أحد التَّختين يضم اثنين أو ثلاثة من الأجسام البدينة. وبعد تناولي الغذاء، لمحت شيئاً أسود على بُعد مسافة منّي. اقتربت فوجدت بغلاً ميّتاً، ربما يكون أحد بغال الپاشا. تفحّصت حيواناتي جثة البغل بلا مبالاة ويبدو أنها تؤمن أيضاً بالقضاء والقدر، وبأن مصيرها يوماً ما سيكون مماثلاً.

وفي هذه النّقطة على الجانب المقابل من النّهر، يلتقي نهر الخابور بالفُرات.

في وقت الظهيرة، كنا على مرأى من قلعة جميلة يسمّيها رجالي (الرَّحبة). ولكون قرية الميادين المُزمع قضاء الليل فيها تقع على مسافة معيّنة إلى اليسار، فقد تركت رجالي يسيرون بينما أخذت أتمشى مع الدَّرَكي المرافق لي نحو القلعة.

سرنا حوالي ساعة في سهل عشبي مليء بقطعان الأغنام مع رُعاتها، ووجدنا أنفسنا بالقرب من قاعدة تل صخري كبير تقع عليه القلعة، وهو قريب من منحدر صحراوي تفصله عن الصّحراء هوّة سحيقة. أما بالقرب من القاعدة فأجزاء من سور مهدّم تنتشر حوله قطع من القرميد، ويظهر أنه أقدم من القلعة ذاتها التي يرجع تاريخها إلى العصور العربيّة.

كانت القلعة عبارة عن بهو مستطيل غير منتظم يمتد شمالاً وجنوباً وحوله أسوار خارجيّة منيعة بنيت على حافة التل الصّخري، وتحيط بحصن داخلي كبير له الشّكل عينه.

يواجه السّور الخارجي الشّمالي، وهو أحد الجانبين القصيرين للمستطيل، السّهل الصّحراوي، وهو عبارة عن بناء بسيط وربما تمّ ترميمه في وقت لاحق. وعند الرّكن الشّمالي الغربي هناك آثار لبرج. ويتكوّن السّور الغربي من أحجار مربّعة ضخمة وهو

مهدّم في جزء منه، بينما تحافظ الأجزاء الأخرى إلى حد ما على وضعها الصّلب المتماسك. تم إحداث فتحات في هذا السّور لإطلاق النّار، وتوجد فوقها نوافذ صغيرة ذات أقواس. كان النّصف السّفلي من السّور مبنيّاً من القرميد، وهناك نموذج مشغول على هيئة مفتاح. على الطّرف الجنوبي برجان، بني الأول على الزّاوية الجنوبيّة الغربيّة بشكل قطري، والآخر مربعٌ.

إلى الأسفل من هذا السّور تم تعزيز التل الصّخري بساتر من البناء، كانت تبدو منه آثار على الجوانب الأخرى. أما الجانب الشّرقي فهو غير منتظم ومهدّم تماماً، يظهر فيه سور مزدوج.

ولأنني لم أجد أية دلالة تشير إلى مدخل القلعة، فقد تسلقت التل الصّخري ودخلت إلى الحصن من خلال كوّة صغيرة. الحصن عبارة عن مستطيل متوازي الأضلاع، زاويته الشّماليّة الشّرقيّة مقطوعة، وبذلك يغدو شكلاً خماسيّاً. وقد تم إحداث فتحات دائريّة صغيرة في الأسوار يظهر أنها للإنارة. وعلى الجانب الشّرقي بئر مبني من القرميد. بالإضافة إلى الفراغات الكبيرة الموجودة في الحصن فهو ممتلئ بالغرف المبنيّة بالطُّوب لكنها مهدّمة بشكل كامل. وكانت هناك آثار مقابر خارج الحصن قرب الزّاوية الشّماليّة الغربيّة.

إن الجزء الخاص بالسّور الشّمالي مبنيّ بطريقة فريدة، ففيه ثلاثة صفوف من النّوافذ، الصّغيرة منها في الصّف الأعلى وهي ذات أقواس مستدقة وقريبة من بعضها. أما الكبيرة فهي متشابهة وأكثر تباعداً وأسفلها أقواس مستدقة وفيها فتحات صغيرة.

من على هذه الآثار يمكن مشاهدة منظرٍ رائع للسّهل الأخضر الذي يقع على مسافة معيّنة بين النّهر وقرية الميادين. يبدو أن الطُّوب وحتى الحجارة التي بنيت منها القلعة قد تم جمعها من مواقع أكثر قدماً، ولذلك يرجع العرب تاريخ هذا البناء بالإضافة إلى آثار أخرى على ضفاف الفُرات الأسفل، إلى النّمرود. بينما يحدد أينسوورث Ainsworth الموقع بأنه «رحوبوت» على النّهر التي ورد ذكرها في (سفر التكوين، 36: 37). ولا بد من الإشارة هنا إلى عدم الخلط بينها وبين (رحوبوت أور) التي تقع

على نهر دجلة. وعلى مسافة قصيرة وإلى الجنوب من النّهر تقع (رحبة مالك بن طَوق) والتي تدعى الآن الصّالحيّة.

يصفها الرّحالة الإليزابيثي راوولف Rauwolf بأنها: «مدينة كبيرة وجميلة». لكن الرّحالة البندقي غاسپارو بالبي Gasparo Balbi يقول في عام 1579 م إنه وجد بقايا من مدينة قديمة حيث يوجد عدد قليل من السّكان ينتشرون بين الرّكام. لقد كانت في وقت ما أسقفيّة مسيحيّة، إلا أنها في الوقت الحالي مهجورة تماماً.

بعد مسيرة ثلاثة أرباع السّاعة، وصلنا إلى مدينة صغيرة هي الميادين، تحيطها بقعة من الأرض المزروعة. وهي تشبه إلى حد ما قرية على ضفاف النّيل. فيها عدد من الحوانيت الصّغيرة وفيها مسجد ذو مئذنة مائلة ومركز للدَّرَك، حيث وجدتُ خيمتي قد نُصبت في الجهة المقابلة له مباشرة.

أما القطط المزعجة المعروفة بحشريّتها الدّائمة، فقد كانت تشاركني الفراش، حيث تصعد لتتفقّد سلة الطّعام باستمرار. حتى إنني في آخر المطاف قرّرت تعليق السّلّة على العارضة الأفقيّة للخيمة، لكن دون جدوى. فلم تزل تأتي للنظر إليها بينما تنتظرها الأخريات في الخارج. نمت في هذه الليلة نوماً قلقاً بسبب القطط من جهة وأصوات أجراس البغال من جهة أخرى، حيث رفض بخيت نزعها عن أعناقها. وعندما أعلن الفجر قدومه، كانت الشّمس تحاول تدفئة الجو البارد، وكان النّهر الذي كنّا بمحاذاته يجري بسرعة عند مغادرتنا. وفي غضون ثلاث ساعات وصلنا إلى تلال يسمّيها رجالي «الإشارة». وهي قرية قديمة خالية تماماً، تبعد مسيرة ساعة عن الطّريق. وقد تكون هي نفسها العشار التي ذكرها أينسوورث Ainsworth في هذا المكان. وقبل الظهيرة بحوالي ساعة، وبعد مسيرنا لبعض الوقت في سهل قاحل يشبه السّهل الذي قطعناه في الصّباح، وجدنا أنفسنا بالقرب من منحدرات فوقها ارتفاع مكوَّن من الحجارة الكلسيّة مع طبقة سميكة من نوع السّبار[1]، حيث يرتفع نحو مئتي قدم. كانت طيور

(1) كتب المؤلف: يصف أينسوورث Ainsworth في كتابه «بحوث عن بلدان آشور وبابل وكلدان» هذه البنية بكونها من الجبس والمرل، يعلوها طين أحمر وصخور كلسيّة.

مختلفة تحلق فوقه، كالحمام الأزرق والغربان وأنواع من الصّقور. غادرنا المكان مباشرة إلى وسط الصّحراء خلف المنحدرات، وهي عبارة عن سهل حجري مغطى بنباتات ذات لون أخضر فاتح. تابعنا مسيرنا فوقها لمدّة ثلاث ساعات ونصف وكان برفقتنا أربعة من خيّالة عرب عُنِزَة برماحهم الطّويلة. كان منظرهم يثير الشّك، لكنني عندما تحدّثت إليهم وجدتهم في غاية البساطة. مررنا بآثار ضخمة تبدو كأسوار مدينة لها برج ومدخل. كانت هذه مدينة الصّالحيّة المهدّمة، والتي كانت في السّابق حصناً لصلاح الدّين أو كما عُرفت لاحقاً برحبة مالك بن طَوق. وقد كنت بأشدّ الأسف لأنني لم أزر هذا الموقع إذ أخبرني رجالي أن المكان المقصود يبعد عنا مسافة عدّة ساعات وليس من المعقول التوقف والتخييم في هذا الموقع. بينما الحقيقة أنه يبعد عنا مسيرة ساعة واحدة، وكنت أستطيع البقاء لرؤية هذه الآثار ثم اللحاق بهم سيراً على الأقدام.

نزلنا بعد ذلك عبر طريق منحدر إلى وادٍ كبير ثم دخلنا سهلاً توجد فيه عدة خيام، ثم انعطفنا لنصل إلى المكان الذي سنخيّم فيه والذي يسمّى أيضاً الصّالحيّة، حيث يوجد مركز للشرطة. عندما نظرت إلى المنحدرات التي غادرناها للتو، كانت قد غرقت في ظلام كثيف. كان الجو هادئاً تماماً لكن ما لبث أن هبّت عاصفة قويّة حاملة معها أمطاراً ورياحاً قويّة مع غيوم هائلة من الغبار أعمت الجميع باستثنائي، حيث كنت جالساً بأمان داخل تختي أدخن غليوني. كانت الرّياح قوية جداً وحجبت عني منظر البغال الأماميّة التي تسير على بعد ثمانين ياردة وبدأ التَّخت بالتأرجح، حينها خفت على البغال. لقد هبّت سابقاً عواصف لكنها لم تكن بهذه القوة. عندما نظرت من خلال النّافذة استطعت رؤية أربع أو خمس عواصف رمليّة عارمة تجتاح السّهل. وعندما وصلنا إلى مقصدنا حيث التخييم بعد مسيرة تسع ساعات مع هبوب الرّياح والمطر الغزير، تمَّ نصب خيمتي بصعوبة ثم صحا الجو وأشرقت الشّمس. تكرّرت هذه العواصف في الليل لكن الأمطار تمكنت من إخماد الغبار المتصاعد[1].

---

(1) كتب المؤلف: على مسافة مسير يوم واحد جنوب هذا المكان، غرقت الباخرة دجلة *Tigris* بسبب عاصفة قويّة من هذا النّوع. وكانت تابعة لبعثة الفُرات عام 1836.

لقد كنت مصرّاً على نصب خيمتي بعيداً عن البغال، لذلك استمتعت بنيل قسط من الرّاحة أثناء الليل رغم عواء بنات آوى المتواجدة حول النّهر وصوت البغال المضجر. وبالمناسبة فإنّ صوت البغل ذو طبيعة غريبة؛ إنه مزيج من صهيل الحصان ونهيق الحمار. يبدأ بصرخة صاخبة، ثم يتبعه صوت مماثل لصهيل الحصان. ويمكن بكل بساطة وصفه بأنه شيء لا يدعو للسّرور.

كان صباح اليوم التالي، الثالث والعشرين من شهر مارس، شديد البرودة حيث قوّضنا الخيمة للرّحيل. كنت أهنئ نفسي على ترك طريق دياربكر شديد البرودة، لأن البرد عندما يعمّ هذه البلاد المرتفعة، يذكرك ببرودة الشّتاء الإنكليزي. يُعد لبس المعطف الثقيل في السّاعات الأولى من الصّباح شيئاً لا بدّ منه. بعد مسيرة ساعة من الزّمن، وصلنا إلى نهر صغير يمرح بين شجيرات صغيرة. لم نقم بعبوره، بل اتجهنا غرباً وأظنّه انتهى ليصب في مستنقع صغير. إنه النّهر الوحيد الذي رأيته على طول الطّريق باتجاه نهر الفُرات. لقد انتشرت الخيام العديدة في هذه الدّغلة، لكنني لم أستطع معرفة إلى من تعود. وبحدود العاشرة، فاجأنا تل كبير على يميننا له شكل قمّة بركان. وبسبب مكانه المنعزل ساورني الشّك بأنه تل اصطناعي مع أنه يبدو طبيعياً من مسافة معينة.

بعد ذلك مباشرة، التقينا بمجموعة من الأشخاص في غاية الغرابة، يعدّون حوالي اثني عشر، أشكالهم كالشياطين، تتدلّى من رؤوسهم خصل شعر متشابكة كأنها شباك الجن. كان منظرهم الغريب لا يدل على أنهم من البدو Bedawi أو عرب القوافل الذين التقينا بهم في الطّريق. لقد أثقل التعب والوسخ كاهلهم حتى أخذوا يترنّحون على طول الطّريق دون أن يكون لديهم أي نوع من وسائل النّقل. كانت أمتعتهم الوحيدة من الأواني والقدور معلقة على أكتافهم أو حول أعناقهم. لقد كانوا بعضاً من الدّراويش المتجولين في طريقهم من بغداد إلى حلب. وهذه البلاد الخاضعة للأتراك مليئة بهؤلاء المتشرّدين الغريبين. إنهم مزيج من المتسولين والغجر لدينا، لكنهم في غالب الأحيان دجّالون أو أنصاف مجانين يتاجرون بعواطف النّاس. لكنك لا تستطيع

إلا الشّعور بالأسى تجاههم، فهم بالرغم من دجلهم وحماقتهم، يعيشون حياة متشرّدة قاسية يصعب احتمالها.

قام بمرافقتنا مرّة أخرى أربعة من ذوي الرّماح الطّويلة، لكنهم كانوا يركبون الجمال بدل الخيول. وقد طلب منّي ذو الأسنان اللامعة كاللؤلؤ شيئاً من التبغ، فأعطيته له في الحال. وبعد دقائق قليلة قدّم لي بعضاً من التّمر في قطعة قماش. أخذتها في الحال وبدأت بقضمها مع علمي بأنه قد أخرجها من سرج جمل قديم مدهن، يفتقر إلى النّظافة. لم أرغب في جرح شعور صديقي الأسمر الذي أومأ برأسه وبانت أسنانه الرّائعة عندما أخبرته أن التّمر لذيذ وأنه الغذاء المفضّل لدي.

رغم النّزاهة والدّعة التي كانت بادية على محيّا هذا الرّجل، فإنّ حجّي محمّد جاءني بقصّة مفادها أنه سأله إذا كنت أحمل شيئاً من الذهب أو ما شابه، وأكد لي أنه يطمع بسرقتي عندما تحين الفرصة. هذه عيّنة من عدم الثقة والجبن التي يتمتّع بها سكان المدن نحو البدو، وأظن أنه من غير المعقول أن يكون الكلام محتملاُ بعد الهدايا التي تبادلناها (رغم ضآلتها). لا يمكن لأحد من عرب عُنِزَة أن يضمر أفكار خيانة مثل تلك. أخبرت حجّي محمّد بحماقة قوله، لكنه ظل ينظر إلى الأفق بحثاً عن احتمال ظهور أيّ عربي آخر.

عند الظّهيرة، وصلنا إلى مكان فيه مخفر للدَّرَك وعدد كبير من الأكواخ المبنيّة بالعيدان المجدولة. كانت هذه قرية البوكمال. طالعتنا هناك مساحات شاسعة من الأراضي المزروعة بالذرة التي تُسقى بالكرود. وقد طلب منّي أحد الموظفين بطاقتي فوراً وتفحّصها بعناية. ربما كان ذلك التصرّف للحصول على بقشيش مناسب، لكنني لم أمكّنه من نيل مراده.

أصبحت حرارة الشّمس خلال النّهار في غاية القوة، مما دعاني بحماقة مرّة أخرى إلى النّزول إلى النّهر للاستحمام. كان الماء بارداً كالثلج، وفي المساء برد الطّقس وهبّت العاصفة فأصبت بالديزنتاريا من جرّاء هذا الاستحمام، حيث عانيت لمدة يومين ووهنت قواي وأصبحت بقيّة رحلتي في غاية العناء. وعندما كنت أهمّ بارتداء

ملابسي، راعني منظر جو الإثارة البادي على عرب عْنِزَة وهم يستعدون لشنّ غزوة أو حملة سلب ضد أعدائهم التقليديين من قبيلة شمّر في بلاد وادي الرّافدين. وقد قدّر لي إلقاء نظرة عن قرب على هذه الغزوة في اليوم التالي.

لقد أخبرني سائقو البغال بخبر لم آسف على سماعه وهو أن البوكمال تقع في منتصف المسافة بين حلب وبغداد. وقبل خلودي للنوم، جاءني مرافقي الدَّرَكي، وهو رجل من بلاد النّوبة وطلب مني شهادة بأنه قد أنجز مهمّته على أكمل وجه، مع البقشيش المعتاد. كان فخوراً بكونه مصرياً لأنني عندما سألته عما إذا كان من مصر أجاب وقد لمعت أسنانه تحت بشرته السّمراء وهو يتذكر وطنه قائلاً: «الحمد لله» ثم سألني: «هل تعرف أسوان؟» «والله».

كان الليل شديد البرودة. وعندما غادرنا في صباح اليوم التالي مع شروق الشّمس كنت سعيداً لمشاهدة البغل الأعرج وهو يتمتّع بصحّة جيّدة. وبعد مغادرتنا مباشرة، تشاجرت مع الحجّي الأحمق بسبب عدم موازنة التَّخت بالشكل الصّحيح، فقد أصرّ على تعليق مطرة الماء الثّقيلة على الجانب الأيسر منه. وعندما أوضحت له أن التَّخت أصبح مائلاً وأمرته بنقلها إلى الجانب الآخر، أذعن لأمري، لكنّه ما لبث أن قام بتغيير مكانها بعد عشر دقائق. وقد تبيّن لي فيما بعد أن السّبب في هذا التغيير هو إفساح المكان لوضع نرجيلته الثقيلة. وفي الصّباح، وبينما كنت أتمشّى في الخارج، شاهدت منظراً في غاية الغرابة. خنفساء سوداء كبيرة مشغولة بنقل قطعة من روث الحصان أو البغل إلى مكان ما. كان أسلوب عملها كالتالي: تسير هذه الحشرة نحو قطعة الرّوث إلى الوراء واضعة قوائمها الخلفيّة عليها، ثم تدحرجها بسرعة، وتدفع بقوائمها الأماميّة للخلف دافعة نفسها. وبذلك يكون رأسها على الأرض. فتتدحرج قطعة الرّوث وتتكوّر بسبب الحركة الدّورانيّة المستمرّة. إن عملها يشبه ما يقوم به صانع الجعة مع برميله، عدا أن وضع الدّحرجة يكون معكوساً. تحققت من ذلك عندما نخست الكرة بعصاي، فما لبثت أن أعادت تدويرها مرّة أخرى خلال لحظات. إنها بالفعل تعمل بسرعة هائلة.

لم يكن على الضفّة الغربيّة التي اجتزناها هذا الصّباح أيُّ جبل، عدا تلك السّلسلة المنخفضة من التلال على جانب الجزيرة وفي الأماكن القريبة من النّهر. كانت هذه المرّة الأولى التي أشاهد فيها أرضاً مرتفعة قرب النّهر. وعلى الجانب المقابل كان الطّريق مغطى بالحصى من الحجر الصّوّاني، بينها الكثير من رقائق الأحجار التي ربما نتجت عن صناعة الأسلحة الحجريّة في العصور البدائيّة. وعند التاسعة، عبرنا وادياً فسيحاً لكنه قليل العمق، ومن الواضح أنه يصبح مجرى للماء عندما يهطل المطر بغزارة. هذا الوادي يدعى الشّيخ جابر، حسب قول أحد شيوخ بغداد، أو الملّا، كان قد انطلق معنا من الدّير. جاء هذا الاسم من اسم تل كبير يقع في بداية الوادي قرب النّهر ويسمى تل الشّيخ جابر. وعلى بعد مسافة ثلاثة أرباع الميل بجهة اليسار مررنا بآثار عديدة يطلق عليها اسم (السّور)[1]. كانت هناك آثار لسِتّة أبراج، وآثار لسور على الجانب الصّحراوي، وتبدو هناك أيضاً تلال كثيرة، وكان من المتعذر رؤية هذه الآثار دون الالتفاف حولها وإيقاف القافلة التي يبلغ عددها الضعف الآن، ولقد كنت في غاية الأسف لأنني لم أستطع فعل ذلك إذ لم يورد أينسوورث Ainsworth شيئاً عنها، مع العلم أنه دقيقٌ عادةً في ذكر المواقع القديمة. وفي الواقع فقد ذكر اسم (الجبّارية) أو (الجبّورية)، لكن هذه القرية تقع على الجانب المقابل من النّهر وإلى مسافة ابعد بجهة الجنوب. إن هذا المكان هو عينه الذي غرقت فيه الباخرة المنكوبة «دجلة» Tigris، لذلك أظن أنه السّبب لعدم ذكرها.

بعد ذلك بقليل، مررنا بوادٍ يبعد مسيرة نصف ساعة على أرض مرتفعة من الصّحراء، حيث دخلنا ثانية بين الشّجيرات. وحوالي الحادية عشرة والنّصف، توقفنا أمام قلعة مشيّدة باللِّبن منتصبة بالقرب من مجرى الماء تدعى (القايم) El Geim أو «القائم» El Keim. يرى أينسوورث Ainsworth أنها موقع أغامنا Agamna الذي يذكره بطليموس، وهو أول مكان تبلغ فيه القوافل القادمة من جنوب سوريّا ووسطها نهر الفُرات قديماً. وعند هذه النّقطة من النّهر، الذي كان يجري لمسافة مئة وعشرين ميلاً

(1) كتب المؤلف: هي الجدران، وقد استخدمها المُلّا بهذا المعنى.

في الاتجاه الجنوبي الشّرقي، اتّجه النّهر نحو الشّرق أو نحو نقطة الشّمال من الشرق، ويبقى النّهر محافظاً على هذا الاتجاه العام رغم التعرّجات العديدة فيه، إلى أن يصل إلى مدينة عانة.

بعد اجتيازنا للقلعة المشيّدة باللِّبن، أحسستُ أن شيئاً غريباً يحدث، حيث وقف عدد كبير من رجال الجيش والدَّرَك أمام «القُناق» "konak" (الجوسق) وهم يحملون بنادقهم وتبدو عليهم حالة من القلق الشّديد. وعلى قمّة المبنى، وقف حارس وقد أشهر حربته وكان حزامه مليئاً بالطلقات، بينما كان هناك مشهد مثير على ضفة النّهر إلى الأسفل. لقد تواجد جمهور كبير من عرب عْنِزَة وهم يشيرون ويصيحون منهمكين في إجبار خيولهم وجمالهم العنيدة على الدّخول إلى النّهر لكي تعبر إلى الضفّة المقابلة. كان بعضهم عارياً إلى وسطه وهو يدفع الحيوانات، بينما يحاول آخر سحب الحيوانات الخائفة على الضفة الأخرى للدخول إلى المراكب. ألقت الجمال بنفسها على الأرض بعد أن فقدت صوابها، وهي تجأر وترغي بهلع، بينما تشق الزّوارق الأخرى طريقها عابرة النّهر بعد أن مُلئت بالخيول، وهي تصارع وتكافح بحيث يبدو في كل لحظة أن الزّورق سينقلب. وعلى جانبي النّهر، هناك أعداد كبيرة من الحيوانات المقيّدة والمربوطة من قوائمها بانتظار دورها.

بالإضافة إلى الرّجال المنهمكين بنقل الدّواب، كان عدد من رجال العْنِزَة يتمشّون جيئة وذهاباً لمتابعة العمل، وكان لدى الجميع رماح، وبعضها مغروس في الأرض. في البداية، لم أكن أدرك معنى هذا المشهد المفعم بالحركة، حيث اقتربت منهم بهدف تصويرهم. لكنني اكتشفت لاحقاً أن هناك استعدادات لشن غزوة كبيرة على أعداء العْنِزَة التقليديّين وهم قبائل شمَّر العراق.

كان الجميع في حالة من الإثارة لملاحظتهم أنني أقوم بتصويرهم، لكنني كنت بحِمى رجال الدَّرَك. ولولا ذلك، لكنت تعرّضت للأذى ولصودرت مركبتي وآلة تصويري. حاولت التحدث مع شاب وسيم، يبدو من مظهره أنه شيخ شاب، ولقد أبدى اهتماماً كبيراً بجنسيّتي وتجهيزاتي وأراد رؤية الأسلحة التي أحملها.



«غزوة» عربيّة

تفحّص مسدسي بكثير من الفضول، ثم سألني بلهجة تنمّ عن التحدّي كيف أودّ أن يُحزّ عنقي في اليوم التالي. وبما أنه قد أوضح سؤاله بسحب إصبعه على عرض حنجرته، فقد ابتسمت وأجبته بأسلوب هادئ قدر ما استطعت، بأن دراستي الإنكليزيّة قد علمتني أن عرب عُنزَة لن تقوم بعمل بغيض ومُخز إلى هذا الحد، وأنّ هذه الأعمال تليق فقط بالسفّاحين وباقي الأقوام. لكن لم يبدُ لي أن هذه الثقة قد خففت من حنقه، وعندما تركته كان لا يزال غاضباً بالرغم من ردّه للتحيّة بأدب.

يبدو أن الأمور لم تكن تسير في الحقيقة بشكل سارّ، فبعد انتهائي من العشاء، جاء إلى خيمتي مجموعة من رجالي ومعهم الملّا وشخص يعتمر العمامة الخضراء وستة من الجنود. أعلموني أن السّفر في اليوم التالي أمر خطر لأنّ الطّريق سيكون محتشداً بالغزاة الذين ينتشرون في كل مكان وعلى مساحات كبيرة، ويشغلون النّهر على بعد عدّة أميال. وقالوا إنه قد حصل اشتباك بين الجنود والعرب، الذين كانوا هائجين ولا مجال للسّيطرة عليهم بسبب استعدادهم للحرب. لقد كانت حصيلة القتال، موت عدّة بغال وجرح اثنين من الجنود. وقد أظهروا لي الدّليل على ذلك، وهو دَرَكيّ جريح ملفوف بالضمادات وهو ينزف من جرّاء جرح نتج عن ضربة رمح على رأسه، لكنه كان على الرّغم من ذلك يدخّن نرجيلته. قالوا إنني إذا تريّثتُ يوماً آخر، فإنّ الجميع

سيعبرون النّهر وبذلك يكون الطّريق آمناً. عندها طلبتُ وجود مرافق فقالوا إنهم سيستغنون لي عن اثنين من رجالهم، لكنهم أعلموني أن مئة من الدَّرَك لا يستطيعون الوقوف أمام أيّ حشد من العرب الخطيرين. سألت رفاقي في السّفر، فأجابوا أن ليس لدينا شيء نخسره، لكنني كنت أحمل الكثير من العتاد وإذا ما تعرّضت للسّلب من قبل الحشود الهائجة، فهي مخاطرة في غاية الفداحة، وقد وافقني حجّي محمّد وبخيت في ذلك. وبالرغم من اعتقادي بأن عرب عْنِزَة يتعاطفون مع أمتنا، فقد شعرت بأنه من الحمق القيام بمثل هذه المخاطرة وفقدان جميع أمتعتي. لهذا قبلت بالتأخير ليوم واحد فقط. وبعد أقل من نصف ساعة، جاءني بخيت لإعلامي بأنه لا يوجد علف للبغال هنا، وأن علينا الرّحيل في الصّباح الباكر، فوافقت في الحال. في الليل شعرت بألم حادّ في بطني لم أعرف سببه وعندما غادرنا في الخامسة صباحاً، كنت لا أزال أتألـم بشدّة وأشعر بالوهن بسبب الألـم.

رغم أن عدد رجال القافلة كان يبلغ أربعة عشر شخصاً تقريباً، فقد كنت والدَّرَكي الوحيدين اللذين يحملان سلاحاً، وإذا ما تعرّضنا لغزو، فسنقع في محنة عصيبة. عند وصولنا مساء البارحة، دخل خيمتي رجلان من الدَّرَك وطلبوا شراباً بطريقة غير لائقة، لكنني صرفتهم في الحال وطلبت من حجّي محمّد بألا يسمح لأي دَرَكي بدخول الخيمة. ولا شك عندي أنه لهذا السّبب رفضوا إعطائي أكثر من دَرَكي واحد لحراستي مع كل المخاطر التي تسود الطّريق. وأخذت تراودني الظنون عندما غادرنا بأنه من السّهولة بمكان إرسال جماعة من العرب لمهاجمتي مع الحقد الكبير الذي يشعرونه تجاهي. انطلقنا باتجاه الصّحراء التي تمثل مكاناً أكثر أمناً، إذ إن جموع عرب عْنِزَة موجودون الآن حول النّهر. وفي الحال اجتزنا شعباً صغيراً مليئاً بالأحجار والصّخور الضخمة على الجانبين، ومعظمها يمكن أن تكون مواقع مؤهّلة لنصب كمين. لهذا كان يتقدّمنا أحد أفراد المجموعة ليحذّرنا في حال رؤيته لأمر ما، لكن المكان كان صامتاً كما القبور.

بعد اجتيازنا لوادٍ فسيح قليل العمق، جاءني حجّي محمّد يستفسر إن كان مسدسي

جاهزاً للإطلاق كون العرب خلفنا. كنت في ذلك الوقت في حالة من الإنهاك بسبب المعاناة من الألم طوال الليل والأفيون في مسحوق دوڤر والذي تناولتُ منه كميّة كبيرة في محاولة لتسكينه، بحيث لم أستطع رفع رأسي لإلقاء نظرة، لكنني عندما فعلت، رأيت اثنين من الخيّالة العرب وهما يعدوان خلفنا في السّهل. وقف الدَّرَكي المرافق لي يتأبط البندقيّة ودار بينهم حديث لم أفهم مكنونه، وما لبثا أن قفلا عائدين من حيث أتيا. كان هذان الرّجلان هما الوحيدين اللذين التقينا بهما ذلك اليوم، لكون جميع أفراد المجموعة الغازية قد سبق مرورهم من هنا.

كانت الصّحراء التي نقطعها الآن تشبه إلى حد بعيد صحراء شمال مصر. وعند حوالي التاسعة، مررنا برعن جبلي بجهة النّهر وينتهي بتلّين مخروطيين ضخمين. ومن الثامنة والنّصف إلى العاشرة والرّبع، عبرنا أوديةً قاحلة، يدعى الأخيران منها وادي صفرة ووادي زلّة. يعتبر الأول شكلاً رائعاً للوديان، تقطعه قنوات عدة وتوجد بمحاذاته منحدرات بارزة وتلال وعرة، أما عند نقطة التقائه مع النّهر، فتوجد آثار لناعورة قديمة مهجورة وقد تهدّم جزءٌ منها.

تشكّل هذه الوديان مناظر تسّر النّاظر، رغم أنها قليلة العمق، لكنها مزدانة بالشجيرات النّامية على طرفيها بسبب الرّطوبة التي تحملها بعد فصل هطول الأمطار. وفي شهر مارس يجف أكثرها، أما البقية فتغدو بركاً راكدة. أعتقد أن هذه الوديان لا تمتلئ بالمياه الجارية أو الرّاكدة في أي وقت من السّنة، لهذا فلا بد أن تكون قد تشكلت بفعل عواصف محليّة قوية جداً. كانت النّاعورة هي الأولى التي أراها منذ مغادرتنا حلب، رغم أن النّواعير تنتشر على طول النّهر في عانة والقرى الأخرى إلى الجنوب منها. وعند الواحدة إلا ربعاً، وصلنا بقرب منطقة النّاحية حيث قضينا الليل هناك بجانب مخفر الدَّرَك. المنحدرات هنا كلسيّة تعلوها طبقة من الحصى، وهناك عدد من النّواعير لكن واحدة منها فقط كانت تعمل. أبلغني حجّي محمّد أنه علينا المغادرة في اليوم التالي باكراً لأن عانة بعيدة وتقع على مسافة مسيرة ثماني ساعات، لهذا استلقيتُ في فراشي دون عشاء لأنني كنت في أمسّ الحاجة للرّاحة. وبالفعل فقد

بقيتُ راقداً في الفراش دون حركة لغاية الثانية والنّصف من صباح اليوم التالي.

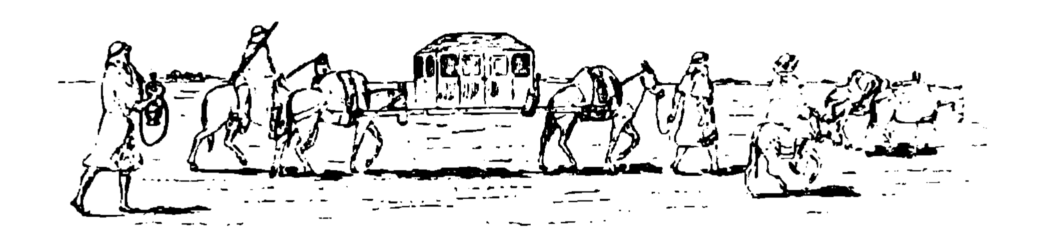
بعد السّاعة الرّابعة بقليل، كنا نسير من جديد في الطّريق، ولأن الشّمس لم تأذن بالشروق بعد، فقد كان سفرنا في جو شديد البرودة. رأينا ثلاثة خنازير بريّة تركض على ضفة النّهر، وما كان من الدَّرَكي إلا أن طار خلفها يحاول اصطيادها من بعد مئتين وخمسين ياردة، لكنه أخفق بالطبع. كانت هذه الحيوانات الوحيدة، باستثناء السّحالي، التي أشاهدها على طول طريق الفُرات. والغزلان متواجدة هناك بالطبع، لكنني لم أحظَ برؤية أحدها. أما أسد بابل المشهور الذي كان موجوداً في وقت غير بعيد، فقلمّا يُسمع عنه حاليّاً. لقد سررت بكون البغل الأعرج قد تحسّن كثيراً وأصبح يستطيع حمل الأثقال.

بعد الخامسة، عبرنا وادياً آخر كبيراً، وبعد مسيرة نحو ساعتين وصلنا إلى جبل قوشغة (Kushga) ذي الشّكل المختلف عما رأيناه سابقاً. وبدلاً عن النّجد المستوي الذي يحاذي المنحدر الحاد عند السّهل الذي يجري فيه النّهر، رأينا مساحة من الأرض لا تقل عن مساحة مستنقع اسكتلندي، وهي تنحدر من أرض مرتفعة إلى منحدر بسيط ثم إلى أخدود، حتى تصل إلى السّهل. يسمّى الوادي الذي ينحدر منه نحو النّهر وادي خوشغة (Khushga). ومن خلال النّواعير العديدة المنتشرة على النّهر، علمنا أننا نقترب من منطقة أكثر كثافة بالسكان. وهنا شاهدت للمرّة الأولى أشخاصاً يبحرون في النّهر. كان هناك طوفان محمولان فوق القرَب المنفوخة يتّجهان ببطء إلى أسفل النّهر، يقودهما رجال بمجاديف كبيرة. وبعد برهة، التقينا مجموعة من الرّجال والنّساء على ظهور الحمير، وكانت هذه المرّة الأولى التي نشاهد فيها الحياة خلال اليومين المنصرمين. لكنهم كانوا يرتدون ملابس غريبة، فالعصابات أو العُقل التي يثبّت بها الرّجال كوفيّاتهم كانت عريضة بشكل غير عادي. لم أتمكن من معرفة هوية هؤلاء الرّجال المسلّحين. مررنا بعد ذلك بضريح مهدّم لأحد الشّيوخ والتقينا بقوافل عديدة، كان في أحدها امرأة تمتطي حماراً، ثم أخيراً و«الحمد لله» وصلنا إلى قرية الرّحوة على الجانب المقابل من النّهر والتي تقف بشموخ وسط واحة من النّخل،

وهو منظر يبعث السّرور في نفس المسافر القادم من حلب والذي أرهقه منظر رمال الصّحراء والأشجار القصيرة. وفي أعلى القرية كانت القلعة الكبيرة التي بناها حاكم بغداد مدحت باشا القدير لحماية الطّريق.

تقع الرّحوة على طريق منحدر، ويلتف النّهر حول نهايته بشكل لسان بريّ طويل وزاوية مختلفة كلياً عن مسير النّهر. وبعد اجتيازنا الوادي صعدنا شيئاً فشيئاً حتى أصبح إلى الأسفل منا اللسان الذي تقع فيه مدينة عانة وسط واحة مترامية الأطراف من النّخيل. كان شعوري بالسعادة يفوق الوصف، حتى البغال كانت تهزّ رؤوسها محدثة صوت صليل بأجراسها. عندها مشى حجّي محمّد بخطوات سريعة، وانطلق حمّادي من أعماق روحه بأغنية تتغنى بمديح عانة. كان المنظر في غاية الرّوعة وخصوصاً ونحن نرتقي التل، وكان المكان يبدو كزمرّدة في حلية من الذهب. خُضرة وسط الصّحراء مع تلال صفراويّة. سرنا بعد ذلك على طول ممر ضيّق على يمينه جرف منخفض وعلى يساره بساتين جميلة لكنها لسوء الحظ محاطة بأسوار من الطّين. كان هذا الطّريق هو الوحيد للوصول إلى المدينة، وهو ضيّق للغاية بحيث اضطررنا للتوقف فيه أكثر من مرّة وقد حجزتنا الجمال الخارجة من المدينة. سرنا بعد ذلك عبر طريق موحل احتشد على أبوابه فور وصولنا النّساء والأطفال لمشاهدتنا. وأخيراً توقفنا في مكان واسع على ضفة النّهر مُعدّ خصيصاً لنزول القوافل. وعلى الرّغم من كبر هذه المدينة، فليس فيها أيّ خان.

* * *



التّختروان الخاص بي

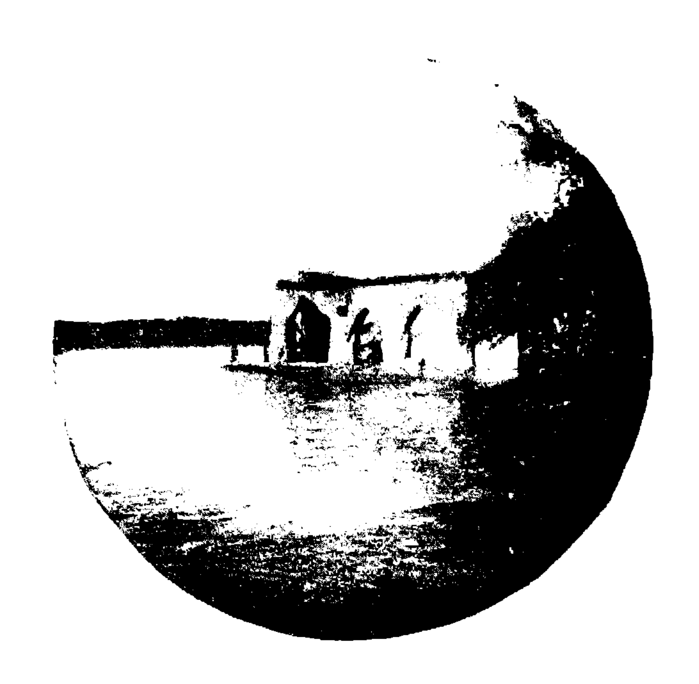
الفصل الثامن

من عانة إلى بغداد

عانة، المدينة ذات الطّابع العربي - المرض - وادي فهمين - نزاع - حديثة - وادي البغدادي - عاصفة رعديّة - الوصول إلى هيت - المدينة الكريهة - ينابيع القار - رمضان - رجالي يقبضون على لصّين - قلعة الرَّمادي - الاتصال بالحضارة - المرور بين المستنقعات - بغل يرهقه التعب - حادثة التَّخت - قارب الفُرات - قوارب الكوفة - الفَلّوجة - رحلة في الليل - أضعنا الطّريق - القنوات البابلية - عقرقوف - منظر بغداد - مستنقعات أخرى ومصاعب - الوصول إلى بغداد.

تُعدّ مدينة عانة متميّزة بين مدن الفُرات، وهي تحتل موقعاً طريفاً مهماً. فالنّهر الذي يجري شمال المدينة يدور ليلتف حول منحدر كلسي تقع عليه قرية وقلعة الرّحوة التي ذكرناها سابقاً، ويسير بعدها ليشكل لساناً وعراً وطويلاً تقع المدينة على ضفّته الغربيّة (أو على الأصح الجنوبيّة لكون النّهر يتّجه شرقاً). تعدّ هذه المدينة مميزة حيث أنها تشغل مساحة ستّة أميال أو أكثر. وقد أخبرني أحد الرّجال أن المرور داخلها يحتاج إلى ساعتين، وقد اختبرت صحة ذلك. كثافتها السّكانية ليست كبيرة، على اعتبارها

ضيّقة إلى حد بعيد حيث تحدّها الصّحراء ومنحدر منخفض من أحد جوانبها والنّهر من الجانب الآخر. وعلى خلاف معظم المدن العربيّة، فبدلاً من أن تكون البيوت مزدحمة، فهي جميعها مبنيّة داخل البساتين الخاصّة. وهي في الواقع تشابه ضاحية سيدنام Sydenham اللندنيّة ولكن بطراز عربي. فالطريق الطّويل السمتد على طول المدينة تقطعه قنوات تنقل الماء من النّواعير إلى البساتين وحيث أن القناطر المشيّدة على هذه القنوات تقع بمستوى أعلى من الطّريق، فإنّ المرور وسط مدينة عانة لهو ضرب من المتعة، حيث تصعد وتهبط فوق هذه القنوات سواء كنت داخل التَّخت أو على ظهر الحصان.



ناعورة في عانة

يتميّز سكان عانة عن غيرهم بمظهرهم الصّحّي وعاداتهم اللطيفة. تتزيّن النّساء وحتى الأطفال بحلقات الأنوف على النّمط الصّحراوي، وهم يتمتّعون بالصحّة البادية عليهم من خدودهم المتورّدة، وهو شيء غير اعتيادي تقريباً في البلاد العربيّة، بينما

ترى الأولاد في الدّير وهم منهمكون طوال اليوم بجمع الأخشاب الطّافية على السّطح ويقومون بهذا العمل ببراعة. يدّعي السّكان في عانة أنهم من سلالة الخلفاء الأمويّين ويحكمهم شيخ منهم. يقول ابن حوقل إن الأمير في زمنه كان عباس بن العُمر الغني. وقد وجد تيشيرا[1] Teixeira في بداية القرن السّابع عشر أن حاكمها كان الأمير أبو ريشة Abu Risha الذي امتدّت سلطته عبر الصّحراء إلى تدمُر[2]. وقد ذكر بعض الرّحالين هذا الاسم بطريقة مختلفة، فكتب السّيّد رالف فِتش Ralph Fitch الذي زار هذه المنطقة في أواخر القرن السّادس عشر ما يلي: «على نهر الفُرات من البيرة إلى الفَلّوجة، هناك الأماكن يتوجب عليك دفع رسوم فيها... لصالح أبناء أبو ريشة Arborise الذي يُعدّ ملك العرب والصّحراء الكبرى ولديه قرى عديدة على النّهر». ومرّة أخرى يقول غاسپارو بالبي Gasparo Balbi الذي اجتاز النّهر عام 1579: «في قلعة عانة الشّبيهة بقلعة ديانا، يقيم الأمير أبو ريشة Arborise ملك العرب».

يدّعي عدد لا بأس به من سكان عانة أنهم من نسل النّبي، وترى معظمهم يرتدي الرّداء والعمامة الخضراء. وهناك أيضاً أعدادٌ كبيرةٌ من المسيحيّين واليهود.

تقع قلعة عناثا Anatha أو عناثو Anatho التي اشتُق منها اسم عانة وفتحها الإمبراطور جوليان على إحدى جزر النّهر.

اشتدّ مرضي في الليل وتدهورت حالتي الصّحيّة من جراء الاستحمام بماء النّهر، وقد أُصبت بالزُّحار وارتفعت حرارتي، لكنني لم أستطع أخذ الدّواء بسبب تعطل قفل حقيبتي وبقيت عاجزاً عن فتحه لمدة يومين. وقبل ساعتين من بزوغ الفجر، جاءني اثنان من رفاق السّفر الطّيّبين، وبالرغم من تعاطفهم مع معاناتي القاسية، فإنهم لم يفهموا كلامي وأعلموني أنه علينا الرّحيل وبدأوا ينزعون حبال الخيمة. علمت أن هذا

---

(1) پدرو تيشيرا رحالة پرتغالي قام بين 1586-1605 برحلة إلى الهند ثم عاد منها إلى إيطاليا، مروراً بالخليج العربي عبر البصرة والجزيرة الفراتية وبغداد وصولاً إلى حلب والبحر المتوسط. ولقد حصلت على كتابه المطبوع في لندن من قبل جمعيّة هاكلوت عام 1902، ولعلّي أضيفه إلى هذه السّلسلة، خصوصاً أنّ فيه كما تقدّم ملحقاً مهماً عن مملكة هُرمُز العربيّة.

(2) كتب المؤلف: راجع أينسوورث.

القرار كان لبخيت الذي أعاني معه دائماً المشكلة ذاتها وهو يعتقد أنني الآن في غاية الوهن والضّعف بحيث لا أستطيع مقاومة إزعاجاته. لقد كان يريد الوصول سريعاً إلى بغداد لسبب أجهله. ولأنني شعرت بعدم مقدرتي على السّفر في هذا الطّقس البارد الذي يسبق شروق الشّمس وأنا أعاني من الألم والحمّى، فقد نهضت سريعاً وأعطيت أوامري للرّجال بالتوقف عن العمل لكنهم لم يستجيبوا حتى هددتهم بالمطرقة الخشبية.

غادرنا المخيّم عند شروق الشّمس وسرنا نتخبّط فوق الطّريق الذي تقطعه قنوات المياه. مرّت ساعة ونصف قبل الانتهاء تماماً من آخر بساتين النّخيل والبيوت المتفرّقة. وبعد ساعة من الزّمن دخلنا إلى وادٍ يحوي بركة ماء راكد وهي من الطّول بحيث يلزم للوصول إلى رأسها التفاف كبير حولها، لكنني لم أتبين اسم هذه البركة بالرغم من أنها تبدو في نفس موقع بحيرة تلبيس التي أشار إليها كيبرت Kiepert في خارطته الكبيرة. شربت جميع البغال وأعدنا تعبئة المطرات لأن يوماً طويلاً ينتظرنا في الصّحراء. ومن الغريب حقاً أن العرب يفضّلون شرب الماء الصّافي الرّاكد والذي يمكن أن يكون فاسداً على مياه النّهر المضطربة العذبة. ولو فعلت ذلك، لكنت فسّرت مرضي بذلك، لكنني كنت أحرص على الشّرب من ماء النّهر.

بعد مرور ساعة أخرى، سرنا في سهل خصب، حيث توجد جنوب عانة مساحات كبيرة من الأراضي المزروعة، ثم دخلنا الصّحراء المملة صعوداً لمدة ست ساعات. وفي الصّباح شاهدنا خيام بعض الرّعاة العرب، وباستثناء ذلك لا أثر للحياة. وعند الظهر، وصلنا إلى وادٍ وعر وخطير يدعى وادي فهمين. ورغم أنني كنت بين الوقت والآخر أترجّل عن ظهر البغل عند مروره في الوديان لتسهيل حركته، فقد كان رجالي يصرّون دائماً أنه أمر غير ضروري، إلا أنهم جاؤوا إلي للمرة الأولى وطلبوا مني فعل ذلك. كان منظر المنحدر مشابهاً تقريباً لصخور وحفر شلال لودور Lodore في كمبرلاند Cumberland، ويبدو من المستحيل دفع البغال إلى السّير في مثل هذا المكان، لكنها مع ذلك مشت بكل بسالة، فكانت تهبط من سلسلة الصّخور التي بلغ

ارتفاعها ثلاثة أقدام رغم الأوزان الثقيلة فوق كاهلها، وتصعد فوق الصّخور الكبيرة وبينها. كان هذا العمل مخيفاً بالنّسبة للحيوانات المسكينة، لكنها كانت تتكبّد الصّعاب رغم أحمالها الثقيلة وتمشي بثقة. وأخيراً، وصلت بأمان تام إلى الجانب الآخر. كانت كل عضلة من جسمها ترتعد بفعل المجهود الكبير الذي بذلته. لقد كانت تتسلق الجبال وكأنها قطط صغيرة أكثر منها رباعيّات أرجل ذات حوافر. تبع ذلك اجتياز وديان أقل وعورة، وبعدها مباشرة نشب شجار حادّ بين الدَّرَكي المرافق لي وبخيت حول تحديد وجهة السّفر. فبخيت يؤكد أن القرية الأقرب التي يريدنا الدَّرَكي التوجّه إليها، تفتقر إلى العلف. بينما يقول الدَّرَكي إن المكان المقترح من قبل بخيت بعيد جداً، ثم رفض مرافقتنا. كنت لا أزال أعاني من الألم وشعرت أن كلام بخيت يكتنفه بعض الكذب، مع ذلك فقد أعطيت الرّجل الإكراميّة الملائمة وتركته يمضي في سبيله.

رأيتُ فوق قمم التلال أعمدة حجريّة ضخمة، تبدو بشكل شواهد قديمة لقبور، لكنني لم أكن متأكداً وخصوصاً أن العرب ينكرون هذا الأمر. تابعنا المسير نحو الجنوب حيث بدأ الجو يتغيّر وبدت الحرارة أكثر حدة وجفافاً، فقد كانت الشّمس ولبضعة أيام تسلّط أشعتها القويّة بحيث أحسست أن القبعة التي تحمي رأسي غير كافية، ولا بدّ الآن من استخدام المظلة الواقية.

عند الثالثة تقريباً نزلنا إلى السّهل حيث مجرى النّهر، وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى حديثة. ولما اقتربنا طالعتنا أضرحة الشّيوخ ذات القمم المستدقّة بدل القباب الشّائعة في بغداد، وهي مختلفة عن التي شاهدناها في مصر. مررنا أيضاً بمقالع للحجارة، حيث أُخرج كمٌّ كبيرٌ من الحجارة الكلسيّة وأصبحت جاهزة لنقلها عبر النّهر إلى بغداد. إن جزءاً من حديثة قد بُني فوق إحدى الجزر، ومن المفترض أنها مدينة قديمة رغم عدم ورودها في كتب الرّحالة وخرائطهم. حالما حططتُ الرّحال، هرعت إلى حقيبتي لفتحها بالقوّة وأخذ الدّواء، إذ كنت ما أزال أعاني من المرض، حتى إنني لم أستطع تناول سوى بيضة أو بيضتين مع قليل من الأرز، أرغمت بلعومي على ابتلاعها مما أشعرني بالغثيان. سرنا مدة مضاعفة، وربما نكون قد قطعنا مسافة تتراوح بين

أربعين إلى خمسين ميلاً. كان الدّواء الذي تناولته (وهو قرص مضاد للكوليرا) قد حسّن حالتي، لكنني لم أُشفَ كليّاً. وبالرغم من صوت عراك الكلاب خارج الخيمة، ومفاجأة القطط لي، حيث وجدت رأس إحداها في وعاء الحليب، فقد استطعت النّوم بهناء. شعرت وأنا نائم بحركة غريبة تحت وسادتي، ويا للمفاجأة، عندما أشعلت الشّمعة شاهدت فأراً رماديّاً في منتهى الجمال، ينظر بعينيه السّوداوين دون خوف. أخذت ألاعبه فحيناً أمسك يديه وأحياناً يدخل بين أغراضي وتحت حقيبتي. تركته يلعب وأطفأت شمعتي ونمت، وسرعان ما سمعته يقضم قطعة بسكويت.

في صباح اليوم الثامن عشر من رحلتي والذي يصادف الثامن والعشرين من شهر مارس، بدأنا مسيرنا المعتاد، وبعد ساعة من الزّمن دخلنا الصّحراء وهناك عبرنا وادياً فيه ماءٌ راكدٌ. وبعد ساعتين تقريباً، وصلنا إلى وادي سريدان[1] Sagreidan، حسب تسمية رجالي. بعدها ظل الطّريق مستمراً بشكل رتيب كما في اليوم السّابق، لكن الهواء الثقيل الذي ينذر بهبوب عاصفة كان يشعرك بانقباض في الصّدر، وما لبثت أن زخّت الأمطار. وبعد حوالي ساعة، وعند اقترابنا من النّهر، سرنا أسفل منحدرات كلسيّة تتاخمها سلسلة من الوديان تنتهي بأرض منحدرة من الصّخور التي أظنّها تشكّل شلالات في موسم هطول الأمطار. كان سطح المنحدر مليئاً بالشقوق الفتحات والكهوف الصّغيرة التي يبدو أنها قد تشكلت بفعل تآكل الأجزاء الهشة من الصّخور أثناء جريان النّهر بمستوى أعلى. هنا نصبنا خيامنا في مصب وادٍ جميل يدعى البغدادي، ورغم خلو المكان من أي مظاهر للحياة، فإنني على يقين أنه قريب من مسجد وقرية تحمل الاسم ذاته، والتي حددها أينسوورث Ainsworth في هذه الأنحاء. كان المكان مقفراً جداً، ولو كنت أستطيع تناول الطّعام (إذ كنت ما زلت أعاني المرض) لما وجدت الكثير لآكله، فلم يتبقّ عندنا سوى الأرز والتّمر. كنت في حالة من التعب جعلتني أستلقي وأنام لمدّة اثنتي عشرة ساعة متواصلة. ثم عندما

---

(1) التسمية غير واضحة: سريدان أم سعيدان؟ ولم أجد ما يقابلها في خرائط محافظة الأنبار ما بين حديثة وهيت، فألتمس العون من إخوتنا في العراق الشقيق.

استيقظت، وجدت نفسي مرتاحاً فنهضت لأسير عند شروق الشّمس حتى أعلى الوادي، ثم صعدنا خارجين منه إلى الجانب الجنوبي. وعلى الرّغم من السّماء المليئة بالغيوم السّوداء والبرق فقد تأخر المطر. انتظرنا قليلاً، فاشتدّ البرق والرّعد وكأنه يمتد من سهل إلى الآخر، حتى آن الأوان وبدأت حبّات المطر بالهطول بسخاء كبير لمدة دقائق كانت كافية لملء كل الأخاديد في الطّريق، فبدت كزقاق إنكليزي في شهر ديسمبر. وأخذت خطوط صغيرة من المياه تسيل في أسفل المنحدرات الصّخريّة مشكلةً أوديةً جديدة. لذلك من السّهل معرفة كيف تمتلئ مجاري المياه الكبيرة بعد مشاهدة هذا الوابل الغزير من المطر الرّبيعي. إن هطول المياه الغزيرة في مناطق حارّة كالبلاد العربيّة لهو شيء من الترف، لأنها بالرغم من غزارتها فهي نادرة، وتجعل العرب يستمتعون بالشعور بالبلل بين الفينة والأخرى.

تبدو الصّحراء في الطّقس الغائم في شدّة الكآبة، أما في الطّقس المشمس فتكون بأبهى حلّتها. إنها تتمتّع بجمال خاص بالرغم من شعورنا بالملل في بعض الأوقات. جاءني حجّي محمّد يشكو من ألم في بطنه، لكن حالته ما لبثت أن تحسّنت عندما أعطيته قليلاً من ملح كارلزباد Carlsbad وأصبح على ما يرام.

بعد وصولنا إلى النّهر، مررنا ببعض المنحدرات المتميّزة بطبقاتها المتموّجة، وهي المرّة الأولى التي أشاهد فيها مثل تلك الصّخور مذ غادرت حلب، حيث لم تكن أفقية. اجتزنا كذلك ودياناً كثيرةً وبركاً وشاهدنا بعض النّماذج الغريبة للحجارة الكلسية المعرّضة للتعرية، حيث تحمي الطّبقة ذات الصّخور الصّلبة هذه البنى الأقل صلابة مشكلة بذلك تكوينات غريبة بشكل المنضدة متناثرة على أرض السّهل.

وسرعان ما أصبحنا على مرأى من هيت Hit الواقعة على بعد ميل تقريباً من الجبل وعلى سهل مشبع بالملح والقار الذي يصبغه باللون الأسود بشكل فريد. أما على اليمين فعدّة أضرحة لشيوخ، كان من بينها ضريحٌ كبيرٌ متهدّمٌ يسمّيه حجّي محمّد «المزار» Mazarre.

لقد شيّدت المدينة على أرض سهليّة، حيث بنيت على تل محاط بخندق يشبه إلى

حدّ ما قلعة حلب، وأظنه تلاً اصطناعيّاً. يوجد فيه مئذنة واحدة، تحيط بها مزارع من النّخيل القصير ذي العمر القليل.

وفي السّاعة الواحدة تقريباً، مشينا في طريق حرّة إلى الجنوب من المدينة وبالقرب من محرس الدَّرَك، حيث يغطي القار معظم الطّريق، وهو مادة شبيهة بالإسفلت كثيراً مما جعل من المستحيل حطّ الرّحال فوقها. إضافة إلى ذلك فقد كان المكان مليئاً بفضلات القوافل مما يدعو إلى القرف، بحيث أنني فكّرت بأن أذهب إلى أحد الخانات القريبة من المكان على قمّة التل. كانت رائحة الأرض النّتنة تبدو لي أهون الشّرّين، فقرّرنا نصب الخيمة بالرغم من هذه المعوّقات. وقد وجد رجالي صعوبة في إحداث فتحات في الأرض التي تشبه الإسفلت لوضع أوتاد الخيمة، لذلك استعملوا المثاقب الحديديّة. لقد كانت العمل يتمّ بشيء من عدم الرّاحة، حيث احتشد جمع كبير من الرّجال والفتيان حولنا وهم ينظرون بتطفّل ويقومون بحركات بهلوانيّة على الحبال. وبعد برهة من الزّمن أرسل المدير أفندي دَرَكيّاً أبعد الفضوليين وسهر الليل على حمايتنا.

يعود تاريخ المدينة إلى عصور قديمة، فهي مبنيّة كما أسلفنا على تل قديم[1]. يبلغ عرض الشّوارع فيها حوالي خمسة أقدام وترى فيها المجاري المفتوحة تتجه نحو الوسط لكن تفوح منها رائحة كريهة. أما الأكواخ الطّينيّة فقد بنيت حول المدينة. قمنا بجولتنا في هذا الفردوس، ورغم أن سكان المدينة لم يوجهوا لي أية إهانة، فقد بدا أنهم ممتعضون من وجودي.

إلى الجنوب من المدينة كانت تنتشر أكوامٌ من الخرائب، وهي بقايا مدينة إيس IS القديمة التي أتى هيرودوتوس Herodotus على ذكرها والتي من المفترض أن يمثّل تل قلعة هيت قلعتها. تنتشر على هذه الخرائب العديد من الأفران المبنيّة كخلايا النّحل يقومون فيها بحرق الكلس لتصديره إلى بغداد.

---

(1) كتب المؤلف: تم فتحها على يد أحد قادة الخليفة عمر عام 637 م.

أخذت أتمشّى نحو ينابيع القار الواقعة إلى الغرب من المدينة بنحو نصف ميل تقريباً. إن الظاهرة الغريبة في هذه المدينة هي التي أعطتها سابقاً اسم «ثغر الجحيم» فالنّفط يفور من الأرض وحالما يتعرّض للهواء يتحول إلى قار وپترول. أما الماء فيجري نحو أماكن منخفضة أو برك مربعة الشّكل، حيث تتشكل هناك كميّات كبيرة من الملح بعد تبخّر الماء منها. يتميّز الماء في هذه المنخفضات بكونه فاتراً وأحياناً أصفر اللون. يكون الملح في بعضها على السّطح، بينما يوجد في الأخرى تحت الماء أو على الحافة فقط، ويشبه شكل الصّقيع المتجمّد. أما طعمه فغير مستساغ وتنبعث من المكان رائحة الكبريت الكريهة.

ينابيع القار تلك مغرقة في القدم. وقد شاهدها الإسكندر الأكبر وتراجان وسيڤيروس وجوليان. يقول هيرودوتس أن قار إيس IS قد استخدم كملاط بين الطُّوب عند بناء أسوار بابل. ويستخدم في الوقت الحاضر كوقود أو لطلي القفف أو الزّوارق المدوّرة المستخدمة في النّهر، بالإضافة إلى أنواع أخرى من المراكب. ويقال إنه يُستخدم أيضاً لطلي مجاري المياه من الدّاخل لريّ البساتين والأراضي الزّراعيّة. ويُصدّر القار والپترول بكميّات كبيرة إلى بغداد ولكن بالرغم من ذلك تبقى المدينة بعيدة عن الرّخاء والازدهار[1]. كما شاهدت في هيت عدة مراكب غير متقنة الصّنع لها

---

(1) كتب المؤلف: للمزيد من المعلومات عن ينابيع النّفط في هيت، يمكن مراجعة كتاب أينسوورث Ainsworth (بحوث في بلاد آشور) ص85 و«مسرد شخصي عن بعثة وادي الفُرات» المجلد 1 ص 143. وكتاب غراتون غيري Gratton Geary «رحلة عبر تُركية الآسيويّة» المنشور عام 1878 م المجلد 2 ص 17.

تُعدّ كتابات الرّحّالين الأوائل مثيرة للمتعة دائماً. يقول غاسپارو بالبي: «وصلنا إلى إيت (هيت) التي يوجد بقربها نبع يغلي من الزفت حيث يبني الأهالي بيوتهم منه، ويطلون الأغصان المنزوعة من الأشجار بهذه المادة بحيث تبدو أنها أصلاً من الزفت، ويمكن لكل فردٍ أخذَ ما يريدُ من هذه المادة مجاناً. وكانوا يقولون إن تلالاً ستتشكل منه لو لم يجرف فيضانُ الفُرات هذا الزفت بعيداً».

وكتب رالف فيتش الذي زار المنطقة عام 1583 ما يلي: «على نهر الفُرات وعلى مسيرة يومين من بابل وفي مكان يسمّى إيت (هيت) هناك شيءٌ في غاية الغرابة يمكن مشاهدته في موقع

نهايات مربّعة، تم بناؤها بغية استخدامها لنقل أحمال القار إلى البصرة. أما النّواعير فتُعدّ أكثر إتقاناً هنا من التي شاهدتها في السّابق، بعضها مزودة بثلاثة دواليب للمياه أو أربعة.

كان اليوم التالي أول أيام رمضان، شهر الصّوم عند المسلمين. وعندما أويت إلى فراشي كان النّاس في جميع أنحاء المدينة يطلقون النّيران احتفالاً بالمناسبة. ولذلك ارتأى رجالي أنها مناسبةٌ لإقامة ليلة خاصة بهم، فقد بدأ حمّادي يغني كالقبّرة حتى السّاعات الأولى من الصّباح. وفي خضمّ هذه الأصوات التي تقطع النّوم وعراك الكلاب والرّجال الذين يسوقون حميرهم من فوق حبال خيمتي وبصاق الدَّرَكي المرافق لي الدّائم خارج الخيمة وصوت البرق والرّعد والعواصف، لم أتمكن من الحصول سوى على القليل من النّوم. وعند الواحدة تقريباً خرجت ورأيت مئذنة الآجر الكبيرة مضاءة وسمعت وقتها تراتيل المؤمنين التي تُعدّ في صمت الليل شيئاً رائعاً ومؤثراً.

* * *

غادرنا باكراً وقطعنا تلالاً حصويّة منخفضة على محاذاة النّهر. وهنا شاهدنا مرّة أخرى شجيرات الطّرفاء، وهو منظر اشتقنا إليه منذ أيام. بعد ذلك مررنا بأرض مرتفعة من الصّحراء تغطيها قطع متلألئة من معدن السّبار، لكن لا وجود للأعشاب بتاتاً. هبطنا بعدها في أرض ملحيّة فيها من الرّطوبة ما يعيقك عن المشي فوقها، رغم أنها خالية من الماء. تمتد على ناحية من هذه الأرض سدودٌ لقناة قديمة هي الأولى التي نشاهدها

قريب. وهو عين تقذف الزفت المغلي ذا الرّائحة الكريهة بشكل مستمّر في الهواء، فيسيل ويغطي مساحة كبيرة. يسميه المسلمون بثغر الجحيم. وبسبب وجود كميّات هائلة منه، يطلي الرجال قواربهم في هذه البلاد به بسماكة بوصتين أو ثلاث حتى لا تدخل المياه إلى القارب، وتسمّى قواربهم: الدّانق».

كذلك يتّضح من كتاب «تاريخ ميرخوند» الذي ترجمه تيشيرا Teixeira، أنه قد استخدمت قدور مليئة بالقار والنّفط المشتعل أيام الخلفاء في المعارك كسلاح لكنّه غير جيّد، فإذا هبّت الرّياح في الاتجاه المعاكس، فإن الرّماة سيحترقون وليس الأعداء.

من شبكة القنوات البابليّة. وتتألف هذه السّدود من كومتين أو متراسين يمتدّان بشكل متوازٍ عبر السّهل.

في السّاعة الحادية عشرة تقريباً، نهضت فجأة بسبب توقف التَّخت لأرى بخيت وحجّي محمّد وحمادي في الخارج مع عِصيّهم ينطلقون بسرعة خلف ثلاثة من الأشخاص يعدون بسرعة فائقة. لم أكن أستطيع التكهّن بما يجري، لكنني سرعان ما رأيتهم يلحقون بالأطياف الهاربة لإدراكها والإمساك بها لكنها تفرّقت، ثم قبض حجّي محمّد على أحدهم وطرحه أرضاً وانضمّ إليه الآخرون وأخذوا يضربونه بشدّة، وعندما ركضت باتجاههم لإيقاف العنف، كفّ الرّجال عن الضرب، لكن حجّي محمّد استمر في مهاجمة الشّخص ولكمه، ثم أمسكه الرّجال وأحضروه لي. كان رجلاً بائساً على وجهه علامات المكر، وهو واحد من اللصوص الذين حاولوا سرقة أحد البغال. انطلق الدَّرَكي خلف الثاني وأحضره في الحال، وكان بائساً كالأول. لم أكن أستطيع فعل الكثير لمعاقبتهم، فقد نالوا جزاءهم، لكنني حذّرتهم وزرعت الخوف في قلوبهم عندما التقطت لهم صورة.

وبسبب هذا التأخير البسيط، لحقت بنا مجموعة كانت تسير خلفنا. تتكوّن من رجل مع زوجتيه وأطفاله، وكان الجميع يمتطون الحمير. سارت النّساء أمام شبّاك التَّخت وألقت إحداهن نظرة فاحصة داخله وكانت في غاية الجمال. لكن سرعان ما انتبه الرّجل، حيث كان يسير والمجموعة بكاملها أمامه كقطيع من الأغنام. وفي الحال استخدم عصاه لتحافظ نساؤه الصّالحات على السّير بشكل جيد في المقدمة.

وصلنا بعد برهة إلى «وَلي»[1] أو ضريح الشّيخ ويس، الذي يبدو أنه يتمتّع بتكريم خاص. جاء الرّجل الكبير الذي يتولى العناية بالمكان وطلب إكراميّة، وهو نوع من أنواع الضرائب المفروضة على جميع المسافرين. وعند الثانية تقريباً، قابلنا أحد خيّالة عرب عُنزَة، وهو الأول الذي نشاهده منذ بضعة أيام. كانت المنطقة ذات مزروعات

---

(1) كتب المؤلف: الولي في الواقع يعني «المحبوب» أو «المفضّل» من قبل الرّب، ويطلق على القديسين.

وافرة، لكن كان هناك العديد من البقع المستوية الطّينيّة الملحيّة التي تقطعها التلال الرّمليّة المملة.

بعد رحلة طويلة من المسير لمدّة عشر ساعات ونصف، وصلنا إلى الرَّمادي أو قلعة الرَّمادي، وهو مكان بالغ الأهميّة، لكونه يقع وسط واحة النّخيل. نصبنا خيامنا في ساحة كبيرة يوجد فيها بناء ضخم على أحد الجوانب وصرح مهيب هو السّراي على ما أعتقد. لقد بنى مدحت باشا المبنيين كليهما أيام ولايته على بغداد. خرج معظم سكان المدينة كالعادة فور وصولي. إنهم في غاية الفضول وبعضهم يفتقر إلى التمدّن. سمعت حمّادي يشرح لهم بأنني القنصل، وهذا يفسّر الإشاعة التي سرت في المدن التي زرتها سابقاً. سألني أحد الأشخاص فيما إذا كنت أتحدّث الفرنسيّة، ورغم جوابي بالإيجاب فقد اكتفى بذلك، لمعرفته بهذه الكلمات فقط. حضر بعد ذلك رجل من الدَّرَك وتفحّص أوراقي ورحل بعد سؤاله عن سلة القوارير التي أحملها والتي تحوي إحداها على مياه معدنيّة مسهلة، والأخرى براندي لاستعماله عند المرض. كان يريد الاستفسار إذا كنت أحمل شراباً بغرض «الكيف» kaif.

يتميّز سكان قلعة الرَّمادي بأنهم ذوو بشرة فاتحة، أما عاداتهم فتشبه سكان المدن. وهم بعيدون عن التفاخر الصّريح الذي يتمتّع به البدوي، وعن عادات سكان الدّير وعانة. لكنهم لا يلبسون الطّربوش الذي يُعدّ شائعاً جداً في حلب. أمّا قلعة الرَّمادي فهي بعيدة قليلاً عن النّهر. والماء الوحيد الذي يحصلون عليه هو من نبع في بستان مجاور ومجرى ماء. قمت بالاستحمام المعتاد فيه، وهذا ما أصاب البستاني بالدهشة. ورغم أن قلعة الرَّمادي مكان كبير فإنني لم أستطع الحصول على قطرة حليب واحدة.

للقوم هنا بعض العادات السّيئة، ومنها الجشع. والقصة أننا بمناسبة اقترابنا للوصول من بغداد، أعطيت الرّجال ما تبقّى من الأرز واشتريت لهم دجاجتين كهديّة، فما لبث أن جاء حجّي محمّد إلى خيمتي طالباً المال لشراء وقود للطبخ، فوبّخته وقلت له بأنه عليه أن يخجل من نفسه. عندها تركني وقد بدت علامات الاكتئاب على محياه.

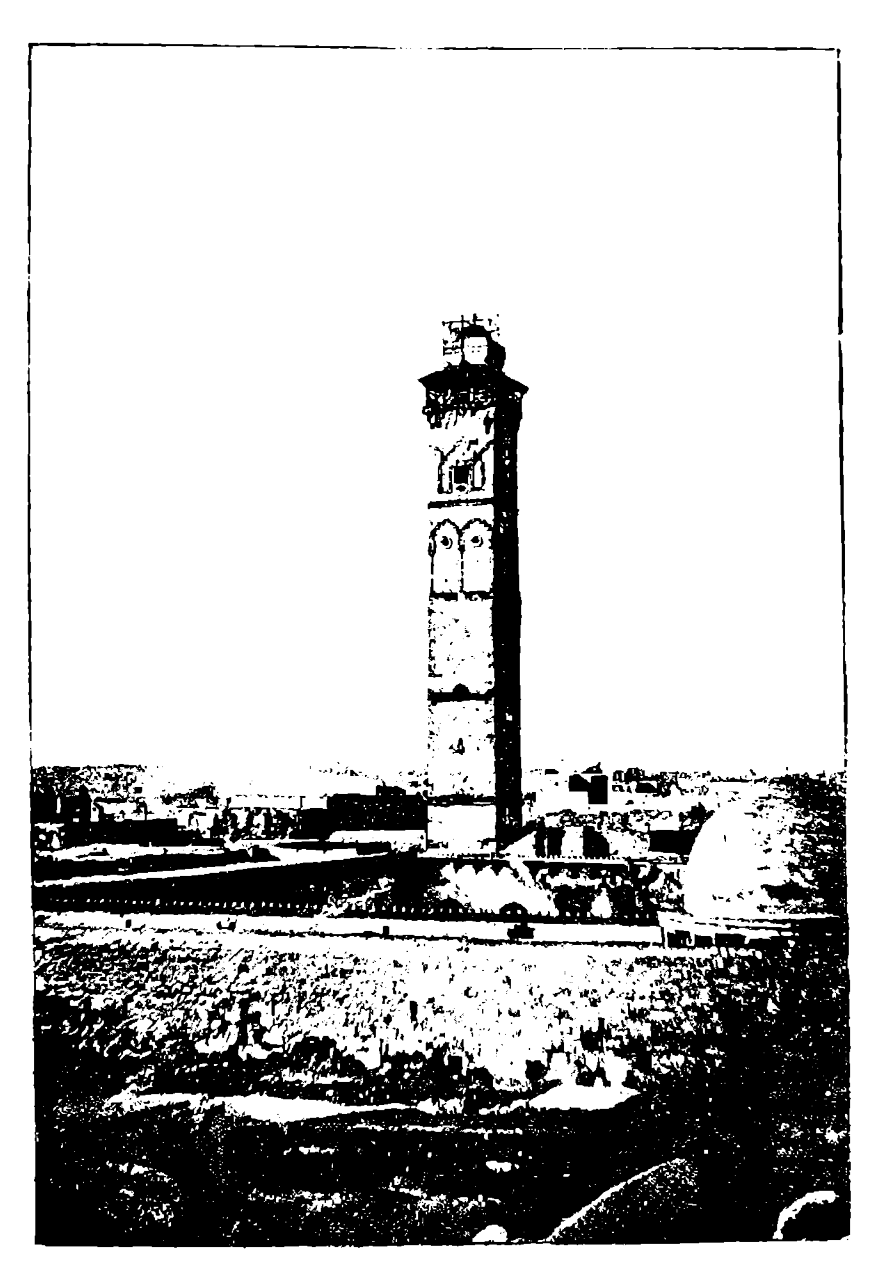
في السّاعة السّادسة ليلاً وعند أُطلق المدفع. وهنا ظهر المؤذّن فوق المئذنة بلباسه

الأبيض، تسطع عليه الأنوار من كل جهة وهو يرتّل تراتيله الجميلة، حيث تختلف التلاوة في رمضان عن الأيام العاديّة في أوقات السّنة.

في الصّباح التالي غادرنا الرَّمادي وتبعنا خطّ أعمدة التلغراف التي تربط هذا المكان ببغداد. عندها جاء حجّي محمّد ليخبرني أن القنصل البريطاني قد غادر بغداد وأن عليّ مقابلته في الفَلّوجة. لكن تبيّن فيما بعد عدم صدق هذا الخبر. وقال أيضاً إن علينا الغوص في الوحل حتى يصل إلى صدورنا. وهذا أمر رائع يتشوف إليه المرء بعد مسيرة يوم كامل.

تختلف طبيعة البلاد التي قطعناها في الصّباح عما أراه الآن. فهنا ترتفع تلال من الأوحال حتى تصل فعلاً إلى أمكنة خطرة. يبدو عليها مظهر الطّمي أو الغرين، إلا أنني شاهدت معدن السّبار يتلألأ على جوانبها. وبعد ساعتين من المعاناة غادرناها ومررنا بآثار قديمة، لعلّها هي التي ذكر أينسوورث Ainsworth أنها توجد في «صورا» Sura، التي تبعد أربعة أميال إلى الجنوب من الرَّمادي، والتي عرفها الرّومان باسم «نهر سارِس Sares» ويسمّيها بطليموس «مار سارس Maar Sares». وبعد وصولنا إلى النّهر ثم مغادرتنا له، مشينا لمدة ساعتين بين الأراضي المزروعة وتلال الأوحال حتى العاشرة، وعندما وصلنا إلى النّهر ثانية كانت تتاخمه مستنقعات الأوحال. وبالرغم من صعوبة المشي فوق الأوحال، فإنّ البغال أنجزت مهمتها بنجاح.

كنت مستاءً من تصرّف بخيت هذا الصّباح. فقد كان يرافقنا شيخ كبير معه بغل صغير، قوي لكنه غير مروّض، وكان يلقي الأحمال من على ظهره، وفي كل مرّة يحمل الشّيخ المتاع ويردّها ثانية. هذا المشهد يثير في نفسك الشّفقة على الرّجل حين تراه يسحب البغل وحمله على ظهره. فطلبت من بخيت أن يقوم بمساعدته ويضع الأحمال على أحد بغالي، لكنه أبى مدّعياً أنه يقوم بخدمتي وحدي فقط، ولا علاقة له بأيّ أحد آخر. استغربت هذه الطّباع وخصوصاً حسب خبرتي مع العربي أنه كريم، يحسن إلى الكبير والضعيف.



مسجد زكريّا في حلب

في حوالي العاشرة، وصلنا إلى مستنقع وحل قذر ومليء بالمياه الرّاكدة. وبعد التخبّط في هذا الوحل لمدة نصف ساعة، ضللنا الطّريق، لكننا وجدناه بسرعة لحسن الحظ. وقد غاص البغل سيّئ الحظ في بركة من الأوحال، فكان لا بدّ لنا من إنزال الأحمال لإنقاذه من هذه الورطة وسحبه وسط الكثير من الصّياح. وبعد نصف ساعة وصلنا إلى أرض يسكن العرب نصفها، فترى خيامهم وأبقارهم في كل مكان، والقسم الآخر مزروع. وهناك وجدنا محراثاً بدائيّاً خشبيّاً يجرّه حصانان. وعند الظهيرة، وبينما كنا نعبر جسراً صغيراً يقع على مجرى ماء للرّيّ، شعرت بهزّة مفاجئة وبدأ التَّخت يتأرجح يميناً ويساراً، خرجت فوجدت البغل الخلفي في الماء ورأسه بارز إلى الأعلى. لقد انزلق هذا الحيوان المسكين، ومن الضروري تخليصه من التَّخت ليستطيع الوقوف ثانية. كانت صرخات السّائس والمكاري في هذه اللحظة مرعبة، ولحسن الحظ فإنّ البغل لم يصب بأذى، وما لبثنا أن استأنفنا الرّحلة ولم تترك هذه الحادثة أيَّ أثر. بعدها، دخلنا في أرض من المستنقعات، وكان منظر خضرتها يدعو إلى السّعادة بعد ثلاثة أسابيع من السّير في أرض قاحلة وموحلة. وفي أحد الأماكن كان لا بدّ لنا من الخوض في بركة ماء عميقة بحيث نفذ الماء إلى داخل التَّخت. وبعد الخوض في مستنقعات أخرى، وصلنا إلى نقطة يتم فيها العبور بواسطة القوارب النّهرية إلى الفَلّوجة. يقطع النّهر هنا جسرٌ من القوارب الرّديئة عندما يكون النّهر بمستوياته الاعتياديّة، إلا أن طوفان الماء من ذوبان الثلج في أرمينيا، قد قطع الجسر إلى نصفين، وبقي كل نصف ثابتاً على الجرف من أحد أطرافه. سرنا على طول ممرّ ضيّق بني لحجز مياه نهر الفُرات (وربما يقاس مدى نجاحه من خلال المستنقعات التي خرجنا منها). استدعينا أحد القوارب، وبينما كنّا ننتظر وجدت على حافة النّهر سلحفاة كبيرة ميتة، طولها حوالي قدمين ونصف وذات درقة رقيقة، كما شاهدت عدّة قوارب مصنوعة من الأغصان المجدولة القويّة ومطليّة بالقار. وهي شائعة الاستخدام في نهر دجلة في بغداد. شكلها دائري وقطرها من ستة إلى تسعة أقدام، ويمكن للقارب الكبير حمل عشرة ركاب أو أكثر. وهي ثابتة لا تنقلب، يقودها شخص واحد بمجداف يدفعها مع مجرى تيار النّهر. أما عند العودة فتسحب على طول الضفة، حيث تستخدم

هذه القوارب فقط في الأنهار. ولهذا النّوع من القوارب ماضٍ قديم، حيث وجدت صورة لها في بعض النّقوش البارزة الآشوريّة[1].

بعد الصّياح لبعض الوقت، وصل إلينا مركب يقوده عربي لطيف قوي البنية بلحية بيضاء، يدعى العم محمّد. صعدنا مع البغال على ظهر المركب، حيث أخذت أماكنها بثبات مما يدل على أنها معتادة على هذا الشّيء. هذا وقد تمّ وضع جميع أغراضي في القارب وعبرنا بسلام. لقد كان تيّار الماء قوياً جداً بحيث اضطر سائقو المركب إلى سحبه بقوة بعكس التيار لغاية وصولنا إلى الضفة الشّرقيّة المقابلة لمكان صعودنا. كان التيار من الشّدّة بحيث أنه شكّل دوامات كبيرة داخل النّهر يمكن سماع هديرها بوضوح على ضفتي النّهر. يعبر المركب باتجاه معين، ثم يتم سحبه بالاتجاه ذاته ولكن بشكل معاكس حتى يصل إلى الضفة الثانية من النّهر. ذهب المركب في رحلة ثانية لجلب التَّخت الذي وصل بسلام على عكس توقعاتي. بلغت الأجرة الكاملة لنقل التَّخت وستة بغال وحمار وأربعة رجال مجيدياً واحداً، بالإضافة إلى بقشيش من نصف مجيدي لسائقي المركب. وصلنا إلى الفَلّوجة ووجدتها مكاناً بائساً، حيث نصبت خيمتي في مكان واسع مقابل أحد المقاهي.

تستغرق المسافة من الفَلّوجة إلى بغداد على طول نهر دجلة مسيرة يومين كاملين، وقد يجري قطعها أحياناً في يوم واحد فقط. ولأنني كنت توّاقاً للوصول إلى بغداد، فقد وافقت على مضاعفة المسير. وبعد نوم أربع إلى خمس ساعات، غادرنا في السّاعة الثانية. كان رجالي قد قطعوا قرابة عشر ساعات في اليوم السّابق معظمها مشياً على الأقدام وسيقطعون الآن أربع عشرة ساعة أخرى، إلا أن النّوم بالنّسبة لهم يبدو شيئاً ثانوياً، وكانوا يتحدّثون ويغنّون طوال الطّريق. استمرّ الجو مظلماً لعدّة ساعات أثناء سيرنا فلم أستطع رؤية الأمكنة التي نقطعها. لكن عندما انبلج الصّباح، وجدت أننا نسير في سهل عشبي جميل بعيد تماماً عن منظر الصّحراء والطرق الوعرة في

---

(1) كتب المؤلف: وصف هيرودوتوس قوارب مشابهة لها على نهر الفُرات، مكسوة بطبقة من الجلد ومصنوعة في أرمينيا.

الصّحراء العربيّة. وعلى يسارنا كانت هناك بحيرة أو مستنقع كبير تهيم على سطحه الطّيور الجميلة، وأظنها كانت طيور الإوز البرّي. وفي الواقع كان الدَّرَكي يدعوها «سَقاقلُس» "sakaklus".

لقد أحسست لوهلة أننا ضللنا الطّريق لأنه بدا لي مُبهماً، ولأن الطّريق المعشوشب الذي نسير عليه ليس فيه علامات. لم يقرّ رجالي بذلك لكنني قرّرت مراقبة خط سيرنا بواسطة الخارطة والبوصلة. ولحسن الحظ التقينا برجلٍ يحمل بندقيّةً سرعان ما دلنا على الطّريق الذي كان على يمين السّهل المزروع الذي نجتازه حاليّاً. كان الطّريق مليئاً بالشجيرات الصّغيرة والبرك المليئة بمياه الأمطار، حيث أظنها هطلت هنا بغزارة. بعد هنيهة شاهدنا تلالاً تدلّ على وجود قناة قديمة تجتاز السّهل. وبعد ساعة ونصف عبرنا ما لا يقل عن خمسة من هذه السّدود الكبيرة التي يظهر الآن بأنها تجتاز السّهل في جميع الاتجاهات بزوايا مختلفة. شاهدت بالقرب من السّدّ الثاني تلالاً منخفضة وقطعاً من الفخّار. كان كل شيء يدل على أننا دخلنا وسط شبكة كبيرة من أعمال الرّيّ القديمة التي استطاع البابليون من خلالها تحسين أرضهم من حيث الخصوبة وغزارة الإنتاج. كانت التلال التي توجد القنوات فيها كبيرة في الوقت الحالي بحيث حجبت القناة الأقرب إلينا ضفاف القنوات الأبعد. وفي الوقت نفسه الذي وصلنا فيه إلى القناة الأولى شاهدنا أمامنا مباشرة شيئاً في غاية الغرابة ذكّرني ببرج ساعة وستمنستر Westminster كما نشاهده من تل هارو Haro Hill. وكان ذلك هو البناء الفخم المشيّد بالطُّوب في السّهل الذي يبعد ستة أو سبعة أميال إلى الغرب من بغداد، ويعرف لدى العرب باسم تل نمرود أو عقرقوف.

كان هذا النّصب الغريب الرّاسخ أمامنا والذي يرتفع إلى أكثر من مئة قدم يشكل دائماً نقطة محيّرة للرّحالة ودارسي الآثار بوصفه بِرس نمرود. كان الرّحالة الأوائل يعدّونه برج بابل، حيث كتب غاسپارو بالبي Gasparo Balbi عام 1579: «قبل شروق شمس اليوم التالي سرنا بين هذه الآثار وجعلناها عن يسارنا حيث شاهدنا أجزاء من الأسوار الكبيرة المتهدّمة وأحد أجزاء برج بابل الكبير، حتى وصلنا إلى

مكادون Mascadon حيث شاهدنا أبراج بغديت Bagdet أو بابل الجديدة. وابتداءً من الفَلّوجة بدت الأرض صالحة للزراعة، إلا أننا لم نشاهد شجراً أو عشباً أخضر ولا بيوتاً أو قلاعاً، بل كان الفُطر هنا رائعاً وكان المسلمون يأكلونه طازجاً». ويقول رالف فيتش Ralph Fitch الذي سافر عبر هذا الطّريق نفسه بعد عدة سنوات: «بني برج بابل على هذا الجانب من نهر دجلة، بجهة الجزيرة العربية من المدينة (وهي بغداد التي يصفها بشكل واضح، لكنه يسمّيها بابل)، وتبعد سبعة أو ثمانية أميال حيث البرج متهدّم من جميع الاتجاهات. وقد سبّب سقوطه نشوء جبل صغير غير منتظم الشّكل. لقد تم بناؤه من الطُّوب المجفف بالشمس ووُضعت بين قطع الطُّوب عيدان وأوراق من شجر النّخيل. ليس له مدخل يمكن الدّخول منه لمشاهدة ما في داخله، وهو يقوم في سهل واسع بين نهري دجلة والفُرات». ربما يكون الأثر الوحيد الباقي لمدينة بابلية (ربما هي أكّاد) التي اختفت منها الآن جميع الآثار القديمة، والتي ربما يكون الخلفاء قد هدموها من أجل بناء بغداد. يلاحظ غراتون غيري Gratton Geary[1] أن اسم عقرقوف Akar Kuf يطلق على المكان أكثر منه على البناء بالفعل، هناك نظرية يرددها بعض النّاس تقول إن هذا البناء هو جزء من معبد بيلوس Belus. ويعتقد بَكِنغهام Buckingham وهو رحالة في غاية الذكاء أنه لا بدّ أن يكون جزءاً من بناء شبيه إلى حدّ ما بالأهرامات المصريّة، وهذه فكرة مقبولة إلى حد ما، كون الآثار المتبقية عبارة عن بناء كبير من الطُّوب الأصمّ.

كان الصّباح مشمساً لكنه لم يكن حارّاً بل يهبّ فيه نسيم عليل. وكانت الأرض التي نطؤها مليئة بالحشرات النّطّاطة من النّوع الذي يعيش على الأعشاب. والجراد الأصفر يرفرف فوق رؤوسنا باتجاه معاكس لأي شيء يعترض طريقه إلى أن يستقر فجأة على الأرض. وبين الحشرات والطيور، دخلنا أرضاً جديدة تماماً منذ عبورنا الفُرات. أخذ تل نمرود الذي نقترب منه الآن يتغيّر شكله، كما تبدو الأرض التي يقوم عليها منفصلة

---

(1) كتب المؤلف: انظر كتابه: "Through Asiatic Turkey" «رحلة عبر تركية الآسيوية» عام 1878.

تماماً عما حولها بسبب السّراب. بدا وكأنه منفصل بشكل تام حتى ولشدة دهشتي تذكرت الأقوال التي يذكرونها عن موطن العفاريت والجن في قصص ألف ليلة وليلة.

بعد اجتيازنا هذا الصّرح المهم والكثير من القنوات، أصبحنا عند الظهيرة على مقربة من كرة متلألئة تحيط بها أربع مسلات. كانت هذه القبّة المذهبة ضريح الإمام موسى الكاظم وتدعى (الكاظمين). وبعد عشر دقائق طالعتنا في الأفق شجيرات النّخيل ذات الطّول الواحد تماماً كالتي نراها في وورينغتون Warrington. كان هذا هو المشهد الأول لمدينة بغداد، مدينة الخلفاء ودار السّلام، والتي بدأت أتذكر أعاجيبها التي ذكرها المستر لاين Lane في كتابه «ألف ليلة». بقيت أفكر بها لمدة أكثر من ساعة وأنا متجه نحو الشّمال الخالي من الشّمس. وعند تلك المناظر الجميلة، رفعت البغال رؤوسها وآذانها إلى الأعلى وكأنها عرفت دار السّلام بنفس الطّريقة التي عرفها بها البشر. عندها تقدّم حمّادي بطاقةٍ متجددةٍ وحماسٍ إلى الأمام يحثنا على الوصول إلى المدينة التي لا تزال تبعد عنا مسافة أربعة أو خمسة أميال. مع ذلك فإنّ مصاعبنا لم تكن قد انتهت تماماً. وفي خلال ساعة من الزّمن وصلنا إلى مسطّح مائي كبير، شكّله النّهر، تحيط به المستنقعات. كان من المستحيل عبوره، فقد غاصت في الحال قوائم البغل الأول الذي حاول العبور وكان علينا إنزال حمولته كالمعتاد وإعادته إلى الخلف لتكرار المحاولة. ثم أخذنا نبحث عن مكان أصلب من التربة وأقل عمقاً لنقل التَّخت، حيث وجدناه أخيراً ومررنا فوقه. لقد تمَّ حملي بعد ذلك لمسافة مئة ياردة عبر مستنقع مائي، على أكتاف حمّادي وقد تدلت ساقاي فوق كتفيه وكأنني شيخ جليل، باختلاف بسيط أنني لا أملك تلك الثقة التي يتمتّع بها الرّجل الكبير المتصوّف، حيث كنت أشعر في كل لحظة أنني سأقع في بطن المستنقع. عندما وصلنا إلى النّهاية، قال حمّادي كسندباد: «انزل على مهلك»، لكنني لم أرفسه كما فُعل بالسّندباد إنّما ترجّلتُ بسرعة. ثم طلب حمّادي فيما بعد بعض النّقود كبقشيش لأنه يريد إقامة وليمة من لحم الضأن لزوجته عند عودته بمناسبة العيد. وقد أجبته: «بُكرة»، لأن غداً سيتم توزيع الهدايا قبل نهاية الرّحلة. بعد ذلك دخل البغل سيّئ الحظ إلى المستنقع وكالعادة غاصت قوائمه

في الوحل حتى وصلت إلى إبطيه، وكان علينا إنزال حمولته ودفعه كالسابق.

كانت هذه الأحداث بقدر إثارتها مزعجة، وخصوصاً أنه بقي لدينا ميلان للوصول إلى الكاظمين. والأمر يبدو أشبه بالوصول إلى بابل (بالأحرى بغداد) على ضوء شمعة كما تقول القصيدة. بالإضافة إلى هذه المعاناة، لم يكن لدي ماءٌ عذبٌ طوال تسع أو عشر ساعات مرّت ولم تكن لدي الجرأة للشرب من مياه البرك الرّاكدة. أصبحت الآن بساتين النّخيل ومدخنة معمل الخبز تطلّ أمامنا، كما أصبحت على مرأى النّظر بنايةٌ أو بنايتان طويلتان وهيكلٌ غريب مستدق الشّكل هو ضريح الملكة زبيدة. لقد وصلنا إلى الضواحي الغربيّة للمدينة. ترجّلنا عن الحيوانات، وقال أحد الرّجال إن المرور فوق الجسر سيأخذ بعض الوقت، لذلك تبعت حجّي محمّد إلى الأسواق في دوامة لا تنتهي من الحوانيت والمساجد الصّغيرة والشّوارع الفرعيّة المزدحمة بأشخاص بملابس غريبة، حتى وصلنا إلى طرف جسر يشبه جسر الفَلّوجة. وهنا صعدنا في أحد القوارب حيث سار بنا مع مجرى التيّار نحو دار المقيميّة البريطانية. وعندما اقتربنا من المكان، انطلقت فتاة صغيرة بشعر أشقر نحو ذراعي حجّي محمّد وقد غمرت العواطف هذا الرّجل الخشن الذي يعمل مع حيوانات القوافل ويدخّن الغليون. وعندما انتهى العناق الأبوي، قبّلتْ يديّ وأعطيتُها البقشيش. ثم استقبلني العقيد موكلر Colonel Mockler المقيم البريطاني بكل لطف وعرض عليّ الإقامة عنده، حيث جهّز لي غرفة رائعة مزيّنة على الطّراز العجمي، بينما أعدّ لي الخدم الهنود الحمّام وأنزلوا أمتعتي. لقد قطعنا مسافة لا تقل عن مسيرة أربع عشرة ساعة منذ انطلاقنا هذا الصّباح. لذلك كنت في غاية الإنهاك والتعب، فألقيتُ نفسي على كرسي لم أجلس على مثيله لثلاثة أسابيع مضت.

* * *

الفصل التاسع

بغداد

موقع المدينة - مزايا الموقع - أسوارها وأبوابها المتهدّمة حاليّاً - المواقع القديمة في الثكنات - الشّوارع - البيوت - هندسة الدّار البريطانيّة - السّراديب - المقاهي - الأسواق - التسوّق في بغداد - المال - المساجد - ضريح السّيّدة زبيدة.

وصلت إلى بغداد في الثاني من شهر أبريل، ولم أغادر إلى الخليج العربي حتى التاسع عشر منه، ومكثت في بغداد لمدة عشرة أيام فقط بينما استغرقت الرّحلة بين بابل وكربلاء سبعة أيام. أمضيت هذا الوقت في المدينة ولم أكن على ما يرام، فقد كنت متعباً للغاية بحيث تعذر عليّ القيام بجولة في المدينة كما كنت أتمنى. بقيت في غرفتي في دار المقيميّة وأنا عاجز تماماً عن القيام برحلة لمشاهدة مدينة بغداد الرّائعة. ونتيجة لذلك، لم تكن ملاحظاتي المدوّنة عن بغداد بالغزارة التي تمنّيت. فأنا ألتمسُ العذرَ من القارئ على اقتضاب معلوماتي عن هذه المدينة. وبالنّسبة لي فإنني أعدّها خيبة الأمل القصوى التي أعاني ذيولها الآن.

تقع بغداد، أو بَلداك Baldach كما يسمّيها ماركو پولو، وبغدات Bagdat كما يسمّيها الرّحّالون الأوائل، على نهر دجلة على بعد نحو خمسمئة وسبعين ميلاً عن الخليج العربي، إذا كان السّفر عبر النّهر، وأقل من ذلك بالقياسات البرّية. موقعها جميل، فهي تقع على جزء من النّهر يقترب من نهر الفُرات بنحو ثلاثين متراً ويرتبط معه بقناة ملاحيّة تسمى الحكلاويّة Saklawieh، وهو النّهر الملكي الوارد ذكره في

التلمود. لذلك فهي تسيطر على تجارة النّهرين العظيمين في غرب آسيا، ورغم قلة أهميّتهما في الوقت الحالي، فقد كانت لهما أهمية بالغة في العصور الغابرة، وبقي أثرهما موجوداً حتى عند تأسيس مدينة بغداد. بدءاً من هذا الموقع إلى الجنوب يفترق النّهران عن بعضهما ويلتقيان ثانية في نقطة تبعد نحو مئة ميل عن البحر، حيث يسيران سوياً في نهر كبير رائع ليس له فروع.

لموقع بغداد فوائد أخرى، فالمدينة مرتفعة عما حولها وقد تم بناؤها من آثار لمجموعة من المدن القديمة التي تهدّمت واستلزم وجود مركز سكاني كبير مكانها. تقع مدن بابل وسلوقية وطيسفون وأكّاد (التي بقي منها آثار عقرقوف) على شكل آثار واسعة في السّهل المحيط ببغداد. وكان أمام الوافدين مخزونٌ كبيرٌ من المواد تصلح لإنشاء مدينتهم.

تقع بغداد الحاليّة على جانبي النّهر (ويبلغ عرضها حوالي ثُمن الميل) مع أن الجزء الواقع إلى الشّرق هو الأكبر بشكل واضح وهو في الواقع بغداد الأصليّة. ويربط هذين الجزئين من المدينة جسر متهالك من القوارب، يبدو للعين التي اعتادت على الهندسة الغربيّة أنه غير آمن للمغامرة بعبوره أبداً. وينقطع هذا الجسر في الغالب عند موسم فيضانات الرّبيع، حيث يتم العبور بواسطة قوارب القفف أو الزّوارق البخاريّة الصّغيرة التي يديرها رجل فرنسي نشيط. وفي أوقات معيّنة من السّنة، يفتح الجسر لمرور القوارب النّهريّة الكبيرة.

في السّابق كان يحيط بالمدينة، التي تمتد على جانبي النّهر، سور من الطُّوب تمّ هدمه باستثناء برج أو اثنين وجزء عند الطّرف الشّمالي المحيط بالقلعة والثكنات أيام الوالي مدحت باشا، الذي أدّى اندفاعه لإدخال التحسينات الأوروبيّة إلى المدينة إلى إلحاق الضرر بها أكثر مما جنته من فائدة. بقيت لنا أوصاف هذا السّور في كتب الرّحّالين الذين سبقوا عصر مدحت باشا. يقول بَكِنغهام Buckingham: «لقد بني بالكامل بالطُّوب من نوعيّات مختلفة حسب العصر الذي تم بناؤه فيه». ويكون الدّفاع عن السّور بواسطة «أبراج مستديرة كبيرة في الزّوايا الرّئيسيّة مع أبراج أصغر على



مدخل قلعة حلب

مسافات متقاربة من بعضها في المسافات الفاصلة بين الأبراج الأكبر». في السّابق كان فوق هذه الأبراج حوالي خمسين مدفعاً من النّحاس الأصفر، أما في الوقت الحالي فيمكن القول إنه لا توجد أية وسيلة دفاع من أي نوع في المدينة، وتستطيع تمييز مواقع الأبراج من أكوام الرُّكام. كان هناك أيضاً نحو ست بوابات، لكن معظمها اختفى بشكل كامل أو جزئي. وفي الواقع هناك بقايا لإحداها في جنوب المدينة لكنها في وضع بائس. ويقال إن إحداها موجودة في الجانب الشّرقي وحالتها أفضل. مع ذلك تُعدّ البوابة الشّمالية الغربية هي المدخل الرّئيسي حيث يذكر أينسوورث Ainsworth أن أحد الأبواب يدعى باب الطّلسم، بناه الخليفة النّاصر ودخل منه مُراد عندما فتح المدينة. لقد جرى ترميم هذا الباب، لكنه لا يستخدم حاليّاً. وقد وصف بَكِنغهام بناءً جميلاً يحيط به برجان عاليان مزيّنان بحواف مستطيلة بنفس الطّراز الذي بنيت فيه بعض بوابات القاهرة القديمة، لكنه لم يذكر له اسماً.

خارج هذه الأسوار، هناك خندق كبير وعميق على مرأى العين، لكن لم تكن النّيّة من حفره تجميع المياه بالرغم من وقوعه في الجانب الغربي، وقد غدا الآن مستنقعاً مليئاً بالضفادع عندما يفيض نهر دجلة في فصل الرّبيع. لكن هذا هو حاله في هذا الوقت من السّنة فقط.

توجد في هذه المساحة الكبيرة من الأرض الخالية الآن بعض الأبنية. ويقال إن أكثر من نصف هذا المكان المحصور بالأسوار هو أرض خالية وغير مستعملة لأي غرض كما هي في الجانب الجنوبي، حيث تشغلها بساتين النّخيل. دفع هذا الأمر البعض إلى تشبيه بغداد بالمقاطعة المسوّرة كمدينة بابل، لكنه بالطبع تشبيه غير صحيح لأن الأمكنة الخالية داخل أسوار بغداد تعود إلى تدهور التجارة وتضاؤل حجم المدينة بسبب الحروب والأوبئة التي غزت المنطقة وأدّت إلى تناقص عدد السّكان ولم تكن أبداً ضمن تصميم المدينة الأساسي. وفي الحقيقة لا شيء يشهد تماماً على مرحلة الشُبات التي تمر بها دار السّلام وموئل الأولياء أكثر من هذه المنطقة الجرداء داخل أسوارها. لقد صغرت المدينة وانكمشت كنواة جوزة جافّة قديمة.

يتكوّن الجزء المسكون من الحي الرّسمي والسّراي والثكنات والأسواق أو الجزء التجاري والشّوارع الخالية من الحوانيت، وقد تم بناؤها كلها بالطُّوب حيث لا تستعمل الحجارة في البناء أبداً في بغداد. في أحد الأيام سرتُ نحو الثكنات والقلعة المحاطة بالسور القديم الذي يحتوي على بعض الأبراج الصّغيرة المتهالكة وقد انتصب برج كبير أمام السّور كجزء من التحصينات الخارجيّة. يوجد في المدينة مستشفى وسجن وثكنات، تحوي الآن عدّة مدفعيّات (أظنها ثلاثاً) وقد استرعى انتباهي مجموعة قديمة من المدافع، بالإضافة إلى مدافع هاون برونزيّة. كان أحدها بحجم كبير وأظنه عجمياً، مزيّناً على سطحه المستوي بنقوش كثيرة. بينما تحوي بعض الأجزاء، التي تعرف تقنياً بالمسند الدّاعم والماسورة، أشكالاً لرجل يقود حصاناً ومنظر صيد الأسود. لا بد أنه قد تم الاستيلاء على هذه القطع من العجم بعد فتح المدينة على يد السّلطان مُراد الرّابع عام 1638.

تدعو شوارع المدينة إلى الملل، فهي ضيّقة وملتوية وغير معبّدة، مسدودة في جهتيها بسور من القرميد الأصمّ الذي لا يقطع رتابته سوى أبواب كئيبة المنظر يتم الدّخول من خلالها إلى البيوت. تستطيع رؤية بعض العربات لكن شوارع بغداد الضيّقة لا تسمح بمرورها فيها. وإن رائحة الشّوارع كريهة، لذلك فهي لا تغريك بالسير فيها واستكشافها. أما الطّرقات العامة في المناطق المهمة، كتلك التي تؤدّي إلى السّوق من ناحية الجنوب، فهي أقل سوءاً من غيرها. إنها واسعة يتخللها بعض المقاهي وفيها بعض البيوت التي يسكنها مسيحيون موسرون وأوروبيون. وهي حسنة التهوية باحتوائها على شبابيك وأبواب، لكن معظمها يفتقر إلى فن العمارة والإثارة. عند مرورك بهذه الشّوارع، لا بد للمآذن الخضراء والزّرقاء أن تسترعي انتباهك، ولكن ما إن ترفع ناظريك لمشاهدتها حتى تتعثّر بكلب ميّت أو تُسحق على الجدار من قبل حمار يحمل قِرب المياه الجلديّة المتّسخة.

لم أرَ الكثير من البيوت لكوني غريباً عن المدينة، لكنني استطعت تمييز بعض البيوت ذات الطّراز العجمي والمزودة بفناء داخلي. أما دار المقيميّة البريطانيّة، فتقع

على نهر دجلة إلى الجنوب من المدينة وهي مثالٌ جيدٌ لهذا الطّراز. هي بسيطة من الخارج، يتم الدّخول إليها عبر باب تدخله مباشرة من الشّارع الضيّق وسرعان ما تجد نفسك وسط فناء جميل يحيط به مبنى من طابقين. يسكن الخدم في الطّابق السّفلي، وفيه بعض المكاتب ومكتب البريد البريطاني. أما الطّابق العلوي، فله شرفة مفتوحة حوله تستند إلى أعمدة خشبيّة ذات رؤوس مزخرفة جميلة. والغرف المفتوحة على هذه الشّرفة هي للاستقبال أو النّوم وبعضها مزخرف بأنماط جداريّة خاصة ببغداد وبلاد العجم. لقد حصلت على غرفة النّوم الرّئيسيّة، وهي تستحق بعض الوصف. إن تصميمها الأساسي على شكل حرف T، والجدران في نصفها السّفلي مبنية بالحجر الأبيض الأملس بينما تغطي طبقة من الكلس القسم العلوي منها. هناك كوى صغيرة مزخرفة على الجدران تفصل بينها مرايا تملأ المكان بتصميم جميل. أما جدار الطّرف البعيد من الشّكل T فهو مبني بالحجر وعليه تشكيلات من المرايا التي يمكن تمييز بعضها بكونها مزهريّات ونجوم وزخارف حلزونيّة. أما السّقف فقد زُيّن بأشكال معيَّنات من المرايا ذات الحواف الكلسية. وكان الجزء الأمامي من الغرفة مدعّماً بعمودين وتاجين من الحجر. يترك هذا المكان لديك انطباعاً جميلاً لمظهره الهادئ، وهو متلائم حقاً مع طقس بغداد. لم يكن البناء قديماً جداً، لكن أسلوب تزيينه متميّز للغاية، ومن الممتع معرفة تاريخ بداية العمل بهذا الأسلوب من التزيين. أما السّمتان الأساسيّتان الموجودتان في أغلب بيوت بغداد فهي السّراديب والسّقوف المستوية، وتُعدّان من الضروريّات في مثل هذا الطّقس. فالأولى غرف معيشة مبنيّة تحت الأرض، فيها بعض النّوافذ لمرور الضوء، وهي بنفس أسلوب شبابيك الأقبية في البيت اللندني. تُعدّ الحرارة في بغداد اعتباراً من شهر مايو لغاية شهر سبتمبر مرتفعة إلى حد يضطر البعض إلى السّكن في غرف تحت الأرض، في حين ينامون في الليل على السّطوح المستوية. لكنهم يستيقظون في الصّباح الباكر قبل ارتفاع حرارة الشّمس، حيث يعودون إلى داخل السّراديب. ترتفع درجة الحرارة في بعض الأحيان إلى 120 درجة فهرنهايت في الظل، لذلك لا بد من فهم هذا الأسلوب في العيش. وعلى الذين يودّون المغامرة والخروج، فعليهم القيام بذلك باكراً في الصّباح أو في وقت متأخر

من المساء. الشّمس في بغداد حارقة ولا يمكن أن تكون بهذه الحدة في أي مكانٍ في العالم. ومع ذلك فإنّ الثلج والجليد ينتابانها في فصل الشّتاء.

إلى الجنوب من المدينة، تطل أفضل بيوت بغداد على النّهر. يملك بعضها تجّار أثرياء من الأوروپيين، ورغم أنها حديثة البناء، فهي مبنيّة على الطّراز القديم رباعي الزّوايا. تحوي العديد منها على حدائق جميلة تشرف على ضفاف دجلة، وهي تُعدّ أماكن ممتعة للعيش لأنه ما من إدارة تركيّة سيّئة تستطيع تحويل هذا النّهر المهيب إلى شيء قبيح. وفي الواقع تستطيع تمييز بيوت الأوروپيين من بيوت الأهالي بسبب الزّخارف الجميلة على النّوافذ والأبواب.

أما المقاهي في بغداد، فلها سمة خاصّة. إنها تشبه إلى حدّ ما نوادي لندن، وهي موجودة في كل مكان. يشرف العديد منها على ضفاف دجلة، في حين توجد الأخرى في الأسواق والشّوارع الرّئيسيّة المليئة بالمارّة. ويقصد بعضها الآخر الباحثون عن الهدوء، حيث تقع قرب بستان نخيل في ضواحي بغداد. وجميعها تتمتّع بالتصميم ذاته، فهي عبارة عن قاعات طويلة مفتوحة الواجهة، تستند إلى أعمدة خشبيّة بتيجان مزخرفة. وفي الدّاخل مقاعد خشبيّة طويلة يجلس عليها النّاس بوضع القرفصاء وهم يدّخنون نرجيلاتهم ويشربون قهوتهم ويناقشون أمور الحياة. وفي شهر رمضان يصوم المؤمنون في النّهار، أما عند غروب الشّمس، فترى هذه المقاهي مضاءة والنّاس مستعدّون للمرح بعد الإفطار.

تقع الأسواق، التي لا يميّزها أي شيء عن سواها، في الجانب الشّرقي من المدينة وتمتدّ شمالاً وجنوباً مشكلة الشّوارع الرّئيسيّة للمدينة. إنها أسواق طويلة واسعة ومستقيمة على غرار الأسواق في المدن العربيّة، وأغلبها مغطى بسقوف من العوارض الخشبيّة والقماش والحصر، لكن بعضاً منها مسقوفٌ بالأقواس أو قناطر من الآجر. ورغم اتساعها فهي تفتقر إلى النّظافة وهذا أمر غير ملحوظ في أسواق حلب والقاهرة. وبصورة عامة، تتخصّص الأسواق بتجارة نوع معيّن من السّلع، فهناك أسواق عديدة للنعال والسّروج. وفي أحد الشّوارع الصّغيرة يعرضون الأحزمة فقط، التي يضعها

الرّجال والنّساء والأولاد، وهذه سمة خاصة تميّز بغداد. هناك بعض الأحزمة الرّائعة التي حيكت بدقة بخيوط ذهبيّة أو فضيّة، وثمن الواحد منها حوالي سبعة أو ثمانية شلنات، بينما ينخفض ثمن الأنواع العاديّة الأخرى. وهناك شارع آخر يحوي أعمدة خشبيّة بتيجان مزخرفة، التي لاحظت استعمالها في دار المقيميّة البريطانيّة وعدد من المقاهي.

ولكون مدينة بغداد على اتصال مع العالم الخارجي، فإنّ أسواقها مليئة بالسلع الأجنبيّة، فترى البضاعة الهنديّة التي تأتي عبر الخليج من بومباي. وتشاهد أيضاً أقمشة مانشستر الشّائعة أيضاً في أسواق حلب. كما تستورد المرايا والمصابيح والأدوات المعدنيّة وكميات كبيرة من أقماع السّكّر وكلها قادمة من فرنسا على ما أعتقد. لكنك لا تجد حانوتاً أوروپيّاً تماماً في المدينة، وهذا شيء غريب إلى حدٍ ما بينما تجد حانوتاً ممتازاً في بوشِهر ببلاد فارس على الخليج العربي. وجدت حانوتاً في شارع فرعي يديره أحد المشرقيين، يبيع فيه البضائع الأوروپية والخمور والبيرة. وهناك أيضاً عدد لا بأس به من دكاكين العطارين، لكنها قليلة مقارنة بتلك الموجودة في القاهرة، وهي هنا في وضع سيّئ. أما التبغ فمحتكرٌ من قبل الحكومة، لكن السّعر المطروح في السّوق أعلى من سعر الحكومة الأصلي. والتبغ الجيد يأتي من صَمسون، حيث تضاف كلفة الشّحن على السّعر. تشاهد أيضاً بعض المنسوجات الشّرقيّة الجميلة، لكن على المرء توخّي الحذر قبل المغامرة بالشراء، وهي بمعظمها بضاعة عجميّة.

وبما أنني أتحدّث عن موضوع الأسواق والتسوّق، فلا بد من ذكر الصّعوبات التي تواجه الرّحالة قليل الإطلاع عندما يريد التسوّق في بغداد. هناك كمرحلة أولى معاملة خاصّة ضد جميع السّيّاح الأوروپيين. فحالما تظهر قبعة أحدهم عند مدخل السّوق حتى يرتفع سعر كل السّلع، من پاوند الزّبدة إلى الآثار البابليّة. فالسائح الذي يعتقد أنه سيحصل على مشتريات بثمن زهيد، هو مغفل حقاً لأنه سيخرج دون شك كشاة تم ذبحها. وأود هنا إعطاء نصيحة حول الموضوع للرّاغب بالتبضّع في «دار السّلام وموئل الأولياء»، سواء أراد شراء التحف النّادرة أو السّجّاد أو غير ذلك. إن

الطّريقة الفضلى هي الذهاب إلى السّوق برفقة أحد الأهالي والأفضل إرساله بمفرده لتدقيق أسعار السّلع قبل شرائها. ثم يرسل في طلبها إلى البيت بعد يوم أو يومين، وبذلك يمكن الحصول على الأشياء بسعرها الحقيقي تقريباً. أما أن تظهر وتشتري شخصيّاً السّلع المعروضة بثمنها العالي فستلحقك خسارة كبيرة. وهذه هي الحال في كافة الحوانيت في كافة أنحاء المدينة. هناك تاجر واحد يبيع التحف يدعى علي الكردي، وقد زرت حانوته مرّات عديدة لشراء بعض الحاجيات البسيطة. لديه العديد من الآثار والتحف المتنوعة، من آثار بابليّة ومنسوجات وأسلحة فارسيّة وتقريباً كافة أنواع التحف الشّرقيّة. اشتريت منه شيئاً هاماً هو أسطرلاب عجمي جميل منقوش بشكل رائع ويعود إلى القرن الماضي (الثامن عشر) وهو الوحيد الذي حصلت عليه بسعر زهيد لأنه يجهل فوائده. وكما هو الحال عند معظم التجار، فهو لم يعرض أمامي أفضل ما عنده لأنه وجدني أعرف شيئاً عن أسعارها. أما فريسته الكبرى فهي السّائح الأميركيّ الذي يملك عين جامع التّحف وجيب المليونير.

يُعدّ التعامل بالنّقد مشكلة كبيرة للوافد الجديد الذي يرغب بالذهاب إلى السّوق. فهي متعددة الفئات والكثير منها معدني بحيث يصعب استيعاب الموضوع بشكل تام. وسعر السّوق مغاير لسعر الصّرف في الدّوائر الحكوميّة، لذلك يجد المسافر القادم من الشّمال صعوبة في تحويل العملة. فثلاث ونصف من العملة المعدنيّة في حلب (على ما أذكر) تساوي قرشاً واحداً أو متاليك metalik ويدعونها هنا بـ «القرش» فقط، وتتأرجح قيمة هذه القروش يومياً. ونتيجة لذلك فإنّ السّائح الاعتيادي لا يمكنه أن يبرم صفقة من أي نوع دون أن يكون ضحيّة للغش بشكل أو بآخر. أما المقيمون الإنكليز الذين هم من أصل أنكلو - هندي فيقومون بجميع تعاملاتهم بالرّوبيّة الهنديّة التي تُعدّ مقبولة في كل مكان. كذلك يجري التداول بالذهب الأوروبي والعملات الفارسيّة.

تعدّ المساجد في بغداد شيئاً مخيّباً للآمال. فالمرء يتوقع أن يجد الآثار العظيمة العائدة إلى عصر الخلفاء وهي لا تزال في وضعها الحالي من البناء. لكن لا يوجد في

بغداد أي مسجد أو بناء يستحق الذكر، وهذا شيء غريب نظراً للشهرة الكبيرة للمدينة في العصور السّابقة. ونحن لا نستطيع إرجاع ذلك إلى الهزّات الأرضيّة كما في حلب، والتي أدّت إلى قلة آثارها ومبانيها القديمة. لكن لا ريب أن السّبب في ندرة الآثار يعود إلى استخدام الطُّوب الهشّ بدلاً من الحجارة القاسية غير القابلة للتفتت.

لقد قدّم الرّحالون أرقاماً عن عدد الجوامع في المدينة، ولا بد أنها كانت كثيرة في وقت معيّن. لكن في الوقت الحالي فأشك في إمكان إحصاء أكثر من عشرين إلى ثلاثين جامعاً، بالإضافة إلى وجود عدد من المآذن والقباب التي لا تتمتّع بالأهمية الفائقة.

يتميّز الطّراز الخارجي للجوامع في بغداد بأنه من الفن العجمي. فالقباب والمآذن مكسوّة بالطُّوب على شكل دوائر ملوّنة بالأزرق والأخضر والأبيض، أو أشكال معيّنات أو خطوط وكتابات بما يثير في النّفس البهجة والشّعور بالجمال. لكنها على الرّغم من ذلك تفتقد إلى الدّقّة في التصميم والاستقامة بحيث تضيع جماليّة الخطوط بشكل كبير، مما يلفت نظر المشاهد مباشرة. وربّما كان السّبب في ذلك عائداً إلى قلة المهارة اليدويّة في البناء.

إن المئذنة الهائلة التي تقف بثبات قرب السّوق، هي كل ما تبقّى من جامع سوق الغزل[1] "Jamah Suk el Ghasil"، الذي يقال إنه كان الجامع الرّئيسي قديماً في بغداد. هو مبني بالطُّوب لكنه في الوقت الحالي غير مزخرف بالطُّوب الملوّن مما يدل على أنه قد تم إزالته بالكامل. يعطينا بَكِنغْهام Buckigham وصفاً مفصلاً لهذه المئذنة بشكل دقيق. ولدى نيبور نقوش منها نسخها له الملّا تقول إنه قد تم بناؤها من قبل

---

(1) هو جامع الخلفاء، بناه الخليفة علي المكتفي بالله لكي يكون المسجد الجامع لصلاة الجمعة في شرقي القصر الحسني، وكان يعرف بجامع القصر، ثم أطلق عليه اسم جامع الخليفة، وسمي بجامع الخلفاء في الفترة الأخيرة، وهو من معالم بغداد التاريخية. تم بناؤه في عام (289-295 هـ، 902-908 م)، وذكره الرّحالة ابن بطوطة عند زيارته لبغداد علم 727 هـ، 1327 م. وهو يقع في محلة سوق الغزل قرب الشورجة، ومنارته من المآذن التاريخية المتميزة بعمارتها، وهي الأثر المعماري الوحيد الباقي من دار الخلافة العباسية ومساجدها.

الخليفة المستنصر عام 633 للهجرة. وغالباً ما يصعد الأوروپيّون على هذه المنارة لمشاهدة المدينة. وفي أحد الأيام كنت برفقة ضابط إنكليزي شاب بقي فيما بعد في بغداد، وقوّاص القنصل، وخادمي، فأعربت عن رغبتي بالصعود إلى المنارة، حيث علمت أنّ ذلك ممكن. ذهب القوّاص للبحث عن الحارس وجلب المفتاح، وفي أثناء ذلك تجمّع عدد كبير من النّاس حولنا بحالة من الهياج التي تدعو أحيانا إلى الشّعور بالخطر، فقرّرنا عدم الصّعود. وفي الآخر وصل القوّاص قائلاً إنّ الحارس لم يتجرأ على إعطائه المفتاح بوجود هذا الحشد الكبير من البشر، ولهذا تم إلغاء هذه الفكرة. من العسير حقاً معرفة السّبب الرّئيسي لمنعنا من صعود المنارة التي ليس لها جامع، والتي يُسمح عادة للأوروپيين بصعودها.

أما جامع الميدان فموجود في الميدان الواسع الموجود في الجزء الشّمالي من المدينة.

ومن بين الجوامع الأخرى التي استحوذت على انتباهنا، الخاصكة والمرجميّة والوزير (بالقرب من الجسر) وجامع عباس القادر. وقد قام بوصفها بَكِنغهام في كتاب «رحلات في بلاد الرّافدين».

وإلى الشّرق من جسر القوارب، تقع البقية الباقية مما كان يعرف بالمدرسة المستنصريّة التي كانت بمثابة كليّة جامعيّة. ولم يبق شيء منها عدا عن كتابة طويلة بالخط الكوفي تقول بأن الخليفة المستنصر قد قام ببنائها عام 630 للهجرة، وهي تشبه إلى حد بعيد كليّة الجامع الأزهر الكبير في القاهرة.

قمت أيضاً بزيارة ضريح السّيّدة زُبيدة زوجة الخليفة هارون الرّشيد بعد وصولي إلى بغداد بيوم واحد. عندها اجتزت النّهر مع أحد قوّاصي دار المقيميّة البريطانيّة، وبعد عبور الأسواق والشّوارع المزدحمة، وصلت إلى هذا الضريح الفريد المشيّد في مكان مفتوح. يوجد حوله عدد من الأضرحة المتواضعة، وهو يتكوّن من بناء مثمّن مبني بالآجر والجص، ومزيّن من جوانبه الأربعة بألواح تحوي السّفلى منها على أواوين ذات أقواس ومزخرفة بالآجر المصنّع وفق أشكال هندسيّة. ومن قمة

القاعدة، يرتفع مخروط بارتفاع سبعين قدماً وقد سقطت قمّته. أما الجزء الباقي فمزيّن بزخارف من نوع خاصّ لم أرَ ما يشبهها في فن البناء العربي من قبل. يتم الدّخول إلى المبنى بواسطة فسحة خارجيّة عبر بوّابة ذات قوس، وينفتح الدّاخل على قمة الشّكل المخروطي المزين بالزخارف الجميلة. وفي الأمام ثلاثة أضرحة بسيطة من الآجرّ، يضم أحدها رُفات زوجة حسين باشا، التي دفنت عام 1131 للهجرة، وقد قام الأخير بترميم الضريح لاحقاً. وهناك أيضاً نافذتان صغيرتان في الشّكل المخروطي لتأمين إضاءة الصّرح.

قادنا سلّم دوّار بغاية الانحدار إلى قمة القاعدة في الخارج، والتي تبلغ نصف الارتفاع الكامل للمبنى. ويحيط بالقبة ممرّ، لكنه مهمل بشكل كبير. ومن هذا المكان استطعنا مشاهدة البلد بما فيه من تلال عقرقوف والكاظمين وعدد كبير من المنارات والقباب.

إذا كان هذا النّصب حقاً للسّيّدة زُبيدة التي توفيّت عام 830 م، فإنه في الواقع شيء مثير للغاية. لكنه تعرض لعمليّات ترميم في أوقات متعاقبة حديثاً، وبهذا تجد الزّخارف الفنيّة التي لم تكن موجودة في العصور القديمة والتي لم تُستخدم في المباني الأقدم. فمثلاً لا تجد في جامع ابن طولون بالقاهرة، الذي تم بناؤه بعد سنوات من القرن ذاته، أيّة أعمال زخرفة باستثناء المحراب المبني باتجاه مكة، وربما تكون هذه الزّخرفة قد استُحدثت فيما بعد. وتوجد على هذا الجانب من النّهر أضرحة أخرى لها أشكال مخروطيّة. وقد خُصّص لواحد متميز منها فصل في كتاب غراتون غيري Gratton Geary «رحلة عبر تُركية الآسيويّة»[1]. وإنه لمن الصّعب التصديق أن هذه المخاريط المستدقة والنّحيلة قد بقيت عبر هذه العصور لألف عام بهذه المتانة، في حين اختفت الآثار الأكثر متانة في بغداد القديمة. ومن المحتمل جداً أن يكون ضريح السّيدة زُبيدة

---

(1) كتب المؤلف: قارن ذلك بضريح روبين ابن يعقوب أو رواح علي قرب نهر كارون. وُصف نقش منه في كتاب كُرزون «بلاد فارس» المجلد الثاني ص 344. كما يصف بَكِنغهام في كتابه «رحلات في بلاد الرّافدين» مباني مماثلة في الحلّة.

(إن كان فعلاً يحتوي على رفات هذه السّيدة) قد بني في فترة لاحقة ولا يستحق الكثير من الاهتمام.

عدتُ إلى المقيميّة بواسطة قارب القفّة. وحتى نمرّ بسلام أسفل الجسر، كان من الضروري أن نجثم في قاع القفّة مع خفض رؤوسنا، بسبب كون التيار الذي يحملنا في غاية القوة، ومنعاً لضربها بعوارض الجسر الخشبيّة.

* * *

الفصل العاشر

المزيد عن بغداد

الكاظمين - ترامواي بغداد - جامع الإمام موسى الكاظم - مناراته وقببه المذهّبة - سكان بغداد - الوباء - العرب - اليهود - وصف بنيامين التَّطيلي لليهود - الأرمن - الكنائس المسيحيّة - المناخ - الصّادرات - الوضع الرّاهن - رمضان - فندق بغدادي - حبّة العمر - يوسف أنتيكا - الاستعداد للرّحيل إلى كربلاء وبابل.

لا شك أن المكان الأجمل قرب بغداد هو ضاحية الكاظمين بجامعها المهيب الذي يعدّ واحداً من ثلاثة أماكن مقدسة للزّيارة عند الطّائفة الإماميّة المسلمة غرب نهر دجلة. ويقال إن رفات الشّهيدين الإمام موسى الكاظم (أي الصّبور) والإمام التقي موجودة هنا. والكاظم هو الإمام السّابع، وقد قتل على يد الخليفة هارون الرّشيد بسبب مؤامرة مفترضة عام 185 للهجرة. والقرية التي نشأت حول الضريح يسكنها الإماميّة والعجم، وهي ترتبط مع بغداد بواسطة الترامواي، وهذا المشروع هو أحد المشاريع الإصلاحيّة لمدحت باشا. وباستثناء حمولته الغريبة من الرّكاب ومحيطه المختلف، فإنّ عرباته تشبه عربات خط الترام الإنكليزي. تبعد القرية عن مدينة بغداد حوالي أربعة أميال، لذلك يُعدّ الترامواي نعمة كبرى لسكان الكاظمين. رغم أن قيامك برحلة مماثلة داخل بغداد تحرز نجاحاً عظيماً.

تشتهر الكاظمين، كمشهد الحسين (كربلاء) ومشهد علي (النَّجَف) بالتَّزمّت الشّديد. وفي الحقيقة فإنّ المشاعر في هذه المناطق الثلاث آخذة بالتضاؤل. مع ذلك

وإلى هذا اليوم لا يسمح للمسيحيين والأوروپيين بدخول هذه الصّروح الدّينيّة، ولا ينصح أي مسيحي بالنّظر بإمعان داخل هذه الأبنية الجميلة. وإن السّائح الإنكليزي أو الأميركي الذي يحمل دفتر ملاحظاته ويدوّن شيئاً عنها لا يلقى إلا المعاملة السّيئة. وفي وقت ما في السّابق حاول أوروپي تصوير مشهد الحسين في كربلاء، فتلقّى بسبب ذلك ضرباً مبرحاً. وبالمقابل فالإنكليزي الذي يتصرّف بشكل منطقي سليم، يلقى المعاملة الحسنة سواء من المسلمين الإماميّة أو من غيرهم. والحقيقة هي أن المشاعر القديمة المناوئة للمسيحيّن والإفرنج آخذة بالتضاؤل والانحسار شيئاً فشيئاً. يعود هذا إلى عدّة أسباب منها: الحكم البريطاني للهند حيث يوجد الكثير من الإماميّة، وإلى التعامل المتطور بين الشّرق والغرب، وإلى البصيرة الثاقبة للطبقة العليا من العجم، الذين يعلمون أن الشّرق يبقى شرقاً والغرب يبقى غرباً، ولا بدّ لهما من تبادل الحضارة والتجارة سعياً وراء تحقيق التقدّم والازدهار.

زرت الكاظمين برفقة الدّكتور شو Dr. Shaw الذي عُيّن كملحق بدار المُقيميّة البريطانيّة مؤخراً. عبرنا جسر القوارب وأخذنا مقاعدنا الحديديّة فوق عربات التّراموای، وكانت في غاية السّخونة لأن الشّمس تسفعها دوماً. امتدَّ الطّريق على محاذاة النّهر، وبعد نصف ساعة من الزّمن دخلنا إلى بساتين النّخيل. وبعد ذلك مباشرة ترجّلنا وسرنا داخل سوق مكتظّ بسكان من العجم حيث قادنا القوّاص إلى بيت شخص كان في السّابق كاتباً في دار المُقيميّة. صعدنا السّطح لنلقي نظرة على الجامع، فاستقبلنا صاحب الدّار بلطف، وهو رجل عجمي يدعى السّيّد حسن، تعرّفت إليه في دار المقيميّة، حيث عرض عليّ بكرم بالغ زيارة بيته في كربلاء عند زيارتي القادمة إلى هناك، وكنت أود فعلاً القيام بها في وقت قريب. عندما صعدنا إلى السّطح لمشاهدة الجامع، وقع نظرنا على مشهد جماله منقطع النّظير. كان جامع الإمام موسى الكاظم أمامنا بسوره الشّامخ المتين الذي يقال بأن له سبع بوابات أو مداخل. وفي الواجهة يقع الجزء الأعلى من أحد أبوابها (وأعتقد أنه الرّئيسي). وهو بناء جميل مهيب، وقد نُقشت عليه الآيات القرآنيّة والزّخارف المتنوّعة. وفوق المدخل هناك تزيينات جميلة من الصّدف.

وخلفه مباشرة ترتفع قبّتان مهيبتان وأربع مآذن طويلة وبالقرب منها أربع أصغر لها زوايا المآذن الرّئيسيّة ذاتها. أما القباب فترتفع فوق الموضع على قاعدة دائريّة تتوضع فوقها، وقد كُسيت بالكامل بصفائح مربّعة من النّحاس المطلي بالذهب مما جعلها تتلألأ تحت أشعة الشّمس بوهج ساحر، وقد نالت المنارات كسوة مماثلة. أما مكان وقوف المؤذن فقد نال النّصيب الأكبر من الزّينة الآجريّة، وشُرفته تستند إلى أعمدة مذهّبة كالعمود الذي يعلوها ويحمل الجوزة المضلعة التي يسندها. والمنارات تعلو بوقار فوق القباب بأناقة عالية. وكما هي العادة في منارات بغداد، فإنّ لإحداها انحناء خفيفاً عند موضع المؤذن. والمنظر العام في غاية الرّوعة، لا يعكره شيء سوى برجي السّاعتين اللذين تم نصبهما مؤخراً أحدهما قبالة القبّتين والآخر عن يسارهما.

بمناسبة الكلام عن زخرفة الجامع، فقد أخبرني مضيفي أن الصّفائح المعدنيّة المستخدمة في الزّينة هي من الذّهب الخالص، لكنني ارتبتُ في صحّة هذا الأمر كون تذهيب هذه المساحات الكبيرة يكلّف أموالاً طائلة، بالإضافة إلى أن بعض هذه الصّفائح قد اسودّت بالنّسبة إلى مثيلاتها، مما دعاني إلى الاعتقاد بأنها صفائح مطليّة بشكل سيّئ بالذهب. وربما يُعزى السّبب إلى العمل الحرفي الرّديء. كان المستر (C) الذي سافرت معه لاحقاً إلى كربلاء يناقش معي هذا الموضوع باستمرار. وأخبرني أنه قد شهد جوامع مماثلة خلال رحلته إلى طهران، وقد استفسر عن الموضوع من المعنيّين به، فأخبروه أنّ هذه الجوامع بدون استثناء في كافة البلاد العربيّة أو الفارسيّة قد جرى كساؤها بالنّحاس ثم طُليت بالذّهب الخالص بسماكة بوصة[1] لأن استعمال الذّهب بشكل كامل يكلف الكثير، وهذا الكلام هو الأصحّ دون أدنى شك. وربما تعود المعلومات التي وصلتني إلى الخلط في الكلمات العربيّة المتعلقة بالذّهب والتّذهيب[2].

---

(1) بسماكة بوصة؟ أي 2.54 سم، وهذا أيضاً أمر مستحيل. الصّحيح أنها تطلى بما لا يتجاوز المعشار الواحد من الملمتر.

(2) كتب المؤلف: كانت القباب في مشهد ببلاد فارس مذهّبة أيضاً كالأضرحة العربيّة. وقد شاهد شاردان Chardin عام 1672 كيفية صنع هذه الصّفائح في أصفهان. إنها من النّحاس بقياس 10

بعد أن استمتعت عيوننا بهذه المناظر الجميلة، تركنا الكاظمين باتجاه قرية المعظّم Madaham (الأعظميّة) وعبرنا دجلة فوق جسر القوارب. والأعظميّة ضاحية في بغداد ومنتجع صيفي لسكانها. تبعد حوالي نصف الميل فقط عن بغداد، وتحيط بها أشجار النّخيل وتضم مسجداً جميلاً مشيّداً تكريماً لأبي حنيفة الإمام السّنّي. عبر الفناء الخارجي لهذا المسجد، قادنا مترجمنا بكل ترحاب (وكان يعمل بستانيّاً هنا فيما مضى) إلى عربة متداعية، هي الوحيدة في بغداد لتأخذنا نحو المدينة.

لقد تضاءل عدد السّكان كثيراً بسبب انحسار التجارة أولاً، وبسبب الأوبئة التي غزت المنطقة لاحقاً. فقد كانت الأمراض متفشّية خلال المئة سنة الأخيرة. ولا بد أن عدد سكان المدينة في زمن عظمتها كان هائلاً، لكن الإحصاءات التي يقدّمها الكتّاب العرب لم تكن كافية، كما لم تكن هناك إحصاءات دقيقة لذلك لم يملك الكتّاب الأوروبيّون إلا تخمين عدد السّكان. في عام 1774 هاجم وباء الطّاعون مدينتي بغداد والبصرة . وحسب سجلات دار المقيميّة البريطانيّة، فقد فني الجزء الأكبر من السّكان[1]. وفي عام 1804، وبعد اجتياح الوباء مرّة أخرى، قدّر بَكِنغهام، الذي تجوّل في بلاد الرّافدين، عدد السّكان بحوالي ثمانين ألف شخص. ومرّة ثالثة فتك البلاء في عام 1831 بثلثي السّكان أي مئة ألف مواطن، مما أدّى إلى تردّي حال المدينة المنكوبة، فأغلقت الأسواق وبقيت جثث الضحايا مرميّة في الشّوارع. وعندما وجد ساوثغايت Southgate، وهو مبشّر أميركي، أن المدينة بدأت تستعيد عافيتها، قام بإحصاء عدد السّكان فكان يومها لا يتجاوز الأربعين ألف شخص. أما في عام 1877 فقد عاد الوباء إلى الظهور حاصداً معه خمسة آلاف من السّكان. يتراوح عدد السّكان الآن بين حوالي ثمانين إلى مئة ألف شخص تقريباً. والرّقم الأول هو الأرجح.

---

16 x بوصة وسمك قطعتين من الكراون. في داخلها عمودان متقاطعان لتثبيتها. في كلُّ قطعة منها ثلاث دوكات وربع من التذهيب وتصل قيمتها إلى عشرة كراونات. انظر كُرزون «بلاد فارس والمسألة الفارسيّة».

(1) ليدي آن بلنت «عشائر بدو الفُرات».

يُعدّ سكان بغداد خليطاً كبيراً كما هو الحال في باقي مدن الشّرق. لكن العرب هم الغالبية العظمى، واللغة العربيّة هي المعتمدة بشكل رئيسي. وبعد العرب يأتي اليهود حيث يبلغ عددهم حوالي العشرين ألف شخص. يحتلّ الأتراك المناصب الرّئيسيّة في البلاد، ولكن قلّما تشاهد أحداً من أتباع المدرسة القديمة. تتفاوت أعداد العجم والهنود الذين استقرّوا في البلاد بالإضافة إلى بعض الحجّاج وقد شغلوا مناصب هامّة لأسباب هي إمّا سياسيّة أو دينيّة أو تجاريّة. وثلث مجموع السّكان من المسلمين الإماميّة، أما المسيحيّون فهم من الأرمن والكلدان والكاثوليك السّريان والأرمن، وسوف أتحدّث عنهم وكنائسهم في وقت لاحق. بالإضافة إلى هؤلاء تجد بدواً من مختلف القبائل في الصّحراء، وكذلك الأكراد من كردستان، والمصريين من دلتا النّيل، بالإضافة إلى وجوه غريبة من براري آسيا الوسطى.



امرأة بغداديّة

يحظى العرب بالأهمّية الكبرى بين هذا الخليط من السّكان، وهم يتحدّرون من قبائل عربيّة تجذبهم بين فترة وأخرى حياة المدينة، ويغريهم الأمل في الكسب الماديّ والحصول على دخل ثابت. نتيجة لذلك تتنوّع أصناف سكان المدينة، فالقادمون من البدو يتميّزون بالبساطة والنّقاء. أما الأشخاص الذين يتحدّرون من أسر استقرّت في المدينة منذ أجيال، فبشرتهم مائلة إلى الصُّفرة وتنقصهم الصّحّة والذكاء. وبشكل عام، فإنه لا مجال للمقارنة بينهم وشعب مصر الذي بنى الأهرامات. فأولئك يتمتّعون بدماثة الخلق والابتسام الذي تفتقده في بغداد، لكنك تستطيع مقارنتهم بسكان حلب. إن الوجوه الفليحة الدّالة على الذكاء والأجسام النّشيطة تجدها لدى السّكان الأكثر فقراً كرجال القوافل العرب شديدي القدرة على تحمّل صعاب الحياة والمشقات دونما تذمّر. يرتدي أفراد الطّبقات العليا العمامة البيضاء، أما الكوفيّة فخاصّة بالطبقات الدّنيا من المجتمع. ويرتدي الجميع العباءة البغداديّة المنسوجة من الصّوف وهي بنّية اللون ذات أشرطة بيضاء، وهي تكلف (الأوروبي) نابليوناً واحداً تقريباً، في حين يكون النّوع الآخر ذو الكلفة العالية من قماش أكثر رقّة ومطرزاً بالخيوط.

أمّا اللغات الشّائعة فهي العربيّة في المرتبة الأولى ثم التُّركية، والأولى هي لغة السّوق التي تختلف كثيراً عن العربيّة المصريّة أو السّوريّة، وهي بالطبع مختلفة عن لغة أهل مكة واليمن. إنها لغة محرّفة إلى حد بعيد، وهي غير محبّبة إلى الأذن، تتخللها بعض الكلمات التُّركيّة والفارسيّة، وقد يحتاج السّائح إلى التّمرّس كثيراً قبل التحدّث بها بطلاقة.

يُعدّ اليهود في بغداد من الفئات السّكانية المتزايدة باستمرار. ولم يجد بنيامين التَّطيلي، الرّحالة الشّهير الذي زار البلاد في القرن الثامن عشر، سوى ألف منهم فقط. وكما ذكر، فهم يتمتّعون بالسلام والاحترام في ظل حكومة الملك العظيم. وقد قدّر بَكِنغهام[1] Buckingham عددهم بحوالي عشر أضعاف هذا العدد قبل ثمانين سنة

---

(1) كتب المؤلف: انظر بَكِنغهام:

Travels in Mesopotamia, vol. II, p. 418, 423.

خلت. ويقال بأنهم أصبحوا يعدّون خمسة عشر ألف شخص بحدود العام 1840 م. أما في الوقت الحالي فهم بين عشرين إلى خمسة وعشرين ألف شخص، وهي نسبة عالية بالنّسبة إلى المجموع الكلّي للسّكان. يُعدّ التقرير الذي كتبه بنيامين التَّطيلي عنهم وكليّاتهم وزعمائهم ورئيسهم دانيال (ابن حَسداي) جديراً بالاهتمام. كان رئيسهم هذا يُلقّب بالأمير أو (المرشد في الأسر) ويمتدّ نسبه إلى داود. لقد كان موقعه في زمن الخليفة «ملك المسلمين» في غاية الأهمية، فسلطته يصادق عليها بالختم، مما يدلّ على أن اليهود لم يكونوا مضطهدين ومقموعين في بغداد في القرن الثاني عشر أكثر مما هو الحال في الوقت الحاضر. ومن الجدير ذكره أنه عند ظهور «ملك الأسر» علناً، فإنه يكون موضع تحية منهم ومن مسلمي المدينة أنفسهم. لا يخضع اليهود في الوقت الحالي إلى أي نوع من الاضطهاد والقمع، وهم يشكلون في الواقع جزءاً مهماً من السّكان. يملك بعضهم ثروات ضخمة، ويشتغل الكثير منهم بالتجارة وأعمال الصّرافة. يلاحظهم السّائح في الشّوارع يمشون بكل احترام بأثوابهم الحريريّة الصّفراء وعمائمهم المزهّرة.

أما الأرمن فيمثلون جزءاً مهماً في المجتمعات المسيحيّة، وهم يتميّزون بنشاطهم وذكائهم في التجارة وكافة الأعمال. وحسب أحد التقارير، فإنهم ليسوا شديدي الدّقة ولا يمكن الاعتماد عليهم كثيراً، ونساؤهم في غاية الجمال. ومن المعروف أن الأوروپيين الذين يسكنون بغداد يتزوجون من هذه الطّائفة بشكل كبير. ولقد زرت الكنيسة الأرمنيّة الكاثوليكيّة فوجدتها عبارة عن بناء مستطيل حديث البناء، يعاني الكثير من الإهمال حيث تعشّش الطّيور فوقه. وهناك عدد لا بأس به من الصّور المعلّقة على الجدران. أما رعايا الكنيسة فمئة شخص. سألت عن الكتب والمخطوطات القديمة، فأحضروا لي أعداداً كبيرة من المجلدات المطبوعة في روما باللغة الأرمنيّة. عُمر هذه الكتب لا يزيد عن المئة سنة، لكنها تحوي بعض المطبوعات الإيطاليّة القديمة الجيّدة. ولدى الكلدان (وهم النّساطرة البابويّون) كنيسة أيضاً، لكنني لم أتمكن من الدّخول إليها. وقد قيل لي إنّ عدد أفرادها يبلغ حوالي ألف وخمسمئة شخص، وهو

رقم يصعب تصديقه. أما الكاثوليك السّريان الذين يعدّون مئة وثلاثين أسرة، فلهم كنيسة خاصّة بهم بنيت منذ حوالي ثلاثين سنة خلت في موقع كنيسة قديمة وصغيرة. والمبنى الحالي عبارة عن فسحة مربّعة ذات ثمانية أعمدة خضراء مطعّمة بالزخارف الجصية في أعلاها.

أمّا الكنيسة اللاتينيّة فهي عبارة عن مبنى جميل من الطُّوب عمره خمسة وعشرون عاماً. عند دخولك يفاجئك مبنى متصالب يحوي في وسطه قبّة وثريّات زجاجيّة في كل مكان. أما في الخارج فقد بني قبو خاص بمدرسة الأطفال. واحدة للأولاد تضمّ مئة تلميذ، وأخرى للبنات تضم أربعمئة تلميذة، حيث يبلغ عدد رعايا الأبرشيّة حوالي ألف شخص ولهم خمسة قساوسة.

سبق أن تحدّثت عن الطّقس في بغداد، وأقول إن أجمل شهور السّنة هي تلك الممتدة من أكتوبر إلى أبريل. كما يمكن أن يشاهد الجليد والصّقيع في المنطقة في شهري ديسمبر ويناير حيث يلاقي بعض المسافرين برّاً في هذه الأشهر صعوبة في الترحال. يحمل شهر أبريل بعض الدّفء بالنّسبة للأهالي، أما بالنّسبة للقادم من الشّمال فتكون الحرارة شديدة عليه. أما شهر مارس فهو في الحقيقة حارٌّ جداً، لكنه في بغداد البعيدة عن مناطق الرّياح الموسميّة كما في بومباي لا يُعدّ الشّهر الأكثر مشقّة. تُعدّ أشهر يونيو ويوليو وأغسطس أشهر الصّيف، مما يسبّب للأهالي المحليين والقادمين من الغرب بعض القلق، حيث يتركون بيوتهم ويهرعون إلى السّراديب التي تقيهم حر الصّباح حتى شهر سبتمبر أو أكتوبر من كل سنة. ولتوضيح هذه الفكرة، كتب بَكِنغهام Buckingham الذي زار البلاد في شهر يوليو وأصدر كتاباً عن حالة الطّقس، فعندما قاس درجة الحرارة عند الفجر كانت (112) درجة فهرنهايت، وعند الظهيرة (119) درجة، وقبل الثانية من بعد الظهر بلغت (122) درجة، أما عند الغروب فنزلت إلى (117)، وعند منتصف الليل وصلت إلى (114) درجة. إن هذه الدّرجات ليست أمراً غريباً في البلاد، فأحياناً تصل درجات الحرارة إلى ارتفاعاتٍ مخيفة. فعندما زرت بومباي في شهر مارس ولأجل المقارنة، كانت درجة الحرارة تسجّل

(99) درجة فهرنهايت. مع العلم أنها سجّلت درجة حرارة أعلى من تلك بكثير في المناطق الدّاخليّة من الهند.

أما صادرات بغداد فهي الصّوف والقطن والصّمغ والحبوب وبعض المنتجات الأخرى. وهي تصدّر كميّات كبيرة من التّمور إلى أميركا وإنكلترا. لكن النّوع الرّئيسي منها يأتي من البصرة[1]. كما تباع هنا الخيول العربيّة لكنها ليست تماماً من السّلالات الأصيلة، وهي أرخص بكثير من مثيلاتها في السّوق الهنديّة. أما الخيول الأصيلة الموجودة في بغداد، والتي هي من أصل عجمي أو نصف عجمي، فيمكنك الحصول عليها فقط من القبائل التي تربّي الخيول[2]، حيث تختلف ميّزاتها عن ميّزات الخيول العجميّة بشكل واضح.

لا أستطيع الكلام عن الأوضاع السّياسيّة في البلاد في الوقت الحالي لأنّ الفرصة لم تسنح لي لملاحظتها، كما أنني غير جدير بالتحدث عنها. تقول إحدى التقارير الموثوقة إن وضع المدينة فاسد ككلّ المدن التُّركيّة، غير أنّ إدارة مدحت باشا، الوالي الطّموح، قد لاقت استحساناً من البعض واستهجاناً شديداً من البعض الآخر. إننا نرى بالتأكيد آثار هذه الإدارة في كل مكان، لكنها تأتي في الأساس شاهداً على طموح وحماس هذا الحاكم المصلح الذي لم تكن آراؤه صائبة على الدّوام، والذي كانت إصلاحاته قد أتت قبل أوانها. فالحقيقة هي أنه لا يمكن لرجل شريف وباشا طموح وحده أن يصنع مدينة جديدة من أسوار بغداد المتهدّمة ومصابيح الزّيت المطفأة. كما أن طائر سنونو واحد لا يصنع صيفاً بمفرده. يستطيع المرء فهم ذلك ابتداءً من رؤيته لسير الجنود المترهّل في الشّوارع، إلى الأسواق والجوامع المتهدّمة، إلى جسر القوارب المتهالك ومكتب البريد البائس. إن لعنة الكسل التُّركيّة قد حلّت على هذه المدينة التي كانت مزدهرة وعظيمة في يوم من الأيام. بالإضافة إلى ذلك فإنّ الطّاعون

---

(1) كتب المؤلف: انظر غراتون غيري Gratton Geary: «رحلة عبر تُركية الآسيويّة». المجلد الأول ص 243.

(2) كتب المؤلف: انظر ليدي آن بلنت في «عشائر بدو الفُرات» المجلد الأول ص 206.

قد فتك بالمدينة وتردّت حال التجارة. وقد ساهم نهر الفُرات، الذي يُعزى له الفضل في صنع تاريخ هذه البلاد وثروتها، لكنه كان سبباً في زيادة تعاسة الحال عندما فاضت ضفّتاه وأحالت غرب البلاد إلى إقليم من المستنقعات، ومما أدى إلى جلب الحمّى والسّقم وسوء الطّالع إلى المدينة. وقُصارى القول: لقد دالَ مجد مدينة الخلفاء وبادَ، فهل سيعود؟

* * *

استدعيتُ بخيت وحجّي محمّد وحمّادي في أول صباح بعد وصولي إلى بغداد وأجرينا تسوية حسابيّة عن مصاريف الرّحلة. أعطيت المال لمحمّد الذي خدمني بجهدٍ وتفانٍ خلال الأسابيع الثلاثة رغم أن خدماته لم تكن بالشكل الممتاز كطبّاخ أو كخادم ماهر، مع ذلك فقد أشرف على إطعامي ولولاه لكنت في وضع أسوأ. أعطيتُ الآخرين هديّة بسيطة، وغادر الجميع وهم في غاية الرّضا وطلبوا أن أرسل في طلبهم ثانيةً إذا ما أردت القيام برحلة ثانية إلى بابل. ذهبت بعد ذلك إلى مكتب البريد حيث أرسلت برقيّات إلى الوطن وحلب أخبرهم عن سلامة وصولي. لا يُستخدم البريد التُّركي كثيراً من قبل المقيمين من المواطنين الإنكليز وخاصة فيما يتعلق بالطرود البريديّة، إذ أن البريد الهندي عبر البصرة وبومباي أكثر أمناً رغم الوقت الطّويل الذي يستغرقه مروراً بالقسطنطينيّة. هناك في بغداد والبصرة وموانئ الخليج العربي مكاتب بريد تديرها الحكومة الهنديّة وفيها موظفون يتحدّثون الإنكليزيّة. وتُرسل الرّسائل والطرود من إنكلترا بنفس الرّسوم التي تُرسل بها إلى الهند. يقع مكتب البريد في بغداد في دار المقيميّة البريطانيّة، حيث تجد الازدحام شديداً من اليهود والمسيحيّين المحليّين وأعداد كبيرة من المسلمين الذين يفضّلون استلام بريدهم بهذه الطّريقة[1].

---

(1) كتب المؤلف: كانت إحدى نتائج عمل بعثة وادي الفُرات تسيير بريد الجمال بين بغداد ودمشق بين عامي 1838 و1881، وكانت دار المقيميّة تديره في بغداد وتموّله الحكومة الهنديّة. يتم نقل البريد بواسطة عرب العقيل الذين يقطعون يومياً خمسمئة ميل تقريباً بغضون عشرة أيام إلى أربعة عشر يوماً.

صادفت زيارتي إلى بغداد في شهر رمضان حيث تكون الشّوارع في الشّرق بشكل عام خالية وهادئة، وترى العديد من الحوانيت تغلق أبوابها في الصّباح أو تغلقها باكراً في النّهار. وبشكل عام يكتنف الهدوء كل شيء، فأصحاب المحلات يغفون وفي يد كلٍ منهم مصحفه، ولا تشاهد في كل الشّارع أثراً لسيجارة أو غليون. أما عندما يقترب المساء وتغيب الشّمس، فترى جموع النّاس في المقاهي وغلايينهم جاهزة للإشعال وفناجين القهوة محضّرة للإفطار. تشاهد عندها كميات كبيرة من اللحوم والخبز وكافة أنواع المأكولات التي تُحضّر لتناولها في فترة الليل.

بعد غروب الشّمس تدبّ الحياة مجدداً في المدينة وتصدح الموسيقى في كل مكان، حيث تشاهد جموع السّحرة والمشعوذين وهي تجوب الشّوارع ليؤدوا عروضهم أمام المقاهي المزدحمة. وفي آخر المساء، ترى بعض النّاس وقد انغمسوا بمرحهم وأغانيهم أثناء مرورهم بالشوارع وهم في طريقهم إلى بيوتهم. كما تُضاء الأسواق والشّوارع والمقاهي في شهر الصّوم وتفتح الجوامع وتزدحم بالنّاس.

غامر أحد المشرقيين الطّموحين مؤخراً وافتتح منشأة على ضفّة النّهر وأسماها (على ما أظن) الفندق الأوروبي. سألت عنه عند وصولي لكن لم ينصحني أحد بزيارته، ولم يسمع أحد بأن مسافراً ما قد نزل فيه. مع ذلك فقد قمت والمستر (C) بزيارته. كان يبدو مبنى صغيراً على الطّراز الإيطالي، موقعه على النّهر في غاية الجمال. جلسنا في حديقته ونحن نحتسي كوباً من البيرة وماء الصّودا بشعور قوي من المتعة، حيث كلّفتنا «حفلة السُّكر» روبيتين اثنتين. مع ذلك يظهر هذا الفندق في قائمة (Cook & Sons) للفنادق الشّرقيّة. لا أعتقد أن هذا الفندق يستطيع المحافظة على بقائه لولا عوائده من المشروبات.

لا يرى المرء في بغداد مع كل انعطافة جملاً يسير بتثاقل كالذي نراه في القاهرة، فلا وجود لهذا الحيوان الأخرق بمضايقاته في هذه الطّرقات، كأن يحشرك إلى الجدار وتضطر إلى تنشق رائحة حمله. والواقع أن المرء يسير لفترة طويلة في شوارع بغداد دون أن يرى جملاً واحداً، وهذا يعود إلى أن لهم طرقات ومراكز محدّدة حيث توجد

الخانات وأمكنة السّكن. ولكن يوجد الكثير من الحمير البيضاء الكبيرة المعدّة للاستئجار كما في القاهرة، لكنها تُعدّ قليلة بالنّسبة لها، وهي دواب أكبر من تلك التي في القاهرة وأسهل انقياداً.

تبدو «حبّة العمر» الموجودة هنا أيضاً كالتي شاهدناها في مدينة حلب، وهي شائعة تشوّه مكانها بالطريقة ذاتها. والحقيقة أنها تنتشر في كل مكان، من رأس الخليج العربي إلى حلب وماردين ودياربكر.

لقد كنت مُنهكاً جداً عند وصولي إلى بغداد، لذلك قرّرت أخذ قسط وفير من الرّاحة قبل انطلاقي برحلة ثانية إلى بابل وكربلاء، خصوصاً أن المسافة تستغرق مسيرة سبعة أيام على ظهر الخيول. وعندما علمت أن المستر (C) الذي وصل إلى دار المقيميّة، وهو ملازم في الفوج الإنكليزي المتمركز في الهند، هو أيضاً ينوي القيام بهذه الرّحلة، فقد أزمعت المضيّ حالاً رغم حالتي الصّحيّة، ولهذا استأجرنا الخيول وعزمنا على القيام بالرحلة سويّاً. طلبت حال وصولي إلى بغداد مترجماً سمعت عنه في حلب هو يوسف أنتيكا Yusuf Antika وهو مسيحي كلداني، وحسب معلوماتي كان المترجم المحترف الوحيد في بغداد، وقد عمل مراراً مع مسافرين من إنكلترا. حضر الرّجل سريعاً، وبعد إطلاعي على بياناته وقدراته اللغوية، أوكلتُ إليه شراء حاجيات الرّحلة وإعداد التجهيزات. كان رجلاً قصيراً، أفطس الأنف، حسن الخلق، لكن يشوبه بعض الدّهاء مع تكشيرته الفكاهيّة التي تثير ضحك كل من يتحدث إليه. ورغم عوزه للوسامة، فهو رجل ذو تجارب ومدبّر ممتاز. وفي الحقيقة لقد كان الخادم الشّرقي الأكثر كفاءة ولم أرَ مثيلاً له من قبل، فقد ارتحل في بلاد الهند وفارس وهو يعرف جميع الطّرقات في وادي الرّافدين. لقد تعلم الإنكليزيّة بدرجة معقولة في بغداد. ولا أستطيع تبين السّبب في عدم ارتحاله إلى بيروت أو دمشق حيث يستطيع بقدراته العالية تقاضي رواتب ضخمة كمترجم متنقل. كان يرتدي في بغداد العباءة الفاتحة مع التطريز الذهبي وطبعاً الطّربوش، وهو زي يناسبه تماماً، لكنه خلال الرّحلة ارتدى زياً أوروبيّاً من الملابس التي أعطاها له المسافرون الآخرون، مع الكوفيّة

المثيرة للضحك في اقترانها معه. لقد كان مصدر تسلية لنا جميعاً خلال الرّحلة، وعلى عكس معظم الشّرقيين، فإنّ أفعاله تتميّز بالسرعة والحيويّة وهو يتمتّع بذاكرة جيّدة. بالإضافة إلى هذه الخصال، فهو طبّاخ ماهر، واستطعنا التجوّل معه في السّوق لشراء حاجيّات الرّحلة. كان لدى المستر (C) سرجه الخاص، ولم أكن قد تزوّدت بمثله لكنهم نصحوني بعدم شراء سرج محلي إذ أنه بشكل عام أداة مرهقة ومزعجة للذي لم يعتد عليها. ولحسن الحظ استطعت العثور على سرج إنكليزي جيّد بسعر پاوندين، وعندما هممتُ بشرائه أخذ يوسف من يدي بخفة نصف المبلغ وأعطاه للبائع. وقد اهتم يوسف أيضاً بتأمين الحيوانات للقيام بالرحلة، وقبل يوم واحد من الرّحيل، أحضر يوسف الحيوانات لتفحصها. كانت عبارة عن خمسة من الخيول: لكلٍ منّا واحدٌ والاثنان الآخران لحمل الأمتعة والخيمة. كما كان هناك أيضاً خادمان للاعتناء بالحيوانات، والقاطرجي، وهو شخص مسنّ لئيم ومشاغب، بالإضافة إلى رجل أصغر سناً. كانت الخيول سيئة لكنها مقبولة نوعاً ما. قرّرنا الاجتماع صباح اليوم التالي في السّاعة السّادسة، وهو اليوم الموافق للسّادس من أبريل، للانطلاق في رحلتنا.



الفصل الحادي عشر

استعراض تاريخي عن بغداد

نشأة المدينة - الخلفاء الأوائل فيها - البويهيّون - انحطاط الخلافة - أول ظهور للأتراك - انتقال بغداد إلى الضفّة الشّرقيّة من دجلة - جنكيز خان - المستنصر - هولاكو - نهاية العباسيين - اضطهاد المسيحيين - تيمورلنك - الشّاه إسماعيل - استيلاء السّلاطين العثمانيين على المدينة.

تأسست بغداد عام 673 للميلاد على يد أبي جعفر المنصور الخليفة العبّاسي الثاني الذي يمتدّ نسبه إلى العبّاس عمّ النّبي محمّد. كانت في موقعها آنذاك قرية أسّسها العجم[1] كما يدل اسمها[2]. وفي غضون المئة والخمسين سنة الأولى من ذلك التاريخ، حلّ عصر رخاء وعظمة بالنّسبة للخلافة رغم الصّراعات التي لم تهدأ

---

(1) كتب المؤلف: ديربُلو «تاريخ مير خوند» *"Tarikh Mirkhond"* :D'Herbelot (Teixeira) بترجمة تيشيرا.

(2) هذا غير صحيح البتّة، تصوّر البعض أن التسمية: (باغ - داد) أي بستان العدل، لكن أصل الاسم أقدم من ذلك، إذ ورد ذكر اسم بغداد صريحاً في الألواح التي يعود بعضها إلى العصر البابلي. ومن أهمها النّص الوارد في لوح سبار مكتشف في تل أبي حبة الذي يبعد عن شمال غربي بابل 50 كيلومتراً، فيرد اسم بغداد فيه: «بجدادا» ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أي زمن الملك حمورابي. وورد اسم بغداد أيضاً في لوح آخر يعود تاريخه الى الأعوام 1316 - 1341 قبل الميلاد: «بغدادي». وفي لوح آخر يرد اسمها: «بجدادو» ويعود تاريخه الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد. كما ورد اسمها أيضًا مكتوباً هكذا: «بغدادو» في وثيقة تاريخية يرقى عهدها الى سنة 728 قبل الميلاد إبّان حكم الملك الآشوري تغلات فلاسر الثالث (745 - 727

لأسباب دينيّة، وبسبب التدخل العسكريّ التُّركيّ الذي نشأ في الدّولة في وقت مبكر. كانت الخلافة في عصر هارون الرّشيد التي امتدّت من 786 إلى 809 م تضم العراق وسوريّا وجزيرة العرب وبلاد الرّافدين ومصر وشمال أفريقيا وبلاد فارس وكرمان وخراسان وأرمينيا وبلاد الأناضول وجورجيا وقفقاسيا (القوقاز)، ثم قسّمت بعد وفاته بين أبنائه الثلاثة. وقد جرى في عهده عزل الوزراء من البرامكة أصحاب النّفوذ، والقضاء عليهم. عندها تنازع الأمين الذي ورث ملك أبيه مع شقيقه المأمون الذي بدوره أمر قائد قوّاته بالزحف ومحاصرة المدينة عام 812 م. امتدّ الحصار لمدّة سنة، حيث عانى الأهلون الأمرّين وتمّ تدمير المدينة تدميراً تاماً. عندها قُتل الأمين وحلّ المأمون مكانه. بدأت فترة حكمه بالازدهار، لكن الاضطرابات الدّاخليّة لم تهدأ بل زادت عندما وقعت المدينة بيد الجيش وازدادت حملات التّمرّد التي أثارتها الحركات المناصرة لآل البيت.

في زمن المعتصم (833 - 842 م) بدأ انحطاط الخلافة، وسرعان ما أمر بتجنيد مرتزقة من الأتراك، الذين أحرزوا انتصارات رغم مرور الوقت الطّويل قبل أن يخبو البريق الخارجي لبلاط الخلفاء. وخلال حكم المستعين والمعتز والمهتدي (862 - 870 م) وقعت المدينة فريسة للحصار وأعمال الشّغب والفوضى. وفي كل مرة كان الأتراك المتمرّدون يخلعون الخليفة أو يقتلونه، لكن مع ذلك كان البلاط في عصر الخليفة المقتدر (909 - 932 م) يوصف بالبهاء العظيم. قيل إن ألفاً من الخصيان كانوا

ق. م) وقد اختلف المؤرخون حول أصل التسمية: فبعضهم يقول أصلها بابلي «بعل جاد»، يعني معسكر «بعل». وبعضهم يقول اصلها كلداني «بلداد» حيث أن «بل» إله كلداني و«داد» كلمة آرامية معناها الفتك. وتعود هذه التسمية إلى عهد بختنصر، إذ حدثت ملحمة عظيمة فتك بها باعدائه فبنى قرية وأسماها بلداد تخليدا لهذه الملحمة. وبعضهم يقول إنها قديمة جداً من عهد حمورابي وأصلها «بيت كداد» أي بيت الغنم. وبعضهم يقول إنها تسمية آرية «بغداد» ومعناها عطية الله.

وينقل ياقوت الحموي اشتقاقاً طريفاً، بأنه كان ثمّة ملك صيني اسمه «بغ»، وكان التجار الصينيون عندما ياتون ويقومون بتصريف بضائعهم في هذه المدينة، يذهبون الى بلادهم ويقولون: «بغ داد» أي أن هذا بفضل ملكهم «بغ».

يعيشون في القصر، وفي قاعة الاستقبالات كانت هناك شجرة من الذهب عليها طيور من المعادن النّفيسة، ترفرف بأجنحتها المتلألئة وتغنّي[1]. وفي عام 917 م استولت الأسرة البويهيّة المؤلفة من ثلاثة إخوة من الفرس على الأقاليم الواقعة بين بحر قزوين والخليج العربي. وفي زمن استلام الرّاضي للعرش عام 934 م، اقتصرت الخلافة على ولاية بغداد تقريباً، عندها أعلن الأمراء والولاة، الذين كانوا فيما مضى خاضعين لسلطة الخليفة، استقلالهم ومنحوا الخليفة السّلطة الرّوحيّة فقط. وفي عام 940 م اجتاح الطّاعون البلاد وتركها ضعيفة وخالية تقريباً من السّكان. وبعد ست سنوات، بعد أن أحسّ الخليفة بضعف المدينة ورأى محاصرتها وقطع الإمدادات عنها، طلب حماية زعيم البويهييّن. وكانت تلك بداية النّهاية.

وبعد وقت قصير أقصي الخليفة (كسلفيه اللذين كانا لا يزالان على قيد الحياة آنذاك) وتم تنصيب شخص آخر مكانه. قبل عهد الرّاضي كان الخليفة على الأقل هو أمير المؤمنين والزّعيم الرّوحي، لكنه عيّن رئيساً للوزراء، وكان يسمى أمير الأمراء، ووضع في يديه هذه الصّلاحيّات. قتل البويهيّون الأمير في مكتبه واحتلوا مكانه تحت لقب السّلطان معز الدّولة. ومنذ تلك اللحظة يمكن عدّ سقوط الخلافة ناجزاً. وبدلاً من سطوع نجم الخلفاء الذين يُعدّون أعظم حكام شهدهم المشرق، أفل هذا النّجم وأصبحوا عبيداً عند وزرائهم البويهيين، إن صحّ التعبير. ولم يمرّ وقت طويل حتى أعلن أحد البويهيين، وهو عضد الدّولة، لقب شاهنشاه أي ملك الملوك. لقد وصل عضد الدّولة شقيق الزّعيم البويهي الأول إلى الرّئاسة بهزيمة بختيار ابن سَلَفه وقتله. وفي عام 980 م أعاد بناء المدينة وأسّس مستشفى عظيماً.

لقد عيّن هؤلاء البويهيون وزراءَهم الخاصّين، في حين كان خواص الخلفاء لا يتعدّون كونهم موظفين لا أكثر. وفي بدايات القرن الحادي عشر، حاصر محمود سلطان غَزنة وخراسان بغداد وفرض على الخليفة القادر جزية كبيرة. بعد ذلك بسنوات معدودة في عام 1027 م ظهر الأتراك على مسرح الأحداث وقاموا بنهب

---

(1) كتب المؤلف: لا يؤخذ كثيراً بالإحصاءات والأوصاف الواردة في المصادر الشرقيّة.

المدينة، وخلال السّنوات التي تلت، بقيت المدينة ترزح تحت حال من الفوضى بسبب سلوك الجنود الأتراك المتمرّد. وفي حوالي عام 1037 م قادوا تمرّداً ضد الأمير البويهي وأحرقوا بغداد. وفي عام 1040 م حسب تاريخ ميرخوند، حلّ صقيع في بغداد بلغت سماكته ثلاثة أشبار وتجمّد نهر دجلة لمدة تزيد على اثني عشر يوماً، وهي حالة غريبة جداً، إن صحّ ذلك. وفي عام 1055 م وصل طُغرُلبك السّلچوقي الذي طلب الخليفة القائم مساعدته ضد السّلطان مسعود، فدخل المدينة وقام بنهبها وتدميرها[1].

تم إسقاط الزّعامة البويهيّة وأُعلن طُغرُلبك بعد زواجه من ابنة الخليفة، سلطاناً على إيران. وقد قُدّر لبني العبّاس أن يبقوا في حال الانحطاط هذا لمدّة قرنين تاليين من الزّمان. والواقع أن المدينة قد أصابت حظاً من الرّخاء تحت ظل هذه الأسرة الحاكمة، ففي زمن الخليفة المقتدي[2] (1094 - 1118 م) والسّلطان برقوق «تم نقل مدينة بغداد التي كانت تقع في بلاد الرّافدين على ضفاف دجلة، لكونها قد دُمّرت بفعل فيضان النّهر، إلى النّاحية المقابلة التي تتّسم بملاءمتها الفضلى»[3]. ويدل موقع ضريح الملكة زبيدة في الطّرف الغربي من النّهر على ذلك، ولكن قبل نقل المدينة بوقت طويل، كانت هناك ضاحية اسمها الرُّصافة على الضفة اليسرى من النّهر. يقول أينسوورث Ainsworth إن الخليفة المهدي ابن المؤسّس المنصور قد بنى على هذا الجانب مدينة سُمّيت مدينة المهدي، وباتصال المدينتين تشكّلت بغداد. لكنني لا أعرف مصدر هذا الكلام.

ترك لنا بنيامين التَّطيلي عن هذه الفترة وصفاً ناطقاً عن حالة بغداد، على اعتباره زارها في القرن الثاني عشر، فمثلاً نراه يقول: «عند قصر الخليفة في بغداد وعلى أرض مساحتها ثلاثة أميال، كانت هناك منطقة واسعة مليئة بكافة أصناف الأشجار المثمرة

---

(1) كتب المؤلف: تختلف الرّوايات، فمنهم من يقول إنه استُقبل بحفاوة بالغة.

(2) كتب المؤلف الاسم: Mostader ولكن ما علاقة زمنه بزمن السّلطان برقوق؟ حيث حكم برقوق بأواخر القرن الرابع عشر الميلادي.

(3) كتب المؤلف: ترجمة تيشيرا Teixeira لكتاب «تاريخ ميرخوند» الذي حرّره الكابتن جون ستيڤنز John Stevens عام 1715 م.

وأشجار الزّينة، بالإضافة إلى أنواع الحيوانات، وبركة يصلها الماء من نهر دجلة».

ويضيف: «لا يغادر الخليفة طوال أيام السّنة، وهو رجل كريم يتّسم بالتقوى. لقد بنى هذه المباني على الطّرف الآخر من النّهر وعلى ذراع من نهر الفُرات في أحد جوانب المدينة»[1].

يبيّن هذه المقطع الجميل أنه على الرّغم من كون المدينة وقصر الخليفة واقعين على الطّرف الشّرقي، فلم تهمل الضفة الغربيّة، بل كانت عمليات البناء جارية هناك. لا بد أن يكون ذراع الفُرات هو قناة العكلاويّة أو العقلاويّة، أو فرع يربط هذا النّهر بدجلة في المكان ذاته.

في زمن الخليفة النّاصر «ازدهرت مدينة بغداد بشكل كبير»، إلا أنه في هذه الأوقات المضطربة حيث كان جنكيز خان يعيث في آسيا الفساد، ورغم أنه دخل في تحالف مع التتار يوماً ما ضد محمد سلطان خوارزم، فقد وجد وقتاً كافياً لبناء وترميم أسوار بغداد التي بقيت صامدة حتى تدميرها في عام 1221، وهي أقدم بناء في بغداد[2].

لكن الكارثة الأخيرة كانت على وشك الوقوع. ففي عام 1227 م في عهد الخليفة المستنصر، بعد أن قام جنكيز خان بتدمير بلاد فارس شنّ غارةً على بغداد ناقضاً بذلك اتفاقه مع النّاصر. كان المستنصر بارعاً كعادته ونموذجاً رفيعاً للخلفاء السّابقين، فقام بحشد جيش كبير وأُرغم الطّاغية على التراجع. وخلال الفترة القصيرة التي تلت هذه الحادثة، تمّ بناء مدرسة المستنصريّة الشّهيرة التي ما يزال جزء منها قائماً حتى الآن، والذي يرجع إلى العام 1232. كانت المدرسة تضم أربعمئة تلميذ، يتم تدريسهم وكسوتهم وإطعامهم في المدرسة التي ضمّت أربعة من الأساتذة وطبيباً وصيدلياً. لكن النّهاية قد أزفت، فقد حلّ في مكان المستنصر الرّجل القدير خليفة واهن رعديد هو المستعصم. أهمل هذا الأمير الفاسد تحذيرات أصدقائه ورفض اتخاذ أيّة دفاعات

---

(1) كتب المؤلف: انظر "Early Travels in Palestine" (الرّحلات الباكرة في فلسطين) تحرير توماس رايت، مكتبة بون Bohn للكتب القديمة.

(2) كتب المؤلف: انظر كتاب بَكِنغهام رحلات في وادي الرّافدين *Travels in Mesopotamia*.

ضد التتار، فلم يتوانَ هولاكو وحشوده الكبيرة عن سفك الدّماء. وفي خاتمة المطاف، تم تجهيز جيش صغير لكن تمّ سحقه بخيانة من الوزير نفسه، حسب قول البعض.

جرت محاولة للدفاع عن المدينة، لكنها أخفقت بسرعة واكتسحت موجة المغول المتعطشة للدماء «دار السّلام» وقُتل آخر الخلفاء في الثالث عشر من شهر فبراير عام 1258 م. وحسب المصادر فإنه وُضع في كيس، بأمر من هولاكو، وسُحب في شوارع المدينة حتى مات. لقد تعمّدت الأسرة المالكة الجديدة بالدّماء البشرية. ويقال إنه في المذبحة اللاحقة، ذُبح مليون ونصف شخص من الشّعب في المدينة وضواحيها، وهكذا انتهت الخلافة العبّاسيّة بعد حكم دام خمسة قرون ونصف، تعاقب فيها على العرش سبعة وثلاثون خليفة.

في هذا الوقت، زار ماركو پولو Marco Polo المدينة وسجل تقريراً عن ثروتها التي لم تقدَّر جيداً بسبب سفك الدّماء وأعمال السّلب الكثيرة التي قام بها الغزاة التتار. «في مدينة بَلداك Baldach أو بغداد الكثير من صيّاغ الذهب وصنّاع الحرير. هناك الأقمشة المخمليّة والدّمشقيّة المزيّنة بصور مختلفة. وتأتي كل لآلئ العالم من هناك. كما يوجد في تلك المدينة جامعة تدرّس فيها شريعة الإسلام والطبيعيّات وعلم الفلك وحساب الطّالع. إنها المدينة الرّئيسيّة في هذه الأنحاء»[1].

ووفقاً لما يذكره ماركو پولو، فإنّ الاستيلاء على بغداد قد تمّ بخدعة حربيّة: «كان أولان Ulan (أي هولاكو) يمتلك جيشاً من مئة ألف فارس إضافة إلى المحاربين المشاة. وقد احتال بإخفائه الجزء الأكبر من جيشه، حيث استدرج الخليفة بقتال مزعوم نحو كمين وقام بأسره والاستيلاء على المدينة، وصُم لما وجد فيها كمية هائلة من الثروة بحيث أنه أرسل في طلب الخليفة وقام بتعنيفه وحبسه في خزائنه دون طعام، مدّعياً أنه لم يقم بهذه الحرب من أجل الدّفاع».

يتابع الكاتب بإخبارنا قصة عن الخليفة تبيّن أن مسيحيّي بغداد كانوا معرضين

---

(1) كتب المؤلف: انظر رحلات پنكرتون "Pinkerton's Travels".

للاضطهاد آنذاك فيقول: «يبدو هذا حكماً عادلاً من يسوع المسيح عليه، لأنه في عام 1225 م راح يحاول تحويل المسيحيين عن دينهم إلى الدّيانة الإسلاميّة تبعاً لهذه الآية في الإنجيل «مَن كان لديه الإيمان ولو كحبّة الخردل يكون قادراً على إزاحة الجبال». فقد استدعى المسيحيين والنّساطرة واليعاقبة واقترح عليهم إزاحة أحد الجبال في غضون عشرة أيام أو يتحوّلوا إلى الإسلام أو يُقتلوا، لأنهم لا يمتلكون ذرة من الإيمان. لهذا أقاموا الصّلوات لثمانية أيام متواصلة، بعدها تم اختيار صانع أحذية بناءً على إلهام من أحد الأساقفة للقيام بهذه المهمّة. لقد حقق هذا الشّخص المراد الذي كان ذات مرّة قد راودته الشّهوة لدى رؤيته امرأة وهي تلبس حذاءها، فأشاح نظره عنها. وهنا رفع يديه إلى السّماء ودعا الله أن يرحم شعبه، وبصوت عالٍ أمر الجبل أن يتزحزح، فتزحزح الجبل في الحال على مرأى من الخليفة الهلع وشعبه، وأصبح هذا اليوم منذ ذلك الحين مقدّساً بالصوم، وكذلك الليلة التي تسبقه».

وبما أن ماركو پولو قد بدأ رحلاته في عام 1250 م، فهو ربما كان في بغداد بعد فترة قصيرة من استيلاء هولاگو أو أولان Ulan، كما يسمّيه هو، على المدينة. لهذا يُعدّ وصفه للأحداث في هذا العهد قيّماً، إذ يميل إلى إثبات أن البيانات المتعلقة بتدمير المدينة محرّفة بشكل كبير مما يجعل القارئ النّاقد يشك بصحّة حكاية الجبل، لأن الأرض المحيطة بالمدينة ولمسافة أميال عديدة هي عبارة عن سهل مستوٍ. لكن الجواب المقنع لهذا القول هو أنّ عدم وجود أي تل قد يثبت صحّة الحكاية. وحسب ما جاء في تاريخ ميرخوند (بترجمة تيشيرا Teixeira) فقد تم بناء المدينة بُعيد وفاة هولاگو من قبل أحد وزرائه تبعاً لتعليمات تركها له سيّده.

ولمدة مئة وأربعين عاماً، ظلت المدينة تحت حكم أسرة هولاگو، وبعد ذلك ظهر على السّاحة تيمورلنك سلطان سمرقند، وسقطت بغداد بيده مرّتين؛ الأولى عام 1392 م حيث خضع له البر والبحر من هرمز صعوداً إلى دجلة. لكنه تفرّغ إلى ميادين جديدة للفتح، فقد خرّب التتار الطّامحون تركستان والقِپچاق وجنوب روسيا وجزءاً من الهند. وفي عام 1400 م وبعد نهبه لدمشق وحلب، عاد إلى بغداد حيث وجد الحاكم

السّابق قد استعاد سلطته، فزحف عليها وأخضعها ونهب ثرواتها ونصب فوق ركامها هرماً من رؤوس النّاس الذين ذبحهم.

ومنذ ذلك الوقت، بقي الصّراع قائماً بين الأجناس المتصارعة والتُّركمان والفُرس لمدة طويلة. وقد سادت في هذه الفترة حشود التُّركمان المتعطشين للدّماء في حروب ما كان يسمى بإمارة الحمل الأبيض والحمل الأسود[1]، حيث خضعت بغداد لسلطة كل منهما عدة مرّات. وفي عام 1508 م استولى الشّاه إسماعيل الصّوفي على المدينة. ولكونها قد تمزّقت بسبب هذه الحروب المستمرّة، فمن المؤكد أن المدينة قد أصيبت بحالة من الانحطاط، لكنها بقيت مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة، وحسب الرّحالة فقد وصفها المستر رالف فيتش Ralph Fitch في عام 1583 م بدقة، إلا أن ذلك كان تحت اسم بابيلون.

«إن بابيلون ليست بالمدينة الكبيرة جداً، لكنها ذات كثافة سكانية ولها تجارة واسعة مع الأجانب لأنها ملتقى الطّرق إلى مختلف البلاد من فارس وتُركية وجزيرة العرب، ومنها تنطلق القوافل إلى هذه الأماكن وغيرها. وتُعدّ المدينة مستودعاً كبيراً للبضائع الآتية من أرمينيا عن طريق نهر دجلة.

كانت بابيلون في الماضي تابعة لمملكة فارس، لكنها تخضع في الوقت الحاضر للأتراك. وإلى الشّمال توجد قرية جميلة يمكن العبور منها إلى بابيلون على جسر القوارب المثبت إلى سلسلة من الحديد تسهّل العبور السّريع إلى جانبي النّهر. ويتم رفع جزء من الجسر عند مرور بعض القوارب شمالاً وجنوباً».

يُقصد بهذه المدينة بغداد وليس الحلّة أو بابل، ويدلّ على ذلك المقطع التالي:

---

(1) أي إمارة آق قويونلى (ذات الحَمَل الأبيض): من القبائل التّركمانية، حكمت في شرق الأناضول، أذربيجان، فارس، العراق، أفغانستان وتركستان ما بين 1467-1502 م. وكانت عاصمتهم آمد ثم تبريز منذ عام 1468 م. وإمارة قرا قويونلى (ذات الحَمَل الأسود): قبيلة من التركمان حكمت في شرق الأناضول، أذربيجان، القفقاس وبعض الأجزاء من إيران والعراق، ما بين 1380-1469 م. وكانت عاصمتهم تبريز عام 1391 م ثم أضحت بغداد منذ عام 1411 م.

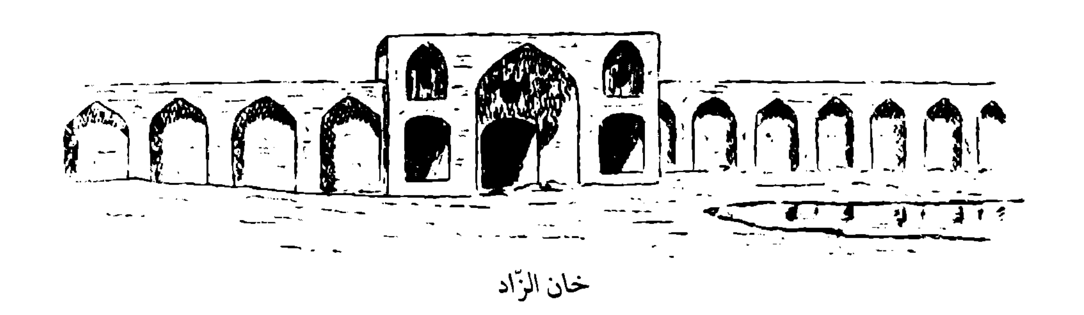
«بني برج بابل على هذا الطّرف من دجلة والمواجه لجزيرة العرب، على بُعد سبعة أو ثمانية أميال من المدينة، والبرج مهدّم من كل اتجاهاته وقد تشكّل من جرّاء سقوطه جبلٌ صغير في هذا الموقع، ولذلك فليس له شكل على الإطلاق. إنه مبني بالطُّوب المجفّف تحت أشعة الشّمس وسعف أشجار النّخيل وبعض العيدان التي حُشرت في الطُّوب. وهو يقوم في سهل فسيح ما بين نهري دجلة والفُرات».

تشير الجملة الأخيرة دون أدنى شك إلى آثار عقرقوف الواقعة بين دجلة والفُرات باتجاه جزيرة العرب، في حين أن بِرس نمرود Birs Nimrud أو برج بابل كما يشير معظم الرّحالين يقع إلى الغرب من الفُرات.

في عام 1624 م و1630 م حاصر الأتراك المدينة، لكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها. وفي عام 1638 م سقطت بيد مُراد الرّابع بعد حصار دام شهرين تقريباً. ومنذ ذلك الحين أصبحت بغداد أرضاً تُركية وعاصمة لجزيرة العرب الخاضعة للأتراك (إن جاز القول). وقد وصفها الكاپتن ألكسندر هاميلتون Alexander Hamilton في بداية القرن الثامن عشر بأنها: «مدينة ضخمة، وهي مقر بكلربك يحكم ولاية عظيمة جداً».



بغداد وجسر القوارب من الضفة الغربية



خان الزّاد

الفصل الثاني عشر
من بغداد إلى بابل والحلَّة

مغادرة بغداد – خان الزّاد – خان المحموديّة – قافلة الحجيج – الكاجَويه – خان بير يونس – الوصول إلى خان حصوة – الطّراز العمراني للخانات العجميّة – النّوم في أحد المقاهي والقلق من البراغيث – مغادرة خان حصوة – مشاهدة آثار بابل – مقابلة اثنين من الأميركيين – الوصول إلى الآثار – بابل – المقيلبة والقصر – عمران بن علي – الذهاب إلى الحلَّة – إصابة امرأة مسنّة.

دقت السّاعة السّادسة صباحاً آذنة بالرحيل، وبعد استعدادي الكامل، ظهر يوسف فجأة في غرفتي ينبئني أن الخيول أصبحت جاهزة للانطلاق. كانت طريقته عمليّة للغاية، وكان يلبس معطفاً جلدياً مناسباً للرّحلة، وبنطالاً جرى تفصيله لرجل بطول ستة أقدام على الأقل، وجوارب وحذاءً برقبة عالية. ولولا عقاله وكوفيّته الحمراء، لظننا أنه رجل من أهل المدينة ذاهب لصيد طيور الطّيهوج. نُقلت كل أمتعتنا إلى الفسحة الخارجية، ثم بدأ الضجيج المعتاد الذي يرافق الاستعداد الشّرقي للرّحيل. لكن القاطِرجي لم يكن راضياً تماماً فقد ادّعى أن الأحمال ثقيلة وأننا بحاجة إلى

حصان آخر، ورفض الرّحيل دون استئجار واحد إضافي. لكن هذا الادّعاء كان واهياً، فالسبب الحقيقي هو أنه يريد وضع حمل قليل على الحصان كي يستطيع ركوبه عند شعوره بالتعب. وبسبب رفضه القاطع ولرغبتنا في مباشرة الرّحلة سريعاً، امتثلنا لطلبه. وفي الواقع لم يكن أمامنا حلّ آخر. أخيراً، وفي السّابعة والدّقيقة العشرين، تم تحميل الحقائب والخيمة والفراش والمؤن، وبدأنا بمغادرة دار المقيميّة ببطء داخل الأسواق الهادئة ثم عبرنا جسر القوارب.

مررنا عبر شوارع الضاحية الغربيّة لبغداد التي تضم عدداً جيداً من النّاس، ووصلنا بعد ساعة وعشرين دقيقة إلى جسر آخر وعبرنا ما قالوا عنه إنه مجرى ماء مرتد من النّهر، لكنه حسب اعتقادي هو مصرف لقناة العقلاويّة العظيمة التي تربط نهري دجلة والفُرات. عبرنا ببطء وتوقفنا عند الجانب الآخر لدفع الرّسوم، ثم قبلنا بسرور من صاحب خان الخرّ Khan Khirr فنجاناً من القهوة.

إنّ البلاد التي دخلناها للتوّ هي سهل مستوٍ فسيح طوله على امتداد النّظر، تحسّ بأرضه الصّلبة تحت قدميك، وهو يمتدّ لأميال عديدة في الأرض التي تقع بين النّهرين العظيمين، والتي كانت تدّر ثروة على البلاد في فترة من الفترات تحت إدارة نشيطة بالرغم من قلة تحديثها. أما الآن، ومع هذه الإدارة للحكومة الشّرقيّة العاجزة، فهو مجرد سهل قاحل لا حياة فيه كالقطب الشّمالي. لكن، ومع تقدّمنا المستمر، شاهدنا أحد أحدث اختراعات العالم الغربي، ألا وهو خط التلغراف الممتد من كربلاء إلى بغداد والحلّة والنَّجَف والبَصرة، والذي تسير بالقرب منه وعلى طول الطّريق حشود الحجاج من بلاد فارس والهند والخليج، وجميعهم متّجهون أو عائدون من مشهد علي ومشهد الحسين التي يُعدّ الحج إليها عند المسلمين الإمامية في الدّرجة الثانية بعد الحجّ إلى مكّة مباشرة. لم نشاهد إلا القليل من الحيوانات البريّة. أما الطّيور فقد كانت ترافقنا بين الفينة والأخرى بأسراب كبيرة من القطا وأخرى خضراء جميلة تقف على خطوط التّلغراف، وهي من فصيلة الرّفراف التي تقتات على ضفادع المستنقعات البابليّة.

وبعد المسير لمدّة أربع ساعات تقريباً، وصلنا إلى أول خان على طريقنا هو خان الزّاد الذي يرتفع كأبنية المساجد، مكسواً بالطُّوب (الآجرّ). ومن المثير للدهشة أن المكان كان خالياً تماماً من السّكان. وخلال تجوالي فيه علمت أنه غير مأهول وفي حالة بائسة. يبدو أن هذه الخانات قد بنيت بهبة من الرّجال الأتقياء كثيري العدد على طول الطّريق، فقد أُسّس خان جديد على سفح السّهل وأخذ الحجّاج يأتون إليه، مما أدّى إلى هجر الخان المجاور وبدء تداعيه. إن خان الزّاد هو الذي وصفه بَكِنغهام بأنه «مزدحم جداً بالحيوانات وأصحابها، بحيث لم نستطع دخوله إلا بشق الأنفس. وهو قادر على إيواء ما لا يقل عن خمسمئة شخص وتزويدهم بالطعام والسّكن». كذلك يصفه لايارد Layard بأنه «صالح للسّكن»، لكنه مهجور الآن بسبب خان المحموديّة الواقع على مسافة أبعد من هنا بمسيرة ساعة ونصف، وهذا الخان لم يذكره من قبل أيّ من الرّحالة الأوائل، ربما لأنه قد بُني حديثاً. يُعدّ خان الزّاد بناءً كبيراً من الطُّوب، تصميمه مربع من جميع الجهات. وفي منتصف أحد الجوانب يرتفع بناء مربع فيه المدخل وأربعة أواوين، زُيّن اثنان منها بأعمال خزفيّة. أما السّور الخارجي المواجه للطريق، فيضم عدداً من الأواوين ذات أقواس واسعة يستطيع المسافر أن يأوي إليها إذا ما امتلأ داخل الخان. كذلك هُجرت الأكواخ العربيّة القليلة التي كانت محيطة بالخان.

بعد مسيرة ساعة ونصف، وصلنا خان المحموديّة الذي كان شبيهاً بالأول، وكان هناك مقهى يقع مقابله. دخلنا المقهى لننال قسطاً من الرّاحة بينما جهز يوسف طعام الغداء المؤلف من لحم الدّجاج البارد والخبز العربي وشراب كركوك اللذيذ. بدأنا بالأكل وعلى مرأى من أنظارنا كان هناك تيار متواصل من قوافل الحجيج الآتية أو المغادرة. أما الحيوانات فأخذت تلوك علفها الطّازج.

للعجم شكل بدائي وخصل شعر متشابكة (كتلك التي نقشت على عملة للإدوارديين الأوائل)، وتراهم ينزعون طواقيهم السّوداء والبيضاء عندما يأتون مُجهدين إلى الخان وهم يجرّون بغالهم المنهكة التي تحمل (الكاجَويه) الثقيل على ظهورها، أو سلتين

كبيرتين تحويان أمتعة المعيشة. يتألف الكاجَويه من صندوقين فوقهما إطار مقوّس ذو ستائر ويستندان بعد ربطهما معاً على طرفي سرج كبير. لقد رأيت في داخل أحدها رجلاً وطفلاً في طرف، وامرأة وطفلاً في الجانب الآخر، وهو حمل ثقيل على حيوان واحد. إن الحمل الاعتيادي هو اثنان من الكبار، لكن على المسافر وحده ملء الجانب المقابل كي يتوازن الكاجويه.

تجلس النّساء بملابس وسراويل زرقاء وبراقع بيضاء فوق سرج كبير كحصير بالٍ تخاله سيقع في أية لحظة. وهن يشكلن جزءاً لا بأس به من جماهير الحجاج. وإن البغال التي تصلصل بأجراسها، والحمير التي تغوص بالكامل بين القدور وأواني الطّبخ بأشكالها المتهدّلة من وعثاء السّفر، وجميع النّاس والحيوانات يسحبها مغناطيس المعتقد الدّيني من أقصى أصقاع العالم الشّرقي للاجتماع بشكل رائع عند بوابات مشهد الحسين ومشهد علي[1].

بعد التوقّف لمدة ثلاثة أرباع السّاعة، كنا خلالها محط أنظار الفضوليين من الأهالي، امتطينا خيولنا سائرين لمدة ساعة وثلاثة أرباع السّاعة حتى وصلنا إلى خان كبير غير مأهول يسمى بير يونس أو بئر يونس أو البئر، الذي وقف عنده النّبي يوسف ليأخذ قسطاً من الرّاحة. لا أستطيع التكهّن بمدى صدق هذا القول، لكن الاسم يلفظ ككلمة واحدة: «بيريونس».

غادرنا المكان ووصلنا إلى الخان الذي سنمضي فيه ليلتنا حسبما أخبرنا يوسف. لهذا حثثنا الدّواب على المضي بخطوات أكبر بينما كان يوسف يسير في المؤخرة مع فرسه الهرمة، وهو يحاول زيادة سرعتها للحاق بنا ويدفعها بمزيج من الشّتائم العربيّة والإنكليزيّة. لقد كان منظره يثير الضحك بزيّه الخارج عن المألوف مع خُرجه الصّغير الذي يحوي حاجيّات السّفر، وهو يتقدّم متعثراً صعوداً وهبوطاً ويضرب بين الحين

---

(1) كتب المؤلف: تقطع معظم هذه الأراضي قنوات قديمة تصل بين الفُرات ودجلة. ويفترض أن تكون بقايا إحدى هذه القنوات القريبة من المحموديّة هي نهر ملكا Malka البابلي. وهي القناة الرّئيسيّة حتى في عصور الخلفاء.

والآخر خاصرة فرسه النّحيلة. خلّفنا وراءنا القاطرجي المسنّ وحيوانات الأمتعة وتركناها لتلحق بنا على مهل.

أخذت حرارة الشّمس بالخفوت، وبدا السّهل الصّلب ملائماً للسّير والجري فوقه لولا السّاعات السّبع التي قضيناها فوق سروجنا تحت أشعة الشّمس الحارقة ونحن في أمكنتنا حتى تصلّبت ظهورنا، إذ كان الخان أبعد مما بدا لنا. وعندما اقتربت السّاعة من الرّابعة والنّصف ونحن نتجه نحو باب الخان، تجمهر النّاس كالعادة لاستقبالنا. نزلنا عن خيولنا بظهورنا المتيبّسة من شدّة التعب وألقينا بأنفسنا فوق الدّكة التي أمام المقهى بانتظار وصول الأمتعة. كان علينا البحث عن مكان للمبيت هذه الليلة. وبعد النّظر داخل الخان، وجدته يعج بالأغنام والعجول والخيول، فاتفقت مع صاحب القهوة أن يدعنا نبيت هنا الليلة مقابل مبلغ زهيد من المال، وبذلك نحظى ببعض العزلة. كان المقهى عبارة عن غرفة كبيرة قذرة، تفوح منها رائحة دخان الموقد ومليئة بالبراغيث، وعلى جدرانها مجموعة من الأواوين المقوّسة، تقطعها دكات بارتفاع قدمين إلى ثلاثة أقدام عن الأرض. فرشنا متاعنا على اثنين منها في حين كان يوسف يعدّ لنا العشاء. ألقينا نظرة حول المكان وألقينا بأجسادنا المتعبة فوق الدّكات أمام المقهى على مرأى من جميع المعجبين.

يتفرّع الطّريق بين بير يونس وخان حصوة حيث نحن الآن، فالذاهب نحو اليمين أو الغرب يصل إلى المُسيِّب وكربلاء والنَّجَف، وهو طريق الحج. أما الطّريق المتّجه نحو اليسار، فيذهب إلى الحلَّة. ويوجد على الطّريقين كليهما بعد تفرّعهما بقليل خان أو نُزل صغير. ومع ذلك يقع كل واحد منهما على مرأى من الآخر. ومن خان حصوة يمكننا بوضوح رؤية مبنى خان الإسكندريّة الشّبيه بالحصن.

تقول الرّوايات المتناقلة بتطرّف أن السّكندريّة أو الإسكندريّة هي مكان ضريح القائد المقدوني، رغم أنه يمكن بسهولة دحض هذه المعلومة، إلا أنه يحتمل أن يكون الاسم يؤرّخ لحادثة معيّنة أثناء حملة هذا البطل. وفيما يخص خان حصوة، فقد أشار أينسوورث Ainsworth بوضوح إلى انطباقه على تسميتي (كوناكسا) Cunaxa

أو (كوناسوا) Kuhnaswa الواردتين لدى كسينوفون وپلوتارخ، وهذا الأمر يتطلب معرفة أكثر لدي كي أستطيع مناقشته، وعليّ الاعتراف بأن تمييز الكلمة العربيّة (خان) من المقطع الأول لاسم قديم هي عملية لا تبدو لي محتملة وأعتقد أن اسم الإسكندريّة قد جاء من مؤسّس معين للخان. لقد ذكر بَكِنغهام أن هذا النُّزُل قد تمّ بناؤه في القرن الماضي على نفقة محمّد حسين خان أمير دولة ملك العجم، وربما يكون هذا مجرّد إعادة بناء.

قمت بجولة داخل خان حصوة وأخذت أتفحّص بإمعان إمكانية السّكن فيه. لم تكن هذه الخانات تشبه ولو قليلاً الخانات التي شاهدتها في شمال سوريّا والفُرات، والتي سبق وصفها بأنها تتكون من بناء خشبي أو حجري يحوي غرفاً قليلة العدد وله فناء متواضع لاستقبال الحيوانات. أما خان حصوة فهو يشبه جميع الخانات الكبيرة في السّهول البابليّة، وهو على الطّراز العجمي، ويُعدّ النُّزل المعتاد للقوافل أو الضيافة العامّة في كل أنحاء البلاد. مدخله شبيه بالبرج، يدخله المرء إلى ساحة مربّعة كبيرة بنيت جدرانها من الطُّوب وعلى جدرانها الدّاخليّة أواوين مقوّسة عميقة، يستطيع المسافر المتعب وضع فراشه فيها وبذلك يتجنّب تعثر حيوانات القوافل فوقه. في وسط هذا الفناء الكبير، دكتان مرتفعتان ومستطيلتان مبنيّتان من الطُّوب ويصل بينهما ممر، لهما نفس أغراض الأواوين حيث يستطيع المرء النّوم فوقهما ليلاً أو التنزه نهاراً بعيداً عن روث وأوساخ الحيوانات. وفي الصّيف حيث يكون السّفر عادة خلال الليل، تقي هذه الأواوين المقوّسة من الشّمس اللاهبة، لهذا يفضّل استخدامها كاستراحة نهاريّة. لكن في الطّقس البارد حيث يكون السّفر نهاراً، فالأمر سيّان، سواء نام المرء تحت القوس أو في العراء، وتمثّل هذه الدّكات وسائل راحة إضافيّة. في بعض الخانات تزوّد هذه الدّكات بمرابط للخيول ولبعضها مكان منفصل أو إصطبل مسقوف حول الأواوين، ويمكن الوصول إليها من الزّوايا الأربع حيث تتسع من خمسمئة إلى ألف ضيف.

لا يمكن التوقع بأن يقضي المسافر الإنكليزي ليلة هادئة في أحد هذه الخانات، بين زعيق البغال ونهيق الحمير وعراك الكلاب المزعج وشخير الحجّاج القوي

والهجمات المستمرة للحشرات، إلا إذا كان معتاداً على الضجّة وعلى هذه المناظر. عندما تركت المبنى، هنأت نفسي بحجز المقهى المريح. كان يوسف مشغولاً وقد تم كنس المكان وإخماد النّار، لكن الرّائحة الخانقة ما زالت تعبق بالمكان. بعد تدخين الغليون، لففنا أنفسنا داخل اثنتين من هذه الفجوات وأخلدنا إلى النّوم.

على الرّغم من كنس الغرفة بعناية، فإنّ هذا «المقهى الصّغير المريح» لم يكن مريحاً البتة. كان يعّج بالحشرات التي تجمّعت لتأخذ مواقعها على أماكن مختلفة من جسدي. ومن هناك تنطلق في رحلات وجولات إلى المواضع الأكثر متعة في أنحاء الجسم، وسرعان ما تعود إلى ملتقاها الخاص. وبعد التوقّف لأخذ القيلولة، تنطلق ثانية للبحث عن نقطة جديدة. ويبدو أن أمتع رحلاتها كانت نحو ركبتيّ وساعديّ وترقوتيّ، حيث نظمت إليها نزهة طويلة.

كان القاطرجي المسنّ مصدر الإزعاج الآخر، والذي انتبهت فجأة إلى أنه ينام على أرض المقهى، فنهضت وأنا من داخل الفجوة وأمرته بالانصراف، لكنه لم يبالِ ولم يخرج إلا بعد أن سقطتُ من الفراش مع الأمتعة وبناطيل الرّكوب وأخرجته من الغرفة. أما يوسف فقد استلقى أمام الباب على بطنه خوفاً من اللصوص، حيث قال إنه ليس من السّلامة أن يخلد إلى النّوم. ولقد رأيته مرة أو مرتين خلال ساعات الليل، عندما اضطررت للجلوس لإبعاد جموع الحشرات عنّي، وهو يدخن بنهم سيجارة كبيرة وكان بنفس موضعه، وقال إن هذه السّيجارة هي لمعالجة سعال ألمّ به، لكنه مضى في سعاله الشّديد. لم أفهم كيف يمكن لسيجارة أن تشفيه.

رغم عدم رؤيتي لأي لص، فإنّ يوسف أكّد لي في الصّباح التالي أن الدَّرَك قد قبضوا على أحدهم وهو يحاول الدّخول إلى المقهى خلسة ليسرق. كان هذا أحد قطاع الطّرق الذين لم يعد يُسمع عنهم الكثير عند السّفر في أنحاء الشّرق.

لم نستيقظ بكامل نشاطنا وسط هذا الصّخب وعراك الكلاب المعتاد، وامتطينا خيولنا عند السّادسة إلا ربعاً من صباح اليوم التالي، حيث كان الجو لطيفاً، فيه بعض البرودة في ذلك الوقت من الصّباح، فأسرعنا لنستطيع كسب أكبر وقت ممكن للتمتّع بآثار بابل.

في السّادسة والنّصف، مررنا ببعض الخيام التي أخبرنا يوسف أنها تعود إلى قبائل Baaj (البعاج). وبعد خمسين دقيقة وصلنا إلى خان النّاصريّة، وهو اسم ربما تكون له علاقة ببلدة النّصّار Nassar التي كانت موجودة في السّابق قرب الكوفة على قناة الهنديّة. وبعد مغادرتنا له، وصلنا إلى مستنقع وحل تنبعث منه رائحة نتنة وكان عبوره صعباً جداً، فقد كان علينا الحرص على السّير فوق الأرض الصّلبة. ومع ذلك تلطخنا بالأوحال مع خيولنا. قادنا هذا الطّريق نحو خان المحاويل الذي يبعد إحدى عشرة ساعة ونصف سيراً من بغداد، وحوالي ساعة ونصف من تلال بابل، التي تشاهد لأول مرّة خلفه. كنا نترجّل عن خيولنا بين الفينة والأخرى، ثم نسير مسافة ميل أو أكثر لنريحها إذ لم يعد لهذه الخيول المسكينة طاقة على السّير، وقد وجدنا عصاتين استطعنا أنا والمستر (C) حثّ الحيوانات بهما على الإسراع. إنه لمن المحزن استعمال هذه الطّريقة في حثّ الحيوانات على المشي قدماً، لكنها كانت الوسيلة الوحيدة إذا ما أراد المسافر تسيير فرسه المنهكة بسرعة مقبولة. بعد مغادرتنا للمحاويل مباشرة، عبرنا قناة وظهر أمامنا على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال أول تل بابلي كبير يسمّيه كلّ من ريتش Rich وبَكِنغهام Buckingham (مقيلبة)، وأينسوورث Ainsworth (بابل). ومن هذا الطّريق يمتد بجهة اليمين صف طويل من أشجار النّخيل على ضفتي الفُرات الطّينيّة. وبالقرب منا على طرفي الطّريق، كانت التلال الصّغيرة تشكل جزءاً من الحدود الشّماليّة للمدينة العظيمة. وقد قابلنا لدهشتنا عند وصولنا هذه التلال مباشرة أميركيَّين عائدَين من بابل إلى بغداد. توقفنا بالطبع لتبادل الحديث، حيث أعلمانا عن أفضل الطّرق للوصول إلى هناك، وبعد افتراقنا اجتزنا بقايا قنوات قديمة كان أكثرها جافاً. وهنا يرى بعض الرّحالة أن هذه القنوات هي آثار الشّوارع القديمة أكثر من كونها مجاري لمياه الرّي، وهي نظريّة ليس لها أساس، كون هذه الآثار لا تختلف كثيراً عما شاهدتُه بين الفَلّوجة وبغداد، والتي لا يمكن أن تكون سوى قنوات مائيّة.

عند العاشرة إلا عشر دقائق تقريباً، وجدن أنفسنا مقابل التل، ولكن نظراً لوجود قناة مليئة بالمياه إلى الشّرق منه، كان لا بد لنا من المسير مسافة قصيرة حولها ثم عبورها

بواسطة الجسر. وحسبما يقول يوسف، فإنّ هذه القناة هي قناة (نهر النّيل) والتي يبدو من كتابات الجغرافيّين العرب عنها أنها قناة كبيرة أو ذراع ممتدّ من نهر الفُرات، ويجري بين تل بابل والآثار الكثيرة الأخرى الواقعة باتجاه الجنوب.

يبدو أن النّيل البابلي كما يشير أينسوورث Ainsworth، هو النّهر الذي أشار هيرودوتس بأنه يقطع بابل ويفصل بين معبد بيلوس Belus والقصر الملكي. وهنا لا أشعر بالرغبة في الدّخول بمتاهات تحديد المواقع، لذا سوف أقنع بالوصف الموجز للتلال المختلفة التي يشاهدها المسافر القادم من الشّمال باتجاه الحلَّة.

بعد عبورنا للقناة، استدرنا لنصعد إلى ضفاف قناة أخرى، وبدأنا نسير فوق أرض منبسطة، وتمكّنا من الاقتراب من التل الكبير من جهة الجنوب.

تبدو هذه الآثار الضخمة للناظر غير الملمّ أنها مجرّد ركام لا شكل له من التراب والمباني المتهدّمة. لكنها مع ذلك أكثر تنظيماً مما تبدو، فهي بشكل مستطيل غير منتظم، يبلغ طوله من الجانبين الشّمالي والغربي حوالي مئتي ياردة، وهي تختلف بشكل كبير من حيث ارتفاع أجزائها، فأعلى جزء منها يبلغ مئة وأربعين قدماً فوق سطح الأرض. وبعد الصّعود إلى السّطح الوعر لهذا التل، وجدت في بعض المواقع غرفاً كُشف جزءٌ منها مؤخراً عن طريق الحفر والتّنقيب. تشبه إحداها الطّراز الذي شاهدتُه في عقرقوف، حيث تفصل طبقات الطُّوب طبقات أخرى من حصير القصب، وقد شاهدتُ هناك ثعلباً هزيلاً يتوارى خائفاً في وجاره. إنها موجودة بكثرة وتطوف في هذه المواقع القديمة[1]. كما كشفت الحفريات عن أحجار عليها نقوش مسمارية، وقطع صغيرة من البرونز.

إنّ هذه الكتلة الكبيرة تبرز بوضوح بين كل التلال الأخرى كنتوء لها بجهة الشّمال، هي المجيلبة (المقيلبة) Mujelibe أو المقلّبة أو المقلوبة كما يسمّيها ريتش وبَكِنغهام.

---

(1) كتب المؤلف: «بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ البومُ بيوتهم. وتسكن هناك بنات النّعام وترقص هناك معز الوحش، وتصيح بنات آوى في قصورهم والذئاب في هياكل التنعّم. ووقتها قريب المجيء، وأيامها لا تطول». سفر إشعيا، 13: 21-22.

بينما يؤكد أينسوورث Ainsworth أن العرب يسمّونها بابل، وهو الاسم الذي تم تبيانه على نطاق واسع، وتحوّل اسم (المجيلبة) إلى موضع آخر. يبدو الأمر غريباً، لكن هذه هي الحالة عند العرب إذ يحوّلون الأسماء ويغيّرونها من مكان إلى آخر. وقد وجد رحّالة مستجّد الاسم (أنانا) Anana وهو الاسم المتداول حاليّاً على بعض الآثار الواقعة على الضفة الغربيّة للفرات. ولمنع حدوث التباس في الموضوع، سأستعمل الاسم الذي أطلقه أينسوورث Ainsworth.

يقول بييترو دِلّا ڤالّه[1] Pietro della Valle وريتش Rich وآخرون غيرهما أن هذا التل يضم برج معبد بيلوس Belus. بينما يرى آخرون أنه يمثّل آثار القصر والحدائق المعلّقة. أما العرب فيعتقدون أنه يمثّل آثار البرج الحقيقي لبابل. ومهما يكن فإنه أثر رائع، ولا بد أنه كان منذ الزّمن الغابر يمثّل أحد المواقع الرّئيسيّة في بابل القديمة. وتدلّ تنقيبات لايارد Layard وآخرين على أنّ جميع الغرف والأضرحة الموجودة أو المكتشفة على قمّة التل لا تنتمي إلى البناء القديم، بل إلى فترة حديثة نسبياً. وتثبت الرّكائز والأسوار المبنيّة من الطُّوب والموجودة في أسفل البناء من جميع الجهات أنه قد تم تشييد صرح ضخم أو أكثر في زمن ما فوق هذا السّهل المنبسط. وتدلّ هذه الآثار الهائلة على أنها بقايا متهدمة من الأبنية الرّائعة التي تعود للأزمنة الغابرة.

وعند النّظر إلى جهة الجنوب من قمة بابل، نرى الخطّ المتعرّج لتلال بابلية الأخرى يقع أحدها خلف الآخر بعدد يصعب عليك إحصاؤه. وبالنّسبة لعين الزّائر القادم حديثاً، فإنه لا يستطيع أن يدرك أي نوع من النّظام والترتيب في هذه المجموعة المتموّجة. وترى نهر الفُرات يمتد على طولها من ناحية الغرب ويتعرّج وسط بساتين

---

(1) رحّالة إيطالي شهير زار بلاد تركية ومصر وفلسطين وفارس والهند في القرن السّابع عشر. حصلت على كتابه المنشور بجزأين في تورينو عام 1843 بعنوان:

Viaggi di Pietro della Valle il Pellegrino, G. Gancia, Torino 1843.

وكذلك حصلت على طبعة فرنسية قديمة:

Voyages de Pietro della Vallé, Gentilomme Romain, Rouen 1745.

وقد يأتي دوره للنّشر في سلسلتنا هذه يوماً ما.

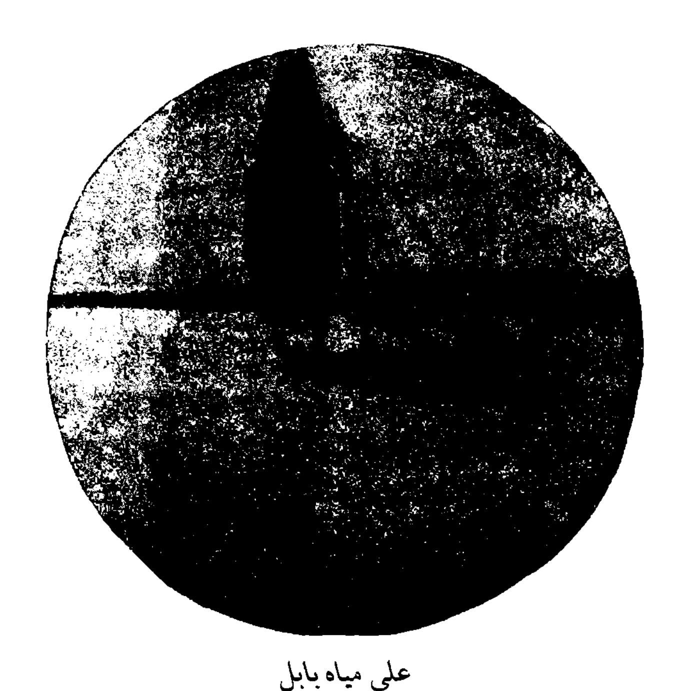
النّخيل الحانية، ويتقلّص عرضه هنا ليصل إلى مئتي قدم فقط بسبب القنوات ومجاري المياه المتعددة القديمة منها وحتى الحديثة، التي تأخذ منه المياه لري الأراضي الواقعة بجهتي الشّرق والغرب، بين الفَلّوجة وهذا المكان. تبدو بقايا العهد الماجد القديم فيها شيء من الفراغ والرّعب، لكن الطّبيعة المحيطة بها ساحرة إلى حدّ بعيد.

غادرنا بابل على ظهور الخيول سائرين مسافة ميل واحد على حافة النّهر، حتى صرنا أمام التلال الوسطى. وهنا أخذنا لأنفسنا وقتاً للغداء، في حين جلس حولنا عدد من العرب وسكان القرى المجاورة يعرضون علينا قطعاً أثرية لشرائها. اشتريت عدداً من الألواح المنقوشة بالكتابات المسماريّة، لكن لم يكن لديّ الوقت للتحقق إن كانت حقيقيّة أم لا، لأنه من الشّائع أن يتم تقليد هذه الألواح وبيعها للمغفّلين على أنها أصليّة. ومن المحتمل أن تكون قد أعطيت لهؤلاء الرّيفيين ليبيعوها. لكن المبلغ الضئيل الذي طلب مقابلها يدحض هذه الفكرة، فسعر لوحين أو ثلاثة لم يتعدّ الرّوبيّة الواحدة، ولا بد أن القطع الأخرى كانت بنفس السّعر. كذلك عُرضت علينا أختام أسطوانيّة ليس هناك شك في أصالتها. أخذ المستر (C) إغفاءة بسيطة على الأرض من شدّة التعب وحرارة الشّمس، بينما جلستُ أدخّن غليوني وأخذتُ أفكر في هذه الأماكن حيث تزدحم في رأس المرء أفكارٌ غريبةٌ عن صور من العهود المشهورة في العالم الواسع الذي نعيش فيه. نظرت نحو النّهر ووجدت قارباً عربيّاً رشيقاً يتهادى برفق بشراعه الكبير مثلث الشّكل فوق المياه، ويدفعه نسيم ربيعي بينما أخذ أفراده ينشدون مما أضفى مزيداً من الجمال على المنظر.

كم سيكون حجم التباين لو استطاع المرء ولو للحظة واحدة أن يصوّر منظر هذا المكان بشكل حقيقي عندما كانت بابل في أوج مجدها. لا بد أن أساطيل السّفن النّهريّة وأرصفة الموانئ والسّدود المزدحمة بحشود البشر الماضية إلى أعمالها، والجسور[1] الفخمة وكتل أبراج المعابد والقصور، ستشكّل كلها صورة رائعة مذهلة للثروة والنّفوذ. لقد تحققت كلمات النّبي فعلاً.

(1) كتب المؤلف: يذكر بلينيوس جسراً حجرياً جميلاً يجتاز النّهر عند بابل

بعد تناول الغداء مشيت بصحبة اثنين من العرب نحو التل المقابل للمكان الذي استرحنا فيه. إنه «القصر» الذي ذكره ريتش وأينسوورث Ainsworth و«المقيلبة» أو «المقلِّب» الذي ذكره لايارد Layard. كان كتلة غير منتظمة من بناء متهدّم من الطُّوب شبيه بتل بابل، مساحته حوالي سبعمئة ياردة، ويبعد أكثر من ميل إلى الجنوب من التل الشّمالي. ينتشر على سطحه الآجرّ اللامع الذي يحوي بعض الكتابات. أما الشّيئان اللذان يلفتان الانتباه فهما الأسد الحجري الكبير المدفون إلى نصفه في الرّمال، وهو معلم من المدينة القديمة يبعث الأسى في النّفس. والأثر الآخر الأكثر إثارة هو وجود



على مياه بابل

بقايا مبنى من الآجرّ ينطبق عليه بالتأكيد اسم «القصر»، وهو الجزء الوحيد من المبنى الذي بقي محفوظاً بين جميع هذه الآثار. لقد وُصف هذا الأثر المهم من قبل الكثيرين، لكنني سأعرض وصف لايارد Layard الموجز والدّقيق عنه:

«في الوسط تقريباً تقوم كتلة صلبة من البناء كاملة دون نقصان. وهي لا تزال تحتفظ

بزخارفها المعماريّة، وتبرز من تحت ركام الرّمال. نستطيع رؤية أساسات ودعامات وأعمدة ذات تيجان، لكن الدّمار كان هائلاً بحيث لا نستطيع أن نثبت إن كانت هذه الآثار تابعة إلى القصر أم إنها واقعة خارجه. وقد بحثتُ عن مفتاح لحلّ هذا اللغز ولكن دون جدوى. كان الآجرّ الأصفر فائق الجودة من حيث صناعته لا يضاهيه أيّ آجرّ آخر في أيّ مكان زرناه سابقاً. لقد تمّ تثبيته بإتقان بواسطة ملاط جيري شبيه بما هو موجود في بِرس نمرود. وقد خُتم على كل قطعة من الآجر بشكل واضح وعميق اسم وألقاب نبوخذ نصّر وتمّ وضع الجزء المختوم إلى الأسفل. كان الشّكل العام العجيب لهذا البناء كاملاً بألوانه الزّاهية ويبدو كما لو أنه قد صُنع بالأمس، رغم أنه كان دون شك مبنى ينتصب بكل زهو في وسط بابل القديمة»[1].

من المحتمل جداً أن يكون هذا التل بدلالة اسم «القصر» عائداً إلى قصر نبوخذ نصّر. ومن الملاحظ أن الآجرّ المستعمل في بنائه هو من أفضل الأنواع، ولهذا السّبب تعرّض إلى أسوأ أعمال التخريب، حيث بنيت أجزاء كبيرة من الحلّة وحتى من بغداد من منتجات هذه الصّناعة. وسواء كانت كلمة «المقيلبة» (أي دار الأسرى) أو «المقلِّب» (أي المتهدّم) صحيحة أم لا، فليس لهذا الأمر أهميّة كبرى، إذ لا يمكن استنتاج أي شيء من الاسم كونه يطلق على أجزاء عديدة من سلسلة هذه التلال.

عدنا إلى ضفّة النّهر، وركبنا خيولنا لمواصلة الرّحلة. يمتّد الطّريق عبر وادٍ من الوديان المسدودة من جهة اليمين أو سدّ طويل يمتّد بمحاذاة النّهر، وهو مغلق من جهة اليسار بتلّ آخر يترك زاويته الجنوبيّة الغربيّة لتل القصر ويلتقي بعد ربع ميل تقريباً من التل الجنوبي الكبير الذي يسمّيه العوام عمران بن علي، على اسم ضريح شيخ شُيّد فوقه. يتابع هذا الطّريق الواسع الذي يصل في بعض الأحيان إلى عرض ربع الميل

(1) كتب المؤلف: انظر كتاب لايارد «نينوى وبابل» 1882 ص287. ويلاحظ أن الصّور التي وردت في هذا الكتاب ذات مقاييس غير صحيح وذلك لوجود جمل صغير في مقدمة الصّورة، مما يجعل الآثار تبدو أكبر من حجمها الحقيقي بعدّة مرّات.
قلت: وقد أنجزنا ترجمة هذا الكتاب الكبير والثمين للسّلسلة، وسيصدر قريباً إن شاء الله.

دورانه حول الطّرف الجنوبي من تلال عمران حيث يمتدّ من الزّاوية الجنوبيّة الشّرقيّة له سدّ آخر، ويدور ليصبح بالقرب من تل بابل الشّمالي. وربما يكون هذا هو أحد الأسوار الثلاثة التي يقال إنها تحيط بالقصر والحدائق المعلّقة. وهناك أشكال داخليّة لسدود ربما تمثّل الأسوار الأخرى.

يبدو تل عمران، الذي يسمّى أحياناً الجمجمة، نسبة إلى قرية عربيّة تقع إلى الجنوب منه، بشكل غير منتظم. وحسب ما ذكر بَكِنغهام فإنّ طوله يبلغ 1100 ياردة وعرضه 800 ياردة وارتفاع أعلى نقطة له 60 – 70 قدماً. ومن خلال موقعه وارتفاعه، يرجح أنه يمثل الحدائق المعلّقة الشّهيرة. وحسب تنقيبات لايارد Layard لا يوجد أي نوع من البناء في هذا الرّكام. وعلى العموم فقد استخدم التل لأغراض الدّفن وما شابه بعد تهدمه بوقت طويل. ومن بين هذه الأشياء التي عُثر عليها كان بعض اللّقى الأثريّة العائدة للاحتلال السّلوقي والإغريقي. بالإضافة إلى هذه التلال الرّئيسيّة الكبيرة، هناك تلال أخرى كبيرة أيضاً، لكنها تقلّ عنها أهميّة. ومن بين هذه التلال تل متعرج ذو ارتفاع قليل يقع بين بابل والقصر، أطلق عليه أينسوورث Ainsworth اسم «المقيلبة» أو «المقلب». لكن يبدو أن هذا الاسم قد أُطلق على كل تلّ من التلال الأثرية، لكن تم التخّلي عنه فيما بعد.

تبلـغ الأبعـاد الكليّـة للمساحة المحاطة بالأسوار، كما ذكر ريتش، ميلين وستمئة يـاردة عرضاً وميلين وألف ياردة طولاً من الشّمال إلى الجنوب. لهذا يتّضح أن المساحة المسـوّرة هي مساحة صغيرة رغم أهميّتها، وتبلغ ربع المدينة التي وصفها هيرودوتس بأن محيطها يبلغ ستّين ميلاً ولها أسوار بارتفاع ثلاثمئة وخمسين قدماً وبسماكة سبعة وثمانين قدماً، وتستطيع ست مركبات ذات عجلات السّير عليها جنباً إلى جنب.

إذا وضعنا في الحسبان احتمال الخطأ والمبالغات الشّرقيّة، فإنّ ذلك لا يمنع من أن بابل كانت تغطي مساحة واسعة من الأرض وأن أسوارها ضخمة. لقد انشغل الرّحّالة بَكِنغهام في البحث عن ذلك وتحمّل مغبّة السّير الشّاق تحت الشّمس الحارقة في شهر

يوليو. وبعد مسيره لمسافة عشرة إلى اثني عشر ميلاً نحو الشّرق، وجد تلاً غريباً يبلغ محيطه ثلاثمئة إلى أربعمئة قدم وارتفاعه سبعين قدماً تقريباً. كانت على قمّته كتلة من الجدران الصّلبة المتهدّمة، لكنها لا تزال ضخمة. يبدو أنها فعلاً بقايا السّور العظيم، إذ لا وجود لأي شكل من أشكال الغرف فيها. ومن المجموعة المتوسطة الكبرى في هذه النّقطة، تغطي الأرض بقايا آثار قديمة. لكن عند النّظر من القمّة باتجاه الشّرق إلى أبعد نقطة يصل إليها النّظر، لا تُشاهد آثار لقناة أو تل. ومن ذلك استنتج نظريّته أن تل (الأحيمر) هو جزء من سور المدينة العظيم. ومن الجدير بالذكر أنه إذا كنا لا نستطيع اقتفاء أيّ أثر له نحو الشّمال أو الجنوب، وبكلمات أخرى، إذا كان هذا حقاً جزءاً من السّور، فإننا لا نستطيع اقتفاء أثره في أي اتجاه. ومن يعارض هذا الرّأي عليه الاعتراف بأنه من غير المعقول عدم العثور على أثر للسّور. تُعدّ المسألة ذات أهميّة جُلّى، ولكن لحين ظهور أيّة أدلة أخرى، فإنها تبقى مجرد نظرية.

عند خروجنا من منطقة الآثار، تبعنا موكب من النّساء والأطفال يعرضون كالعادة مسابح من الخرز وبعض القطع الأثريّة التي وجدوها في موقع الآثار.

كان الطّقس شديد الحرارة كما الحال عندما كنّا نسير بين التلال. وبعد أن حثثنا خيولنا على المسير، انطلقنا بسرعة نحو بساتين النّخيل في الحلَّة. كنت أسير في المؤخرة باذلاً جهدي للحاق بالمستر (C) الذي كان حصانه أشد نشاطاً من حصاني، وإذ بامرأة تظهر فجأة من بين مجموعة الفقراء المنتشرين على الطّريق وتعترض طريقي لتنقلب رأساً على عقب فوق التراب. توقّفت في الحال وصحتُ بيوسف ليعود إليّ. كانت المرأة ترتجف من شدّة الخوف، وقد انفجرت بالبكاء. وأظن بأن بكاءها سببه الخوف أكثر من أي شيء آخر. قلت ليوسف أن يبلغ الرّجال أنني متأسف على ما حصل وبأنني لم أكن مخطئاً فهي التي اعترضت طريقي. استخفّ يوسف بالقصّة فلم يعرها الاهتمام الكبير وأعتقد أنه أبلغ الرّجال أن هذه المرأة هي التي أخطأت واعترضت طريق رجل إنكليزي. كان الرّجالُ مهتمّين بنظر مسيحي إلى المرأة أكثر من الأذى الذي لحق بها، مع العلم أنني كنت أنظر إليها بنظرة عطف ليس إلا.

وما كان منهم إلا أن دفعـوها خلفهم وطلبـوا مني أن أمضي في طريقي. دفعت لهم بقشـيشاً بـدلاً عن الأضرار، حيث لا يُسمح للسّيّدة أن تتناول بيدها أيّ شيء من رجل غريب.

* * *

الفصل الثالث عشر
الحلَّة وبِرس نمرود

الوصول إلى الحلَّة - سيّد حسن - الحلَّة - الانطلاق إلى بِرس نمرود - منظر فريد - اللقاء برحّالين روسيين - البِرس - وصف الأثر - نظرة من فوق - كلام بنيامين التَّطيلي عن البِرس - نظريّات عن أصله - بورسيبا - النّبي إبراهيم والاعتقادات العربيّة - اختفاء مظلتي - قوة الاسم البريطاني - العودة إلى الحلَّة - زوار - حصان يوسف يسبب بعض الحرج - الطّريق إلى المُسيِّب - أولاد مسلم - الوصول إلى المُسيِّب.

استقبلنا عند مدخل الحلَّة رجل عربي مهذب هو صديق سيّد حسن وحللنا ضيوفاً عليه. كان يرتدي أفضل ما لديه من ثياب، واسمه أحمد بن سعد حبّة Ahmed Ibn Saad Hubba، وهو تاجر من تجار المدينة. مشينا برفقته إلى بساتين النّخيل في الجانب الشّرقي من المدينة نحو جسر من القوارب يفوق جسر بغداد في تداعيه. وبعد عبور النّهر، مررنا بأسواق تشبه أسواق بغداد لكنها أقل مستوى، ثم انعطفنا إلى شارع فرعي ودخلنا الدّار التي سنمضي الليلة فيها. ظهر السّيّد بعد قليل وحيّانا بحرارة وصدق كبيرين، رغم أن طباع الفُرس يكتنفها بعض التزلّف والتصنّع بشكل عام. كان السّيّد حسن رجلاً عجميّاً ثرياً، يقطن في كربلاء. لم أكن متأكداً إذا كان البيت الذي استضافنا فيه في الحلَّة ملكاً له أم أنه وُضع تحت تصرّفه من قبل قريب أو صديق. على أيّ حال، لقد تصرف معنا بكل كرم مما لم نشهده قبلاً. يُعدّ السّيّد سليلاً للنبي من ابنته فاطمة زوجة علي كما يدل اسمه. وهذا اللقب يعادل (الشريف) عند السّنّة من المسلمين. يدل مظهره وسلوكه على كثير من النّبل والاحترام، وملامحه دقيقة تدلّ

على الفطنة، وتقاطيع وجهه الأرستقراطيّة تجعله شبيهاً بالنّسر. جبينه عالٍ، ويرتدي عمامة كبيرة باللون الأخضر الدّاكن. ورغم قرابته وانحداره من سلالة النّبي، فإنه لا يكنّ أيّة مشاعر من التعصّب ضد المسيحيين، حيث يشير لطفه وكرمه لأكثر من رحّالة إنكليزي إلى مشاعره تجاه أمتنا. عرض علينا بكثير من الافتخار عدة رسائل تلقاها من سيادة ج. كُرزون مؤلف كتاب «بلاد فارس والمسألة الفارسيّة» والعقيد تويدي[1] Tweedie المقيم في بغداد، ورجال إنكليز آخرين. استضافنا في غرفة مريحة محاطة بالأرائك من جميع الجهات، وقد أمتعنا خدم السّيّد وهم يجلبون تباعاً الكراسي البديعة والعتيقة التي أظن بأنها قد جُمعت من مختلف أنحاء الحلَّة، وذلك بغية إرضاء ذوقنا الإنكليزي.

بعد برهة جاء لزيارتنا بعض وجهاء الحلَّة، ومن بينهم رجل أسود، قال يوسف إنه قاضٍ، واثنان من الموظفين الأتراك. وهنا طلبت من يوسف أن يسأل السّيّد إن كان يعرف أشخاصاً يملكون قطعاً أثريةً من بابل للبيع، وبناء على ذلك حضر رجل يهودي وقد ملأ جيوبه بالرُّقُم والأختام الأسطوانيّة والحلي الصّغيرة البابليّة. كذلك عرض علينا عملة ذهبية جميلة تعود إلى أحد الأباطرة الرّومان كومودوس Commodus حسبما أذكر، لكننا لم نتوصّل معه إلى أي اتفاق لشرائها. وعندما غادر الرّجال، وجدنا فرصة للاستحمام. لقد كان المستر (C) يحمل خيمة مطاطيّة هنديّة تستخدم كمغطس. وبينما كان مستغرقاً بالاستحمام، وقف يوسف عند الباب كحارس خشية وصول أحد وجهاء المدينة ورؤيته لهذا التصرّف البعيد عن العادات الإسلاميّة.

بعد انتهائنا من الحمام، جُهّزت مائدة الطّعام (حيث وضعت عليها السّكاكين والشّوك استجابة لرغبة (C) بأنه لا يريد أن يأكل بأصابعه). كان العشاء فاخراً، وقد اعتذر السّيّد عن مشاركتنا العشاء رغم لطفه وكرمه الكبير قائلاً إن الوقت هو رمضان،

---

(1) هو الميجور جنرال وليَم تويدي Major-General William Tweedie، مؤلف الكتاب الشّهير: «الحصان العربي، موطنه وقومه» *Arabian Horse* المنشور في لندن عام 1894. ولقد أنجزتُ ترجمة هذا الكتاب الثّمين للسّلسلة، وسيصدر قريباً إن شاء الله.

وهو لا يستطيع تناول الطّعام إلا بعد غروب الشّمس. لكنني أظن أن رفضه الأكل معنا نابع من تعصّبه الشّيعي بعدم مشاطرة المسيحيين طعامهم. لكنّه قبل سيجارة قدّمناها إليه، وقد علل ذلك بأنه على سفر وبإمكانه التدخين إذ جاء من بغداد إلى منزله في كربلاء. غادرَنا بعد ذلك، ولم نستطع مقاومة إغراء إخراج قنينة شراب كركوك اللذيذ الذي يُعدّ مطلوباً بعد رحلة يوم طويل، كما أننا لم نرد إخراجها عند تناولنا الطّعام لأننا لا نريد جرح عادات مضيفنا الإسلاميّة. لكنه لسوء الحظ عاد بسرعة، فأخفينا القنّينة تحت المائدة بكثير من الجلبة، وقد أحسست في تلك اللحظة أنني تلميذٌ مشاكس ضُبط وهو يدخّن. لا أعرف بالضبط إذا رآنا السّيّد أم لا، لكنه سأل يوسف إذا أراد الضيوف احتساء شيء من الشّراب الذي يحملونه، فليشعروا وكأنهم في بيوتهم لأنه لا يستطيع تقديمه لهم، ولأن الإنكليز لا ينتهكون التقاليد المتّبعة كالأتراك. جعلنا هذا الكلام نشعر بأننا منافقون، لكننا أذعنّا برصانتنا البريطانيّة المعهودة، وقد طلبنا من يوسف القيام بحيلة وذلك بإخراجه قنينة شراب بطول قدمين من خُرجه لكنها لم تكن تحتوي على الخمر. وبعد ذلك تابعنا تناول البيلاڤ والكباب واللبن، وكان الأمر ممتعاً كما لو أننا في حفلة عرس.

بعد العشاء، عاد السّيّد مرة أخرى ليبادلنا الحديث، وقد كان يوسف يترجم لغته الفارسيّة لجهلنا التام بها. لقد كان يتحدّث العربيّة، لكنني لا أستطيع تبادل حديث طويل معه إذ معرفتي بهذه اللغة بسيطة. وقد تبيّن فيما بعد أنه يتحدّث اللغة الهندوستانيّة، حيث استطاع مستر (C) التحدّث معه. لقد علمنا من خلال الحديث أن الحكم التُّركي غير محبوب من قبل أهالي الحلّة، وكذلك هي الحال في كربلاء. وبشكل عام، فليس هناك من ودّ متبادل بين العرب والأتراك. أما العداء التقليدي بين الفُرس والأتراك فقد ازداد بسبب سيطرة الأتراك على الأضرحة الشّيعيّة المقدّسة لمشهد علي ومشهد الحسين، ويُعدّ ذلك شوكة قاسية في خاصرة الفُرس. كنت أودّ مشاهدة الحلّة بعد وصولي، لكن السّيّد لم ينصحني بذلك بقوله: «إن الحلّة مكان بائس ليس فيه أمكنة تستحق المشاهدة، بالإضافة إلى أن سكانها من الفظاظة بحيث لا يمكنك التجوّل

دون مرافق، وإن عليك الانتظار حتى وصولك إلى كربلاء التي فيها الكثير مما يستحقّ المشاهدة». وحسب بَكِنغْهام فإنّ «أهل الحلَّة يقتلون حكامهم ويغتالون بعضهم ثم يفلتون من العقاب».

تقع الحلَّة، التي يمكن تسميتها بوريثة بابل القديمة، ضمن الحدود القديمة لبابل وقد تم بناؤها من الطُّوب المأخوذ من آثارها. وهي مكان بغاية الأهميّة، تقع على ضفتّي نهر الفُرات الذي يبلغ عرضه هنا أقل من مئتي ياردة وتيّاره معتدل. شكل المدينة جميل وهي تقع وسط بساتين النّخيل ويحيط بها سور ضئيل من الطّين أو الطُّوب. فيها أسواق على جانبي النّهر، إلا أنّ الطّرف الأيمن أكثر اتساعاً ويُعدّ الجزء الرّئيسي منها. عدد سكانها في تزايد، ويشير لايارد Layard أنهم يعدّون حوالي «ثمانية أو تسعة آلاف» بينما يقول غراتون غيري Gratton Geary عام 1878 إن عددهم في ذلك الوقت يقدّر بعشرين ألفاً، لكنني أعتقد أنه رقم مبالغ به نسبيّاً. وأغلب السّكان من العرب، لكن اليهود يشكلون جماعات كبيرة وهي حقيقة مثيرة، فمنذ الأسر البابلي استوطن هؤلاء بأعداد كبيرة في المناطق المجاورة لبابل القديمة. يقول الحاخام بنيامين التَّطيلي الذي تضم كتبه إحصائيات عن عدد اليهود في المناطق المختلفة التي زارها: «يعيش عشرون ألفاً من اليهود داخل منطقة تبعد عشرين ميلاً عن هذا المكان، (أي بابل) ويؤدّون عباداتهم في كنيس دانيال الذي يرقد بسلام». أما قوله الذي يثير الدّهشة فهو: «تضم الحلَّة حوالي عشرة آلاف يهودي وأربعة كُنُس». وهذا عدد قد يساوي ثلثي مجموع السّكان. كما يقول إن بغداد تضم ألفاً من اليهود. بينما يلاحظ بَكِنغْهام أن هذا معاكس تماماً للحال في عصره، حيث يُقدّر عدد اليهود بعشرة آلاف في بغداد وألف في الحلَّة. ويقول أيضاً: «يبدو أنه قد حصل تغيير في الأماكن دون زيادة أو نقصان في الأعداد الحقيقيّة في كل من المدينتين».

في الصّباح التالي، نهضنا باكراً واتجهنا نحو بِرس نمرود. لقد كتبته باسم (بِرس) لأنه اللفظ الوحيد الذي سمعته سواء في الحلَّة أو في الموقع عينه. لا يوجد أي كاتب أو رحّالة أعرفه كتب الاسم على خلاف ذلك، لهذا فإنّ السّؤال المطروح هو: هل

تغيّر اللفظ مؤخراً؟ لا يحمل اسم نمرود الذي يستعمل أحياناً، أي دليل أكثر مما يحمله عندما يُطلق على الأثر الموجود قرب بغداد المسمّى نمرود أو عقرقوف. وحالما خرجنا من سور الحلّة مباشرة، شاهدنا على الطّريق الممتد بالاتجاه الجنوبي الغربي مرتفعاً فوق الأرض الصّحراوية، وهو التل الذي نبحث عنه. كان يبعد عن الحلّة خمسة أو ستة أميال تقريباً، وهو يبدو من هذا البعد كأنه هرم متهدّم أو أطلال برج له نفس الأبعاد، بحيث يجعل من السّهل معرفة كيف أخطأ العديد من الرّحّالين فعدّوه برج بابل الحقيقي. عدونا باتجاهه فوق الطّريق القاحلة، وكان حجمه يزداد أمام أنظارنا مشكلاً منظراً غير اعتيادي في هذه المنطقة. وفي الواقع لم يكن في نيتنا المضي إلى مسافة أبعد من ذلك حيث تصبح الأرض موحلة ومستنقعيّة، وعلينا في الحال القيام بانعطافة كبيرة لتجنّب الخوض في بحيرة واسعة شكلها فيضان نهر الفُرات، أو بالأصح فرع من النّهر المسمّى قناة الهنديّة أو بورسيبا. قديماً كان يتم ضبط هذه المستنقعات إلى حدّ ما، التي تتكون في الشّتاء والرّبيع بين الحلّة والبِرس، بواسطة شبكة منتظمة من القنوات تقوم بحمل الماء الفائض بعيداً ويستفاد من ذلك في إنتاج الحبوب والزّراعة. لقد جفّت معظم قنوات النّهر حاليّاً وأخذت مياهه تغزو المناطق القريبة محوّلة الطّرقات إلى طرق موحلة يصعب التنقل فوقها.

بعد الدّوران حول هذه البحيرة، اتجهنا نحو الغرب وسرنا إلى مقصدنا الذي لا يبعد عنّا سوى مسافة قليلة. وهنا اعترضت طريقنا قنوات جديدة لم يكن من السّهل اجتيازها إذ تصل مياهها إلى بطون خيولنا عند النّزول إليها. وهنا التقينا ببعض الفقراء العرب الذين أخبرونا بأن هناك عدداً من الأوروپيين من الإنكليز أو الفرنسيين يخيّمون في هذه المنطقة. ورغم عدم معرفتنا بهويّة هؤلاء الأشخاص، فقد كان هذا خبراً سارّاً جعلنا نسارع للقائهم والتعرّف إليهم.

وبعد التفافنا حول قاعدة التل الكبير الواقع إلى الشّرق من البِرس الحقيقي دون أن يرتبط به، وصلنا إلى أرض فسيحة تقع بينهما. وهنا شاهدنا خيمة وجموعاً من البشر، اتّضح أنهم مجموعة الرّحّالين الأوروپيين الذين سمعنا عنهم للتوّ. سرنا نحوهم

فوجدناهم يستعدّون للرّحيل بالرغم من أن السّاعة كانت لا تزال الثامنة والنّصف، لكنهم كانوا يحمّلون أمتعتهم فوق البغال التي بلغ عددها حوالي العشرين، كما كان هناك حشد من سائقي البغال والخدم والمترجمين، وهم يصيحون ويشيرون بطريقتهم المعتادة عندما يريدون الرّحيل. في وسط هذا الحشد كان هناك اثنان من الرّوس واقفين بأناقة، ويلبسان القبعات الشّمسيّة وبناطيل الرّكوب الأنيقة والأحذية اللماعة، مع السّجائر المعطرة بين شفاههما. كانا وكأنهما قد خرجا لتوهما من بين الأشجار المداريّة وليس من أطلال مدينة قديمة في وادي بلاد الرّافدين، تبعد سبعين ميلاً عن أي مكان. شعرت بأنني غير نظيف وغير مرتّب بملابسي المتّسخة وحذائي غير الملمّع وأنا أحث فرسي المسكينة على المضي أمام هذين الموسكوفيين الوسيمين. ترجّلنا عن خيولنا للحديث معهما ووجدنا أنهما يتحدّثان الإنكليزيّة. وكان أكبرهما، الذي يدلّ مظهره على أنه أحد البارونات، يتحدّث اللغة بطلاقة ودقة عالية. لقد سبق لصديقي مستر (C) أن التقى بهما في الهند، ولذلك تم تجديد التعارف. كانا قد مكثا هنا لمدة يومين وهما مغادران الآن إلى بغداد ومنها سينطلقان باتجاه الموصل، ثم عبر سنجار إلى الدّير ودمشق. لقد دهشتُ إلى حدّ كبير عندما علمت أنهما يرغبان بنقل جميع هذه الأحمال والأمتعة التي تضم الملابس الفاخرة والشّمپانيا عبر صحارى بلاد الرّافدين وسوريّا، إذ سيكونان بدون شك غنيمة دسمة لعرب شَمَّر وعْنِزَة. بالإضافة إلى ذلك، إذا أرادا القيام بهذه الرّحلات عند التاسعة صباحاً، فإنهما سيحترقان تحت حرارة الشّمس اللاهبة. لقد كانا رجلين طيبين رغم آرائهما الخاصة حول الرّحلات في بلاد الشّرق. وقد سمعت فيما بعد أنهما عادا واستأجرا حيوانات من بغداد للقيام بالرحلة، حيث قام سائقو البغال بإضراب ضدهما، ولقد توجّب عليهما دفع مبالغ خرافيّة طائلة من أجل تجهيز القافلة للقيام بالرحلة.

وعندما تركناهما، وجدناهما يمتطيان حصانيهما القيّمين، ثم اختفت القافلة كاملة وسط غيمة من الغبار، تاركين البِرس لنتفرج عليه دون إزعاج من أحد. لمحنا شيئاً أبيض ممدّداً بالقرب منّا، وعند الاقتراب منه شاهدنا طيراً كبيراً من البجع كان الرّجلان

قد قاما باصطياده، وكم تشكل هذه الهواية ضرباً من الوحشيّة لأن لحم البجع لا يصلح للأكل أو لأي شيء آخر.

وصلنا إلى البِرس من جهة الجنوب وبدأنا بالتسلّق نحو القمّة. كان شكل التلّ من هنا ومن جميع الجوانب عبارة عن كتلة متهاوية وغير منتظمة من مواد البناء، وكان صعباً ملاحظة أي شكل محدّد له. يمكنك رؤية أكوام الطُّوب المتكسّرة ملقاة هنا وهناك وفوقها قطع خزفيّة وسطوح بارزة للآجرّ المستخدم في بناء الأسوار، ممّا يدلّ على وجود جزء من البناء داخله. كانت الجوانب الجنوبيّة والغربيّة والشّماليّة شديدة الانحدار، لكنها سهلة التسلق. أما الجانب الشّرقي فيمتدّ فوق آثار أقل ارتفاعاً منه إلى الأسفل لكنه مرتبط بالكتلة الرّئيسيّة. وعلى قمّة المخروط الذي يبلغ ارتفاعه حوالي مئة وستّين قدماً، كتلة متهدّمة من الطُّوب بارتفاع نحو أربعين قدماً وبسماكة عشرين وعرض ثلاثين على ما أظن[1]. لكنها كانت مقسومة إلى نصفين بواسطة صدع كبير، حيث تبيّن واجهة الطُّوب أنها جزء من السّور الغربي، لكنها متقطعة ومتصدّعة من القمّة والجوانب. تقع إلى الخلف من هذا المخروط كتل ضخمة من مواد تشبه الخبث المصهور ممزوجة كلها لتكوّن أجزاءً من بناء قد تحول ليصبح كالزجاج وتماسك بشكل كتلة صلبة بفعل الحرارة الشّديدة، لكن صفوف الطُّوب لا تزال ظاهرة في هذا البناء. ويوجد في الجزء الممتد من التل الواقع عند القاعدة الشّرقيّة مجموعة من الغرف المبنيّة من الطّوب والتي عبثت يد المنقبّين فيها حديثاً. يبدو أن البِرس قد تم بناؤه من الطُّوب المشوي داخل الأفران. وقد كُتب على كل قطعة طوب اسم نبوخذ نصّر[2].

عند النّظر من فوق قمة الرّكام، يمتد أمامك منظرٌ مترامٍ وملفتٌ للنظر. فبعيداً بجهة

---

(1) كتب المؤلف: يقول لايارد Layard إن ارتفاعه 37 قدماً وعرضه 28. أما بَكِنغهام فيقول إنه بارتفاع 50 قدماً وعرض 30 وسماكة 15.

(2) راجع ما مرّ في كتاب «مدينة في الرّمال»، كيف اكتشفت مدينة إشنونّا السّومريّة عن طريق العثور على ألواح طوب في تل يدعى «تل أسمر»، عليها نُقش اسم الملك إبق أَدَد ثم تبيّن أن كل لوح طوب في مبانيه كان يحمل اسمه.

الشّمال ترى البحيرة الخضراء الكبيرة التي تشكلت بفعل فيضانات مياه الرّبيع القادمة من أرمينيا. أما إلى اليسار والغرب فتجري على مسافة ليست ببعيدة قناة الهنديّة، التي بسبب امتلائها بالمياه لا تبدو أقل اتساعاً من النّهر الأصلي نفسه. وإلى الشّرق من هذا المكان يقع تل الرّمال الكبير الآخر الذي ينخفض عن الارتفاع الذي نقف فوقه. وإلى الجنوب وعلى مسافة سبعة أميال تقريباً، ترتفع في السّهل بعض أشجار النّخيل التي تظلل ضريح حزقيال المسمّى «الكفل». يبدو أن هذا اللفظ اختصارٌ لعبارة: «كِفل اليهودي» Kiff el Yahudeh أي «ضريح اليهودي»[1]. ويمتّد السّهل على مدّ النّظر من كل جوانبه، حيث لا يقطعه أي أثر ضخم من الحضارة القديمة أو أي شيء من الحضارة الحديثة. لاحظت بعض العرب يدورون كالفزّاعات حول الأثر وهم يراقبون تحرّكاتنا، وعندما نظرت إلى جهة الشّمال لمحت اثنين من بنات آوى يفرّان خلسة. ما عدا ذلك، كان المكان خراباً مقفراً[2]. وبسبب المزيّة التي يتمتّع بها هذا الأثر، فمن الطّبيعي أن يعتقد الكتّاب الأوائل أنه هو نفسه برج بابل. ويُعدّ التقرير المميّز الذي كتبه بنيامين التّطيلي والذي اقتبسه جميع من كتب حول الموضوع ذاته، في غاية المتعة والأهميّة. فلقد كتب: «على بعد أربعة أميال من هذا المكان (الحلّة) قامت أقوام متفرقة ببناء البرج. تم بناؤه من الآجُرّ al Ajurr. ويبلغ قياس القاعدة ميلين وعرضها مئتين وأربعين ياردة، وارتفاعها حوالي مئة قنّة. وقد تم بناء ممرّ حلزوني داخل البرج (بدرجات طول كل واحدة منها عشر ياردات) تؤدي إلى القمّة، حيث يمتّد أمام أعيننا منظر على امتداد عشرين ميلاً تكون فيه الأرض واسعة ومنبسطة تماماً. لقد وصل الشّق الذي ضربت به النّار السّماويّة البرج إلى أسفله».

---

(1) كتب المؤلف: يبين بَكِنغهام أنه يمكن مشاهدة (المقيلبة) أي (بابل) من القمّة في الشمال الشرقي نحو الشمال وعلى بعد عشرة أميال. كما يشاهد مسجد الشمس والحلّة إلى الشمال الشرقي ونحو الشرق على بعد خمسة أميال. ويشاهد كفل اليهودي إلى الجنوب على بعد سبعة أميال.

(2) كتب المؤلف: تتواجد الطيور والحيوانات بكثرة حول البِرس. وفي ساعات معدودة شاهدت طيور البجع والإوز البرّي والأرانب وبنات آوى.

لقد خرج كل من بَكِنغهام وريتش بنظريّة تقول بأن البِرس يمثّل بقايا المعبد البابلي أو برج بيلوس Belus، وقد لاقت هذه النّظريّة القبول بشكل كبير. لبرج بيلوس ثماني درجات، الواحدة خلف الأخرى وكأنها سّلم ضخم، ولقد أحصى بَكِنغهام منها أربعة على البِرس، أما الباقية فقد اختفت. وقد وافق أوپرت Oppert ورولنسون Rawlinson على هذه النّظريّة وقدّم لايارد Layard مخططاً[1] تخيلياً عن البِرس وفق الأسس ذاتها لكنه لم يحاول مطابقتها. وفي الآخر يقول أينسوورث Ainsworth إنه لا يتعلق ببابل إطلاقاً، بل هو بقايا لمدينة مجاورة تدعى بورسيبا Borsippa، وهي نظريّة صادق عليها السّير هنري رولنسون تقريباً عند عثوره على رُقم أسطوانيّة طينيّة في الرّكام تعود إلى بورسيپا. وهذا الاسم الذي يكتب بأشكال مختلفة: بورسيف Bursif أو بورسف Borsiph، أو بارسيتا Barsita أو بيرسيا Byrsia، لعلّه يكون المصدر الذي جاء منه الاسم الحالي «بِرس». والأمر الأكثر احتمالاً هو أن يكون هذا الأثر الغريب في الواقع بقايا معبد مخصص لبيلوس ومبني بنفس الأسلوب الذي بني به معبد بابل. عند زيارة بَكِنغهام للمكان، استفسر من بعض العرب عن أثر يدعى بروسا Brousa أو بورسا Boursa، حيث كان يتوقّع أن يجد أثراً آخر، لاعتقاده أن البِرس هو معبد بيلوس البابلي. لكن العرب الذين سألهم أكّدوا له، باستثناء واحد منهم فقط، أن البِرس وبورسا هما تسمية واحدة «لكن بطرق مختلفة للفظ الاسم ذاته». بينما أكّد أحد العرب الذي كان يسعى وراء حصوله على مكافأة، أن هناك أثراً موجوداً على بعد مسير أربع ساعات بالاتجاه الجنوبي الشّرقي. لكنني لم أتمكن من معرفة أية معلومات عن هذا الموقع، لذا ربما تكون هذه المعلومة غير صحيحة.

وبالمناسبة فإنّ بيرسيا أو بورسيپا هي المدينة التي عرّج عليها الإسكندر عندما حذّره السّحرة الكلدان بألا يدخل بابل من جهة الشّرق، لهذا قام باجتياز الفُرات ليدخلها من جهة الغرب، لكنه توقف مرغماً إذ اعترض طريقه مستنقع ومنعه من

---

(1) انظر كتاب «نينوى وبابل» قصة البعثة الثانية لبلاد آشور، السّير هنري لايارد Layard، لندن 1882.

المضيّ إلى وجهته. يعزز هذا الأمر نظريّة بورسيبا حيث تقع شمال البِرس مناطق شاسعة من المستنقعات التي شكلتها قناة الهنديّة، والتي تمتد إلى شمال غرب الحلَّة على طول ما يفترض أنه الحدود الغربيّة لبابل القديمة.

كانت الوضع المتميّز للبناء المنصهر في القمة كافياً لجعل الرّحّالين الأوائل يدونون أن هذا الأثر هو بابل. ومن المؤكد أنه يبدو كذلك بعد الأخذ بعين الاعتبار السّور المتصدّع بفعل النّار الإلهيّة أو البرق، حيث نشأت عدّة نظريّات حول الموضوع. وكان من الأفضل القيام بفحص علميّ دقيق لهذا الأثر الفريد.

تجوّلنا حول البِرس وحذرنا الفزاعات الذين كانوا يدورون معنا ويلازموننا كظلنا، بألا ينزعوا قطعاً من الطُّوب بهدف إكرامنا. نزلنا بعد ذلك أسفل التل وأبلغنا يوسف أن يلحق بنا بالغداء إلى مكان مريح من التل الآخر، ثم انطلقنا للاستطلاع. كان يوسف منهمكاً بعمله، بينما مشينا في هذا المكان الواسع الذي يفصل بين التلين والذي ربما يبلغ عرضه حوالي ربع الميل (وأنا أتحدث من الذاكرة). يشبه هذا التل تل بابل إلى حد كبير لكونه مستطيل الشّكل ومتناسق الأضلاع[1]، وهو أثر يقع شمالي آثار بابل. سطحه متعرّج حجري، تكثر فيه قطع الطُّوب في بعض الأماكن، ومغطى بالأنقاض الملساء في أماكن أخرى، مما يشكّل صعوبة في السّير عليه. صعدت فوقه، لكنني لم أجد أثراً لأي بناء آخر رغم أن الأرض مكسوّة بالكامل بقطع الطُّوب وشظايا الأواني الخزفيّة. على قمّته مزاران صغيران، كان المزار الأكبر ضريحاً صغيراً ذا قبّة ومزدحماً بالزوار العرب. وعند الاستفسار علمت أنه مزار «النّبي إبراهيم» الذي يقدسه العرب في هذه الأنحاء، حيث يعدّونه من أماكن الزّيارة المفتوحة طوال أيام السّنة. والواقع أنه هناك حكايات تناقلتها الأجيال عنه، وإليكم بعضاً منها: أخبرني السّيّد حسن عند عودتنا إلى الحلَّة أن نمرود الذي كان عدوّاً لإبراهيم أو أبراهام قد حاول قتله بإلقائه في النّار. لذلك تم بناء محرقة هائلة، وكان إبراهيم على وشك القتل والحرق، عندما

---

(1) كتب المؤلف: يقول بَكِنغهام إن طوله يبلغ ربع ميل، وعرضه فرلنغ furlong (حوالي ثُمن الميل).

تدخّلت العناية الإلهيّة تحوّلت هذه النّار المستعرة بمعجزة إلى أزهار متبرعمة[1].

هناك قصة أخرى سمعها يوسف من العرب أثناء وجودي في المكان ومفادها أن ملك هذا المكان (يفترض أنه حسب الحكايات العربيّة، نمرود نفسه) ونتيجة تعطشه الجهنمي للدماء، أمر ببقر بطون جميع الحوامل. لذلك هربت أمّ إبراهيم خوفاً من هذا العمل الهمجي واختبأت في هذا المكان المقدّس، وهنا كانت ولادة الشّيخ الجليل. أظن بأن هذه الأساطير كغيرها يكتنفها نوع من السّذاجة.

ينتمي العرب الذين يعيشون في هذا المكان إلى قبيلة خفاجة[2]، وعند الضريح ترى العديد من الرّجال والنّساء من فقيري الحال وقليلي العلم. كان عدد منهم يجلسون داخل المبنى الصّغير يصلون ويقرأون القرآن، أما الجدران فكانت مغطاة بالرّسوم البدائيّة والصّور. قام يوسف بإعداد طعام الغداء أسفل الجدار الغربي، لكن الرّيح العاتية التي هبّت على المكان أحالت طعم الدّجاج والتّمر والخبز إلى طعم رديءٍ غير مستساغ. وهنا تجمهر عدد من السّكان العرب حولنا واحتشدوا تحت ظل الحائط بطريقة تدعو إلى العجب. لم يكن رفيقي في السّفر يستطيع تفهّم سبب تواجدهم هكذا، لكنني شرحت له الأمر قائلاً أنه لو جاء اثنان من قبائل الزّولو وجلسا يتناولان طعامهما أمام ضريح القديس بولس، لكان بالتأكيد سيتوقف لإلقاء نظرة عليهما إذا صادف ومرّ بالمكان. ورغم أنني دافعت عن أولئك العرب، فلعلهم لا يستحقون ذلك، إذ لمّا هممنا بالرحيل، لم أجد مظلتي التي أعتمد عليها كثيراً، كوني لا أملك قبّعة تقيني حرّ الشّمس. وهنا قبعت على متن حصاني مقطّب الجبين وأنا

---

(1) كتب المؤلف: قصة إلقاء إبراهيم في النّار موجودة في القرآن، في سورة (الأنبياء). وقد أعدّوا هذا العقاب لإبراهيم لأنه حطم آلهتهم. يقول المعلقون على القصة إن النّار تحوّلت إلى مرج أخضر يسرّ النّاظرين. انظر "Sale's Koran".

(2) حول التنقيب في هذا الموقع الأثري بقرية خفاجة، راجع ما مرّ في كتاب «مدينة في الرّمال» للآثارية البريطانيّة ماري تْشَب، التي تروي أخبار اكتشاف مدينة إشنونّا السّومريّة، وآثار خفاجة، وقناة جروان التي أنشأها الملك الآشوري سِنَّحريب ابن شارُكين (سَرغون). وقد أنجزنا نشر الكتاب ضمن هذه السّلسلة.

بحالة من الغضب صببته على كل المحتالين والعيّارين. تجوّل يوسف والقوّاص في المكان وفتّشا عباءات النّاس وداخل الشّقوق الأثرية، وجلبا الشّيخ المسؤول عن الضريح فاستجوباه وهدّداه، لكن دون جدوى. وفي النّهاية ذهب صديقي إلى المقدّمة والغضب يشتعل في عينيه وبكل حزم أبلغ الشّيخ المتهالك بصوت قوي كالرّعد أنه إذا لم تظهر المظلة فإنّ الپاشا في بغداد مع المقيم البريطاني سيتقدّم بجنوده الأتراك ويسحق البِرس المقدّس وساكنيه، وربما يسوّي أيضاً ضريح النّبي إبراهيم بالأرض بحيث لا يبقى منه شيء، وسيروي هذا المكان للأجيال القادمة قصّة ما حصل. وفي خلال لحظات، أخذ الجميع يتحرّكون بنشاط بأجسادهم المرتجفة ويفتشون المكان. وفجأة علت صرخة من أحد فزاعات الطّريق وسحب مظلتي المسكينة القديمة التي اشتريتها من شارع أوكسفورد، من تحت كومة قش قذرة حيث تم إخفاؤها منذ خمس دقائق فقط، ولولا بديهة صديقي، لبقيت قابعة هنا بهيكلها المعدني في صحراء بابل كبغل قافلة متعب. ولكن ها قد أعيد الاعتبار لمجد بريطانيا العظمى، فغادرنا متوجهين إلى الحلَّة

قضينا فترة المساء في منزل السّيّد حسن، حيث أحضروا لنا العشاء المؤلف من الحساء والكبّة والپيلاف (أرز ولحم مع التوابل) والخضراوات المتنوّعة، وقد اعتذر السّيّد عن هذا العشاء البسيط قائلاً إنه لو كان في منزله في كربلاء، لقام بواجب الضيافة على وجه أكمل. وبعد العشاء تحادثنا معه مطولاً، وكنت في أشد العجب من الطّريقة التي يضع بها قدميه تحته مع أنه يجلس على كرسي اعتيادي دون أدنى شعور بالمضايقة أو الارتباك. كان معظم الحديث يدور عن الحكومة التُّركيّة، طبعاً بمساعدة يوسف، وعن حالة البلاد. سألناه لماذا لا يزور إنكلترا، فزيارتها سهلة، وذكر له مستر (C) أن هناك مؤسّسة في لندن تستقبل الشّرقيين الذين يحتاجون إلى مساعدة، لكنه لسوء الحظ أحسّ بإهانة شخصيّة فأجاب بحزن: «الحمد الله، إنني غني بما فيه الكفاية، وإذا ما زرت هذا البلد العظيم، فسأفعل هذا الأمر مع حاشيتي والخدم التابعين لي لأنني لست بحاجة لمثل هذه المساعدة». بعد ذلك أخبرناه عن سكّة الحديد المعلقة، مما

أثار دهشته، وحدّثه (C) عن السّفر بالمنطاد الذي سبق وجرّبه، وقد دُهش إلى حد كبير بهذه الأخبار. ورغم أنني أعتقد أنه لم يكن يصدّق الكثير مما قلناه، فقد كان في غاية التّهذيب بحيث لم يظهر لنا ذلك. لكن يوسف كان أقل تهذيباً، فعندما كان ينتهي من الترجمة لحكاية أو نادرة من النّوادر الفارسيّة لمضيفنا كان يقول من نفسه «كفى هراءً»، أو «أعتقد أن كل ذلك كذب».

بعد قليل جاء رجلان من المدينة يرتديان زيّاً فاخراً. كنا نظن أنهما قادمان لزيارتنا بشكل رسمي، لكن اتضح أنهما كانا يريدان استشارتنا عن ساعة ألمانيّة يبدو أنها رديئة ويريدان شراءها. أخبرتهما أن قيمة السّاعة في قدرتها العالية على ضبط الوقت سواء كانت أوروپيّة أو شرقيّة. فإذا كانت ساعة أوروپيّة لا تعمل، فهي لا تساوي شيئاً كأية ساعة شرقيّة لها نفس الوضع.

كان الجزء الأكبر الذي يدعو إلى الإرهاق عند الحديث إلى رجل فارسي من الطّبقة العليا، هو العبارات المنمّقة التي ينبغي تلقّيها وإعادتها بالوزن ذاته. كان السّيّد يتمتع بكثير من اللطف والكرم، والحقيقة تقال إنه بالرغم من لطفه وكرمه، فقد كنّا نحس بالإرهاق من الحديث الطّويل معه. كانت آخر فقرة في برنامجنا المسائي هي زيارة من أحمد والقاضي، وقد حافظنا نحن الخمسة على نوع من المباريات المطولة في الثناء لمدة ساعة تقريباً. لقد حاولت ومستر (C) شحذ تفكيرنا لانتقاء أفضل عبارات الإطراء، لكننا لم نستطع مجاراتهم في أدبهم ولطفهم. لذلك أكملوا الحديث مع أصدقائنا الشّرقيين الذين كانوا أكثر مهارة منا في هذا النّوع من المباريات نحن السّكسونيين المساكين. وعندما انتهت الزّيارة، انسحبنا بعدما أصابنا انهيار في أعصابنا، وأحسسنا أن كل الأدب الموجود في رؤوسنا قد استنزف في خضمّ هذا العراك العنيف، وكنا مستعدين لإعطاء ثروة العالم كله إذا سُمح لنا بالخروج إلى الشّارع لنكيل الإهانات قولاً وفعلاً لأول من نصادفه من النّاس.

لم نتمكن من فهم السّبب الحقيقي من وراء زيارة للقاضي إلا حتى التاسعة والنّصف، حيث علمنا أن أحمد والقاضي هما وفد من حاكم الحلّة القلق جاءا ليستفسرا عن

سبب وجودنا، حيث زار الكثير من الأوروبيين الحلَّة في السّنوات الأخيرة. ويبدو أن تفكير الحاكم قد قاده للشك بأن وراء الاهتمام بالآثار غاية شريرة مبيّتة من قبل زيارات الإنكليز المتكررة إلى آثار بابل. اقترح القاضي عندها أن نقوم بزيارته، لكن الوقت كان متأخراً ومن الضروري أن نغادر في الصّباح الباكر من اليوم التالي، لذلك اعتذرنا وأرسلنا القوّاص ليقدّم له احترامنا ويفصح له عن هويّتنا وسبب زيارتنا إلى الحلَّة.

وفي السّادسة من صباح اليوم التالي ودّعنا السّيّد حسن، الذي كان متّجهاً إلى كربلاء قاطعاً قناة وبحيرة الهنديّة. وخرجنا من الحلَّة باتجاه تلال بابل، في التاسعة والنّصف. وبعد مرورنا بالقرب من هذه التلال، وصلنا إلى خان المحاويل، حيث أجبرنا الطّقس الرّديء من رعد وبرق ومطر غزير إلى التروّي والاختباء لمدّة نصف ساعة تقريباً. لقد هطلت الأمطار بغزارة شديدة، بحيث كان معطفي الطّويل ذا فائدة كبيرة لي. وحال دخولنا إلى الخان للتّدخين، تراجع حصان يوسف الذي كان يحمل غداءنا إلى الوراء، ثم قصد زاوية مظلمة وبدأ يتقلب على الأحمال المهمّة بفعل لا مبرّر له البتّة.

اجتمع النّاس حولنا كالعادة وبدأوا بإعطائنا إرشادات عن الطّريق الواجب سلوكه. لكن النّصائح لم تكن مشجّعة، لأن الطّرق كما قالوا مليئة بالمستنقعات والأوحال، ونحن بحاجة إلى دليل كي يرشدنا إلى الطّريق السّليم بعيداً عن الأفخاخ والشّروك. لكننا دون ريب سنغوص في الأوحال وستأكلنا طيور السّماء وحيوانات البحر، أو أننا سنغرق ونموت كما غرق فرعون وصاحبه بسبب قوة تدفق المياه. إضافة إلى ذلك، فالطريق مليء باللصوص الذين ليس لديهم ذمّة أو رحمة، ومعهم رماح كبيرة بطول خمس ياردات، وهم متعطشون إلى الدّماء ومستعدّون لسلب أي شيء يجدونه أمامهم. لذلك لا بد من وجود حارس يذود عنّا. لكننا أهملنا هذا الاقتراح وانتظرنا حتى توقف هطول المطر وانطلقنا مع شاب طويل وهزيل ليقوم بواجبين: إرشادنا إلى الطّريق السّليم، والدّفاع عنّا إذا ما تعرّضنا إلى عصابات السّلب التي قد تعترض طريقنا.

بعد مغادرتنا للمحاويل، انعطفنا نحو اليسار باتجاه المُسيِّب على الفُرات، تاركين طريق بغداد، حيث كان لا بد لنا من تمضية الليل هناك. وقبيل الحادية عشرة بقليل،

وصلنا إلى أرض بها زروع. كانت موحلة ومستنقعيّة في أجزاء منها، لكن السّير فوقها معقول إلى حد ما. كانت حول طريقنا وفي كل مكان أعداد كبيرة من الجراد الأخضر الذي قتلته الغربان والطيور الأخرى (حسب قول دليلنا). وطالما أن الحشرات لا تؤكل في معظم الأحيان، فقد كنت أشك في صحة هذا القول. تناولنا غداءنا في سهل أخضر يسّر القلب، وهو تغيير يثير في النّفس الانتعاش بعد جو الخانات المليئة بالغبار على طريق الحلَّة. انطلقنا ثانية، ووصلنا في حوالي الواحدة إلى مخيّم للعرب هم من فلاحي شمّر الذين يعملون في الأرض الواقعة بين المحاويل والنّهر (حسب قول يوسف). كانت الأكواخ التي يسكنها هؤلاء مبنيّة بالقصب، أما سقوفها فمن الحُصر المصنوعة في البصرة. وقد رأيت للمرة الأولى الماشية ذات الحدبة، التي تشبه إلى حد بعيد الأنواع الهنديّة. بالقرب من هذه القرية، يقع ضريح شيخ يدعى محمّد بن حسّان، وعلى بعدٍ قليل منه، مررنا بموقع أثري قديم بتلاله المنخفضة، لا يُعرف عنه شيء سوى أن اسمه «القصر». بعد ذلك بقليل وصلنا إلى النّهر، حيث ذهبت مسرعاً إلى مخيّم عربي للحصول على القليل من الحليب، وتبيّن لي أن هؤلاء هم عرب من قبيلة النّصيريّة البدويّة. أعطونا حليباً طازجاً بكل طيبة خاطر ودون مقابل. أهؤلاء حقاً هم العرب المخيفون الذين سمعنا عنهم؟

كان لديهم فرس كستنائية جميلة من السّلالة الصّقلاويّة. قال مالكها إنه على استعداد لبيعها لي، وسرعان ما تدخّل يوسف ساخراً وعرض عليه قطعة نقد (بقيمة نصف كراون) ثمناً لها. وكانت نكتته وقحة وخصوصاً بعد أن أهدانا العرب الحليب بكل ود.

بعد ذلك مباشرة وصلنا إلى صف طويل من أشجار النّخيل حيث تقع بلدة المُسيِّب. كان هناك إلى أقصى اليمين قبّتان زرقاوان، لكن دون مئذنة. وبعد الاستفسار عنهما علمت أنهما مقاما "Owlad muslim" (أولاد مسلم) أي (الفتية المسلمين) كما هو ظاهر منهما، ولم تكن هناك قصة أسطوريّة حولهما. إننا الآن بالقرب من المُسيِّب، نسير على طريق طينيّة طوال النّهار، تقطعها بين المسافة والأخرى قنوات كبيرة ومستنقعات

موحلة. ورغم المصاعب التي وُعدنا بها في المحاويل، فإننا لم نرَ لها أثراً، ربما لأننا أخذنا معنا من يرشدنا إلى الطّريق الصّحيح.

بعد دخولنا إلى المُسيِّب، كدنا نضلّ الطّريق، حيث دخلنا عن طريق الخطأ إلى مواقع لصناعة الطُّوب. هناك شاهدنا نوعاً من الطُّوب يقومون بصناعته، وهو شبيه بآجرّ بابل. لقد بنيت مدينة المُسيِّب من هذا الطُّوب ويقال إن هذه الصّناعة واسعة فيها، لهذا من الخطأ القول إنّ جميع المدن الواقعة بين دجلة والفُرات قد بنيت من طوب تمّت سرقته من المواقع الأثريّة القديمة. مررنا بعد ذلك عبر الجانب الشّرقي من المدينة لأنها كما الحلَّة قد بنيت على جانبي النّهر، ثم اجتزنا جسر القوارب كالعادة، ونصبنا خيمتنا الصّغيرة مقابل المقهى، وأراد صاحبه التّرحيب بنا فأخلاه تماماً كتقدير لنا.





حُجّاج عند المُسيِّب

الفصل الرّابع عشر
طريق الحج

المُسيِّب - طريق الحج - عاصفة ليليّة - مشهد الحسين - حصى كربلاء - التعصّب - استشهاد الحسين - قوافل الجثامين - كربلاء - في زيارة لنوّاب - الموت بسبب البعوض - حادثة غريبة - افتراقنا عن مضيفنا - مغادرة كربلاء - العودة إلى المُسيِّب - ركوب مرهق - خان الإسكندريّة - الوصول إلى بغداد - إشاعات عن ثورات عربيّة على دجلة - حلّاق بغدادي - أحدب البصرة - السّفر في دجلة على متن سفينة بخاريّة.

لقد بدت لي مدينة المُسيِّب من أكثر الأماكن التي زرتها متعة، حيث إنها بالإضافة إلى موقعها الخاص، تمثّل المرحلة الأخيرة في الطّريق إلى كربلاء. ويدير مواطنوها العرب تجارة هامة في جلب الحجّاج الهنود والعجم الفقراء الذين عانوا من تعب السّفر، حيث تصل قوافلهم دائماً أو تغادر راجعة إلى كربلاء. تقع المدينة على جانبي

النّهر، لكنها ليست كبيرة وعدد سكانها المقيمين فيها قليل نسبيّاً. لكن بالإضافة إلى ذلك، هناك حشود كبيرة من الحجّاج المتواجدين بشكل دائم، بأعداد صغيرة أو كبيرة. وأعتقد أنّهم يعدّون اثنين أو ثلاثة آلاف شخص، وهذا مجرّد تخمين. وفي إحدى الليالي، كنت في أحد الخانات المكتظّة بالحجّاج وكانت أمامه فسحة واسعة مفتوحة مليئة بالقوافل ومخيّمات الحجّاج. كان لهؤلاء الحجّاج خصوصيّة، حيث يتواجدون مجتمعين أثناء الليل فقط، أما في النّهار فتبدو المدينة كما الخان فارغة تماماً من السّكان. تجوّلنا مرّة وسط المدينة وفعلنا ذلك عند عودتنا. تصل القوافل في فترتي بعد الظهر والمساء، ثم تنزل حمولتها للمبيت ليلاً وتغادر مع شروق الشّمس. أما الازدحام الشّديد فيكون بين الثالثة والخامسة من بعد الظهر، حيث تمتلئ المدينة مليئة بأصوات أجراس القوافل القادمة. وقد سبق أن حدّثتكم عن هذا الخان الكبير الذي خيّمنا بقربه على الجانب الغربي.

وبعد أن نصبنا الخيمة، ألقيت نظرة سريعة من خلالها لأجد المكان مزدحماً بالنّاس والحيوانات. كان هناك أكشاك لبيع الخبز والتمور، لكن بأسعار غالية جداً. وفي الحقيقة كل شيء غالي الثمن جداً في المُسيِّب. كما تجوّلت في الطّرقات والشّوارع الفرعيّة ثم سرت مسافة قليلة على ضفّة النّهر. يمكنك تصور الحالة الصّحيّة للمدينة، حيث يستخدمها الحجّاج كأماكن لقضاء الحاجة. وكلما تقدّم الوقت وحتى حلول المساء، يمتلئ الخان بقوافل جديدة تمضي الليل في الفسحة الكبيرة أمامه، فتسمع الأصوات المستمرة من صهيل الخيول ونهيق الحمير مع ضجيج الأجراس بينما تقاد البغال إلى ضفة النّهر لسقايتها، بالإضافة إلى همهمة مئات الألسن التي تتحدّث بنصف دزّينة من مختلف اللغات التي تمتزج ببعضها امتزاجاً غريباً.

أحضرنا مقعداً خشبياً وجلسنا عليه لنتفرج على هذا المنظر الغريب متعدّد الألوان والأجناس. كان العنصر العجمي هو الغالب، فهناك العديد من الأشخاص بمنظرهم البدائي، من خصل الشّعر السّوداء المتشابكة، إلى المعاطف الزّرقاء التي تصل إلى ركبهم، إلى الجوارب والأحذية الطّويلة. لقد وصلت مؤخراً جماعة من العجم يرتدون

القبّعات المصنوعة من فرو الحملان، وربما كانوا من أصحاب المناصب العالية في الحكومة الفارسيّة. وليس من الغريب مشاهدة رجال بلحى مخضّبة بالأحمر القاني لإخفاء الشّيب، أو لتلوينها بالكامل. كان هناك أيضاً زوجٌ من (الكاجَويه) وفي داخل كل منهما زوج من الصّرر الزّرقاء، تبيّن فيما بعد عندما ترجّلن أنهن سيّدات عجميّات يرتدين السّراويل والحجاب الأبيض. كما شاهدنا مجموعة من الهنود، بعضهم يرتدي الملابس البيضاء والمعاطف السّوداء الطّويلة ويحملون المظلات، يدّل مظهرهم وكأنّهم أوروپيون بشكل متباين عن هذا الجو الإسلامي الشّيعي. وكان هناك أيضاً ثلاثة من الشّحّاذين العجم معهم عصي طويلة وأيديهم ممدودة لاستجداء الصّدقات. أما الشّخص الذي يحمل برتقالة فيدعو إلى الكثير من العجب، فهو نصف عارٍ، ومن الواضح أن هذه البرتقالة هي كل متاعه، وكان يستجدي الصّدقات من خان إلى آخر. إن هذه المشاهد الغريبة فيها قدر كبير من المتعة، فمن مَشْهَد البعيدة عند بحر قزوين إلى مشاهد الأئمة في الصّحراء العربيّة، إلى مجموعة أخرى من الحوريّات الهنديّات بملابسهن الحمراء القانية والمصنوعة من الجوخ.

يقع خلف المقهى مسجدٌ صغيرٌ، وقد دعاني الملّا الذي يسكن في البيت المجاور للصّعود إلى سطح داره لإلقاء نظرة على المكان من هناك. شاهدت أكثر مما كنت أشاهده من الأسفل، ولأن يوسف كان يحضّر العشاء، لم أتمكن من الحديث مع الملّا مطولاً. نزلت، وبعد العشاء أصرّ يوسف على حزم جميع الأغراض قبل الدّخول إلى الخيمة خوفاً من اللصوص المحترفين، الذين (حسب قوله) يتواجدون بكثرة هنا، وكان متأكداً أننا سنفقد شيئاً من أغراضنا. ولأن الليلة الأخيرة التي قضيناها في المقهى لا تزال في أذهاننا، فقد توقّعنا أن نمضي ليلة أفضل داخل الخيمة، لكنه كان أملاً بعيد المنال بعد أن تجمّع عدد كبير من روّاد المقهى وهم ينشدون الأغاني يصحبهم عدد من الأطفال، اصطفّوا جميعهم في خمسة أو ستّة صفوف يؤدون ترانيم دينيّة من الأناشيد الرّمضانيّة. لقد بقيت مستيقظاً حتى مرحلة متقدّمة من الليل حتى خفتت هذه الأصوات، فاستطعت النّوم قليلاً، لكن ما لبثت العاصفة التي هبّت على

المكان أن أيقظتني مجدداً لأرى قوة الرّيح والمطر الذي هددنا بالغرق. وَثَبْتُ بسرعة ممسكاً بعمود الخيمة كي أحافظ عليه فيما إذا ارتخت الأوتاد، وحاولت إيقاظ (C) كي يساعدني في الإمساك بالعمود الآخر، لكنني أظنّه لن يصحو حتى لو أطلقت نيران الابتهاج *feu de joie* بعيد ميلاد الملكة، ولقد أجابني بكل برود بعد عناء في محاولة إيقاظه، بألا أحدث جلبة، ثم أغلق عينيه مجدداً. وما أثار غضبي واشمئزازي أكثر هو أنني كنت سأعطي ثروة العالم كله لو وقعت الخيمة المنقوعة بالماء فوق رأسه، إلا أن العاصفة توقّفت فجأة مثلما بدأت ولم يكن لدي أي شيء أقوم به سوى العودة إلى الفراش ساخطاً. أما يوسف الذي أثبت أنه محتال، فقد أدخل وجهه القبيح داخل الخيمة وردّد مجدداً قصّة اللصوص الذين يحومون حول الخيمة، فأخبرته أن يبقي عينيه مفتوحتين وغصت في نوم عميق، ولم أستفق إلا بعد شروق الشّمس بسبب ضجّة القوافل المرتحلة.

وفي السّادسة صباحاً، خرجنا من المدينة وعبرنا جسراً مرتفعاً فوق إحدى القنوات، حيث كان شديد الانحدار وغير مستوٍ بحيث اضطررنا إلى الترجّل عند عبورنا له، ثم وجدنا أنفسنا وسط مستنقعات واسعة يمكن رؤية مختلف الأنواع من الطّيور المائيّة على سطحها. كان الطّريق الذي يقطع المستنقعات عبارة عن ممرّ مرتفع وضيّق في آن. التقينا هناك بمجموعة من عرب عُنِزَة معهم العديد من الجمال والخيول. لقد مضى وقت على رؤيتي لعرب عُنِزَة منذ وجودنا في حلب، لذا تساءلت عن سبب وجودهم هنا وخصوصاً أنني أتخيّلهم في هذا الوقت في الصّحراء. وكان الجواب أنهم ينقلون هذه الحيوانات إلى بغداد للمتاجرة بها. إن رجال قبيلة عُنِزَة يعملون كحرّاس يرافقون قوافل بغداد المتجهة إلى مكة بهدف الحج.

كانت السّماء صافية عندما غادرنا، أما الآن في السّابعة والنّصف فقد أصبحت شديدة الحرارة. وقبيل العاشرة وصلنا إلى ضريح لشيخ يسمّى[1]: «عون بن جعفر»

---

(1) يوجد هذا المقام على مسافة 12 كيلومتراً شرقي كربلاء على طريق بغداد، وتظنّ العامّة أنه عون بن عبد الله بن جعفر الطيّار، وأن أمه السّيّدة زينب بنت الإمام علي كرّم الله وجهه، وهذا

Nebbi On Ebn Jaffa، ويُستدل من خلال الأعداد الكبيرة التي تؤم المكان أنه يتمتّع بقدسيّة خاصّة.

كنّا نسير ونجتاز عدداً لا يحصى من القوافل. ثم وصلنا إلى بساتين من النّخيل حول كربلاء في حوالي الحادية عشر وتوقفنا لتناول الغداء في مكان جميل، حيث وجدنا خادماً لمضيفنا جاء على حصانه ليرافقنا إلى داخل المدينة.

كانت السّاعة قد تجاوزت الواحدة عندما ذهبنا إلى بيت السّيّد الواقع في الحي الحديث في المدينة، وخارج الحدود المسوّرة التي توجد فيها المساجد المقدّسة والأسواق. كان البيت مبنيّاً على الطّراز العجمي، يشبه إلى حدّ ما دار المقيميّة البريطانية في بغداد من حيث الجمال والضخامة، لكنه أقل زخرفة، وله فناء واسع. حيّانا مضيفنا بحرارة، ثم أدخلنا إلى غرفة فيها بعض الأرائك والكراسي ومنضدة تئن تحت حمل ثقيل من شتى أنواع الفاكهة. قدّمنا إلى ابنه الصّغير السّيّد مهدي. كان الفتى جميلاً ذا وجه أبيض جذاب، ويرتدي عمامة خضراء ملفوفة على كوفيّة زاهية الألوان. أمتعنا هذا الفتى كثيراً بعاداته قديمة الطّراز، فكان يطوي نفسه على الكرسي ويحملق نحونا ونحو أمتعتنا بكثير من الفضول. تجاهلنا كون الوقت شهر رمضان فقرّبنا إليه برتقالة، لكنّه أبعدها وهو يصدر صوتاً خفيفاً بطرف لسانه كالصوت الذي نطلقه نحن الإنكليز عندما نصاب بالدّهشة.

بعد استراحة صغيرة، صعدنا إلى سطح المنزل لإلقاء نظرة على المساجد والمدينة بشكل عام. وقد شاهدنا من هذا المكان القبّة المذهّبة والمئذنتين الخاصّتين بمشهد الحسين بالإضافة إلى برج السّاعة المستحدث. كانت القبة تشبه تلك التي في الكاظمين لكنها ليست بجمالها، حيث للأخيرة أربع مآذن كبيرة. شاهدنا عدداً من قباب المساجد، لكن قبّة الإمام العبّاس المكسوّة بالطّوب الجميل هي الوحيدة التي استرعت اهتمامنا. بعد ذلك قمنا بتصوير السّيّد وابنه المهدي بكاميراتنا اليدويّة، وقد سرّ مضيفنا كثيراً بذلك، مع أن النّاس الملتزمين دينيّاً لا يقبلون التصوير ويعتبرونه ضرباً من الكفر، لأن فيه تمثيلاً للحياة. لكن فقهاء المسلمين وجدوا فتوى في هذا الموضوع

غير صحيح فهو عون بن عبد الله بن جعفر بن زكي من أعقاب الإمام الحسن رضي الله عنه.

وهي أن الصّور والرّسوم ليست تمثيلاً للناس بالمعنى الذي تقصده النّصوص القرآنيّة لأنها تبيّن بُعداً واحداً فقط للشخص.

بعد ذلك رافقنا شقيق السّيّد ويوسف لاختلاس النّظر عبر أبواب الأضرحة. مررنا بشوارع مزدحمة وأسواق، وتوقفنا عند محل لصرافة النّقود يقع مقابل البوابة الرّئيسيّة. كنا بحجّة الاستفسار حول العملات أو القطع الأثريّة، نريد النّظر إلى البناء. وبينما كان يوسف مستمرّاً بالمساومة، استدرت وألقيت نظرة فاحصة. كل ما رأيته كان بوابة



مضيفي وابنه

كبيرة مكسوّة بالطُّوب الملوّن ومزيّنة بكتابات فارسيّة أو عربيّة، ويلمع في وسطها آجرّ باللونين الأزرق والأحمر، كما كان هناك صفّ من النّاس الجالسين أمام أكشاك صغيرة مع بعض الأشياء ليبيعوها. لم يبدُ الاستياء على أحد عندما كنت أنظر إلى الضريح، لكن دليلنا خراج بنا من المكان وأدخلنا إلى الأسواق وهو يشير إلى بوابات عديدة أخرى للمشهد أثناء

سيرنا، حيث كانت تتصل بالشوارع المزدحمة وملاصقة للمباني الأخرى. وبعد أن قمنا بدورة كاملة حول البناء، وجدنا أنفسنا مقابل بوابة كبيرة، يقول دليلنا إنها البوابة التادسة. شاهدنا داخلها محراباً مطلياً بالذهب ليتجه المصلون نحو مكة. ثم انعطفنا نحو الحوانيت واشتريت أربعَ سلال صغيرة وثلاثة أطباق واسعة بحوالي خمس پنسات فقط، وكانت جميعها مصنوعة من سعف النّخيل. كما يبيع الحانوت أيضاً للمتديّنين فقط أقراصاً طينيّة مختومة غريبة المظهر تسمّى أحجار كربلاء، حيث يأخذونها إلى بيوتهم كتذكار للضريح. من المفترض أن هذه الأحجار مصنوعة من التراب المحيط بالضريح مباشرة، لذلك هي تتمتّع بقدسية خرافيّة. يقال إن المسلمين الشّيعة يضعون جباههم في الصّلاة عند وضعية السّجود على هذه الأحجار، ولا يُسمح سوى للمؤمن الحقيقي بلمسها. وقد أخبرنا شقيق السّيّد بألا نلمس هذه الأحجار عند مشاهدتها في الحانوت. بل إنه نصحنا بألا ننظر إليها بفضول كبير. وقد تولى مضيفنا الذي كما قلت أنه بعيد عن التعصّب الأعمى، تأمين نماذج منها وإعطائها لنا، ولدي اليوم اثنان منها أحدها مثمّن الشّكل، وقطره أربع بوصات. أما الآخر فدائريّ الشّكل. وكلاهما مصنوعان من الطّين غير المشوي، بلون فاتح، ومختوم بنماذج من الأختام الدّقيقة. وهناك أحجار أخرى لها فراغ في وسطها، أعتقد أنه ربما لوضع اسم الحاج وتاريخ زيارته للمشهد.

خلال هذه الجولة وطوال الفترة التي أمضيناها في كربلاء، والحق يقال، لم أشاهد أي نوع من التعصّب ضد المسيحيّين الذي يُنسب عادةً للأهالي. فإلى وقت قريب كان لا يُنصح أي رحالة مسيحي بدخول هذه المدينة، لكن يدخل الآن إليها العديد من الأوروپيين. مما جعل الأهالي يعتادون على رؤيتهم، وخصوصاً أن وجود الرّحالين المهذبين لا يثير الاستياء. أما أيّة محاولة من طرف زائر معيّن للدخول أو رسم أو تفحّص أحد المقامات بفضول، فإنها ستعرّضه إلى نتائج وخيمة.

تُعدّ كربلاء رابع مدينة مقدّسة لدى المسلمين الشّيعة ويزورها سنويّاً آلافُ الحجّاج[1].

---

(1) كتب المؤلف: يبيّن السّيّد كُرزون حسب معلومات حصل عليها من سيّد في كربلاء (أظنه

يمكن تلخيص أصل الحج إلى كربلاء كما يلي: في عام 60 للهجرة، وبعد مقتل الخليفة عليّ صهر النّبي في جامع الكوفة، أرسل أهالي تلك البلاد إلى ابنه الحسين في المدينة لاستلام زمام الحكم. وفي الوقت نفسه، احتَجَنَ معاوية (الذي كان عدواً لعليّ) الخلافة، وبعد موته خلفه ابنه يزيد (الذي كان يحكم في هذا الوقت). انطلق الحسين في اليوم الثامن من ذي الحجة مع عائلته ومجموعة من أتباعه المسلمين. وعندما وصل إلى المكان الذي توجد فيه كربلاء الآن، واجهه جيش من الكوفيّين الخونة (كان قد أرسله الوالي عبيد الله بقيادة عُمر بن سعد) لأن يزيداً كان في دمشق. وبعد مفاوضات قصيرة، وقعت القوات المعادية بين جماعة الحسين والنّهر، وبذلك قطعت المياه عن القوات الضعيفة والمنهكة بسبب الرّحلة الشّاقة الطّويلة عبر الصّحراء العربيّة. عرض الحسين في هذا المأزق العودة أو الذّهاب بمرافقة الحرس إلى يزيد في دمشق، لكن قائد الجيش لم يقبل بهذا الطّلب وعرض عليهم الاستسلام غير المشروط.

تروي الأخبار التي تناقلتها الأجيال أنه قد تراءت للحُسين رؤيا تخبره بما سيكون عليه مصيره. وخلال الأيام التالية، بدأ عدد جيشه الصّغير يتضاءل بسبب قلة المؤونة وشحّ المياه، وأصبحوا في حالة احتضار، ففرّ قسم كبير منهم ولم يبقَ معه إلا اثنان وسبعون شخصاً. كان من بين هؤلاء عدد من أفراد أسرته، من بينهم علي الأكبر، الذي هو أكبر أبنائه، وابناه الصّغيران عبد الله وعليّ، الذي عُرف فيما بعد باسم زين العابدين، وأشقاؤه عبّاس وعلي وشقيقته زينب وابنته وابن أخيه كاظم وعمّته. حصلت سلسلة من المواجهات، لكن لم يكن لمجموعة الحسين الصّغيرة رغم شجاعتها، أمل بإحراز النّصر. وفي النّهاية حوصر الجميع وذُبحوا. كان علي الأكبر أول الشّهداء، حيث أصيب برمح وقطعوه إرباً، ثم حصلت مأساة مروّعة عندما أصيب ابن الحسين الصّغير عبد الله وهو بين يديّ والده، بينما نجا زين العابدين لأنه كان يرقد مريضاً. اندفع

السّيّد حسن) أن ترتيب القداسة هي: مكة - المدينة - النَّجَف - كربلاء - الكاظمين - مَشهَد (في بلاد فارس) -- سامرّاء - قُم.

الحسين بكامل قوّته رغم جراحه النّازفة نحو أعدائه، لكنه هوجم بشراسة وطُعِن أكثر من ثلاثين طعنة، ثم قُطع رأسه ومُرّغ جسده في التراب، ونُهبت الخيام التي فيها أسرته وسُبيت النّساء. ثم أرسل رأسه وجميع الأسرى إلى دمشق، ودُفن جسده في كربلاء.

وهنا يقوم في هذا الموقع الضّريح الذي يجذب آلاف الشّيعة المخلصين منذ عصور[1]. أما في القرن التاسع، فقد حاول الخليفة المتوكل المعادي للشيعة إيقاف الحجّ إليه بأن أغرق المنطقة الواقعة بين بغداد وكربلاء بمياه نهر الفُرات. ويقال أيضاً إنه حاول تدمير المسجد، لكن الشّيعة بذلوا كل ما بوسعهم فلم يمكّنوه من تنفيذ مراده. وهذا المكان ليس كالحجّ إلى مكة، فالحجّاج يأتون إليه في كل أوقات السّنة. لكن شهري ذي الحجّة ومحرّم اللذين حدثت فيهما الوقائع، يُعدّان من أهم الأشهر لدى الكثير من الحجّاج، كونهم يأتون من أماكن باردة في بلاد فارس. وهم يؤقتون زيارتهم في إلى سهول بابل في فصل الشّتاء تجنّباً لحرارة الشّمس العالية. وكما أخبرني يوسف، فإنّ شهر رمضان هو أيضاً من الأشهر المزدحمة بالحجّاج، ويبدو لي هذا الكلام صحيحاً تماماً، لكنني لم أفهم سبب كون هذاالشهر مهماً للزيارة.

يقال إن أعداد الحجّاج تصل سنويّاً إلى حوالي المئتي ألف حاج أغلبهم من بلاد فارس والهند، ولأن الدّفن في كربلاء المقدّسة (حسب اعتقادهم) يضمن لهم دخول الجنة، فإنّ مئات من الجثامين تُجلب كل سنة عن طريق القوافل أو السّفن ليتم دفنها في هذه البقعة. وخلال زيارتي ذهاباً وإياباً إلى كربلاء، شاهدت العديد من تلك الأحداث. تجلب التوابيت المخلّعة المصنوعة من أغصان الشّجر من مسافات بعيدة تبلغ مئات الأميال إلى هذا المكان. وأحياناً تكون الجثث قد دفنت بالفعل، وتأخر نقلها بسبب عدم إمكانية دفع أجور الدّفن لأنها باهظة في كربلاء. لذلك لا تكون بحالة صحيّة جيّدة، فأحياناً تكون متعفّنة وأحياناً جافة وذلك حسب حالة الطّقس وتاريخ الوفاة.

---

(1) كتب المؤلف: هناك شرح مفصّل في كتاب أوكلي Ockley «تاريخ العرب» وكتاب ميور Muir «الخلافة». لكن المراجع تختلف في تقديم تفاصيل المذبحة. وفيما يتعلق بالمكان الذي دفن فيه رأس الشهيد الحسين، انظر بُرتون «مكة والمدينة» المجلد 2 ص 40.

وفي وقت مضى، وضعت الحكومة التُّركيّة مزيداً من العراقيل أمام عبور الجثث لبغداد، وقد دفع هذا الخلاف الشّاه إلى إيقاف الحجّ إلى كربلاء. ونتيجة لذلك حلّت مَشهَد في بلاد فارس مكان كربلاء، وخسر الأتراك مصدراً هائلاً للثّروة لفترة من الوقت. لكن الطّريق أعيد افتتاحه ويأتي الحجّاج إلى كربلاء حاليّاً بأعداد كبيرة كما في السّابق.

إن القدسيّة التي يكنّها جميع الكربلائيين أو الحجّاج أو بالأحرى جميع الشّيعة للشهيد الحسين، أمر ملفت للنظر حقاً. ففي شهر محرّم، تُمثل في الهند وبلاد فارس بشكل منتظم المأساة المفجعة للشهيد أمام حشود النّاس، فتثير أشجان النّاس لتصل إلى حالة من الحزن العميق[1]. وقد شهدت بنفسي عندما كنت على على باخرة في نهر دجلة روايةً للمأساة ألقاها أحد الكربلائيين على مجموعة من الحجّاج، فأثارت مشاعرهم إلى درجة أنهم جميعهم أخذوا يجهشون بالبكاء بصدق وأسى.

تُعدّ مدينة كربلاء التي نشأت بشكل غريب، مكاناً مزدهراً، حيث كانت في السّابق صحراء قاحلة تفتقر إلى المياه، ثم تحولت بفضل قناة من نهر الحسينيّة المتفرّع من الفُرات إلى واحة مأهولة بخمسين أو ستين ألف إنسان (حسب ما ورد في بعض المراجع). ويمكن مشاهدة العديد من القوارب على هذه القناة، تنقل بواسطتها كميّة من البضائع التجاريّة، أما الحجّاج فيستخدمون طريق القوافل.

لقد عانت المدينة ذات مرّة من نكسة عندما سُلبت ونُهبت عام 1801 وذبح الكثير من سكانها على يد سعود بن سعود الوهّابي. يُعدّ الحي القديم في المدينة الذي يقع فيه الضريح صغيراً نوعاً ما، حيث يقع داخل سور من الطّوب مع أبراج مستديرة الشّكل على مسافات قصيرة. لقد توسعت الضواحي في الخارج، وتستطيع الآن رؤية شارع

(1) كتب المؤلف: انظر غراتون غيري Gratton Geary «رحلة عبر تُركية الآسيويّة» الملحق الثالث. ويضم ما كتبه السّير لويس پيلي حول إحدى هذه التمثيليّات في بومباي، وكتاب «رحلة من البنغال إلى بلاد فارس» (1786 - 1787) لوليَم فرانكلين، وكتاب پنكرتون «مجموعة الرّحلات»، عام 1811 م، المجلد 9، ص274.

أو اثنين من الشّوارع الجميلة التي تشبه أحياء الدّرجة الثانية في الإسكندريّة. يقع منزل السّيّد في إحدى هذه الضواحي. وكما هو الحال في المُسيِّب، يُصنع الطُّوب الأخضر في كربلاء. وبعد تجولنا في المدينة، زرنا نائباً هنديّاً هو وكيل دار المقيميّة البريطانيّة في بغداد. استقبلنا بأدب، لكنه بسبب غروره وتكلّفه أصابنا بنوع من الصّدمة في نفوسنا. وعلى الرّغم من أنه شخص ذو مقام عالٍ، فهو ثقيل الظل إلى حدّ كبير. لقد قام بحشر المصابيح النّفطية في كل أنحاء المنزل بشكل لا يلائم أي ذوق. كانت ضيافتنا مكوّنة من العصائر والسّجائر والشّاي، والتي كان علينا قبولها حسب مقتضيات الأدب، لكنني ما زلت أعاني من المرض الذي عاودني ثانية.

* * *

في الليل هبّت عاصفة عاتية تخلّلتها كميّات كبيرة من الأمطار الغزيرة مع برق ورعد كنّا نراه من النّوافذ، حيث اشتدّ وابل المطر بشكل كبير مع البرق والرّعد إلى أن أحال غرفتنا إلى صباح في هذا الليل الدّامس. إضافة إلى ذلك، فإنّ جماعات البعوض اللئيمة الموجودة في الغرفة كانت كافية لطرد النّوم من عيوننا. لقد كانت تنتظرنا بلا شك لتتذوّق الدّم الأوروبي طوال الليل. كانت تمرّ بشكل جماعات أمام وجهي حتى اضطررت إلى مسحه بطبقة غليظة من عصير الليمون وانقلب وجهي إلى ليمونة. ولا أبالغ إذا قلت لكم إنني أمضيت الليل وأنا أدفن رأسي تحت الأغطية تارة وألعن (C) تارة أخرى لأنه كان يلتفّ بشبكة ضد البعوض أعطاها له أحدهم وينام ملء جفونه تاركاً إيّاي فريسة لها، لكنني لن أغفر له هذا التصرّف. وفجأة بدأ جرس برج مشهد الحسين يدق ليجعل المرء يظن، لولا الطّنين المتواصل للبعوض، أنه في مدينة ريفيّة إنكليزيّة وليس في مدينة كربلاء المقدّسة.

لقد حصل حادث كريه عندما كنّا نهمّ بالمغادرة في صباح اليوم التالي. جاء يوسف وهو يدّعي أن المال الذي أعطيناه له ليعطيه كبقشيش لخدم السّيّد، قد سُرق من جيبه أثناء نومه، وأنه يتّهم أحد الخدم الذي كان يضايقه باستمرار في اليوم الماضي طالباً منه البقشيش بإلحاح ووحشيّة. وقال إن الذي يتمتّع بهذه الصّفات، لا يتوانى عن فعل

أي شيء. قلنا ليوسف إنه لا دليل لديه على اتهام الرّجل، فلا بد له أن يتحمّل الخسارة بنفسه ويسلّم الرّجل الهديّة المخصصة له وبوجودنا. لكن الخادم رفض استلام الهديّة عندما قام يوسف بشتمه، وأصرّ على استلامها منّا شخصيّاً. ومن المستحيل الجزم بناءً على الدّليل المتوافر لدينا من هو الكاذب الرّجل أم يوسف. ومع الكثير من الأسف وبسبب دمدمة يوسف المتواصلة، وصلت القصة إلى مسامع السّيّد الذي جاء لوداعنا، فأمر بإعادة البقشيش إلينا. كل ما استطعنا فعله هو تأكيدنا له بأننا لم نصدّق قصة السّرقة أبداً، وأنّ الأمر قد حدث بسبب سوء تفاهم أو خطأ ما، وربما أنها قلة أمانة من يوسف نفسه. وبما أن التّرجمة تتم من قبل يوسف ذاته، فلا نعلم كيف وصلت القصّة إليه. احتجّ يوسف وأصابته حالة من اليأس بسبب غضبنا، لذلك أخبر السّيّد أنه هو نفسه «كذاب لعين» وأن المال موجود في جيبه. بدا الانزعاج على وجه السّيّد، لكن لم يكن بوسعنا فعل المزيد، فغادرنا في الحال.

مشينا في طريق مليء بالأوحال بعمق ست بوصات، وعند المنعطف انزلقت قدم حصان (C)، فوقع على الأرض وغُمر بالوحل، لكنّه لحسن الحظ لم يُصب بأذى. كان السّيّد الذي رافقنا قريباً منه، فساعده على النّهوض ثانية وهو يزيل الوحل عنه. فأردت تقديم سكينتي ذات الغمد كهديّة تعبيراً عن امتناننا له، لكنه رفض ذلك بقوله إنه لا يأخذ هديّة من ضيوفه وخصوصاً أنهم قد يحتاجون إليها في السّفر، لكنّه سيكون ممتنّاً إذا أرسلنا له شيئاً من إنكلترا عند وصولنا سالمين. لقد شعرت بالأسف الشّديد لدى وداعنا لهذا الشّخص الرّائع الذي غمرنا بلطفه وكرمه بلا حدود. تبادلنا العناوين وتصافحنا بحرارة، ثم افترقنا.

* * *

بدأنا الآن رحلة العودة، وأحسست أنني متّجه نحو الوطن. كانت الأرض الصّحراويّة اليابسة الجافة التي مشينا فوقها في اليوم الماضي، قد أصبحت الآن مليئة بالأوحال وبرك المياه. أما النّهار فكان جميلاً، لكنه أصبح ثقيل الوطأة عند ارتفاع درجات الحرارة. اجتزنا عدّة قوافل تحمل جثامين الموتى ومخيّماً صغيراً للفقراء

العرب. وفي حوالي السّاعة الحادية عشرة، توقفنا لتناول طعام الغداء بالقرب من قبيلة عربيّة كبيرة هي قبيلة المَسعود التي تزرع مساحة صغيرة من الأرض وتربي قطعاناً عديدة من الأغنام. وبعد الظهر بقليل وصلنا المُسيِّب التي كانت في هذا الوقت من النّهار خالية تماماً من النّاس. وفيها حصلت مشادّة كبيرة مع القاطرجي المسنّ الذي أراد التوقف وقضاء الليل هنا، وبذلك تأخذ رحلة العودة إلى بغداد حوالي ثلاثة أيام. لكننا أخذنا نصرّ على مواصلة السّير، وبعد الاستراحة لمدّة ساعة، أمرنا يوسفَ بأن يسرج الخيل لمغادرة المدينة.

أصبحت حرارة الجو الآن مرتفعة جداً ونحن في غاية الإنهاك، ورغم رؤيتنا لخان الإسكندريّة الذي قرّرنا المبيت فيه، وظننا أنه يبعد عنّا مسافة مسير نصف ساعة، فقد وصلنا إليه بعد ساعتين وربع. إن المنظر فوق هذه السّهول المستوية فيه خداع للنظر، ويقع المسافر ضحيته باستمرار. أصبحت الشّمس اللاهبة التي ترتفع فوق رؤوسنا وكأنها سكين تخترق أجسادنا، بينما تسير القافلة ببطء وإنهاك كبيرين. كنّا كالألواح الخشبيّة أكثر من كوننا أشخاصاً ونحن نجلس فوق سروجنا بإعياء شديد، وأحياناً نتدلى من شدّة التعب والحرارة الشّديدة بحيث لا نستطيع حتى الكلام. إن الأراضي الواقعة بين المُسيِّب والإسكندريّة Iscandarieh عبارة عن سهل موحل، ثم تصبح مليئة بالحصى. وعند الرّابعة تقريباً وصلنا قرية صغيرة ونصبنا خيمتنا مقابل مقهى على بعد مسافة قصيرة من الخان نفسه.

وفي صباح اليوم التالي وعند الخامسة والنّصف، وبعد مسيرة حوالي نصف ساعة، طالعتنا على مسافة بعيدة إلى اليمين نقطة في الأفق، ربّما تكون طيسفون، وإن كان ذلك صحيحاً، فلا بد أن آثارها تبعد عنّا حوالي سبعة عشر إلى ثمانية عشر ميلاً[1]. بعد

(1) كتب المؤلف: يصف لايارد Layard في كتابه «نينوى وبابل» في عام 1882 ص 228 ومن خلال مسيره بين الإسكندريّة وبغداد أنه كان يستطيع رؤية طيسفون تحت تأثير السّراب والتميز بوضوح بين الأواوين المقنطرة والأعمدة وكتل المباني. وسواء ابتعد إلى الشرق بعيداً عن القافلة أو أن السّراب قد ضخّم هذا الأثر، فإنّ البعد بين الطريق والأثر يبقى بعيداً جداً مما يصعّب على المرء رؤية الأخير كما سبق أن ذكرت.

ذلك ظهرت مجموعة من التُّركمان على الطّريق وهم يلبسون قلنسوات غريبة الشّكل مصنوعة من فرو الحملان، وقالوا إنهم من منطقة تقع قرب تبريز. فجأة شدّ انتباهنا عمود من الدّخان يرتفع على مسافة بعيدة إلى اليسار. كان يبدو كأنه باخرة على نهر الفُرات، لكنه ربما يكون بسبب شيّ الآجرّ.

عندما اقتربنا من بغداد، سمعنا هناك أن منسوب المياه قد ارتفع في النّهر خلال الأيام القليلة المنصرمة، بحيث أن جسر دجلة قد قُطع. وجرى تحذيرنا إذا لم نسرع الخطى فإننا سنفقد جسر خان الخرّ Khan Khirr، كونه من المحتمل أن ينقطع في أي وقت. لهذا استخدمنا كل قوانا في الإسراع لنجد قنوات المياه التي قطعناها للتو قد انفجرت جوانبها وأغرقت الطّريق. وفي أحد الأماكن التقينا بامرأة مسكينة تنوح حول فتاة صغيرة قضت بسبب انجرافها وغرقها. كان صوت هذه الأم الثكلى يبعث على الأسى الكبير، لكننا لم نستطع تقديم أي مساعدة. بقينا نسير بخطىً سريعةٍ فوق الجسر حتى وصلنا أخيراً في السّاعة الثانية إلى بغداد.

الآن أستطيع القول بأن رحلتي قد انتهت. لقد رأيت حلب وبغداد وبابل، وهي المهمّات الثلاث التي خططت لها خلال هذه الفترة، وكل ما تبقّى لدي الآن هو العودة إلى الوطن لأنعم بالراحة. لم تعمل حرارة الشّمس القويّة على تحسين حالتي الصّحيّة، وعند عودتي إلى بغداد وجدت نفسي عاجزاً عن القيام برحلة بريّة نحو البحر المتوسّط. إضافة إلى ذلك، فقد كنت توّاقاً لمشاهدة نهر دجلة الأدنى والخليج العربي. وبما أنه يمكنني القيام بهذه الرّحلة على متن السّفن ووسط وسائل الرّاحة الأوروبيّة،

قلت: والإسكندريّة التي يذكرها لايارد مدينة في العراق تقع إلى الشمال من بغداد، يعود ظهورها في بلاد ما بين النّهرين إلى العصر البابلي الحديث، وكانت تسمى بكور بابل، ثم اكتسبت تسميتها (الإسكندرية) نتيجة اتخاذها من قبل الإسكندر الأكبر كمقر لقيادة جيوشه لفتح بابل بصورة خاصة وبلاد ما بين النّهرين وبلاد ما وراء النّهر بصورة عامة، وتشير المصادر التأريخية القديمة إلى أن الإسكندر الأكبر قد لقي حتفه في مدينة الإسكندرية ببابل.
أمّا كتاب لايارد «نينوى وبابل» فقد أتممنا ترجمته وتحريره لهذه السّلسلة، وهو كتاب ثمين جداً.

لذلك قرّرت أن أتوجه في طريقي إلى الوطن عن طريق بومباي.

كان وصولنا إلى بغداد يوم الثاني عشر من مايو. وفي اليوم ذاته استدعيت القاطرجي المسنّ لأدفع له أجرة تأجيره للحيوانات. لقد أساء التصرّف خلال الرّحلة، لذلك قرّرنا عدم دفع إكراميّة له بعد أن أعربنا له عن استيائنا من سوء تصرّفه، رغم أن القاطرجي الشّاب الذي كان برفقته سيستلم إكراميّته المعتادة. وحالما علم بالخبر، أصبح في غاية العنف والبذاءة ورفض أخذ الأجرة حتى عن الحيوانات وغادر بغضب شديد، مسبباً جلبة في فناء دار المقيميّة. تركنا المال جانباً، وفي صباح اليوم التالي جاء القاطرجي الشّاب وأخذ النّقود وتمّت تسوية الأمر.

وعند عودتي مباشرة، بدأت بالسؤال عن السّفينة التالية التي ستغادر إلى البصرة، حيث كنت آمل أن أجد هناك واحدة تقلّني إلى إنكلترا. كان من المقرّر أن تغادر إحدى هذه السّفن في الرّابع عشر من الشّهر، وبما أن هذا الشّهر هو شهر رمضان، فقد كان من الطّبيعي أن يتأخر إنجاز الأعمال في دائرة الجمارك ورصيف التحميل. علمت أن السّفينة لن تغادر إلا في يوم من أيام الأسبوع القادم، إذ أنه يجب تفريغها أولاً، وهذه عمليّة بطيئة كما جميع الأعمال في شهر رمضان. وبناءً على هذه الظروف، أردت استغلال وقتي في زيارة طيسفون Ctesiphon وتلال سلوقية، لكن سوء حالتي الصّحيّة وشعوري بالضعف قد منعني من القيام بهذه الزّيارة. إضافة إلى ذلك فقد أُبلغت أن الباخرة النّهريّة ستمرّ بالقرب من هذه الآثار وسيفسح المجال للمسافرين لمشاهدة وزيارة قوس طيسفون العظيم Arch of Ctesiphon، لهذا أذعنت للأمر. وإن حرارة الشّمس القويّة التي زادت حدتها هذه الأيام قد منعتني من القيام بأي نشاط بين العاشرة والرّابعة من بعد الظهر حيث سأتعرّض للإعياء الشّديد، لهذا قرّرت أن أمضي اليومين اللذين سبقا الرّحلة بهدوء وسلام.

وصل ارتفاع النّهر إلى مستوى بات يهدد حديقة دار المقيميّة بالفيضان. كما امتلأ الطّريق الطّويل الممتد من بغداد نحو الجنوب ببرك واسعة من الماء الرّاكد الذي بدأت تنبعث منه رائحة كريهة بسبب الحرارة العالية. ومن المحتمل جداً أن تنشأ في البساتين

المحيطة والمغمورة بالمياه أمراض كالحمّى والملاريا من جرّاء صعود الأبخرة المتعفّنة. وقد كانت هناك علامات تدلّ على أن الحرارة العالية بدأت تؤثّر على الصّائمين في بغداد، إذ ترى صفوفاً طويلة من الحوانيت المغلقة في الأسواق، بينما ينشط النّاس في أوقات المساء. تدل هذه الأمور على أن البغداديين يجدون العمل تحت هذه الظروف أمراً شاقّاً.

في أحد الأيام وبينما كنت أتمشّى في السّوق، التقيت بأحد أصدقائي في حلب، وهو الطّبيب اليوناني الذي سار وراءنا أسفل نهر الفُرات إلى بغداد. وقد أبلغني أن هناك قبيلة عربيّة تستوطن ضفّتي النّهر بين بغداد والبصرة، في حالة ثورة عارمة وأنهم يطلقون النّار على السّفن، وأن بعض السّفن التابعة للشركة التُّركيّة قد عادت، وأن النّقل النّهري قد توقّف تماماً، لكنني لم أصدق هذا الكلام. وعند التحقق من الأمر، وجدت فيه شيئاً من الصّحّة، لكن البواخر الإنكليزيّة لم تتعرّض حتى الآن لأي أذى.

علمت أخيراً أن باخرتي ستغادر في التاسع عشر من الشّهر، لهذا رتّبت أمتعتي وأعطيت يوسف الأواني والقدور وبنطال ركوب قديماً لم يكن طوله يزيد عنه سوى بستّ بوصات فقط، واستدعيت حلّاقاً من بغداد ليقص شعري. كنت أظن أن هذا الحلّاق الحاذق الذي جاء وبيده الطّست المألوف ودزّينة من الأمواس والمقصّات هو من نسل حلّاق حكاية «ألف ليلة وليلة». لكنني أحسست براحة كبيرة عندما قص شعري بطريقة أنيقة دون أن يخبرني عن قصصه الخياليّة ومعضلاته. وسرعان ما استلم أجرته وغادر بكثير من اللباقة والرّزانة الجديرة بالثناء والتقدير. لا بد أن مهنة الحلّاق في بغداد قد تحسّنت كثيراً.

وفي اليوم ذاته شاهدت أحدب البصرة على ضفّة نهر دجلة، والذي نسمع من كتاب الحكايات القديمة الممتعة عن قدرته على «إثارة الضحك وتخفيف القلق والحزن». لكن ذلك الرّجل القصير المسكين الذي خرج من منزله وقد لامس رأسه صدره مع سيقانه القصيرة المعوجّة، لم يستطع إثارة أي نوع من هذه المشاعر. لكن كان يبدو من لباسه أنه رجل يتمتّع بمكانة ما.

وفي ليلة التاسع عشر من مايو، صعدنا ظهر الباخرة أخيراً وكان قد سبق لنا إرسال أمتعتنا الثقيلة مع بقشيش كبير ليتم إخراجها سليمة من الجمارك.

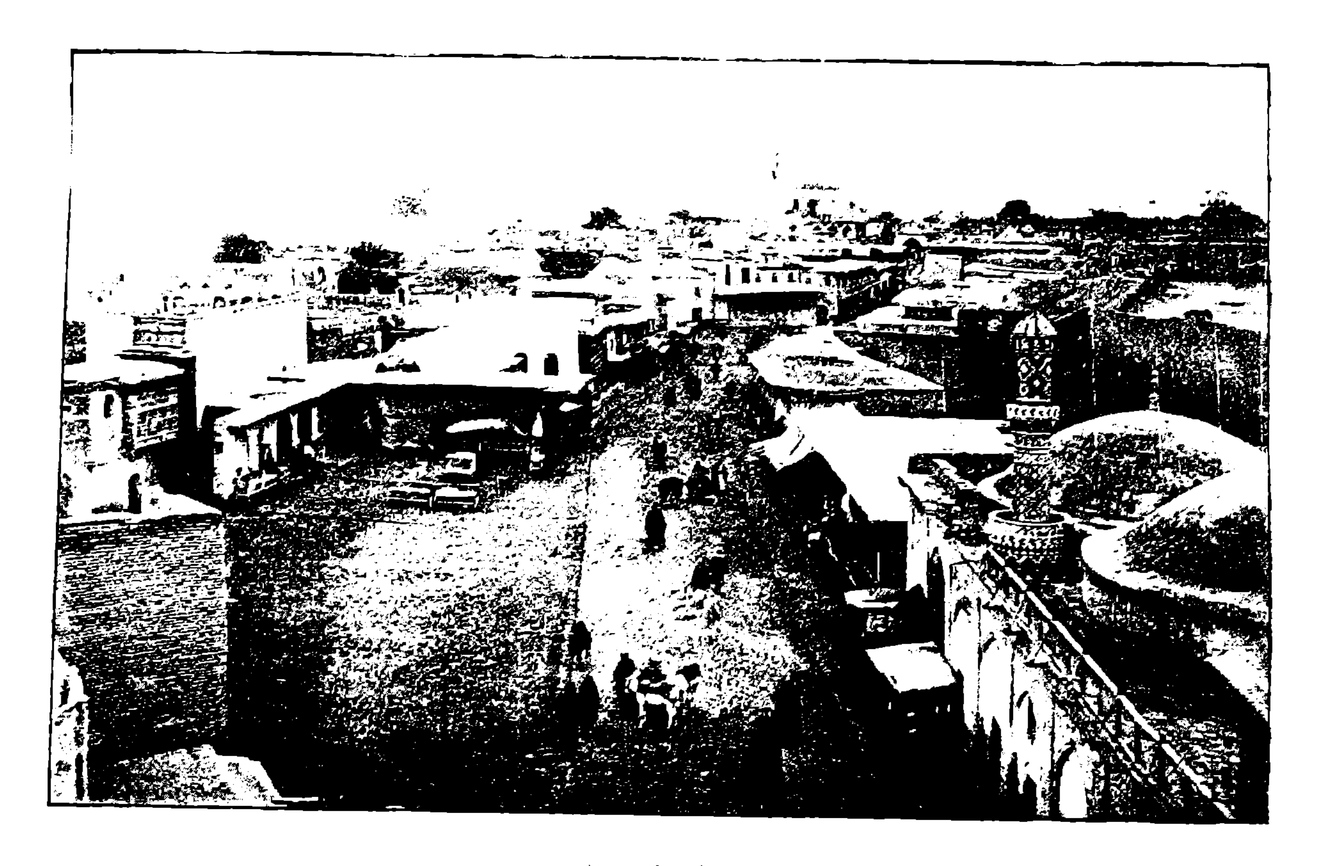
❊ ❊ ❊

الفصل الخامس عشر
من بغداد إلى البصرة

حركة البواخر في نهر دجلة - باخرة نهريّة - البحّارة الكلدان - الدّليل - مغادرة بغداد - طيسفون - القبائل العربيّة - حركة النّقل القليلة - ضحايا الطّوفان من العرب - العَمارة - الصّابئة - مناظر من فوق المركب - ثورة الشّيخ سعود بن منشد - ضريح عِزرا - الذعر - القرنة - شط العرب - ميناء البصرة - زيارة المدينة - فرار السّجناء - نقاط تاريخيّة - الوضع الصّحّي في البصرة.

إن تاريخ النّقل البخاري على نهر دجلة وشط العرب لا يعود إلى زمن بعيد. وفي الوقت الحالي هناك خطان للملاحة النّهريّة في بغداد والبصرة، وهما خط النّاقلات التُّركية وخط النّاقلات الإنكليزية. هناك سبع بواخر في الخط التُّركي، وكان مدحت باشا هو من دشّن المشروع، لكن الأوروپيين يتجنّبون ركوب هذه النّاقلات لأنها صغيرة وتفتقر إلى وسائل الرّاحة، كما أنها لا تقدّم وجبات طعام. بدأ الخط الإنكليزي قبل ثلاثين عاماً عن طريق شركة (لِنتش وشركاه .Lynch & Co) وهي تقدّم خدمات جيدة. عدد بواخرها ثلاث فقط، هي مجيديّة *Mejidieh* وخليفة *Calipha* وبلوس لِنتش *Blosse Lynch*، وهي أكبر وأقوى وأفضل من البواخر التُّركيّة.

تتميّز هذه البواخر بأن صناعتها متينة، فهي لا تسحب سوى القليل من الماء، لكنها واسعة جداً. يرتفع فوق السّطح الرّئيسي للباخرة والذي يمتّد فوق مستوى الماء بقليل مجموعة كبيرة من الغرف وتحتل ثلثي طول المركب وفي أعلاها سطح واسع



شارع في بغداد

يشغله المسافرون على السّفينة بشكل عام. تكون وسائل الرّاحة في المقدّمة، وهي تتكون في باخرة المجيديّة من عدة غرف مريحة تتسع كل منها لشخص واحد مع صالة صغيرة للطعام. تستطيع المجيديّة حمل ستمئة شخص على سطحها، أما بلوس لِنتش فهي تتسع لعدد أكبر من ذلك.

يقود هذه البواخر أشخاص من المسيحيين الكلدان من قرى قريبة من الموصل. وهم رجال فارعو الطّول، وسيمون، تحسبهم من هيئتهم أنهم أوروپيون أكثر منهم شرقيين. إن مشاهدتهم وهم يعملون لهو أمر ممتع، ورغم ملامحهم الجميلة التي تدل على الشّرف ونبل الأصل، فإنهم بعيدون عن التكلّف والتملّق، ويعملون بجد ونشاط وبصورةٍ غير معهودة لدى المسيحيين الشّرقيين. أخبرني أحد الموظفين أنهم رقيقون ولا يصلحون للشجار، وربما هم يتبعون المثل القائل: «الهروب أفضل القتال». زيّهم شبيه إلى حد بعيد بزي المسلمين، إذ يتكون من الجبّة الزّرقاء الطّويلة مع العمامة البيضاء، وهم يتكلمون العربيّة.

تُعدّ الملاحة في النّهر عملية لا تخلو من الصّعوبة، وعندما ينخفض منسوب المياه، تصطدم السّفن بضفاف النّهر الطّينيّة، وهناك بعض الانعطافات عند السّير باتجاه التيار يجدر أخذ الحذر عند سلوكها. وهم يصطحبون معهم باستمرار دليلاً محليّاً. من الطّبيعي أن يكون هناك فرق في التوقيت بين الرّحلات الصّاعدة والرّحلات النّازلة. تستغرق الرّحلة من البصرة إلى بغداد كحدّ أدنى حوالي ثلاثة أيام ونصف اليوم، رغم أنها وبشكل عام تستغرق وقتاً أطول وخصوصاً عندما يكون تيّار المياه قويّاً، فإنها تستغرق أسبوعاً كاملاً. والحدّ الأدنى الذي تستغرقه الرّحلة باتجاه البحر هو يومان فقط، لكنها في أوقات الفيضان تأخذ ست أو عشر ساعات إضافيّة، وقد علّق هذا البيان في صالة المجيديّة:

اسم المكان على النّهر	معدل فواصل السّير النّهري				شرح وتوضيح للأماكن على نهر دجلة
	النّازل مع النّهر		الصاعد مع النّهر		
	دقيقة	ساعة	دقيقة	ساعة	
البصرة	30	4			خط عرض 30' 30 9 شمالاً
القرنة	0	3	30	5	التقاء نهري دجلة والفرات، ويفترض أنها جنّة عدن
ضريح عِزرا	40	4	15	4	عِزرا الكاتب، وهو مكان يهودي مقدّس
أبو سدرة	10	1	30	9	بستان صغير لشجر الحور بالقرب من النّهر مع ضريح لقدّيس عربي داخل كوخ من القصب على الضفة الغربيّة
العمارة	15	4	0	2	قرية تأسست عام 1861 م، فيها مستودع للفحم لبواخر الشّركة على الضفة الشّرقيّة من النّهر
علي الشّرقي	0	4	15	6	بستان شجر الحور العالي على الضفة الشّرقيّة وداخله ضريح لعربي مهم
علي الغربي	10	3	45	5	قرية صغيرة على الضفة الغربيّة سمّيت على اسم ضريح لقدّيس عربي أسفل القرية
شيخ سعد	30	4	0	5	قرية صغيرة على الضفة الغربيّة سمّيت على اسم شيخ عربي سابق
كوت العمارة	30	4	0	6	قرية على الضفة الشّرقيّة فيها مستودع للفحم خاص لبواخر الشّركة
البغيلة	0	5	0	7	قرية على الضفة الغربيّة من أملاك السّلطان. تأسست عام 1885
العزيزية	45	1	0	9	قرية صغيرة ذات بيوت طينيّة على الضفة الشّرقيّة
البغدادية	0	4	45	3	حصن طيني فوق تل على الضفة الغربيّة. بناه شيخ الزّبيد بهدف جباية الإتاوات من القوارب
بستان كسرى	30	2	30	6	تلال أثريّة، وهي آثار طيسفون الفارسيّة القديمة
نهر ديالى	50	1	0	5	يصب في دجلة وينبع من تلال لورستان الفارسيّة
بغداد			15	3	خط عرض 35' 20' 5 شمالاً
زمن الإبحار الصّاعد 78 سا 45 د، أما زمن الإبحار النّازل فهو 47 سا 10 د					

وعلى سبيل المقارنة، فإنّ رحلة الإبحار نزولاً مع النّهر تستغرق من سبعة أيام إلى خمسة عشر يوماً، بينما تستغرق رحلة الإبحار الصّاعد دائماً أكثر من شهر.

* * *

قبل مغادرتنا بغداد في صباح اليوم التالي، تركنا الميناء على الضفة الشّرقيّة واتجهنا نحو الجانب المقابل من النّهر. كان المنظر من هنا أفضل قليلاً، وسرعان ما رسا على السّاحل واحد أو اثنان من القوارب الضخمة المسمّاة «البغلة» buggalows[1]، أما قوارب القفّة فقد كانت تطفو فوق المياه متتابعة بطول يشبه الأفعى. أما البغلة فهي أكبر صناعة محليّة في الخليج العربي وفي البحر العربي عموماً. تُعدّ هذه المراكب ممتازة، ولها أحجام مختلفة لكنها على نموذج واحد. لها مقدّمة ومؤخرة مرتفعة عن الماء وعن الوسط. هناك حجرة في مؤخرتها وتُدهن عموماً بألوان زاهية، وتتميّز عن غيرها من القوارب بأن الصّاري الكبير يميل إلى الأمام بطريقة غريبة. تأتي هذه القوارب من زنجبار إلى بغداد، وأعتقد أنه ليس من السّهل تغيير اتجاهها. ويجري الإبحار بها بشكل أساسي بمحاذاة السّاحل قريباً من اليابسة.

غادرنا حوالي الظهر، وكنت أنظر إلى بساتين النّخيل ومقاهي بغداد المبنيّة من الطُّوب الطّيني وهي تبتعد. وبينما كنت أجلس مستريحاً في مقعد على المنصّة السّفليّة وتحت ظلال المركب، أطلقت العنان لتفكيري واستحضرتُ الفرق ما بين أسلوب السّفر هذا والأسلوب الذي سلكتُه منذ شهر. إن طريقة السّفر بالسفن البخاريّة النّهريّة الإنكليزيّة المريحة مختلفة تماماً. لقد كانت السّاعات التي أمضيناها تحت شمس الصّحراء الحارقة والارتجاج فوق صهوة الحصان المسكين أو داخل التَّخت الذي سافرت به بطيئة مقارنة مع الرّحلة الآن، إذ تبدو وكأنها طيران بسرعة البرق أمام الشّجيرات وبساتين النّخيل والقرى المبنيّة من القصب وأمام السّهول وخيام البدو.

نحن الآن نسير فوق الضفّة حيث ترتطم المياه بقوة على مؤخرة المركب لتدفعه

---

(1) يبدو أنّ هذا التعبير buggalow صيغة إنكليزية لتسمية مركب البغلة.

إلى وسط النّهر وتستدير مع انعطافه ونحن نحرّك مياه دجلة المضطربة بمجاديفنا. بعد السّاعة الواحدة تقريباً، عبرنا جسراً مفتوحاً هو جسر جرارة Jisr Gerarah الذي يترجّل عنده بعض الرّكاب القادمين إلى بغداد ويسيرون نحو المدينة مشياً على الأقدام لأن هناك انعطافة كبيرة بين هذا المكان وبغداد والمركب يسير عكس التيّار، وبهذا يتم اختصار وقت الرّحلة. في هذا الوقت من السّنة، تسير القوارب نزولاً مع التيّار بسرعة أحد عشر ميلاً بحريّاً في السّاعة، وبعد أميال قليلة اجتزنا مصب نهر ديالى الذي يحوي جسراً من القوارب.

وبعد ساعة تقريباً أصبحنا مواجه طيسفون Ctesiphon، ولكن يا لخيبة أملي العظيمة، فقد رفض الموظف المسؤول عن تسيير المركب السّماح لنا بالنّزول ومشاهدة الأثر العجيب عن قرب. ولأن طيسفون تقع داخل حلقة مستديرة من النّهر، فإنّ المركب يقوم باستدارة كبيرة بعد المرور بجانبها الغربي، ثم يقطع ميلين منها إلى الشّرق، وما تقوم به السّفن عادةً أنها تستغرق ساعة كاملة كي تستدير في رحلة النّزول، ووقتاً أكبر في رحلة الصّعود. ولسوء الحظ فإنّ رُبّان السّفينة كان مريضاً في بغداد والشّخص المسؤول عن تسيير المركب لم يكن لديه الصّلاحيّات في توفير المتعة للرّكّاب، لذلك كان علينا النّظر فقط من فوق السّطح.

يظهر طاق كِسرى أو بالأصح تخت خسرو أو عرش خسرو من النّهر أيضاً وهو يبدو بحالته المهدّمة حاليّاً. كانت النّظرة الأولى التي ألقيناها عليه من على قرب تظهره وكأنه قلعة نورمانديّة ضخمة يعلوها قوس كبير. ونرى حول هذا القصر العائد للإمبراطوريّة الفارسيّة القديمة المجمّعات الصّغيرة للمواطنين العرب. وقبل وصولنا إلى هذا المكان بقليل، مررنا على الضفّة الغربيّة بتلّ من ترابي قد خطّت عليه مياه النّهر بعض الخطوط. كان هذا كل ما تبقّى من سلوقية، المدينة المقدونيّة التي قامت على أنقاض بابل والتي أصبحت تعرف فيما بعد مع طيسفون باسم (المدائن) أي المدن بصيغة الجمع.

وبعد ساعة من الزّمن، كنّا نقف مقابل الجهة الشّرقيّة للتخت، ورغم البعد الكبير

الذي يفصل بيننا وبينها فقد استطعنا تمييز صفوف الأواوين في الجدران والأعمدة التي تزيّن واجهة المبنى في هذا الجانب. أما الواجهة الأخرى للمبنى في الجانب المقابل للقوس الكبير، فقد انهارت في السّنين الخوالي، ويقال إن بقيّة الأثر معرّض للانهيار في أي وقت. احتجّ القناصل الأوروبيون لدى الحكومة العثمانيّة على أحد الباشوات في بغداد لتدميره لهذا الأثر، لكن عمليّة سرقة الطُّوب من الأجزاء السّفلى للأسوار استمرّت. لذلك يظهر للرّحالة المحب للآثار والذي ينظر بشغف من على ظهر المركب، كومة من الأنقاض كالتلال المتراكمة على الضفّة الأخرى، بدلاً من رؤية قوسٍ جميلٍ ومهيب.

إنّ الأراضي الواقعة على جانبي نهر دجلة بين بغداد والبصرة، مقفرة إلى حدّ بعيد وهي كالأراضي الواقعة على نهر الفُرات شمالي الدّير. هناك قرى ومجمّعات كثيرة على طول الطّريق، ولا نستطيع أن نطلق عليها اسم مدن عدا (العَمارة). هناك قريتان أو ثلاث يمكن أن ترسو السّفن فيها. وتستطيع بين الفينة والأخرى رؤية بقع من الأراضي المزروعة، لكن يبدو أن أصحابها قد أهملوا الاهتمام بها. ولا تشاهد في هذه المنطقة الواقعة إلى الجنوب من طيسفون أيّة شجيرات كثيفة كالتي تشاهدها على ضفاف نهر الفُرات، ويبدو أنها منعدمة بسبب استخدام خشبها كوقود للسّفن. قبل اختفاء الأشجار، كانت الأسود تعيش في المنطقة وكان يجري اصطيادها، لكنها اختفت الآن رغم وجودها على بعض ضفاف نهر كارون. أما الخنازير البريّة وطيور البجع فهي موجودة بكثرة، وكانت الخنازير تصاد أحياناً من على ظهر المركب.

إن أغلب السّكان العرب القاطنين على ضفّتي نهر دجلة، ينتمون إمّا إلى قبيلة زبيد أو المنتفق[1] على الضفة اليمنى، أو إلى قبائل بني لام والبومحمّد على الضفة اليسرى، وهي كلها قبائل بدويّة تعيش حياة الرّعي. وتعود القرى التي نشاهدها مع الأراضي الزّراعيّة الصّغيرة إلى هذه القبائل التي استهواها أسلوب الحياة الزّراعيّة. لكن يبدو أن هذه التجربة لم تثمر كثيراً، ومن المحتمل أن العديد من هؤلاء العرب قد عادوا

(1) كتب المؤلف: تنتمي قبيلة المنتفق في الواقع إلى منطقة وادي الفُرات.

إلى حالة معيشتهم السّابقة. لقد شاهدنا ونحن فوق المركب أعداداً كبيرة من الأبقار والجواميس والأغنام والماعز، لكننا لم نشاهد أي أثر للإبل. يسكن بعض أفراد قبيلة البومحمّد، الذين سأروي عنهم المزيد في موضع آخر، منطقة المستنقعات الممتدّة لأميال شمالي القرنة.

إن ندرة وسائل النّقل هي من سمات هذا النّهر العظيم، إذ يمرّ بين الحين والآخر مركب صغير ذو شراع، محمّل بالحطب ويجرّه جماعة من العرب العراة وهم ينشدون الأغاني لساعات طوال، حيث إنني لم أرَ خلال الأيام المنصرمة أيّ أثر للنقل النّهري. ومن المؤكد أن النّهر يمرّ في هذا الوقت بحالة استثنائيّة، وهي ثورة العرب في الجنوب وتوقّف النّقل بسبب ذلك، مع ذلك ففي الظروف العاديّة يُعدّ النّقل النّهري قليلاً جداً أيضاً. يقول السّيّد غيري وهو يتكلم عن تجاربه لما سلك الطّريق ذاته في عام 1878، إنه لم يشاهد سوى سفينتين صغيرتين وعدد كبير من قوارب البغلة متوسطة الحجم. وعندما يتخيل المرء ما يمكن أن يكون عليه هذا الممر المائي الكبير الممتد من الخليج العربي إلى جبال أرمينيا، فإنه يرى بشكل واضح العجز التام للحكم التُّركي.

كانت قبيلة زبيد في سابق عهدها جماعة كثيرة العدد وتتمتّع بالقوّة، لكنها في الوقت الحاضر ضعيفة ومشرذمة. وجدير بالذكر أن هارون الرّشيد قد حاز على زوجته الجميلة زُبيدة من هذه القبيلة أيضاً.

* * *

مررنا في مساء اليوم التالي بالقرية الطّينيّة المسمّاة الجزيرة والتي يسكنها هؤلاء القوم. وبعد ذلك مررنا بقلعة البغداديّة التي بناها أحد شيوخهم السّابقين بغرض اعتراض طريق السّفن وجباية الإتاوات خلال النّقل النّهري.

وبعد مغادرتنا بغداد دخلنا منطقة المستنقعات في الفترة الأولى من بعد الظهر. وعندما ذهبنا للخلود إلى النّوم عند العاشرة، فاجأتنا أصوات الضفادع بأعدادها الكبيرة وصوتها المثير للإزعاج، هذا بالإضافة إلى سحابات كثيفة من البعوض. أما

الذباب فهو يلسع بقوة وبشكل مؤلم، لكن لسعاتها لا تسبب تورماً.

في الليل توقفنا في كوت العَمارة Kut el Amara، وعندما استيقظنا في الصّباح كنا على موعد مع النّسيم العليل الذي يندفع فوق السّهل الأخضر المكسو بالعشب. وبعيداً إلى اليسار كنا نشاهد جبال حمرين، هذه السّلسلة الجبليّة التي تفصل لورستان الفارسيّة عن الأراضي التُّركيّة والتي تقع خلفها مباشرة مدينة دزفول.

عند العاشرة والنّصف تقريباً اجتزنا القرية الطّينيّة البائسة التي تسمّى علي الغربي والتي تقع على الضفة الغربيّة من النّهر، حيث يقطنها العرب على الجانبين كليهما. أما الذين على الجانب الشّرقي فهم من قبيلة بني لام، وقد بُنيت مجمعاتهم السّكنيّة من الحصر والطين والقصب[1]. ويقال إن هؤلاء الأشخاص يتصاهرون كثيراً مع الأكراد وهم يتحدّثون اللغتين. يرتدي أطفالهم الذين نشاهدهم على ضفاف الأنهار الملابس الحمراء بدل الزّرقاء التي اعتدنا على مشاهدتها لدى العرب. وقد قابلنا في أحد الأماكن حشداً من النّاس يقفون عُراة تماماً فوق بقعة من الأرض اليابسة تحيط بها المياه من كل جانب. كانوا يحملون الرّاية الخضراء وهم يصيحون بأعلى صوتهم على الباخرة. لقد عانوا من كارثة كبيرة إثر فيضان النّهر الذي اكتسح أحد السّدود وأغرق قريتهم ودمّرها كما أغرق كل محاصيلهم، حسبما أخبرني أحد أفراد طاقم الباخرة. وفي مجمّع سكني آخر شاهدنا كيف يكون مستوى النّهر أعلى من مستوى اليابسة التي يجري فوقها، لهذا لا تنفع السّدود البائسة سوى ليقف النّاس عليها بهذه الطّريقة.

وفي المساء وجدنا أنفسنا نبحر بين ضفتين تحيط بهما بساتين الفاكهة والنّخيل وهي مسوّرة بسور طيني. شاهدنا أيضاً عدداً من القوارب غريبة الأشكال والتي هي مفرطة في الطّول وضيقة إلى حد كبير، تسير بعكس اتجاه تيار النّهر. تسمى هذه القوارب البَلَم حيث يمكن مشاهدتها في نهر دجلة الأدنى وشطّ العرب. بعد ذلك بقليل وصلنا إلى العَمارة، حيث قام القارب بدورة وسط النّهر لنصل سريعاً إلى الرّصيف بينما كانت

---

(1) كتب المؤلف: بنيت بعض مجمّعات الحُصر هذه في وادي دجلة الأدنى بانتظام فائق وتحسبه عندما تراه مخيّماً عسكرياً.

مقدمة السّفينة مرتفعة في الماء. ورغم عدم تمكني من إقناع أحد بالنّزول معي إلى اليابسة، فإنني نزلت في الحال كي أليّن ساقيّ وألقي نظرة على المكان. تُعدّ العَمارة مدينة كبيرة بعدد سكانها الذي يبلغ حوالي خمسة آلاف شخص، وفيهم عدد لا بأس به من اليهود، وعدد قليل من المسيحيين. ويحكم المدينة والٍ، وهناك ثكنات يقيم فيها فوج من الأتراك. وعلى واجهة النّهر هناك بعض البيوت النّظيفة والجميلة. أما جسر القوارب، والسّوق الكبيرة التي يعرض فيها مختلف أنواع البضائع، ومركز التلغراف، فهي عناصر مهمة تكمل جاذبيّة المدينة.

* * *

في العَمارة نهر يصبّ في دجلة من ناحية الشّرق، يُشك في هويته نوعاً ما. يشير كيبرت Kiepert إلى أن هذا هو نهر الطّيب Tib الذي ينبع من جبل حمرين كما تشير الخرائط الأخرى إلى الأمر ذاته. لكن السّيّد يوسف الموظف في سفينة «مجيديّة» أبلغني أن هذا غير صحيح وأن هذا هو المصبّ الشّمالي لقناة، أو هو ماء مرتدّ خارج من مجموعة المستنقعات العظيمة يسمى الصّامدة Samida أو سامرغا Samargha ويمتدّ إلى مستنقع الحويزة داخل العمق الفارسي، ويسمى النّهر الشّط أو سدّ الخد Sid al Khud. أكّد لي يوسف أنه يمكن الوصول إلى الحويزة من العَمارة بواسطة القوارب بعد قطع منطقة المستنقعات الشّاسعة. ويبدو في حقيقة الأمر أن هذا هو أحد مصبّات نهر الكرخة Kerkah الفارسي الذي تنتشر مياهه بعد مرورها بالحويزة فوق مجموعات كبيرة من المستنقعات، وبعدها يصبّ الخدّ مياهه في العَمارة. وهناك مصبّ آخر إلى الجنوب في العُزير أو ضريح عِزرا، وواحد أو أكثر على بعد ستين ميلاً إلى الجهة الجنوبيّة بالقرب من مكان التقاء نهري دجلة والفُرات. ويبدو أن الطّيب يصبّ في الخدّ ليس بالقرب من دجلة تماماً، بل أبعد قليلاً إلى الجهة الشّرقيّة في المنطقة القريبة من المستنقعات.

تقوم صناعة البَلَم التي سبق ذكرها والتحدّث عنها هنا وحتى في البصرة، من خشب السّاج المستورد من ساحل المليبار، حيث يُثبت الخشب بمسامير حديديّة ويطلى

القارب على طوله بالقار. يمكن أن يقود البَلَم متوسط الحجم رجل واحد فقط بحيث يجلس في المؤخرة ويمسك بمجداف عريض.

* * *

في العَمارة كما في العديد من مدن دجلة الأدنى، هناك عدد لا بأس به من النّاس الذين يسمون بالصابئة، ويدّعون أنهم منحدرون من الكلدان القدماء. وهم ينظرون إلى القديس يوحنا المعمدان بتبجيل خاص[1]. تختلف بنيتهم الجسديّة عن العرب أو الفرس رغم تشابه أزيائهم. ولهم لحى داكنة اللون وعيون جميلة.

في الوقت الذي بدأت فيه المجيديّة بالرحيل، كان هناك رجل من الصّابئة يبدو أنه ذو شأن عظيم، يقف على المنصّة السّفليّة للسّفينة وقد تجمّع لوداعه حشد من الأصدقاء، وكان كل واحد منهم يرمي على ظهر السّفينة بعباءة ملفوفة تحتوي على هدية الوداع إما من الجوز أو التمور. وحالما تصل العباءة إلى السّطح، يقوم الصّابئي بإفراغ محتوياتها ورميها مرة أخرى إلى الحشود المزدحمة. وعندما آن وقت الرّحيل وأخذت السّفينة بالابتعاد عن السّاحل، أصبح من الصّعب عليهم رمي المزيد من الهدايا، فما كان منهم إلا أن أخذوا يلوّحون بأيديهم بلهفة كتحية الوداع.

لقد كان المنظر الأكثر غرابة ذاك الذي شاهدته على سطح سفينة (دجلة)، إذ كان هناك مئات من الأجساد الجالسة أو المستلقية من جنسيّات متعددة وبملابس متعددة الألوان تملأ المكان بازدحام شديد، بحيث يصعب على المرء الانتقال من مكان إلى آخر. بين هذه الجموع عددٌ كبيرٌ من الحجّاج العجم العائدين إلى وطنهم من كربلاء والنَّجَف. لقد كانت هذه المشاهد شبيهة إلى حد ما بجموع الرّجال ذوي القلانس الضيّقة والنّساء المحجّبات الذين التقيتهم في طريق الحج، غير أنهم الآن في حالة راحة، يستلقون على فراشهم المبعثرة وهم يشربون الشّاي وينفثون دخان سجائرهم. وعندما صعدت فجأة إلى المنصّة العلويّة، شاهدت بعض حوريّات الشّرق من غير

---

(1) كتب المؤلف: لاستقاء معلومات عن الصّابئة ومعتقداتهم وخصوصيّاتهم، انظر أينسوورث Ainsworth في كتابه «مسرد شخصي عن بعثة وادي الفُرات» عام 1888. المجلد 2، ص 43.

حجاب. لا يمكن القول إنني قد تأثرت كثيراً بما شاهدت، ولكن عندما سارعن بارتداء ملابسهن، أصبح من الضروري أن أنهمك بآليّة تجديف المركب. بالإضافة إلى هؤلاء، كان هناك عرب من البصرة، ومسلمون من بومباي، وبعض النّساء المغامرات في طريقهن من بغداد إلى بومباي، وهنّ يأملن في جني ثروة من جمالهن. هذا الخليط العجيب من البشر يعيش ويدخّن ويأكل وينام على سطح الباخرة دون أيّ مشكلة أو إحساس بالانزعاج. فحالما يصل أحدهم إلى السّطح ويضع صرّة أمتعته على ظهر الباخرة، يتوجب عليه البقاء في هذا المكان لحين وصوله إلى البصرة، ولا يبرح مكانه إلا لتناول إبريق الشّاي أو الغليون. أما فيما يتعلق بالتنزّه فوق السّطح، فهو أمر غير ممكن بسبب الازدحام الشّديد.

في ركن من أركان السّفينة، جرى تمثيل مأساة الحسين، حيث جلس الرّجال متحلقين حول مصباح (كون الظلام يلفّ المكان) وهم من الحجّاج العجم. دار بينهم إبريق الشّاي كبداية، وما لبث أن جلس العريف الوقور المسنّ فوق صندوق لجلب الانتباه وهو يتلو التّرانيم بصوت رتيب عن قصة الشّهيد المبجّل. بدأ الكلام باطراد وبشكل مطوّل، ثم تغيّرت نبرته فجأة، وبعبارات عاطفية وسريعة، دخل في مشهد تصويري للرّواية. وعندما وصل إلى مرحلة معيّنة، أظن أنها وقت الاستشهاد، تداعى صوته وغاص في نبرة من الحزن العميق. وفي اللحظة ذاتها، انفجر المنصتون بأنين ونشيج وبكاء لا يوصف. بعد ذلك، توقف الرّاوي ومسح بيده اليمنى الدّموع التي فرّت من عينيه والتي كانت دموع إحساس صادق، بينما كان المستمعون يرفعون أكفّهم بين الوقت والآخر وهم يردّدون بتوسّل أسماء الله.

❋ ❋ ❋

رست سفينتنا هذه الليلة في وسط النّهر، وغرقنا بنوم عميق رغم النّقيق المستمرّ للضّفادع.

اتضح لنا في هذا الوقت أن إحدى القبائل التي نحن على وشك اجتياز أراضيها تقوم بثورة، وهناك احتمال حصول مشكلة. لذلك أعطى الموظف المسؤول عن

السّفينة أوامره إلى الدّليل وموجّه الدّفة والخفر الذين يقفون على منصّة الرّبّان، بحماية أنفسهم ببالات من الصّوف في حال حدوث أيّة أعمال عدوانيّة محتملة. يعود تاريخ هذا الاضطراب إلى ما يلي: ألقت السّلطات التُّركيّة القبض على اثنين من أولاد الشّيخ سعود بن منشد شيخ قبيلة المعدان Madan العربيّة بسبب عدم دفع الضرائب. تُعدّ قبيلة المعدان العربيّة بطناً من بطون قبيلة البومحمّد الكبيرة التي تقطن جزءاً كبيراً من البلاد على جانبي نهر دجلة بين العَمارة ونهر كارون، حيث تعمل في تربية الجواميس، ويقال إنهم يعدّون حوالي أربعين ألف نسمة. لقد حشد الشّيخ، الذي تعاطف معه كل من لديه أدنى معرفة بسياسة الأتراك نحو العرب، عدداً كبيراً من الرّجال المسلحين، من بينهم أربعمئة شخص تقريباً يحملون بنادق مارتيني، وصبَّ جام غضبه في قطع الطّريق والسّلب، وقد أحرق مراراً قوارب الحبوب ووسائل النّقل الأخرى على النّهر. لم يكتفِ الشّيخ الغاضب الذي سار على نهج أسلافه بقطع رؤوس أعدائه، بل قام بإطلاق النّار وإغراق أحد القوارب التُّركيّة وهو في طريقه إلى البصرة. وبما أنه لم يعترض أيّاً من السّفن الإنكليزيّة كونه لا يحمل العداء لهذه الأمّة، فمن الممكن المرور دون أن نصاب بالأذى، لكن الحذر واجبٌ وخصوصاً أنه في السّنوات القليلة الماضية أصيب أحد ربابنة السّفن التابعين لشركة لِنتش Lynch في صدره وجُرح جرحاً بالغاً.

كانت السّلطات التُّركيّة بالطبع تسعى جاهدة لإيقاف هذه الاضطرابات بإرسالها الحملات ضد الشّيوخ المتمرّدين، لكن المتمرّدين الحاذقين يعرفون مداخل ومخارج مجموعات الأهوار الشّاسعة ومستنقعات القصب التي تقع بمحاذاة النّهر، ولا يمكن لأحد في العالم القيام بملاحقتهم بعد أن ينسحبوا كجرذان الماء إلى معاقلهم. وما كان من الأتراك إلا أن أقروا بالمأزق العصيب الذي هم بصدده. ورغم المكافأة الكبيرة التي عرضت مقابل رأس سعود، التي ستقوده دون شك لأشدّ أنواع العقوبات، فليس هناك أمل كما يبدو في القبض على هذا المتمرّد وإعادة الهدوء إلى المنطقة.

في صباح اليوم التالي، توقفنا في قرية قلعة صالح على الضفة اليسرى من النّهر. وهنا صعد على ظهر الباخرة رجال تابعون لفرقة مكونة من عشرين جنديّاً تركياً لتأمين

الحماية لها، وهو شيء مشكوك فيه إلى حدّ ما، لأنه من المحتمل أن يطلق الشّيخ سعود[1] النّار على القوات التُّركيّة الموجودة على سطح السّفينة أكثر مما لو كنا نسير دون وجودها. لقد جلبت القوات التُّركيّة تقريراً (أشك بصحّته) يشير إلى أنّ التّمرّد منتشر بشكل خطير، ويشير أيضاً إلى أن مجموعة من الجنود الأتراك قد تقدّمت في اليوم الماضي برفقة أحد الأصدقاء من الشّيوخ العرب يدعى يسر، مع مجموعة من رجاله وعبرت النّهر وهاجمت جماعة سعود في مكان ما على الضفة اليمنى للنهر، وقد قُتل خمسون من المتمرّدين وخمسة عشر من الأتراك. من الصّعب معرفة مدى صحّة هذا الكلام ولم أعرف بعدها ماذا حدث، ربما حصلت مناوشة ذهب ضحيتها بعض الأشخاص. على أية حال، لا بدّ لنا من الحرص عند اجتيازنا هذه (القلعة الخطيرة).

* * *

عند مغادرتنا قلعة صالح، شاهدت ثلاثين قارباً تقريباً من قوارب البغلة وهي تسير بسرعة على شكل صفّ طويل لبلوغ الضفة. كان بعضها البارحة في العَمارة، لكن السّلطات التُّركيّة منعت تقدّمها عند وصولها إلى هنا. أما إلى الجنوب من هذا المكان، فقد كانت الضفاف تكتظ برجال المعدان العرب الذين اعتدنا على مشاهدتهم ولم يعد منظرهم يثير الفزع. كان معظمهم عُراة تماماً إلا من قطعة قماش تُلف حول الرّأس أو العنق، أما عوراتهم فهي بادية للعيان بشكل واضح. هذا بالنّسبة للذكور الصّغار، أما البالغون فهم يرتدون ملابسهم بالكامل. كان الصّبيان يتسابقون بشكل صاخب أمام البواخر القادمة لالتقاط ما يرمى لهم من فتات الخبز. يذكرك هذا المنظر بالدّلافين حين تتهافت على الطّعام في الماء. وهنا ما إن تُرمى قطعةُ خبز، حتى تتسابق الأجسام الانسيابيّة السّمراء لتغطس في الماء من أجل التقاطها، ثم تحصل مشاجرة فيما بينهم

---

(1) كتب المؤلف: لقد وجد السّيّد غيري Gratton Geary الذي سافر في النّهر في أبريل عام 1878 القبيلة ذاتها وهي منخرطة في تمرّد مماثل لكنه أقل حدّة. ويذكر غيري أن الشيخ رجل متوحش ينبغي عدم التسامح معه. ولا أعلم إن كان يقصد الشيخ سعود أو أنه جزء من قضيّته. على العموم وكقاعدة عامة، خلال النّزاعات بين القبائل العربيّة والسّلطات التركيّة تستحق الأولى التأييد والعطف، أما الثانية فالازدراء والرّفض.

للفوز بالغنيمة. كنت أظن من خلال سلوكهم هذا أنهم في حالة فقر شديد، لكنني علمْت لاحقاً أن هذه هي حال الصّبيان دائماً عند مرور أيّ سفينة. وبعد ذلك مباشرة، وصلنا إلى مزار مقدّس يدعى عبد الله بن علي، وهو ضريح صغير توجد بالقرب منه آثار قديمة، وقد تحلّق حوله حشد من العرب يحملون الرّايات. يُعدّ هذا المكان مقدّساً عند العرب ويدفنون موتاهم فيه كما يفعلون في كربلاء، لكنني لم أعرف شيئاً عن تاريخه.

بعد اجتيازنا لهذا الضّريح، وصلنا إلى المنعطف الأسوأ في النّهر حيث يكون ضيقاً ذا تيّار سريع، ولهذا لا بدّ من حُسن إدارة الدّفة. كانت السّفينة تتمايل على محور ثابت عند استدارتنا مرّتين في انعطافات منحنية، بينما كانت مؤخّرتها تكاد تلامس ضفة النّهر بحيث نستطيع القفز إليها بسهولة.

عند التاسعة تقريباً، وصلنا إلى ضريح عِزرا أو العُزير كما يسمّيه العرب، وهو يقع على الضفة اليمنى للنهر وسط أشجار النّخيل التي تضفي عليه جمالاً. كان بمقدورنا رؤية هذا الضّريح في النّاحية اليمنى المفتوحة البعيدة عن النّهر ثم ينحني بشكل حاد ويمر بالقرب منه. يُعدّ هذا المكان حسب الرّوايات اليهوديّة مكان وفاة عِزرا الكاتب خلال مروره وهو في طريقه من القدس إلى سوسة Susa، فأضحى الموقع محجّاً لليهود. يقول بنيامين التَّطيلي: «يقع ضريح عِزرا القدّيس والكاتب في هذا المكان، حيث توفي هنا وهو في طريقه برحلة من القدس لرؤية الملك الفارسي أردشير Artaxerxes. ويقوم أمام الضّريح كنيس كبير ومسجد، وهذه إشارة إلى التبجيل الذي يكنّه المسلمون نحو عِزرا، فهم يظهرون الودّ لليهود ويتردّدون على هذا المكان للصّلاة». توجد الآن قبّة زرقاء جميلة فوق مبنيين حديثي البناء مواجهين للنهر لاستقبال الزّوّار، إلا أنه لا وجود لآثار قديمة. ويقول لايارد Layard إن الموقع الحقيقي قد جرفه تيار النّهر[1].

---

(1) كتب المؤلف: انظر «المغامرات الباكرة في بلاد فارس»:
"Early Adventures in Persia", ii, 215.

يزور الحجّاج اليهود هذا المكان بأعدادٍ هائلة تصل أحياناً إلى أربعة أو خمسة آلاف شخص سنويّاً، لكنهم امتنعوا هذا العام عن القدوم بسبب الاضطرابات التي أحدثها العرب. ولأن السّفينة لم تتوقف سوى لدقيقتين اثنتين، لم تسنح لي الفرصة للنزول كما كنت أتوق. كانت حشود الجنود الأتراك تملأ المكان وهم يقفون أمام المبنى وقد رسا قارب المدفعيّة التُّركي في النّهر حيث تمّ إرساله لتقديم أيّة مساعدة ممكنة.

عندما دقت ساعة الإفطار، أُخبرنا بأننا قد اجتزنا المكان الوحيد الذي كان من الممكن أن نتعرّض فيه لخطر ما. لكن بعد ذلك مباشرة، حدثت جلبة لا مبرّر لها. كنت أحاول قراءة أحد الكتب في إحدى حجرات السّفينة عندما سمعت صوت إطلاق نار بشكل متواصل، فانطلقت مسرعاً نحو المنصة ظنّاً مني أننا نتعرّض لإطلاق نار، وأنني على وشك مشاهدة معركة حربيّة حقيقية، لكنني دُهشت عندما وجدت الجنود الأتراك وهم منشغلون بإطلاق النّار على خنزير برّي كان يعدو بين عيدان القصب على الضفة الغربية من النّهر. ولحسن الحظ لم تكن رصاصاتهم صائبة، فأخطأت الخنزير المسكين الذي نجا من الموت.

كانت المستنقعات التي نجتازها مليئة بعيدان القصب التي يبلغ ارتفاعها أحياناً ثلاثة أقدام. ولقد تمكنت (بواسطة منظاري المقرّب) من رؤية نوع من النّبات الطّويل أظنه البردي. كما كان المكان مليئاً بشتّى أنواع الطّيور، من الغربان والرّفراف والشّنقب والبجع، وأيضاً طيور مالك الحزين الجميلة، وأنواع أخرى من الطّيور البيضاء التي لم يسبق لي مشاهدتها من قبل.

عند منتصف الليل تقريباً، وصلنا إلى القرنة حيث يلتقي نهرا دجلة والفُرات بعد طول جريان بجوار بحيرة وان Lake Van ليسيرا معاً في نهر واسع كبير، ويصبّا في البحر. تقع قرية القرنة في بقعة ضيّقة من الأرض وسط بساتين النّخيل المثمرة، وهذا المكان حسب روايات أهل المنطقة هو البقعة الفعلية لجنّة عدن. وفي الحقيقة هو مكانٌ ساحرٌ، فيه الكثير من الرّومانسية، حيث يلتقي نهرا دجلة والفُرات بشكل مسالم، بعيداً عن الاضطرابات التي يبديها الأخير أحياناً لأن مياهه تتفرق في منطقة المستنقعات

قبل أميال قليلة من وصوله للقرنة، والتي تبعد حوالي خمسين ميلاً شمالي البصرة، في خط مستقيم، وتبعد ضعف هذه المسافة من البحر. عند مرورنا، كان ثمّة قارب حربي تركي يرسو هناك.

* * *

يشكل شطّ العرب الممتدّ بين القرنة والبصرة، نهراً عظيماً يتراوح اتساعه بين مئتين وخمسين إلى ثلاثمئة ياردة، أما عمقه فمن عشر إلى خمس عشرة قامة. وعلى طول هذا الشّط تنتشر بساتين النّخيل التي تتفاوت أطوالها بين المنخفض حديث الزّرع والعالي. أما التمور فهي من الأصناف الممتازة حيث تُعدّ زراعة النّخيل من أهم المهن هناك. وهم يزرعون أنواعاً وأصنافاً متعدّدة من التمور، ويقال إنّ هناك بين أربعين إلى سبعين نوعاً مختلفاً منها، حيث تُصدّر إلى أوروپا وأميركا. تشاهد أيضاً شِباك صيّادي الأسماك المكونة من طوق شبه دائري من عيدان القصب القائمة، حيث يدخل السّمك إلى هذه الشّباك عندما يرتفع المدّ ويعلق فيها بعد انحساره. ومن الجدير بالذكر أن المدّ يصل إلى ضريح عِزرا. ويمكن أحياناً مشاهدة أنواع من القصب المصنوعة على شكل قارب يطفو متجهاً نحو الجنوب إلى البصرة وذلك عند انحسار المدّ. وعلى العموم، يُستخدم القصب في صناعة الحُصر التي سبق وشاهدتها في البيوت العربيّة.

وصلنا إلى البصرة في الثاني والعشرين من شهر أبريل، وأستطيع القول إنه في هذه اللحظة انتهت رحلتي في البلاد التُّركيّة. كانت لدي النّيّة في السّفر برفقة المستر (C) بواسطة الخط الملاحي في نهر كارون الذي افتتح حديثاً للوصول إلى شُستار Shuster[1]، لكن اتضح مؤخراً عدم ملائمة هذه الفكرة لأن بواخر شركة لِنتش Lynch قد توقفت عن السّير مؤقتاً وحلّت مكانها سفن متداعية. ولأن هذا المركب لن يغادر حتى منتصف الأسبوع القادم ويفتقر إلى وسائل الرّاحة، قرّرْتُ الذهابَ في الحال على متن الباخرة البريطانية - الهندية «سِملا» *Simla* التي كانت راسية في النّهر

(1) هكذا ترد بالإنكليزية، وتسمّى بالعربية تُستَر، وبالفارسية: شوشتر. وهي عاصمة إقليم خوزستان.

وستبحر في صباح الرّابع والعشرين من الشّهر. يُعدّ ميناء البصرة حديث الإنشاء (لأن المدينة نفسها تبعد مسافة معينة عن النّهر، وتقع على نهر صغير إلى الشّمال) وهو مزيج غريب من الشّرق والغرب.

تقع القنصليّة البريطانيّة واثنان من المباني التجاريّة العائدة للشركات الإنكليزيّة والباخرة «سِملا» تقابلها باخرة فارسيّة وأخرى تركيّة ضخمة، على جانب واحد من النّهر. أما في عرض النّهر، فهناك زورق جميل للمدفعيّة الإنكليزيّة يدعى «بريسك» *Brisk*، وآخر تركي مهمل، وعدد من البواخر النّهريّة، وهي كلها تمثل الحضارة الأوروبيّة. بينما كان هناك حشودٌ من العرب والعجم والزّنوج، وعدد من قوارب البَلَم الشّبيهة بالأفعى، ومجموعة من قوارب البغلة، وهي كلها تمثل الشّرق القديم. كانت قوارب البَلَم التي سبق أن شاهدتها في العَمارة، تتنقل على سطح النّهر في كل الاتجاهات كزوارق البندقيّة حيث يقود كل واحد منها رجلان يستخدمان العصي الطّويلة أو المجاديف حسب الضرورة. كان هناك الكثير منها قرب السّاحل بحيث إنك لا تستطيع أن تسير مئة ياردة دون أن تصطدم بنصف دزّينة منها. والغريب أنّ أصحابَ القوارب وحتى الرّكاب لا يأبهون لهذه التصادمات، لكن على القادم الجديد الغافل الانتباه لنفسه، وإلا لتعرّض لضربة في عينه بواسطة العصا الطّويلة.

قمت برفقة المستر (C) بزيارة المقيم البريطاني الميجر جنينغز Jennings، والتقيت في منزله أيضاً بوكيل شركة البواخر البريطانيّة - الهنديّة الذي قال إن الاضطرابات التي أحدثها العرب على النّهر هي من أكبر المسائل التي حصلت خلال السّنوات الخمس الفائتة. لقد أعلن عن مكافأة لإحضار رأس سعود، وهو سيُقتل عاجلاً أو آجلاً. لقد توقّفت جميع وسائل النّقل النّهرية حالياً مما يعني خسارة كبيرة للشركة، وقد شاهدْتُ عدداً من القوارب المحليّة المحطمة التي طفت فوق مياه النّهر بفعل الاضطرابات.

* * *

نهضْنا باكراً في صباح اليوم التالي واستأجرْنا قارب بَلَم لزيارة البصرة الواقعة على بعد ميلين من النّهر فوق جدول ضيّق أو قناة. كان الطّقس في هذه السّاعة من الصّباح

في غاية البهجة والإنعاش، ولا يمكن تصّور أمر أكثر إمتاعاً من القيام برحلة في وقت مبكر من الصّباح. دخلنا القناة التي تجري بين المنازل، وبعد مرورنا تحت جسر خشبي متهالك وصلنا إلى مكان ساحر تحيط به أشجار النّخيل. إنها بالفعل ڤينيسيا الشّرق. كانت قوارب البلَمَ زاهية الألوان تتنقل على جانبي النّهر بأشكالها الجميلة، تعلوها مظلات مزركشة ويقودها رجال سُمر البشرة لا يعيرون تصادم قاربهم مع القوارب الأخرى أيَّ اهتمام، بل هو على العكس يضفي نوعاً من المتعة إلى النّزهة. كانت أشجار النّخيل ترافقنا على طول خط القناة التي دُعّمت بجذوع النّخيل أوالطُّوب في بعض الأماكن. وكان المكان يعجّ بأسراب كبيرة من السّلاطين صغيرة الحجم.



زورق بَلَم من زوارق البصرة

في غضون نصف ساعة تقريباً، وصلنا إلى رأس الجدول وقد بدأنا نشاهد بيوتاً حول المكان، ثم اصطحبنا أحد سائقي القوارب داخل المدينة حيث شاهدْنا سوقاً مسقوفاً بالحبال ومليئاً بالبضاعة الإنكليزيّة. وهناك أيضاً مركزٌ للتلغراف، أردت أن

أرسل برقية منه لكنني لم أستطع لأن الموظفين كانوا ما يزالون نياماً. إنني أتعجب عندما أرى مدينة عظيمة كبغداد أو البصرة تعاني هذا الكمّ من الانحطاط، ربما بسبب الويلات التي عانتها من حروب وأوبئة وتغيّر طرق التجارة والابتعاد عن المدنية. لكن الكثيرين يؤكدون أنها في طور الازدهار في الوقت الحالي.

إن الكلاب في هذه المدينة مختلفة عن كلاب السّوق العاديّة، فهي تشبه كلاب حراسة الأغنام ذات الشّعر الكثيف التي اعتدنا مشاهدتها في بلادنا، وأعتقد أنها فارسيّة.
إن جلّ ما أثار دهشتي وانتباهي منذ وصولي إلى الإسكندرون هو أن الجميع تقريباً هنا في البصرة لديه معرفة ولو ضئيلة عن اللغة الإنكليزيّة. فنوتيّة القوارب يتحدثون مع ربابنة السّفن بلغة مبسّطة، كما أن موظفي التلغراف وأصحاب الدّكاكين أيضاً يتكلمون شيئاً من الإنكليزيّة. كيف حصل هذا؟ مع أن البصرة لا تتعرّض لغزو السّيّاح الإنكليز كما هو الحال في الإسكندريّة أو بيروت خلال فصول معيّنة من السّنة! في الحقيقة إن الإنكليزيّة في البصرة وموانئ الخليج هي كالفرنسيّة في شمال سوريّا، وذلك يعود بالطبع إلى النّفوذ الأنكلو - هندي هناك، فالسّفن التابعة لشركة لِنتش Lynch والقارب البريطاني الذي يبحر أسبوعياً، بالإضافة إلى مركز البريد الأنكلو - هندي الذي ينقل البريد بين بغداد وبومباي، كلها تساهم في تواجد اللغة الإنكليزيّة على السّنة الأهالي، ورغم أنه في الأقاليم الخاضعة للحكومة التُّركيّة تُفضّل العملة الفارسيّة والهنديّة على التُّركيّة، فإنّ كمية القروش الصّغيرة التي جلبتها معي من حلب والتي هي مرغوبة جداً في بغداد حيث أستطيع بيعها بربح إضافي، أصبحت هنا عديمة القيمة وكنت سأضطر للاحتفاظ بها للذكرى لولا أن الوكيل البريطاني الهندي أخذها مني بكل لطف.

قبل يوم أو يومين من وصولي إلى البصرة، حدث أمرٌ خطيرٌ يدلّ على سوء الإدارة التُّركية في البلاد كما حدث في الثورة العربيّة على النّهر. فلقد ثار عشرون من السّجناء المحتجزين والمتّهمين بالقتل أو السّرقة أو كليهما وحطّموا السّور المحيط بالسّجن وكتّفوا الحرّاس والخفراء ظهراً إلى ظهر، ثم لاذوا بالفرار وهم مكبّلون بالأصفاد الثقيلة عن طريق النّهر، فسبحوا في القناة ثم وصلوا إلى منطقة مكشوفة، حيث قُتل

ثلاثة منهم برصاص الدَّرَك، أما الباقون فما زالوا في الأراضي المجاورة للبصرة حتى وقت وصولي.

تأسّست مدينة البصرة من قبل الخليفة الثاني عُمر في القرن السّابع، لذلك فهي تسبق بغداد كمدينة عربيّة، لكن كانت هناك مدينة قديمة مكان الزُّبير الحالية[1] أو البصرة القديمة والتي تبعد أميالاً قليلة إلى الجنوب، وعلى قناة يفترض أنها المصبّ القديم للفُرات المسمّى (Pallacopas). لا بد أنه كان هنا في السّابق ميناء تنقل من خلاله جميع بضائع الشّرق التجارية إلى مدينتي بابل وسلوقية، ثم إلى طيسفون والكوفة وبغداد في الأزمنة اللاحقة. وهذه التجارة هي التي أعطت مدينة البصرة أهميتها في القرون الوسطى. يقول لايارد Layard إنّ اكتشاف طريق رأس الرّجاء الصّالح هو الذي دمّر تجارتها. وفي زمن راوولف Rauwolf عام 1574 كانت الرّسائل التجارية تنتقل بين بغداد والبصرة بواسطة الحمام الزّاجل. ولقد أسست شركة الهند الشّرقيّة مركزاً لها في البصرة عام 1738. وكما هو الحال في كل مدن السّهل البابلي، توجد أعدادٌ لا بأس بها من اليهود حيث يذكر الحاخام بنيامين التَّطيلي أن عددَهم كان ألفين خلال رحلته.

ورغم أن البصرة القديمة تمرّ الآن بفترة سُبات، فإنّ من الممكن لها النّهوض واستعادة مجدها من جديد. وحسب الرّحّالة بَكِنغهام: «يقال إن التجارة قد ازدهرت خلال السّنوات العشر الأخيرة فزاد عدد المراكب من اثنين سنوياً إلى ستة مراكب يعلوها العلم البريطاني، علاوة على المراكب التي تحمل الأعلام العربية». ويروي لايارد Layard أنه منذ خمسين سنة خلت، رسا تاجر إنكليزي في البصرة مع بضاعته المكوّنة من أقمشة مانشستر، لكنه وجد صعوبة في مقايضتها بغيرها. لكن بعد ذلك بعشرين سنة تقريباً أصبحت السّفن تصل إلى البصرة من بومباي كل ستّة أسابيع، ولديها الآن خط نقل أسبوعي إلى الميناء آنف الذكر. كما أن هناك خطّاً ثابتاً ولكن بشكل أقل تكراراً إلى أنحاء أوروبا، وآخر فارسياً بين البصرة والهند.

إن الرّحلات الشّاعرية للسّندباد البحري والمخاطر التي كانت تواجهه والخوف

---

(1) كتب المؤلف: لا بدّ أن تكون الزّبير تنطبق على موقع الأُبُلّة القديم.

والفزع من طائر الرّخ العملاق، هي حتماً من الماضي[1]، أمّا الآن فيمكن للتاجر الانطلاق من البصرة إلى الهند أو إلى سرنديب بواسطة سفينة بريطانيّة - هنديّة مجهّزة بأحدث وسائل الرّاحة.

للبصرة حصّة أيضاً من النّزاعات والمصاعب، فقد استولى العرب والأتراك والزّنجباريون والعجم والعُمانيون على المدينة كلٌّ بدوره. وفي عام 1777 صمدت المدينة أمام العجم لمدّة ثمانية أشهر. ورغم أنها سقطت بأيديهم، فقد تمكن الأتراك من استعادتها في السّنة التي تلت. وفي عام 1787 استولى عليها شيخ من قبيلة المنتفق وذلك بين شهري أبريل وأكتوبر، حيث وضع الأتراك نهاية مفاجئة لحكمه الذي لم يدم طويلاً. وحصلت حادثة مشابهة في البصرة عندما استولى شيخ الزُّبير على مقاليد الحكم في المدينة، وذلك قبل وقت قليل من بعثة وادي الفُرات.

* * *

تقع منطقة المستنقعات بمجموعاتها الطّولية إلى الغرب من شط العرب. وعند نقطة شمال القرنة على الفُرات إلى جنوب البصرة، على مسافة قريبة من النّهر، حيث تفصل الوادي عن الصّحراء العربيّة. يبدو أن هذه المستنقعات قد تشكلت من جرّاء تفجّر مياه الفُرات وفيضانها نحو القرنة في فصل الرّبيع محاولة شقّ طريقها باتجاه البحر عبر قناة أخرى هي نهر صلاح (ربما يكون Pallacopas) الذي يصبّ أمام مدينة الزُّبير أو البصرة القديمة. وتُعدّ هذه المستنقعات المسبّب الرّئيسي للحمّى وتفشّي الأمراض وانعدام الظروف الصّحيّة في المدينة، وتبعاً لذلك فهي التي أعطت للمدينة سمعتها السّيئة، وفي الوقت ذاته أكّد لي الكثيرون أن المدينة أصبحت أكثر صحّة مما كانت عليه في السّابق، ربما بسبب زراعة الأراضي المحيطة بها. ومن المحتمل أن تفرّع نهر الفُرات إلى قنوات عديدة في السّابق، وإيجاد ممرات لها إلى البحر عبر نهر صلاح (الذي لا يؤدّي عمله بشكل جيّد هذه الأيام)[2] كان له الفضل في عدم

(1) كتب المؤلف: انظر الملحق رقم 8 في هذا الكتاب: قصة شاعريّة من الخليج العربي.

(2) كتب المؤلف: يبيّن أينسوورث Ainsworth الذي زار الزُّبير أن عرض نهر سعدة Saada أو

إغراق البلاد بالماء كما هو عليه الحال الآن، ولذلك كانت البلاد تتمتّع بظروف صحّية أفضل. وإضافة إلى اللّعنة التي لحقت بالمنطقة بسبب حمّى المستنقعات، هناك حبّة العمر الموجودة كما في بغداد، ويعاني الأهالي من الحصى أيضاً، ربما بسبب شرب المياه المالحة.

* * *

صلاح يبلغ أربعين قدماً.

الفصل السّادس عشر
الخليج العربي

المحمّرة - الصّناعات المحليّة - صيد الأسماك - أهل شُستار - التاريخ - الفاو - عبور العقبة - الخليج العربي - القرصنة - المناخ - الرّياح - الصّحّة - بوشِهر - سوق وايتلي الفارسي - وصف المدينة - قلّي (لعبة) - الوصول إلى البحرين - المياه العذبة في عمق البحار - صيد اللؤلؤ.

بعد السّاعةِ الخامسة بقليل من اليوم الرّابع والعشرين من شهر أبريل، كنا نبحر جنوباً باتجاه البحر. وصلنا قبالة مصب نهر كارون في السّابعة والنّصف تقريباً، وشاهدْنا على الضفة الشّماليّة بناءً حديثاً هو مقرُّ إقامة الشّيخ مزعل[1]، الذي يُعرف بشيخ المحمّرة المستقل. هو رجلٌ يتمتّع بجاذبية على نحو ما، وعند مرورنا أطلقنا طلقة من المدفعيّة كتحيّة له وأجيب علينا بمثلها ولكن بتأخير بسيط. قبل بضعة أعوام، هاجم العرب سفينة بريطانيّة هنديّة، لهذا تؤدي المراكب المارّة في هذا الخط طلقة كعربون تحيّة للشيخ الذي تدخّل في الوقت المناسب. توقّفنا مقابل مصب النّهر أو الأصحّ القناة الاصطناعيّة.

أعلمَنا ربّانُ السّفينة أن لدينا الوقت الكافي لرؤية المكان، فنزلتُ داخل أحد البلام وسلكنا طريقنا نحو المحمّرة التي تبعد ميلاً عن شطّ العرب على الضفّة اليمنى لنهر كارون. كانت بعض الزّوارق الطّويلة التي شاهدْناها عند مدخل القناة مصنوعة من

---

(1) هو الشيخ مزعل بن جابر الكعبي، شيخ المحمّرة (1881 - 1897). سيرد ذكره أدناه.

أغصان الشّجر، قدِمَتْ من بلاد فارس أو كما يقال إنها تأتي إلى هنا بين الحين والآخر وتبحر بمحاذاة السّاحل قادمة من بومباي. كانت هذه البلام مصنوعة من عدد كبير من حزم العيدان المتشابكة، وتشبه إلى حد بعيد النّماذجَ السّلتيّة التي نشاهدُها عادة على كوكبة صلبان كمبرلاند. وهناك مراكب شراعيّة ذات أشكال غريبة، بعضها له مؤخرة عالية كالسّفن الإنكليزيّة القديمة.

تشتهر المحمّرة بصناعة المراكب المحليّة، كما يمارس أهلها مهنة صيد الأسماك على نطاقٍ واسع، إما بشكل فردي أو جماعي، وهناك أسماك تدعى (الصّبر) وهي لفظة عربيّة تطلق على هذا النّوع من الأسماك إذ رغم أن طعمه لذيذ فهو مليء بالعظام. اعتاد النّاس على استخدام شبكات الصّيد الكبيرة، لكنهم يستخدمون الصّغيرة أيضاً. وفي الصّيف تكثر أسماك القرش عند مدخل نهر كارون حيث تُروى أحاديثُ وحوادث كثيرة عنها، وهي تسبح صعوداً في نهر دجلة حتى تصل إلى العَمارة.

أما مقابل المدينة فقد شاهدْتُ هيكلاً قديماً لقارب تجديف يملكه أحد الشّيوخ، وهو يعاني من الصّدأ الشّديد ويشكل تناقضاً غريباً على ضفّة النّهر مع ما يحيط به، بحيث يعيد إلى أذهاننا منظراً مشابهاً عند مصبّ نهر الثّايمز في إنكلترا.

أما البساتين الرّائعة فهي تمتّد على طول الضفّة الشّماليّة حتى تصل إلى المحمّرة، لكن المدينة بحد ذاتها بائسة، فهي مبنيّةٌ من الطّين والطُّوب القديم وأسواقها ضيّقة، تبيع الأسلحة فقط وهي بحاجة إلى الكثير من التّرميم. ورغم أن المنطقة تتبع للعجم في الوقت الحاضر فإنّ معظم سكانها من العرب. كما أن الزّنوجَ والشُّستاريّين[1] موجودون أيضاً[2]، هم قومٌ مملّون لهم أنوفٌ كبيرة. إن تقييمي لهم يختلف عن لايارد Layard الذي يجدهم قوماً يمتازون بالكرم واللّطافة، لكن عند افتتاح نهر كارون

(1) هكذا ترد التّسمية بالإنكليزية نسبة إلى المدينة Shustar، وتسمّى بالعربية قديماً: تُستَر، وبالفارسية: شوشتر. وهي عاصمة إقليم خوزستان.

(2) كتب المؤلف: انظر كُرزون في «بلاد فارس والمسألة الفارسيّة»:
"Persia and the Persian Question".

للملاحة، عانى ربابنة شركة لِنتش الكثير من المشاكل معهم. على أية حال يبدو أن لهم سمعة سيّئة على شط العرب. وهناك حولهم رواية تهكميّة[1].

إن المصبّ الطّبيعيَّ والقديم لنهر كارون هو قناةُ بوشِهر التي تجري بشكل متوازٍ مع شطّ العرب من المحمّرة، ثم تصب في البحر في نقطة تقع شرق الفاو. ولا يزال هذا المصبُّ صالحاً للملاحة، لكن قناة الحفّار التي تربط نهر كارون بشط العرب تسحب كميّةً كبيرةً من المياه. ومن الملفت للنظر أن اللونَ الأحمرَ الفاتحَ هو الذي يغلب على لون الماء في نهر كارون.

إن تاريخ المحمّرة Mohammerah يتصف بالتفرّد، فقد ظهرت على الموقع الذي نقف فيه الآن عدّة مدن هي: الإسكندريّة Alexandria وأنطاكية Antiochia وخاراكس Charax وأستراباد Astrabad. أما المدينة الحاليّة الواقعة على الحدود بين تُركية وبلاد فارس فقد نشأت في عام 1812 على يد شيخ قبيلة المحيسن العربيّة، وهي بطن من بطون قبيلة كعب الكبيرة. لقد أصبح هذا المكان الذي يطلق عليه أينسوورث Ainsworth اسم «منطقة النّزاع» بين الدّولتين كذلك حقاً، حتى تمّ الاتّفاق أخيراً على تابعيّته للعجم في اتفاقيّة الحدود. وقد قام الأتراك بغزو المدينة وسلبها عام 1837. أما الحملة الأنكلو - هنديّة فقامت بدورها بقصفها بقذائف مدافع الهاون المثبّتة على قطع طافية في النّهر، فانهزمت الحامية الفارسيّة في الحال.

لقد حكم المكانَ عددٌ من الشّيوخ العرب تحت الوصاية التُّركيّة، أما الحاكم الحالي فهو الشّيخ مزعل[2] خان من قبيلة المحيسن ورئيس قبيلة كعب العربيّة، وهو الآن يمارس السّلطة على المنطقة ويجاهر بالاستقلال، وولايته تشملُ منطقة كبيرة شرق

---

(1) أوردها المؤلف لكني لا أرى من داع لذكرها هنا درءاً للإشكاليات.

(2) هو الشيخ مزعل بن جابر بن مرداو الكعبي، من المحيسن من فخذ البوكاسب. حكم الأحواز والمحمّرة في إقليم عربستان 16 عاماً (1881-1897). مات مغتالاً فخلفه أخوه الأصغر الشيخ خزعل الكعبي (1897-1925) الذي كان آخر حاكم عربي للأحواز والمحمّرة قبل أن تستولي عليهما إيران وتغيّر اسمهما إلى الأهواز وخُرَّمشِهر.

المحمّرة، حيث يقوم بدفع إتاوة سنوياً إلى الحكومة ويفرض بالتالي الضرائب على شعبه. لكنه يشعر بالخوف من هـذه الحكومة، ويقـال إنه تعرّض لعـدّة محـاولات قتل[1]. يبدو وضعُه غريباً نوعاً ما إذ إنه بالرّغم من تمتّعه بالولاية تحت حكم العجم، فهو يؤكد في الوقت ذاته استقلال قبيلته التي تسكن المحمّرة. كان الفرس الذين قاموا بتعيينه كحاكم يرغبون بإبعاده عن طريقهم بسكون، رغم أنهم لا يستطيعون استبداله في الوقت الحاضر برجل آخر. وربما يكون آخر شخص يحكم المحمّرة. هناك صورة له في كتاب السّيّد كُرزون «بلاد فارس والمسألة الفارسيّة»، حيث تدل ملامحُه على أنه رجلٌ عربيٌّ محترم، يتمتّع بالذكاء وقوّة الشّخصيّة.

كما أسلفت فإنّ للمحمّرة شهرةً سيّئةً في انعدام الظروف الصّحيّة، رغم أنه من المحتمل أنها ليست سيئة بقدر موانئ الخليج الأخرى. يقال إن المستنقعات تحيط بها، أما بساتين النّخيل فهي تمتد إلى مسافة غير بعيدة شمال نهر كارون. وبالإمكان ممارسة هواية جميلة كأن يُصاد أسدٌ أو أيل أسمر خلال الرّحلة إلى شُستار.

رغم البؤس الذي ترزح تحته المدينة الآن، فإنّ موقعها أعطاها أهميّة عظيمة، فهي تشرف على نهري دجلة والفُرات ونهر كارون الفارسي، ولا بد أن هناك مستقبلاً عظيماً ينتظرها. وبما أنّ العديدين أتوا على ذكر الخط التجاري لنهر كارون مؤخّراً، فلن أسهب بالكلام عنه. لقد تم افتتاح هذا الخط لأغراض التجارة في عام 1888، وقامت شركة لِنتش Lynch وشركة بواخر الخليج وبومباي بوضع سفنها على طول هذا الخط. لكن الأخيرة تخلّت عن هذا العملِ باعتباره تجارة خاسرة. أما الأولى، ورغم احتفاظها بنوع من خدمة النّقل على هذا النّهر، فهي تفعل ذلك وتعدّه أيضاً خسارة مؤكدة. لقد استبدلت إحدى سفنها الكبيرة بسفينة مزوّدة بعجلة تجديف في مؤخّرتها كانت تعمل في نهر النّيل. وخلال عملها هناك، كان الاتصال بالأحواز يتم بواسطة لنش تجاري صغير. ومن المحتمل أن يغيّر الفرس آراءهم ويتركون العناد لبعض الوقت فيما يتعلّق بأي تطور ناجح للتّجارة.

* * *

(1) وهذا ما جرى فعلاً في النّهاية عام 1897.

كان النّهرُ الممتدُّ بين البصرة والبحر مملاً، خالياً من المناظر الأخّاذة، فعلى طول ضفّة النّهر الواسع والعميق الذي يصلح لسير السّفنِ الكبيرةِ عند اجتيازها العقبة في المصب، تنتصب أشجار النّخيل. في فترة ما بعد الظهر وصلنا إلى الفاو، وفيها ثكنة صغيرة، ودائرة للجمارك، ودار للحجر الصّحّي، ومراكز تركيّة وهندو أوروبيّة للتلغراف. هناك عمودٌ يحمل ضوءاً وسارية لعلم، وقد قام أحد ركابنا، وهو طبيب إنكليزي مسافر من تُركية في طريقه إلى الهند، بالنّزول إلى السّاحل ثم أنزل العلم عن قصد أمام أنظار السّلطات التُّركيّة ووضعه في جيبه كتذكار. وبعد ساعة، ابتعدْنا عن البرِّ، وما لبثنا أنِ ارتطمْنا بالحاجز الكبير الذي يغلق مدخل النّهر. كان المركبُ ساكناً لا يتحرّك رغم أن محرّكه يدورُ بأقصى سرعة، لكننا كنّا نسير ببطء شديد. وبعد ساعتين تقريباً تمكنّا من عبور العقبة شاقّين طريقنا داخل أوحال طريّة. هذا يحصل عادة عند حدوث المدّ العالي حيث يرتفع الماء نحو ثمانية عشر إلى عشرين قدماً فوق هذه العقبة، وعند انحساره يبلغ نصف هذا القدر من العمق. كانت الرّياحُ الشّماليّة الغربيّة تهبُّ في هذا الوقت وهي التي ربما ساعدتنا قليلاً في السّير، لكنها جلبت معها بعض المفاجآت، فما إن خرجْنا حتى أصبحتِ الرّياحُ في غاية البرودة. كنّا في غاية السّعادة لإحضار معاطفنا معنا.

ربما يكون الخليجُ العربيُّ الواقع بين خطي عرض 30ْ و 24ْ شمالاً، وفيما يتعلق بشأنه التاريخي وأهميّته التجاريّة في المستقبل، شيئاً غامضاً بالنّسبة للإنكليزي العادي الذي يأتي للمرّة الأولى إلى هذه البلاد، وهو مختلف عن أيِّ بحر آخر له الحجم ذاته وسهولة العبور نفسها. وهذا يعود بالطبع إلى عدّة أمور، فمناخه صعب بالنّسبة للأوروپيين الذين لا يستطيعون تحمّله عدا في مواسم معيّنة، والأماكن التي يؤدّي إليها الخليج غير مجهّزة بوسائل الرّاحة المناسبة، بحيث يحاول السّائح الاعتيادي تجنّبها وبذلك يقع في حبال التعصّب والتخلّف إذ لم تفلح التجارة بجلب التطور إلى مدن المنطقة.

يشكّل الخليج العربي مستطيلاً غير منتظم، يمتدّ بشكل مائل بالاتجاه الجنوبي

الشّرقي من شطّ العرب إلى مضيق هُرمُز، حيث يبرز رأس مُسندَم من السّاحل العربي بشكل حادّ باتجاه الشّمال ليشكّل النّقطة الجنوبيّة للخليج، ويتّسع جنوباً ليشكّل خليج عُمان. يبلغ طوله حوالي خمسمئة وأربعين ميلاً، لكن المسافة الكليّة التي تقوم السّفن البريطانيّة الهنديّة بقطعها هي ألفا ميل تقريباً. تقع على السّاحل الشّرقي منه عربستان وفارستان وباقي الولايات الفارسيّة الأخرى حتى جوادار Gwetter، بحيث تمتدّ بلوشستان لتصل إلى الأراضي الأنكلو - هنديّة في كَراتشي. بينما تشغل الجانب الشّرقي بشكل كامل جزيرة العرب الخاضعة بجزء منها إلى الحكومة التُّركيّة. وفي حقيقة الأمر فإنّ الرّخاءَ الذي يتمتّع به الخليج يعود إلى وجود النّفوذ البريطاني.

في القرن الرّابع قبل الميلاد، قاد نيارخوس Nearchus أمير البحر في جيش الإسكندر[1]، الأسطول المقدوني من وادي السِّند إلى دجلة من أجل دعم قائده الذي زحف عبر بلوشستان وجنوب بلاد فارس إبان حملته الهنديّة. وفي القرن السّادس عشر أحرز البرتغاليّون تفوّقاً تجاريّاً هاماً دام لمدة مئة عام.

لقد بلغت القرصنة[2] في منطقة الخليج العربي حدّاً كبيراً، وذلك يعود إلى النّفوذ البريطاني الذي مورس في الجزء الأول من هذا القرن. وبحكم أن القراصنة كانوا يسكنون في السّاحل الغربي من الخليج، لم تكن التجارة لتتمتّع بالاستقرار طالما أن

---

(1) نيارخوس (باليونانيّة: Νέαρχος) حوالي 360-300 ق.م قائد بحري من قوّاد الملك الإسكندر المقدوني، أمره الإسكندر عام 325 ق.م بالقيام برحلة استكشاف بحريّة من الهند إلى شوشان، فتوجه في أثنائها من وادي السِّند إلى الخليج العربي، ووصف رحلته هذه بدقة، ونقلها عنه المؤرخ الرّوماني (إغريقي الأصل) أريانوس في كتابه *Indica*. وطالما أن لهذه الرّحلة علاقة بتاريخ الخليج العربي، فقد حصلت عليها وستكون ضمن جدول منشورات هذه السّلسلة.

(2) تهمة القرصنة التي روّج لها الأوروبيّون تسمية مغلوطة وجائرة. فلم يكن أهل الخليج قراصنة، ولم يكن السّلب والنّهب صنعتهم، بل أثارت حفيظتهم نشاطات الإنكليز، فراحوا يدافعون عن مياههم ويستهدفون مراكب الإنكليز فعدّوهم قراصنة. وخير دراسة لتفنيد هذا الادّعاء هي أطروحة الشيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي حاكم إمارة الشارقة بعنوان: «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» (بالإنكليزية):
Al-Qasmi, S.M.: *The Myth of Arab Piracy in the Gulf*, London, 1986.

أعمال القرصنة والسّلب مستمرة. لكن اعتباراً من عام 1805 ولغاية 1825، تمّ القيام بأعمال تهدئة الأوضاع في أرجاء الخليج. لكن السّلامَ التامَ لم يَسُدْ إلا عند توقيع معاهدتي 1835 و1853، بحيث أصبحت منطقة الخليج آمنة بالفعل. يمكن معرفة العدد الكبير للقراصنة[1] من خلال أسطولهم عام 1809، المؤلف من ثلاث وستّين سفينة من الحجم الكبير وثمانمئة مركب صغير، يعمل عليها تسعة عشر ألف رجل.

إن التجارةَ المحليّةَ تقوم الآن بواسطة قوارب البغلة التي تتنقل بين الخليج والسّاحل الإفريقي والبحر الأحمر والهند، حيث تتراوح حمولة هذه المراكب من مئة إلى ثلاثمئة طن، وهي مجهّزة بشكل عام بصارٍ رئيسي فشراع مثلث وآخر منصوب على الصّاري الأقرب في مؤخرة المركب. وهي بحاجة إلى طاقم كبير تبعاً لحجمها، وبالرغم من مهارة هؤلاء البحّارة في الظروف الاعتياديّة فهم غير قادرين على الإبحار في مواجهة الرّيح.

تمَّ وضع هذه الملاحظات عن درجات الحرارة والرّياح في الخليج من «دليل الخليج العربي» الذي تم توزيعه بتوجيه من المفوضين اللوردات في الأميراليّة البريطانيّة عام 1870، والذي استعرتُه من ربّان سفينة «سِملا» *Simla* مشكوراً.

لقد تمَّ قياس درجات الحرارة بالفهرنهايت على ظهر الباخرة، وهي تمثل معدّلها لأكثر من أربع سنوات. أما على السّاحل فتكون درجات الحرارة أعلى.

---

(1) الصحيح أنهم بحّارة من أبناء البلاد وليسوا قراصنة.

الشهر	المعدل كأقصى حد في الرّابعة بعد الظهر	المعدل كأدنى حد في الرّابعة صباحاً	الشهر	المعدل كأقصى حد في الرّابعة بعد الظهر	المعدل كأدنى حد في الرّابعة صباحاً
يناير	69	65	يوليو	91.5	89
فبراير	67	63	أغسطس	94	89
مارس	75	69.5	سبتمبر	90	½83
أبريل	80.5	75	أكتوبر	85.5	81
مايو	85	81	نوفمبر	80.5	76
يونيو	89.5	85	ديسمبر	74	70

ورغم أنّها تمثل حالة ممتعة للحياة في البحر، فإنّ الحرارة لا بدّ وأن تكونَ عند السّاحل وفي المدة التي يكثر فيها الاكتظاظ أشدّ حدّة. إن الوصف الطّريف الذي كتبه ابن رِزّيق[1] المؤرخ في القرن الخامس عشر[2]، والذي اقتبسه فيما بعد السّيّد كُرزون في كتابه «فارس والمسألة الفارسيّة»، أمر مثير للضحك وهو يستحّق إعادة الاقتباس. وهذا يشير إلى الطّقس في مسقط:

«إن الحرارة مرتفعة للغاية بحيث إنها تحرق نخاع العظام، ويذوب السّيف في غمده كالشمع، أما الجواهر التي تزيّن قبضة الخنجر فتتحوّل إلى فحم. وفي البراري يصبح الصّيد في غاية السّهولة لأن الصّحراء تكون مليئة بالغزلان المشويّة».

تهطل الأمطار الشّتويّة في الخليج كما في أوروبا، ويكون الطّقس بارداً جداً، بحيث يبلغ منسوب المياه في بوشِهر ثماني أو تسع بوصات، بينما لا يبلغ في مسقط سوى ثلاث بوصات ونصف.

---

(1) هو المؤرّخ العُماني الشهير حميد بن محمّد بن رزّيق بن بخيت العبيداني النّخلي، مؤلف كتاب: «الفتح المُبين في سيرة السّادة البوسَعيديّين». ألّفه عام 1275 هـ = 1858 م. وقد يرد اسمه أيضاً: سليل بن رزّيق.

(2) هذا غير صحيح، فقد عاش ابن رزّيق في القرن التاسع عشر، وتوفي عام 1291 هـ = 1874م.

أما الرّياح التي تسود عادة في الصّيف فهي شماليّة غربيّة تتجه مع انحناءات الخليج وتحمل في الغالب ذرّات صغيرة من الغبار من بلاد الرّافدين، وقد لاحظنا في عدد من المرّات خلال رحلاتنا أن نوافذ الحجرات في السّفينة مكسوة بطبقة سميكة من الغبار كما الأشرعة والصّواري والمنصّة.

تسمّى الرّياحُ الجنوبيّة الشّرقيّة في الشّتاء (الكوس) "koss" وهي تهب من شهر ديسمبر إلى أبريل. وهي عادة ما تكون عاصفة ومُمطرة. أما الرّياح الشّماليّة الشّرقيّة الممطرة فتسمى (الانعشي) "hashi". وغالباً ما تتبع الرّياح الجنوبيّة الغربيّة التي تسمّى (السّهيلي) "saheili" رياح (الكوس) وهي تهبُّ بشكل عام لساعات قليلة ويصاحبها الرّعد والبرق[1].

إن ما يميّز منطقة الخليج هو أنه بالرّغم من الطّقس السّيّئ أحياناً فإنّ الضغط الجوّي لا يتغيّر أبداً، لكنه ينخفض بشكل مستمر خلال الصّيف.

يقال إن الشّروطَ الصّحيّة لا تتوفر في جميع موانئ الخليج، وهي تُعدّ قاتلة إلى حدّ ما بالنّسبة للأوروپيين، فسرعان ما يتأثر المقيمُ بها من الإمدادات السّيّئة للمياه والنّقص التام للصّرف الصّحي والحرارة الشّديدة، حيث تتفشى الأمراض كحمّى الخليج وهي نوع خطير من الملاريا، وعند الإصابة بها لا تتحسّن حالةُ المصابِ إلا بالانتقال إلى طقس صحّي. يعاني الأهالي أشد المعاناة من البلاء المروّع لدودة غينيا[2] Guinea worm التي تنتشر في بندر عباس والموانئ الأخرى، وهذا ربما بسبب المياه الملوّثة. أما داء الفيل Elephantiasis فيشاهد بكثرة وأيضاً الكوليرا التي تشاهد بأسوأ حالاتها في البحرين.

في صباح اليوم التالي وجدْنا الباخرة «سِملا» تعاني من ريح شماليّة عاتية وبحر هائج يقودها قسراً نحو بوشِهر، وبدلاً من وجود البحر الهادئ والحرارة العالية

---

(1) يكتب المؤلف أسماء الرّياح بشكل غير دقيق، لكنني ضبطت التسميات بالعربية، ومن أنواع الرّياح في منطقة الخليج العربي عموماً: الشمال، الكوس، الغربي، السّموم، الانعشي، السّهيلي، الشامي، الشرقي، الياهي، لغشي، الجنوبي، العافور.

(2) كتب المؤلف: واسمها العلمي: Filaria Medinensis أو Dracunculus.

المتوقعة كان المظهر العام يبدو وكأنه طقس صيفي عاصف في خليج بسكاي. مع هذه الرّيح القوّية توقعنا الوصول إلى بوشِهر بأسرع من المعتاد، لكن وسائل النّقل البريطاني الهندي في الخليج وبالرغم من حمولتها من البريد، لم تتأثر سرعتها بذلك.

أمضينا أسبوعين كاملين بين البصرة وبومباي. وفي الثامنة استطعْنا رؤية جزيرة «خَرك» Kharak ومن ورائها قمم الجبال المغطاة بالثلوج في البرّ الفارسي. كان في هذه الجزيرة في الجزء الأول من القرن الماضي مصنع هولنديّ، أما الآن فيسكنها عددٌ من صيادي الأسماك والملّاحين. يروي كارستِن نيبور Carsten Niebuhr في كتابه «رحلات في جزيرة العرب»، التاريخ الموجز لهذه المستوطنة ابتداءً من البارون كنيبهاوزن Baron Kniphausen المدير الأول الذي نصّبه الشّيخ مير ناصر، إلى السّيّد ڤان هوتنك Van Houting المدير الثالث والأخير الذي طرده على عجل مير مهنا خليفة مير ناصر لتدخّله في الشّؤون السّياسية الفارسيّة العربيّة.

عند اقترابنا من بوشِهر في فترة الظهيرة، تراءى أمام أنظارنا منظر رائع للجبال الفارسيّة وهي تنتصب خلف المدينة بقمم مهيبة يبلغ ارتفاع أحدها وهو كوه هرمُج Kuh Hormuj إلى 6500 قدم فوق سطح البحر، تليها إلى اليسار سلسلة أخرى لا تقلّ عنها روعة. يقال إن هذه الجبال تبعد مسافة مسير ثلاثة أيام من بوشِهر حيث تقع خلفها مدينة شيراز.

ترسو السّفينة عادة على مسافة ميلين في الميناء لصعوبة الانعطاف الكبير لبلوغها. وعند إبحارنا ذُهلت لمنظر الخضرة الوفيرة هناك والذي لم أشهدْ له مثيلاً من قبل في أيِّ مكان. تقع المدينة على الطّرف الشّمالي من حافة طويلة من الحجر الرّملي يبلغ طولها اثني عشر ميلاً تقريباً، وكانت قد ارتفعت عن البحر في العصور المتأخرة. عند ارتفاع المدّ، تنفصل عن البرّ الرّئيسي بواسطة البحر وفي الأوقات الأخرى يفصلها عنه مستنقع ملحي. إن منظرَ بوشِهر من البحر مماثل لمنظر الإسكندريّة قبل أن ترتديَ حلّتها الأوروبيّة الحاليّة.

ولأننا أمضيْنا طوال اليوم في هذه الأنحاء، أجّلت زيارتي حتى صباح اليوم التالي.

بعد ذلك ذهبت إلى السّاحل على متن قارب البريد، ثم امتطيت حماراً حيث يمكن استئجاره كما في القاهرة وتجوّلت حول المدينة، وزرت حانوتاً (كنت قد أبلغت أن في بوشِهر سلعاً أوروپيّة من مختلف الأصناف) حيث ذهبت بحثاً عن قبّعة شمسيّة وتبغ جيّد للغليون الذي أعتبره شيئاً من التّرف لم أدخّنه منذ مغادرتي للبحر المتوسط. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدت حانوتاً مجهزاً بشكل كامل بالأحذية الإنكليزيّة والمواد الغذائيّة المعلبة والقبّعات الشّمسيّة. كان هذا سوق وايتلي Whitely ولكن بنمط فارسي، حيث يمكن شراء كل شيء من علبة السّيجار إلى قنينة مسكّن الآلام. استقبلني مستر غولدسارد Goldsard صاحب الحانوت بكثير من الأدب وأمضيْتُ معه ربع ساعة في ممارسة ترف التبضّع الأوروپي. إنه لمن الغرابة أن تجدَ في هذا الميناء البائس حانوتاً يديره تاجر جريء يبيع مختلف أنواع البضائع الأوروپيّة وهي أكثر ممّا هو موجود في أسواق حلب وبغداد مجتمعة.

بعدها ركبتُ حماري وسرتُ على طول الشّاطئ أمام دار المقيميّة البريطانيّة حيث يوجد حرس من الهنود المجنّدين كما هو الحال في بغداد، ثم عبرتُ اللسان البرّي إلى الجانب الآخر وعدْتُ من خلال السّوق الضيّق المليء بالقاذورات، وهو مكتظٌّ بعددٍ كبيرٍ من العرب والفرس وكلهم يتحدثون الفارسيّة. وليس فيه ما يبعث على المتعة أبداً حيث تمتلئ الحوانيت بأقمشة مانشستر والسّكاكر والحلويات متقنة الصّنع، وهي السّلع الأساسيّة في السّوق. اشتريْتُ ملاعقَ من الخشب لشرب الحساء بمبلغ زهيد. لقد رُمقتُ بنظرات قليلة من المارّة كالتي رُمقتُ بها في حلب وأنا أسير مع الفتى الذي يقود حماري ويتحدّث القليل من الإنكليزيّة. وبالرغم من منظر القاذورات المنتشرة التي تفوح منها الرّوائح الكريهة، أحسسْتُ أنني أقرب إلى الوطن في سوق بوشِهر أكثر من أيِّ وقت مضى.

البيوت مبنيّةٌ بشكل عام من الطّين والحجارة، أما بيوت ذوي الطّبقة الاجتماعيّة الأرقى فلها شرفات مزدوجة. وهي غير مزوّدة بسراديب كون الطّقس رطباً للغاية، لكنها مزوّدة بأبراج خاصّة تقوم بتجميع الرّياح وتوجيهها إلى داخل الغرف وتسمى

(البجير) "bajir". إن درجة الحرارة في شهر يوليو ولغاية أكتوبر تكون مرتفعة جداً مما يضطر الأهالي إلى النّوم على الأسطح المستوية. أما أزياؤهم فهي لا تُعدّ مختلفة كما هو الحال في شمال البلاد، لأنّهم ميّالون إلى العربِ أكثر منهم إلى الفُرس. على طول شاطئ بوشِهر ترى صفَّ مراكبِ الصَّيدِ ذات الصّناعة المتقنة والتي تتميّز عن مثيلاتها بعلمها الأحمر الذي يتوسّطه سيفٌ أبيضُ بنصلين.

لقد تمّت دعوتي لتناول الغداء في المكتب المريح التابع للشركة، حيث استطعْت إلقاءَ نظرة على رسم بياني لبوشِهر وضواحيها. أمّا ريشِهر Reshire التي تبعد ستة أميال إلى الجنوب من شبه الجزيرة، ففيها مركز للتلغراف ووراءه دار الإقامة الصّيفيّة للمقيم البريطاني في مكان يدعى سَبزاباد Subzabad، لكنه خالٍ حاليّاً من البيوت ويُعدّ مكاناً خطيراً، إلا أنه تمّ بناءُ عددٍ من البيوت ودور لإقامة عدد من الأوروپيين وأشخاص آخرين. تشغل هذا المكانَ أيضاً تلالٌ تعلوها آثارٌ قديمةٌ بشكل مربع قطره ثلاثمئة ياردة. يقال إن التلَّ الذي يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين قدماً فوق مستوى الأرض محاطٌ بخندق عميق من الجهة المقابلة للبرّ. كما توجد تلال أخرى في المنطقة المجاورة وقد اكتُشفت فيها آثارٌ عليها كتابات مسماريّة، يعتقد أنها تعود إلى العصر البابلي أو أنها بقايـا قلعة پرتغالـيّة. وفي عام 1856 احتلت هـذا المكان قـوّات بريطانيّة[1].

إن البلاءَ الذي تعاني منه بوشِهر هو تجهيزات المياه، حيث أنّ النّوعيّةَ العاديّةَ للمياه تبعد مسافة ميلين (ولا يرغب الأوروپيون في شربها)، أما النّوعيّة الأفضل فتبعد خمسة أميال باتجاه بوشِهر.

أثناء وقوفي في شرفة مكتب الشّركة المريح، شاهدْتُ في الجوار عدداً كبيراً من الفتيان وهم يلعبون إحدى ألعاب التسالي الرّئيسيّة لأولاد الشّوارع العرب في هذا المكان، تسمى (قلّي) "Killi" حيث ترسم دائرة على الأرض ويقف أمامها أحد اللاعبين بيده ثلاث عصي أو عصا مع كيس، ويلقي فتى آخر من مسافة عشرين خطوة تقريباً عصا صغيرة أو قطعة من العظام إلى داخل الدّائرة، بينما على اللاعب

(1) كتب المؤلف: انظر كتاب: «ملاّح الخليج العربي» "The Arabian Gulf Pilot".

ذي العصا والكيس إبعادها عن الدّائرة. ثم يحاول الأخير إيقافها بأقصى ما يستطيع إما بعصا أو كيس أو حتى بجسده، ثم يأخذها ويضربها بعيداً بأقصى قوّته بحيث تضرب الأرض وترتدّ بقوّة كبيرة عنها. وأينما تسقط العصا، على الرّامي السّعي ثانية لقذفها إلى داخل الدّائرة حتى لو وصلت قربها أو بعيدة عنها. وعندما ينجح في ذلك، يتوجب على اللاعب ذي العصا والكيس الخروج من اللعبة.

* * *

تتم عمليّة بيع الخيول في بوشِهر بطريقة ممتعة، فالمسافر الإنكليزي القادم من بريسيبوليس والرّاغب في بيع حصانه، ما عليه إلا أن يرسل في طلب الدّلاّل، الذي يأخذ بالطواف في شوارع المدينة مصطحباً هذا الحيوان وهو يصيح بشكل متواصل مردداً مزاياه من أجل الحصول على عروض أفضل. وعندما يصل تحت نوافذ المكتب البريطاني الهندي، يحصل على عرض أو اثنين. وبعد قيادة هذا الحيوان جيئة وذهاباً على طول الشّارع مردّداً السّعر الذي حصل عليه حتى ذلك الوقت، يباع الحيوان في النّهاية.

على الرّغم من وجود بوشِهر كمدينة إسلاميّة في شبه جزيرة العرب، فإنّ ميناءَها يُعدّ حديثاً وكان قد أسّسه الشّاه نادر في القرن الماضي. وقد أوضح السّيّد كُرزون أنّ الاشتقاقَ الشّائعَ للاسم (أبو شِهر) أي (أبو المدن) هو اشتقاقٌ غير صحيح كون إحدى الكلمتين عربيّة بينما الأخرى فارسيّة. وبعد عام 1761 أسّست شركة الهند الشّرقيّة مركزاً فيها، وسرعان ما أصبحت هذه المدينة الميناء الأهم في هذا الجزء من الخليج وتضاعف عدد سكانها خلال القرن الحالي بحيث أصبح حوالي 13.000 نسمة. وخلال الحرب الفارسيّة، استولت عليها القوّات البريطانيّة في العاشر من شهر ديسمبر عام 1856 ودامت سيطرتها عليها حتى انتهاء الحرب مع بلاد فارس في السّنة التي تلت.

وكما في المحمّرة، كان يحكم بوشِهر خلال الجزء الأخير من القرن الماضي وبداية هذا القرن شيوخ من العرب، لكن الفرس عيّنوا عليها حاكماً منتظماً بشكل مؤقت، كان

يحمل في وقت ما وربما حتى الآن لقب[1] «دَرگا بيك» Darga Beg أو (سيّد البحر). هناك أيضاً عددٌ قليلٌ من الجالية الأرمنيّة، وقد جعلوا في كنيستهم قبورَ بعض الضبّاط الإنكليز الذين قضوا هناك خلال الحملة على بلاد فارس. كانت المدينة قد حُصِّنت في الماضي بأبراج وسور متين إلى الجهة الجنوبيّة أو المواجهة للبرِّ، لكن لم يبقَ منه الآن إلا الرّكام.

بقينا في بوشِهر حتى الخامسة مساءً وكان هذا التأخير بسبب البريد. ما زالت الرّياح الشّماليّة الباردة والمنعشة تهب، وقد أشار مقياس الحرارة الموجود على المنصّة في التاسعة مساءً إلى 75° وهي تُعدّ حرارة معتدلة. كنا نتقدّم بسرعة عبر الخليج لنصل مباشرة إلى البحرين قبل ظهر اليوم التالي. وكان قبطان السّفينة يريد المغادرة سريعاً، لذلك لم أتمكن من النّزول وكان كلّ ما استطعْت رؤيته هو خطّ رملي طويل تقطعه في بعض الأماكن بساتينُ النّخيل ومدينتا المُحرّق والبحرين اللتان يفصلهما البحر عن بعضهما عند ارتفاع المدّ. تُعدّ المحرّق مركزاً رئيسياً لصيد اللؤلؤ الممتد على طول السّاحل العربي. يمكن مشاهدة القوارب التي تستخدم لهذا الغرض متراصّة خارج الماء على الجزيرة، لأنها لا تبدأ العمل قبل نهاية شهر مايو. كانت المياه الضحلة في الموقع الذي رسونا فيه بعيداً عن السّاحل تبدو صافية يميل لونها إلى الخضرة عند هدوء البحر، حيث يغوص الأهالي للبحث عن عيون الماء التي تنبع من قاع البحر، وهي ظاهرة غريبة إذ يغوصون كما هو الحال عند اصطياد اللؤلؤ، فيملأون القربَ الجلديّةَ ثم يُسحبون إلى السّطح. ولولا بحث الأهالي الدّائم عن اللؤلؤ لما تمكنوا من معرفة وجود الماء العذب في قاع البحر. وبالإضافة إلى وجود المحّار، يعجّ البحر بأسماك القرش وأبي منشار التي من الواجب على الغوّاص المسكين الاحتراس منها. كذلك استطعْتُ رؤيةَ أعدادٍ كبيرةٍ من قناديل البحر وغربان الماء، وهو نوع من طيور الغاق.

---

(1) التعبير الذي ذكره غير صحيح، فالبحر في الفارسية: «دريا» وليس درگا. أما عبارة «بيك» فهي تركيّة، ربما دخلت الفارسية إبّان حكم دولة سلاچقة إيران، أو حكم الأوزبكيين لخراسان.

يتمّ صيد اللؤلؤ في الفترة الممتدّة من نهاية شهر مايو ولغاية شهر سبتمبر، وفي البحرين تتجمع آلاف القوارب التي تتراوح حمولتها بين أربعة إلى عشرة أطنان وهي تعمل خلال هذا الموسم. يقال إن الثروةَ التي تُجنى من صيد اللؤلؤ وحده تبلغ من مئتين إلى ثلاثمئة ألف پاوند سنوياً عائدة إلى البحرين وحدها. ينزل الغوّاص إلى البحر وهو يسدّ أذنيه بالشمع وأنفه بملقط يشبه ذاك المستعمل للغسيل ويحمل ثقلاً في قدميه، ويغوص إلى عمق يصل حتى ثلاث عشرة قامة، وعندما ينتهي من جمع أصداف المحار، يشدّ الحبلَ فيُسحب إلى السّطح. أما أقصى فترة يقضيها الغوّاص تحت الماء فهي دقيقة ونصف على أكثر تقدير. تذهب معظم اللآلئ إلى بومباي، وتُعدّ الحياة الصّعبة التي يعيشها الغوّاصون المساكين غير طبيعيّة وهم يرزحون تحت رحمة جشع التجّار العرب والهنود. ولسوء الحظ فإن «قانون المقايضة» Truck Act غير معروف في الخليج، فالعرب يضطرّون إلى بيع لآلئهم بأيّ سعر للتاجر بسبب وقوعهم تحت وطأة الجوع والفاقة، مع العلم أنهم بالمقابل يستأجرون القوارب من التّاجر بسعر ابتزازي. فالعمال يزدادون فقراً وفاقة والتجّار تزداد خسّتهم وملايينهم. حقاً إنه لا وجود لشيء أكثر عبوديّة من هذا الأمر في هذه البلاد.

احتل البرتغاليّون البحرين كباقي الموانئ الخليجيّة الأخرى في القرن السّادس عشر، ثم قام الشّاه عبّاس بطردهم عام 1622. وبعد هذا التاريخ أصبحت البلاد موضع نزاع بين العجم وعدد من الشّيوخ العرب (من ضمنهم سلطان عُمان) الذي استولى عليها بدوره أيضاً. أما الآن فهي تخضع للحماية البريطانيّة[1].

* * *

(1) راجع كتاب «جنوبي جزيرة العرب» للرّحّالة البريطاني ثيودور بِنت في هذه السّلسلة.

الفصل السّابع عشر

الخليج العربي

الجبال المحيطة بميناء لِنجَة - ميناء لِنجَة - مخزون المياه - مضائق هرمز - موقع بندر عبّاس - المدينة - حرارة عالية - جزيرة هرمز - تاريخها - روايات قديمة - مشهد رائع - السّمكة الطّائرة وثعابين البحر - السّلاحف والأسماك السّوداء - بومباي - المغادرة إلى إنكلترا - طقس عاصف في البحر الأحمر.

توجّهنا من البحرين نحو الشّرق عابرين الخليج باتجاه ميناء لِنْجَة اللّورستاني، حيث أخبرنا القبطان روبرتسون أن سرعة الرّياح قد تنخفض ويرافق ذلك ارتفاعٌ في درجات الحرارة، وهكذا كان. في اليوم التالي تناولنا غداءَنا وعشاءَنا على طاولة موضوعة فوق سطح السّفينة سِملا (وهو إجراء جيّد في البحار الاستوائيّة). لم نشعر حينها بالبرد أبداً مع العلم أنَّ المروحةَ كانت تدور في الهواء المفتوح.

بعد الغداء نظرْنا نحو السّاحل الصّحراوي من لورستان، حيث ظهرت أولاً سلسلة طويلة من الجبال الحمراء بعيداً إلى اليسار ووراءها مباشرة سلسلة أكثر ارتفاعاً. وفي السّاعة الثانية والنّصف التقيْنا بجزيرة (فرّور) الجبليّة نوعاً ما، ويبدو أنها غير مأهولة بالسكان. وإلى يسارنا أخذتْ تظهر سلسلة أخرى من الجبال البركانيّة المهيبة، تقع في أسفلها مدينة صغيرة، هكذا بدَتْ لي عند استخدام منظاري المكبر، وفي أحد أطرافها بستانٌ صغيرٌ من النّخيل. إنها سلسلةُ جبال بستانة التي يصل ارتفاعها إلى 1750 قدماً، أما جبل (تورانجه) Jebel Turanjeh الذي رأيناه أمامها فيبلغ ارتفاعه 5150 قدماً. رغم

مظهر هذه السّواحل الذي يشبه الصّحراء، فقد كان الضباب يلفُّ المكانَ والرّطوبة عالية لدرجة أن حبّات النّدى تتساقط في كلِّ ليلةٍ، والضباب شائع في المنطقة أيضاً.

تبدو لنا «لِنجَة» الآن بكل وضوح بعد أن قطعْنا اثنتي عشرة ساعة من البحرين لرؤيتها. إنها تقع فوق نجد ساحلي وترتفع وراءها جبالٌ عظيمة كما هو واضح في الصّورة، وتبدو صفوف البيوت البيضاء والمئذنة الوحيدة وقوارب الصّيد من خلال الضباب الذي يغمر المكان، بغاية الجمال. توجّهْنا نحو المرسى، حيث كانت السّفينتان الشّراعيتان الإنكليزيتان ترسوان هناك وهما تحتفلان بعيدهما السّتين. إنهما الآن ملك لأحد التجّار العرب، وقد وجدْت أنه من المتعة تفحّص حالتهما الرّاهنة ومعاينة الغرف في هاتين السّفينتين القديمتين. كان المرسى يبعد عن البرّ حوالي ربع الميل. نزلت إلى السّاحل مع أحد الموظفّين في مركز البريد قرب رصيف مسوّر يرسو فيه عددٌ من قوارب البغلة خارج الماء من أجل إصلاحها، كما تقوم هنا صناعة بعضٍ منها ولكن بأحجام أكبر للقيام بتجارة نشيطة مع لِنجَة.

لا يتمّ الاهتمام هنا مطلقاً بإعدادات الصّرف الصّحّي، فالرائحة النّتنة القاتلة الآتية من السّاحل المليء بالأقذار تغلغلت في أنوفنا. توجّهت بعد ذلك نحو الأسواق الضيقة المتعرّجة التي تعرض سلعها من الأسماك والحبوب والحلويّات المختلفة، وفي إحدى الممرّات وجدتُ صفاً من الحقوق الصّينيّة الصّغيرة التي يُحفظ فيها الكحل، ربما تمّ جلبها مع الشّاي الآتي عن طريق القوافل البرّية. يُعدّ السّكان الذين يعدّون حوالي عشرة آلاف، خليطاً من العجم والعرب من قبيلة الجواسم (القواسم) الخليجيّة، حيث يرتدي بعضهم العمامة الكبيرة المصنوعة من القماش المحلّي الجميل. وهنا شاهدتُ أيضاً عدداً من البحّارة والشّحّاذين الزّنوج وهم يتسكّعون حول الميناء الصّغير، أما النّساء الموجودات في المكان فكنَّ يلبسْن أزياءً لم أرَها من قبل، ويضعْن خماراً على وجوههن يشبه القناع مع فتحات للعيون.

إن معالمَ مدينة «لِنجَة» قليلة ومتباعدة، فهناك مسجدٌ واحدٌ حديثٌ وصغير الحجم مبنيٌّ على الطّراز البغدادي تزيّنه زخارف من الطُّوب الملوّن، أما في خارج المدينة

فقد شاهدتُ عدداً من المباني المنتشرة وهي غريبة الشّكل لها قباب، وقد علمْتُ أنها ليست إلا خزانات جهّزت لتجميع مياه الأمطار التي تُعدّ المصدر الوحيد للمياه في لِنْجَة لخلوّها من الينابيع. لقد تمَّ بناء هذه القباب بشكل غير منتظم، والغاية من ذلك هو منع التبخّر، حيث يبلغ ارتفاع بعضها أربعين قدماً. تهطل الأمطار في لِنجَة بسخاء وتتجمّع في البرك كما يسمّونها لتشكل مخزوناً ضخماً للاستخدام في المدينة. ذهبنا بعد ذلك إلى مركز البريد البريطاني الذي يديره موظفٌ هنديٌّ، أدّى تأنّيه في إعداد رزم البريد إلى تأخّرها في الوصول إلى السّفينة وبالتالي تأخّر إبحارنا.

يقال إنه يعتري التجوال في لنْجَة بعض الخطورة لانعدام القوانين، فقد كانت في السّابق بأيدي قراصنة الخليج العربي[1]. وقد فُقدت الكثير من السّفن الحربيّة التابعة لشركة الهند الشّرقيّة أثناء ملاحقتها لهذه الأشباح وسط المخاطر التي تكتنف جزر الخليج. في السّابق كان يحكم لِنجَة أحدُ الشّيوخ العرب المستقلين ويقال إنه كان بإمكان حامل البريد وقتئذٍ أن يقطع المسافة من لِنْجَة إلى بوشِهر في خلال عشرة إلى أربعة عشر يوماً وذلك حسب الموسم في السّنة[2].

استيقظنا في صباح اليوم التالي باكراً لنجد بندر عبّاس قد بدت للعيان، وهي المكان الأكثر إمتاعاً على الخليج العربي. كما أشرقت الشّمس بدفئها الحقيقيّ، فصعد معظم ركاب السّفينة للنوم على السّطح. لكنني بسبب حالتي الصّحيّة التي لم تتحسن بعد، آثرْتُ البقاءَ في غرفتي وخصوصاً أن الطّقسَ المحمّلَ بحبّات النّدى يجعل المكانَ رطباً في مدّة قصيرة من الزّمن. وعلى الرّغم من الحرارة العالية التي تجعل النّومَ من المهام الصّعبة، فإنّ إغفاءةً قصيرةً على الكرسي تحت أشعة الشّمس الحارقة في النّهار تفي بالغرض ولا يصبح نومُ الليلِ من الضروريّات كما في أوروبا حيث نقضي جُلّ النّهار في العمل.

---

(1) ذكرنا أعلاه أنّ تهمة القرصنة التي روّج لها الأوروبيّون تسمية مغلوطة وجائرة. فلم يكن أهل الخليج قراصنة، ولم يكن السّلب والنّهب صنعتهم، بل أثارت حفيظتهم نشاطات الإنكليز، فراحوا يدافعون عن مياههم ويستهدفون مراكب الإنكليز فعدّوهم قراصنة.

(2) كتب المؤلف: انظر كتاب: «ملاّح الخليج العربي» "The Arabian Gulf Pilot".

تقع بندر عبّاس أو گمبرون Gombroon (وهذا اسمها القديم) على خليج واسعٍ ممتدٍ في قلب السّاحل الفارسي، حيث تبرز مقابله من الجانب العربي شبه الجزيرة التي يسمّى أقصى امتداد لها برأس مُسندَم، أما القناة التي تفصل بين السّاحلين فهي مضيق هُرمُز. لا أعلمُ إذا كنتُ مصيباً في فرضيتي، فعندما نظرت إلى الخرائط والجداول، وجدتُ أن هذه القناةَ التي تقطع جزيرة العرب في الوسط وتنتشر فيها الجزر الصّغيرة والكبيرة ليست سوى تطور جغرافيّ حديث نسبيّاً. من المؤكد أن هذه السّواحلَ كانت في وقت ما وقبل حصول ترسّبات في المياه، أرضاً واحدةً، أما الجزر النّاتئة من السّاحل فلا تعدو كونها سوى نتوءات على هذه الأرض التي يتقابل فيها العرب والفرس. وإذا صحَّ القول، فإنّ الخليج كان كبحر قزوين محاطاً باليابسة وبسبب عدم وجود أيٍّ قوم كالآشوريين أو الفرس أو العرب، الذين يحاولون إيجاد منفذ إلى الجنوب لتسهيل عمليّة التجارة، فليس هناك من طريق أو قناة تقطع هذا اللسان البرّي الذي يفصل البحر الدّاخلي عن المحيط الشّاسع الذي يبلغ امتداده المناطق الجنوبيّة القطبيّة، والذي تتقاذف أمواج مدّه سواحل البلدان التي كانت ستغدو من أغنى بقاع العالم.

إن الوصولَ إلى بندر عبّاس بطريقته الغريبة يُعدّ ممتعاً للغاية. فما إن تجتاز السّفينةُ جزيرةَ قِشم البالغ طولها سبعين ميلاً، حتى تستدير شمالاً نحو المرفأ الذي يقع في أبعد نقطة شمالاً من الخليج الواسع. وعند اقترابها من الصّحراء الشّاسعة تلاقيها الجبال التي ترتفع بشكل عشوائي في كل الجهات، حيث يقع إلى اليمين من المدينة جبل جيناو Jebel Ginao الذي يبلغ ارتفاعه نحو 7690 قدماً، وإلى أعلى يمينه يمكن مشاهدة جبل باخور Jebel Bakhur المهيب النّاظر من علو 1060 قدماً نحو الخليج. وإلى أقصى اليمين يقع جبل شمال Jebel Shimal بارتفاع 8500 قدم، بينما يقع جبل خامر Khamir إلى اليسار من جبل جيناو. أما منحدرات جزيرة قِشم خلفنا، التي استولى عليها البرتغاليّون في وقت ما، فلا يزالُ فيها عدد من السّكّان يبلغ من عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف نسمة. وفي عام 1820، تمركزت قوّة بريطانيّة هنا لمراقبة قبيلة الجواسم (القواسم). ومنذ عام 1879 لا تزال قوّة من الجنود الهنود التابعين

للحكومة البريطانية موجودة في المكان[1]. أما الآن فكل ما يمثّل النّفوذ البريطاني هو مستودع للفحم فقط.

* * *

تقع جزيرتا هُرمُز ولاراك Larak قرب الميناء البحري، وقد لعبت الأولى منهما دوراً تاريخيّاً هاماً في الشّرق وهي تقع عند حد متعرّج، أما في طرفها الجنوبي فنشاهد ممرّاً بريّاً ينتهي بحصن پرتغالي قديم. وإلى اليسار وقبل الدّخول إلى الميناء تتواجد أعدادٌ من الجزر الصّغيرة قليلة الأهميّة.

وجدْنا السّفينة الفارسيّة راسيةً في المرفأ على بعد ميل وثلاثة أرباع الميل من المدينة، التي تقع على أرض رمليّة مع واجهة مطلّة على البحر بعرض ميلٍ واحدٍ تقريباً. أما على الطّرف الشّرقي، فتقع المستنقعاتُ التي تكثر فيها أشجار المانغروف الاستوائيّة. ورغم اعتبارها مركزاً للتجارة الواسعة (كونها تمثّل ميناء كرمان ومَشهَد التي تتّجه منها طرق التجارة إلى طهران وحتى إلى كابل وهراة)، فإنه لا يوجد كثير من المعالم في المدينة. هناك رصيف مناسب للميناء وسور بحري، وقد شاهدتُ على الأول مدفعين قديمين من النّحاس الأصفر نُقش عليهما: "Honi soit, &c., G.R.". وحول هذه القطع القديمة سمعْتُ روايات مختلفة. كان هناك رجلٌ إنكليزيٌّ مقيمٌ في بندر عبّاس يعتقد أنه تمّ جلبها من بوشِهر على متن سفينة سِملا *Simla*، بينما يعتقد

(1) كتب المؤلف: لديّ تذكار جميل عن هذا الاحتلال البريطاني مكتوب على مصحف قديم بديع لا يزال يحتفظ بغلافه الأصلي، كتب على أولى صفحاته البيضاء: «لقد عُثر على هذا الكتاب على ظهر مركب عربي تمّ تدميرُه في الخليج العربي قرب جزيرة قِشم من قبل السّفينة الحربيّة التابعة لصاحب الجلالة، وتدعى «عدن» Aden، في اليوم العاشر من يناير عام 1819. لم يشرْ مقياس درجة الحرارة إلى أقلّ من 64 رغم أننا في فصل الشتاء».
ولكن بما أن الحملةَ لم تغادرْ بومباي إلا في نهاية عام 1819، فلا بدّ أن يكونَ التاريخ خطأً، والصّحيح هو 1820، وهو خطأ شائع غالباً ما يحصل حتى في إنكلترا وخصوصاً عند حلول سنة جديدة، إذ يحصل في الجرائد والتقويم وفي كلّ مكان، ويمكن إيجاد وصف مفصل في كتاب كُرزون عن بلاد فارس. أما تاريخ المصحف فهو 1061هجرية.

فتى عربي كان يقف على الميناء أنها جُلبت من مسقط. أما السّيّد كُرزون فيقول إنه عندما استولى سلطان مسقط على المدينة في نهاية القرن الأخير بفرمان من الحكومة الفارسيّة، أعطى بموجب معاهدة ترخيصاً للإنكليز بإقامة مركز فيها ونصب مدافع. وهو يرى أن هذه القطع استقدمت إما استجابةً لطلبهم أو أنها قُدّمت هديّة للسّلطان.

كانتِ الدّكاكين مغلقةً في الأسواق بسبب الاحتفال أو العيد "id". ومعظم النّاس الذين شاهدتهم بدوا وكأنهم قوم بدائيون بضفائرهم الطّويلة المتدليّة على أكتافهم، وكذلك شاهدتُ بعضاً من البلوش. توجد في بعض البيوت المطلّة على البحر شرفات مزدوجة، ولدى العديد من أفراد الطّبقة الموسرة بجيرات bajir على سطوح منازلهم. أما البيوت داخل المدينة فهي عبارة عن أبنية بائسة من الطّين، ناهيك عن أكواخ القصب المنتشرة في المناطق المفتوحة. وعلى العموم فمن الصّعب تصديق أن بندر عبّاس كانت وما تزال المركز التجاري الأهم على السّاحل الفارسي.

تمشّيت داخل المدينة مع أحد المراكبية العرب، وكانت الحرارة من الشّدّة بحيث تصبّب العرقُ من وجهي بغزارة واحترقت قدماي من حرارة الرّمال، لذلك تراني أجلس كلّ بضعة ياردات لأستريح قليلاً. صدق من قال إن هذا المكان هو الأشد حرارة في الخليج، فهو بالفعل وكأنه فرنٌ حقيقي، ترافقه الرّطوبة العالية والضباب الكثيف فوق البحر، لذلك تنتشر الأمراض والحمّى بشكل خطير بحيث لا يستطيع الأوروبيون العيش لفترة طويلة في هذه المنطقة. كما تنتشر بكثرة دودة غينيّا وداء الفيل. توجد في المدينة آثار سور قديم وأبراج، وقد شاهدت وأنا برفقة الشّاب الذي يتحدّث العربيّة بوابة على الجهة البريّة من المدينة تسمّى «باب البالاو»[1] "Bab el Balao". هذا وإن الفارسيّة والهنديّة هما اللغتان الشّائعتان بالإضافة إلى العربيّة[2].

---

(1) كتب المؤلف: لعلها باب البلوش، أي باب بلوشستان.

(2) هذا دليل حيّ على أنّ اللغة العربيّة كانت منتشرة في جزيرة هُرمُز منذ حكم العرب لها في القرن السّابع الهجري. وثمّة رحّالون برتغاليّون زاروا الجزيرة ووصفوا أحوالها في القرن السّادس عشر، أهمّهم بِدرو تيشيرا Pedro Teixeira وروي أندرادا Ruy Andrada وكذلك الإنكليزي رالف فيتش Ralph Fitch، وفي القرن السّابع عشر توماس هربرت Sir

تُعدّ الفاكهة والحبوب الصّادرات الأساسيّة من بندر عبّاس إلى مَسقط، أما السّجّاد والصّمغ فيُصدّر بكميّات كبيرة إلى بومباي، وكذلك الملح الذي يُستخرج ويُجفف في هُرمز. هناك أيضاً الواردات المعتادة للسّلع التي تباع بالتجزئة. أما السّكان فتتفاوت أعدادهم، لأن الكثير منهم يعودون إلى داخل البلاد عند درجات الحرارة العالية، ولأن ذلك يعتمد أيضاً على وصول ومغادرة القوافل، فيصل في أقصى حدّ له في الشّتاء إلى عشرة آلاف نسمة، أما أدنى حدّ له فهو خمسة آلاف. يقول هاميلتون Hamilton في كتابه عن الهند الشّرقيّة إن الحرارة في شهر أغسطس تؤثّر بشكل بالغ في البحر إذ «تنبعث رائحةٌ كريهة جداً كحيوانات ميّتة على اليابسة، وتُقذف على السّاحل كميّات كبيرة من المحّار بفعل ارتفاع أمواج البحر، إنها تلطّخ الذهب والفضّة كما يفعل الماء الآسن في جوف سفينة محكمة الإغلاق».

* * *

للأسف لم يتسع الوقت لزيارة جزيرة هُرمُز الغريبة، وعليّ إقناع نفسي بالنّظر فقط إلى حدودها المتعرّجة وإلى القمم البيضاء من فوق سطح السّفينة، حيث يُعدّ هذا المكان حسب كل التقديرات عجيباً إلى حد كبير. وعلى الرّغم من وجود قرية صيّادين ومئة بيت تقريباً، فإنّ الحياةَ النّباتيّة منعدمة، والمياه العذبة غير متوفرة لكنها غنيّة بالملح والكبريت وخامات الحديد، وهذه القمم البيضاء التي شاهدْناها ما هي إلا اثنتان من الكبريت والثالثة من الملح، وهناك قمم أخرى بركانيّة. يقول قبطان السّفينة سِملا إن هذا المكانَ واحدٌ من أكثر المناظر غرابة، فالنّهر الواسع الذي يصبّ في البحر مغطى بطبقة كثيفة من الملح تقع في وسطه دون أن تختلط بمياهه. يجري تيّار من المياه الحمراء بلونها القاني بسبب كميّة الحديد الموجودة فيها. أما الحصن البرتغالي والمنارة، فهما موجودان حتى الآن ويقال إن الأولَ بناءٌ عجيب من الحجارة المصفوفة.

في البداية تأسّست هرمز Hormuz على يد أحد أفراد الأسرة السّاسانيّة الحاكمة في

Thomas Herbert، حصلتُ على كتبهم تمهيداً لإضافتها للسّلسلة.

القرن الثالث، لكن فيما بعد شُيّدت مكانها مدينة عربيّة كان مؤسّسها الأمير العربي الشّهير الشّاه محمّد درهم كوب[1] Xá Mahamed Dramkú، حيث تقع المدينتان على البرّ الرّئيسيّ. ولم يكدِ القرن الرّابع عشر يحلّ حتى تأسّست مدينة أخرى داخل الجزيرة بعد الغارات التُّركيّة على البرّ الرّئيسيّ[2]. من خلال وصف ماركو پولو Marco Polo الذي جاء إلى هذه البلاد في القرن الثالث عشر، يظهر أن هُرمز (ويسمّيها Ormus) موجودة على السّاحل وداخل الجزيرة، لأنها تُذكر بشكل خاص وقد تُعدّ ولاية. لقد قام بوصف البيوت الصّيفيّة المبنيّة داخل المياه، والتي يلجأ إليها الأهالي عند ارتفاع درجة الحرارة، وذكر أيضاً «التوابل واللآلئ والأحجار الكريمة والملابس المطرّزة بالذهب والفضّة، بالإضافة إلى جميع الأغراض الثمينة التي تأتي من الهند».

---

(1) انظر كتاب تيشيرا، ص 153-156 يرد في الملحق الأول أنه محمّد ابن أحد ملوك جزيرة العرب وأصله من حِمْيَر، كان أول مؤسّسي مملكة هُرمُز العربية، وخلفه ابنه سليمان وبعده عيسى. قلت: حوالي سنة 1100 م حكمت هرمز القديمة سلالة من الملوك العرب، وأول ملوك هذه السلالة كان الشاه محمد درهم كوب، وهو شيخ عربي قام بعبور الخليج وتكوين مملكة هرمز العربية. أمّا المؤرخ البرتغالي غاسپار دا كروز Gaspar da Cruz معاصر فترة الاستعمار البرتغالي بالخليج، فيذكر في عام 1570: «وبعد أن تم تأسيس مدينة هرمز على الساحل الشرقي للخليج وازداد عدد سكانها وعرفت ما عرفته من ازدهار ونمو، أمر الملك وهو (الملك محمد أحد ملوك هرمز العربي) أهل الحل والعقد بالذهاب إلى منطقة مُسندم وأن يقتطع كل منهم ما يراه مناسباً له منها وذلك بهدف استثمارها وجعلها آهلة بالسكان، بحيث يتم تأسيس مدن وقرى جديدة. وهذا ما حصل، إذ قام كل واحد من الأعيان باختيار ما وجده مناسباً له من أراضي المنطقة واستثمرها وجعلها آهلة بالسكان وأطلق عليها اسمه، وهي الأسماء التي تعرف بها هذه المناطق اليوم».

(2) كتب المؤلف: أحيل القارئ إلى تاريخ فارس الذي دوّنه بالعربية ميرخوند... وتاريخ هُرمُز الذي دوّنه تورانشا Torunxa ملك تلك الجزيرة، وكلاهما ترجمه إلى الإسپانية أنطونيو تيشيرا Antonio Teixeira... والآن تمّ نقله إلى الإنكليزية على يد الكاپتن جون ستيڤنز، عام 1715. وحسب ما يذكر تورانشا Torunxa أو توران شاه Turon Shah، تمّ تأسيس جزيرة هُرمُز على يد Ayza Sefin عام 1302. ونص توران شاه يعود إلى القرن الرابع عشر، غير أنّ في ترجمة تيشيرا عدة أشياء أضافها من عنده.
قلت: وتيشيرا اسمه پدرو وليس أنطونيو، فاقتضى التّنويه.

هناك أيضاً الكثير من الملاحظات الوصفيّة الممتعة في ترجمة تيشيرا Teixeira أو بالأحرى في تحقيقه لتاريخ تورانشا Torunxa، حيث نقرأ عن «الينابيع الغزيرة الثلاثة من الماء الصّافي النّقي، لكنه مالح كماء البحر». وكذلك: «في أحد أطراف الجزيرة ماءٌ عذب قليل يستخدم لسقي بساتين الملك». و«الجزيرة مليئة بأنواع الحيوانات كالغزلان وحيوانات شبيهة بالماعز البرّي والذئاب ونوع من الثعالب والسّلاحف والحمام، وباقي أنواع الطّيور المائيّة. ومن العجيب أنَّ انعدامَ المياه العذبة يدعونا إلى التساؤل، ماذا تشرب هذه الحيوانات. البعض يقول إنها تعاني من العطش الشّديد لأنها تشرب المياه المالحة، بينما يختلق البعض الآخر خرافاتٍ لا تقلّ عن ذلك استحالة».

كما نجد لمحةً عن السّكان: «معظم أهالي هُرمز مليحون جميلو الطّلعة. الرّجال لبقون والنّساء جميلات... وجميعهم مسلمون إما من الشّيعة Schyays أو من السُّنّة Sunnays... بالإضافة إلى عدد من المسيحيين البرتغاليين والأرمن والجورجيين واليعاقبة... والنّساطرة... والبانيان الهنود واليهود»، وفي الصّيف «يحلّ الحرّ الشّديد ليستنفدَ كل طاقات الإنسان بعَرَق غزير».

في بداية القرن السّادس عشر، استولى دون ماتياس دي آلبوكيرك Don Mathias de Albuquerque على المدينة وأسّس فيها مركزاً برتغاليّاً. وكان الحصن الذي بناه ما يزال على مرأى العين في بندر عبّاس، وهو ذو تصميم رباعي الأضلاع جيّد البناء ومعزز بخندق مائي، ويقال إنه أفضل حصن برتغالي لا يزال مشيّداً في الخليج حتى الآن ويحيط به عدد من المدافع القديمة. في عام 1583، ألقى آلبوكيرك القبض على السّيّد رالف فيتش Ralph Fitch وتاجر من لندن وثلاثة من رفاقهما خلال سفرهم من طرابلس وحلب وبغداد إلى الخليج العربي، حيث تمّ مصادرة شيءٍ من بضائعهم وتركوهم يواصلون رحلتهم نحو الهند. وقد ترك لنا السّيّد فيتش وصفاً ممتعاً من خلال مذكراته عن رحلاته إلى هُرمز في ذلك الوقت. كأن يقول: «الجزيرة الأكثر جاذبيّة في العالم»، وأخبرنا بوجود قلعة برتغاليّة فيها نقيب تابع لملك البرتغال، بإمرته عددٌ لا بأس به من الجنود، بعضهم داخل القلعة والآخرون في المدينة». «تقوم هنا

تجارةٌ رائجةٌ بكافة أنواع التوابل والعقاقير والأقمشة الحريريّة والمنسوجات الفارسيّة المزيّنة بالصور، وكمّ كبير من اللآلئ القادمة من جزيرة البحرين، والكثير من الخيول الفارسيّة التي تصل إلى كافة أنحاء الهند». ولقد لفت انتباهه أيضاً الجمال الأنثوي، فرغم ارتداء النّساء للحجاب، فإنّ تاجرَنا المغامر كتب عنهن: «تتزين نساؤهم بشكل غريب، فهن يلبسْنَ العديد من الحلقات المرصّعة بالمجوهرات في أنوفهن ورقابهن وأذرعهن وسيقانهن، وتزيّن آذانهن بمشابك من الذهب والفضّة وقد أصبح الثقب كبيراً بسبب ثقل المجوهرات بحيث تستطيع إدخال ثلاثة أصابع فيها، ويضعْن سفوداً من الذهب جانب أنوفهن[1].

* * *

في عام 1622، حاصر الإنكليز جزيرة هُرمُز بالتحالف مع الشّاه عبّاس، وبعد حصار دام لمدّة أربعة أشهر تقريباً استسلمَتِ المدينة[2]. وبعد ثلاث سنوات تمّ تسليمُ السّاحل إلى الفرس بموجب معاهدة لم يتمَّ انتهاكُها من حكومة البلاد بأيِّ شكل. وبعد ذلك مباشرة قام الشّاه عبّاس بتأسيسِ ميناءٍ على البرِّ الرّئيسيِّ الذي كان قرية للصّيّادين في السّابق وتسمّى گمبرون (ويقال إن الاسم يعني صيد الرُّبيان[3]) وهي تسمّى الآن بندر عبّاس.

كانت هُرمُز في هذا الوقت بأوج عظمتها، وقد وصفها السّير توماس هربرت Sir Thomas Herbert في عام 1627 بقوله «في بيوتها أثاثٌ مصنوعٌ من الجلود المذهبة والنّوادر الهنديّة والصّينيّة، أما سوقها فغاية في الثراء والجمال، وفيها كنائسُ رائعةٌ

---

(1) كتب المؤلف: انظر پنكرتون Pinkerton في «مجموعة الرّحلات» "Collection of Voyages" المجلد التاسع، ص 408.

(2) كتب المؤلف: يقول هاميلتون إنَّ الحصارَ استمر لأقلّ من شهرين، وقد تمَّ التقيّد بالمعاهدة بحذافيرها لغاية عام 1680، عندما فشل الإنكليز في تطهير المنطقة من أعمال الشغب.

(3) هناك تشابه في التسمية، ففي البرتغاليّة يسمّى الرُّبيان: Camarão وفي الإسپانيّة: Camarón أو Gambas.

وقلعة قويّة محصّنة بشكل منظم»[1]. ويمكن الآن مشاهدة آثار خزانات المياه وأجزاء من المدينة والجوامع فيها. كان عددُ السّكان وقتئذٍ أربعين ألف نسمة تقريباً، أما الآن فقد انخفض إلى ثلاثمئة فقط، وهم يهاجرون إلى البرِّ الرّئيسيِّ خلال مواسم معيّنة في السّنة.

حاولت گمبرون، التي صار اسمها اليوم بندر عبّاس، أن تحتلّ مركز جزيرة هُرمُز في التجارة، لكنها لم تنجحْ في ذلك سوى جزئيّاً، حيث تمَّ تأسيسُ مراكز إنكليزيّة وفرنسيّة وألمانيّة ما زال أثرها باقياً حتى الآن، كاملة أو بعضاً منها. كانت حتى نهاية القرن الماضي تحت حكم سلطان مَسقَط كما سبق الذكر، ولم يمضِ سوى ربع قرن حتى أعاد الفرسُ سيطرتهم التامة عليها.

❋ ❋ ❋

غادرْنا بندر عبّاس في مساء اليوم التاسع والعشرين من الشّهر، ولأننا لن نمرَّ بمسقط فالرحلة ستستغرق ثلاثة أيام إلى كراتشي. بعد هذا الميناء استأنفَتِ السّفن البريطانيّة – الهنديّة نشاطها بعد استعادة السّيطرة على البحار البريطانيّة وأخذت تتقدّم بسرعة كبيرة نحو بومباي التي تصلها في خلال ست وخمسين ساعة تقريباً. عندما أبحرْنا خارج بندر عبّاس، كنت أعتقد أنَّ المناظرَ الجميلةَ قد تلاشت. لقد كان الضبابُ الأرجواني يلفُّ جبلَ جيناو Jinao وجبلَ شمال والجزر بغلالته، حيث تضيء السّماء خلفه بوهج برتقالي خفيف يعلن قرب أفول النّهار. أما البحر الهادئ الذي يتلألأ بانعكاس آخر هو ومضات غروب الشّمس، فيمتدّ بهدوء أمام السّفينة. إنها أرضُ الجنِّ وموطن السّحر، فمن المحال رؤية مكانٍ أشدّ جمالاً أو بهاءً. من المستحيل ألا يتمتّع هذا المكانُ الرّائع بالصحّة. وحالما أسدل الليل ستاره، أضاء البحر بأنوار متألقة لا حصر لها، تومض للحظة ثم تختفي.

خلال رحلة الأيام الثلاثة إلى كراتشي، شاهدْنا من بعيد السّاحل الفارسي والبلوشي.

---

(1) كتب المؤلف: انظر كُرزون، «بلاد فارس والمسألة الفارسيّة».

إنها الحدودُ الأكثر إثارة للدهشة، فهي متعرّجة ومسنّنة كأسنان المنشار في بعض الأماكن، حيث تبدو القمم كالمنارات الملتصقة بعضها بالبعض الآخر. وقد شاهدْنا أيضاً أشياء غريبة من التاريخ الطّبيعي، كثعبان يمر بطول أربعة أقدام وجسم أصفر فيه خطوط داكنة وذيل مسطّح كسمكة. وهنا تعرّفت لأولِّ مرّة على السّمكة الطّائرة عندما شاهدتها للمرة الأولى وهي تهرب بعيداً عن مقدّمة السّفينة، حينئذ رفضْتُ تصديقَ أنها ليست مجرّد طيور بحريّة صغيرة، حتى طارت إحداها بشكل رائع وحطت على سطح السّفينة، وبذلك تبدّدَ الشّك لدي. وفي أحد الأيام شاهدتُ في خلال ربع ساعة عدداً كبيراً من هذه الأسماك وسمكة سوداء، وسلحفاة كبيرة كانت تتجول بهدوء على بعد خمسين ميلاً من اليابسة، وهي على الأرجح ذكَرٌ لا يهتم بأنثاه الموجودة في المياه الضّحلة للسّاحل البلوشستاني. أخذتِ الحرارة وبالتالي الرّطوبة بالارتفاع وأصبح النّوم في أسفل المنصة الخاصّة بالسفينة شيئاً مرهقاً للغاية. ومع سقوط قطرات النّدى بشكل غزير ومستمر، أصبح من المستحيل ألا يتغلغل البلل حتى جلودنا عند جلوسنا على المنصّة في المساء.

* * *

في اليوم الثالث من شهر مايو رسَوْنا في مرفأ كراتشي، حينها أحسسْتُ أنني سأعود ثانية إلى الحضارةِ الأوروبيّة، وبذلك تصِل قصّتي لنهايتها. بعد أيامٍ قليلةٍ وصلتُ إلى بومباي. كانت الرّياح الموسميّة حينذاك تتجمّع، وأصابتني حرارةُ الجوِّ بشيء من الانزعاج. كان مقياس الحرارة يسجل بين 91° و 98° في صالة الفندق، وتُعدّ في بومباي حرارة مرتفعة مزعجة مع ما يرافقها من رطوبة عالية. بعد أسبوع من مشاهدة المدينة ومعالمها الرّئيسيّة عدتُ أدراجي إلى أرض الوطن ووصلت إلى لندن في الثامن من شهر يونيو، بعد أن اختبرت طقساً غير عادي في رحلتي في البحر الأحمر.

كانت السّفينة *Damascus* (دمشق) صغيرة، لكن صناعتها جيّدة ومجهّزة بأكثر الوسائل جلباً للرّاحة في كل المجالات، إلا أنها كانت محمّلة عن آخرها مما جعلها تنخفض في المياه. اجتزنا باب المندب في العشرين من الشّهر، وفي الحادي

والعشرين منه، ازداد هبوبُ الرّياح المعاكسة لاتجاه السّفينة إلى ما يشبه العاصفة. وفي الليلة التالية أصبحت الرّيح أقوى وغمرت المياه جميع الرّكاب الذين كانوا ينامون على سطح السّفينة (وأنا من بينهم)، فأسرعنا بالدخول إلى غرفنا بلباس النّوم المبلل. وعند الصّباح، تحولت إلى عاصفة حقيقيّة وغطست السّفينة أكثر داخل الماء، فسارعت الأمواج المتكسّرة بإحاطتها من الأمام والخلف، وجرفت القوارب وزرائب الأغنام وهربت الحيوانات. ثم أخذت تضرب أعلى مقدّمة السّفينة ومنصّة الرّبان، وقد تهشّمت حظيرة البط أيضاً وغرقت عدة طيور بينما سبحت الأخريات.



أحد أبراج الصّمت في بومباي

جرى نقل تجهيزات الطّعام والمبيت إلى الصّالة، وفاضت المنصّتان الأماميّة والخلفيّة وعمّت الفوضى في كل مكان. وفي ليلة الثاني والعشرين من الشّهر، بقي كلُّ شخصٍ في غرفته التي ما زالت تعاني حرارة شديدة، ووجدتُ نفسي أتدحرج عندما

وصلت إلى الأسفل. كان من الضروري إنقاص السّرعة إلى النّصف، وعندما كانت الملاحظات تدوّن في اليوم التالي حيث هدأت العاصفة، وجدْنا أننا قطعْنا مئة وثماني وستّين عقدة فقط. كان هذا الطّقس الذي واجهناه في البحر الأحمر غريباً إذ كنا جميعاً نخشى حرارته التي تفتقر حتى إلى نسمة، وعلى أيّة حال، أعتقد أن الغرق بديل مقبول عن الشّواء.



الملاحق

1 - الخانات على طريق الزّيارة إلى كربلاء - الحلَّة - بغداد في خلال ساعات.

2 - أبو نواس، نديم هارون الرّشيد.

3 - شراء أسطرلاب من بغداد.

4 - مقاييس وأوزان مشوّشة.

5 - رحلة بالبي من بغداد إلى البصرة.

6 - تقرير هاميلتون عن البصرة.

7 - قصّة مؤثرة من الخليج العربي.

1 - الخانات على طريق زيارة كربلاء وعلى طريق الحِلّة، مع ذكر المسافات من بغداد بالسّاعات

خان الخرّ، ساعة و10 دقائق.

خان الكاخيا، ذكره بكنغهام، ساعتان.

خان الزّاد: Khan i Zad (لدى لايارد)، أو Assad (لدى بكنغهام). وهو نزل كبير مبني بالطُّوب، تمّ تفكيكه ولم يعد مستخدماً في عام 1892، لكنه كان قيد الاستخدام في أيام بكنغهام. 4 ساعات.

خان المحمودية، يشبه خان الزّاد، مع قرية عربيّة. 5 ساعات وثلاثة أرباع السّاعة.

خان بيريونس، أو بير يونس (بكنغهام)، يدعوه الأتراك: أورطه خان. لم يعد مستخدماً في عام 1892. 7 ساعات وثلاثة أرباع السّاعة.

على بُعد حوالي ثماني ساعات من بغداد يتشعّب الطّريق، فيؤدّي درب منه إلى الحِلّة، وآخر إلى المُسيّب وكربلاء.

ويوجد على هذا الدّرب الأخير:

خان سكندريّة، أو الإسكندريّة، مع قرية عربيّة ومقهى. وعندما كان بكنغهام متوجهاً إلى بابل، تمّ إرشاده على الطّريق بالخطأ فوصل إلى خان يسمّى: Mizrakjee Oghlou مزراقجي أوغلو، يقع إلى الشّرق من هذا المكان بحوالي ثلاثة أميال، ويصفه بأنه خان حسن البناء. ولما أدرك خطأه عاد راجعاً إلى السّكندريّة. ويبدو أنّ خان مزراقجي أوغلو يقع أيضاً على درب كربلاء، وربما بُني لكي يستوعب العدد الفائض من الزّوّار.

ولم أزره، لكن بسبب عدم معرفتي بوجوده لم أستفسر عنه. 8 ساعات وثلاثة أرباع السّاعة.

المُسيّب، بلدة وخان، 11 ساعة.

كربلاء، 17 ساعة ونصف.

***

أمّا على درب الحلّة فيوجد من الخانات:

خان حصوة، مع بضعة أكواخ ومقهى، على مرمى البصر من السّكندريّة، وعلى نفس المسافة منها عن بغداد، وهي 9 ساعات.

خان نصريّة، 10 ساعات ونصف السّاعة.

خان حاجي سليمان، ذكره بكنغهام ووصفه بأنه مبنى صغير، 10 ساعات ونصف السّاعة.

خان المحاويل Mahawil أو Mohawil (لدى بكنغهام)، منه تُرى أطلال بابل للمرّة الأولى، 12 ساعة.

ومن المحاويل إلى الحلّة توجد حوالي 3 ساعات وثلاثة أرباع السّاعة من المسير عبر خرائب بابل دون توقف. 15 ساعة وثلاثة أرباع السّاعة.

***

2 - أبو نواس، نديم هارون الرّشيد

ما زالت القصصُ في الشّرق تروي الكثير عن هذه الشّخصيّة. وقد حكى لي أحد السّوريين القصص التالية[1]:

أبو نواس وآنية الحساء:

في أحد الأيام، كان أبو نواس ينتظر سيّده الخليفة هارون الرّشيد على العشاء، وعندما حضر أوقع على رقبته عن طريق الخطأ قطرة من الحساء الحار. استدار الخليفة واستلّ سيفه بغضب وهمّ بقطع رأس أبي نواس، فما كان من النّديم إلا أن سكب ما تبقّى من الحساء فوق رأس الخليفة، فقال: «لم فعلت هذا؟ أجبْ قبل موتك». فأجاب أبو نواس: «يا سيّدي، إذا فقدت رأسي بسبب إسقاط مجرّد قطرة من الحساء على رقبتك، سيقول النّاس إنك سيّد ظالم قليل المروءة، لكن إذا جززت رأسي بسبب إسقاط الآنية كاملة على رأسك، فلا أحد سيلومك على فعلتك، ولهذا قلبتها».

(1) هذه القصص ترد هنا كما كتبها المؤلف بالإنكليزيّة، ويمكن الرّجوع إلى أصولها في كتب الأدب العربي المعتبرة.

أبو نواس والسّيّدة خالصة:

كان أبو نواس شديد الغيرة من فتاة موجودة في قصر الخليفة هارون الرّشيد تدعى خالصة، لأنه كان يؤثرها على غيرها. وفي أحد الأيام أهداها الخليفة عقداً ثميناً مما أثار غضب النّديم، فكتب على بابها البيت التالي:

لقد ضــاعَ شِـعـري على بابكُم   كما ضــاعَ عـقـدٌ على خالِصة

وعندما قرأت الفتاة هذا البيت سكبت الدّموع من عينيها وذهبت لتخبر سيّدها وهي غاضبة، فجاء ليرى الأمر بأم العين. وخلال فترة غيابها قام أبو نواس بتغيير فحوى البيت وذلك بمحو الطّرف السّفلي للحرف (ع) من كلمة ضاع فأصبحت همزة، وجاء البيت كالتالي:

لقد ضــاءَ شِـعـري على بابكُم   كـمـا ضـــاءَ عـقـدٌ عـلـى خـالِـصة

بعد أن رأى الخليفة هذا، وبّخ خالصة لدعوتها إياه على عجل وأخبرها أنه لا يوجد في بيت الشّعر سوى الإطراء. إلا أنّ خالصة لم تكن أقلّ شأناً من النّديم، وكانت قادرة على التّورية في الكلام رغم جرح مشاعرها، فقالت: «الآن أزيلت العيون من البيت وصار من الممكن فهمه».

أبو نواس والحمير:

حصل في أحد الأيام أن أخذ أبو نواس رخصة من سيّده لجلب حمار من كلّ رجل يخاف زوجته كنوع من الضرائب. وبموجب هذا الأمر بدأ يجوب القرى ويطلب من كلّ رجل يخاف زوجته حماراً. فحصل على حمار من هنا وحمار من هناك حتى اجتمع لديه قطيع كبير من الحمير. وفي أحد الأيام شاهد أحد حرّاس بوابات المدينة موجة كثيفة من العجاج آتية نحو القصر، فقال أحدهم: «عجباً ما هذا؟». وعندما اقترب الحشد المثير للغبار أدركوا أنه لم يكن عدوّاً، بل هو أبو نواس يسوق قطيع الحمير التي استولى عليها من الأزواج الذين يهابون زوجاتهم في منطقة الرّيف المجاورة.

وعندما اقترب أبو نواس من القصر أكثر، تصاعد الغبار حتى وصل إلى غرفة الخليفة مما جعله يعطس، فطلب تفسير الأمر. أبلغه الحرّاس أنَّ أبا نواس وراء هذا الأمر، فطلبه للمثول أمامه. بدأ أبو نواس يشرح تجربته قائلاً: «يا سيّدي هناك في (قرية كذا) امرأة رائعة الجمال عليك استقدامها للقصر، شعرُها كجناح غراب أسود، عيناها كعيني غزال صحراوي، أما شفتاها فخاتم سليمان، وهي ممشوقة القوام». وهكذا استمرّ بالوصف التفصيلي لمواطن الجمال والسّحر الذي تتمتّع به هذه المرأة، فما كان من الخليفة إلا النّظر نحو النّافذة المفتوحة على سكن النّساء فشاهد العيون الدّائريّة السّوداء للسّيّدة زبيدة وهي تتلألأ بنظرة غاضبة، تزمّ شفتيْها وقد اختفت ابتسامتها التي يعشقها الخليفة، فاستدار سريعاً نحو أبي نواس وقال: «صَه، صَه ألا ترى السّيّدة زبيدة وهي تصغي إلى الحديث؟ تحدّثْ بشيء آخر». فقال أبو نواس: «الآن يا سيّدي عليك إعطائي حمارين لأنك ملك، فمن الواضح أنك أنت أيضاً تخشى من زوجتك السّيّدة زبيدة».



3 - شراء أسطرلاب من بغداد

بما أنّ نماذج الأدوات المعروفة باسم «الأسطرلاب» لم تعدّ مألوفة في عصرنا، لا الشّرقيّة منها ولا الغربيّة، فمن المفيد هنا أن أصف بشيء من الاختصار الأسطرلاب الصّغير إنّما الجميل الذي اشتريتُه في بغداد. إنّه مصنوع من البرونز، ويتألف من عشرة أجزاء منفصلة، تُعرف في أسماء الأدوات بالإنكليزيّة كما يلي: الأم[1]، الألواح أو الجداول (وهي أربعة في أسطرلابي)، الشّبكة (المشبّك أو العنكبوت)، المسمار، المسطرة، والحصان. وجميعها لها أسماؤها المشرقية الخاصّة. والأسطرلاب المصنوع على هذا الشكل يسمّى: «المسطّح الكروي» planispheric، وبالعربيّة: «المُسطّح».

والجزء الرّئيسي «الأم»، يتألف من قرص من البرونز يبلغ قطره ثلاثة إنشات ونصف، وبأحد وجهيه تجويف دائري، ثُبّتت عليه الألواح والعنكبوت. وفي أحد جوانبه (وهو الجنوبي) آلة لتعليق الأدوات عند الاستخدام. وهي قسم ناتئ ومزخرف، يدعى «الكُرسي»، وقد رُبطت إليه بمسمار حلقتان هما «العُروة» و«الحلقة». و«الكرسي» مزخرف بطريقة النّقش في وجهيه كليهما بتعريقات أرابيسك بديعة.

سأصف الآن الأجزاء المختلفة، والرّموز المنقوشة عليها. ومن بين هذه نجد أنّ الوجه الخلفي للأسطرلاب («ظهر الأسطرلاب»)، وهو الوجه الخلفي الذي يحوي

---

(1) إذا شئنا الصّواب، فإنّ وجهاً واحداً من هذا القسم يمثّل «الأم»، ولكن على اعتبار عدم وجود اسم خاص يطلق على كامله بالإجمال، فيبدو أن اسم الجزء الأكبر منه «الأم» قد غلب عليه بهذا المعنى.

«الأم»، هو الأكثر تزويقاً في صنعته.

وهو مقسوم بخطّين متصالبين إلى أربعة أرباع، والنّازل بينهما من «الكُرسي» هو الخط الشّمالي والجنوبي (و«الكرسي» يقع في الجنوب)، بينما الآخر هو الخط الشّرقي والغربي. ويضمّ الرّبع الجنوبي الشّرقي في طرفه التّسعين درجة من درجات الارتفاع مُدرّجة بالأرقام. فهذا هو قوس الارتفاع الزّاوي، وضمن ذلك فالرّبع مقسوب إلى جيب وتجيب. ويسمّى الجميع رُبع القانون، أي خطوط الطّول.

وفي الرّبع الجنوبي الغربي قوس الارتفاع كسابقه. وضمنه ربع ذو مقياس أصغر يحاذيه، وهو قوس ميل الكسوف. وكذلك في الرّبع الجنوبي الغربي رموز البروج باللغة العربيّة، وموازيات البروج. وهناك أيضاً بشكل يقطعها أقواس سمت القِبلة، أي ارتفاع الشّمس عندما تقطع فوق الدّائرة السّمتيّة للقِبلة عند شيراز، وبغداد، وأصفهان، وطوس، حيث نُقشت أقواسها بأسمائها، وكذلك أقواس الزّوال لعدّة خطوط عرض. وهناك جملتان منقوشتان ضمن هذا الرّبع للتّبيان.

أمّا الرّبعان الشّماليان فينبغي أاتّخاذهما معاً. وهما مقسومان إلى سبعة خانات نصف دائريّة، وخانة مستطيلة في الوسط. والحقل الأقصى يحوي ظلّ الأقدام وظلّ الأصابع. والذي يليه مدرّج بدرجات الظّلال.

ومن بين الحقول الخمسة المتبقيّة، سوف نأخذ الأوسط أولاً. وهو مرقوم بعبارة «البروج»، ويضمّ أسماء البروج الاثني عشر بالعربيّة، ابتداءً من جهة الشّرق. والحقل الثّالث اعتباراً من الحقل الأقصى مرقوم بعبارة «الكواكب»، ويضمّ الكواكب الخمسة مرتّبة كل خمسة منها مقابل كل بُرج على حدة.

أمّا الحقل الرّابع اعتباراً من الحقل الأقصى، فهو مرقوم بعبارة «الحدود»، أي عدد درجات كل بُرج مخصّصة كحدود للكواكب.

وأمّا السّادس فهو «الوجوه» (وجوه الكواكب)، وكل منها يمثّل ثلث بُرج، أي 100 درجة.

أمّا السّابع والأخير فيضمّ «المنازل»، أيّ منازل القمر الثمانية والعشرين.

وأمّا الجدول المستطيل فهو مربّع الظلال المنحرفة والمستوية، الذي يظهر مقاييس وطبائع وأسماء علامات البروج الثّلاثيّة، والكواكب المسيطرة في النّهار واللّيل في البروج الثّلاثيّة. وإنّ الفائدة من هذين الرُّبعين الموصوفين أعلاه هي فلكيّة بحتة. وتحت مربّع الظّلال يوجد اسم الصّانع، وهو حاجي علي، وعند القاعدة أو النّهاية الشّماليّة لخط الشّمال – الجنوب، يوجد تاريخ الصّنع 1125 هـ.

وجبهة الأسطرلاب هي «الأم» و«الهجرة» هي الطّرف الدّائري. وهذه الأخيرة مقسّمة إلى الـ 360 درجة والخانات الأربعة والعشرين، وتضمّ رموزاً لم أتمكن من حلّها[1]. والمساحة المقوّرة من «الأم» يشغلها جدولان بالمدن وقيم خطوط عرضها وطولها و«انحرافها». وخط الطول يُقاس بالطريقة ذاتها كما في الأسطرلاب الأكبر للشّاه حسين والآلات الشّرقية الأخرى، وتبعاً للمستر مورلي W. H. Morley فهو يُحتسب استناداً إلى خط الزّوال القديم الواقع في الجزر السّعيدة. و«الانحراف» كما يقول الكاتب ذاته، هو قوس أفق يعترض ما بين زوال أيّ مكان وزوال مكّة، وتلك الدّائرة تسمّى سَمت القِبلة. ويبتدئ الجدول عند قمّة الآلة ويُقرأ من اليمين إلى اليسار، وهو بذلك يختلف عن الآلات الشّرقية التي تُقرأ من اليسار إلى اليمين. والجدول الخارجي يضم ثلاثة وعشرين اسماً، والدّاخلي أحد عشر. وللإيضاح، تم قلب الجدول كما في الشكل المرفق.

والألواح «الصّفايح» معمولة بحيث تركب على «الأم». ويبلغ عددها أربعاً، وكل واحد منها منقوش على وجهيه. ومن بين هذه الوجوه الثّمانية ثمّة سبعة متشابهة. وكلّ منها مقسوم بخط الجنوب – الشّمال، أو بخط منتصف السّماء، والخط الأفقي أو خط الشّرق والغرب. وبالإضافة إليها، فيها دائرتا السّرطان والجدي، وخط الاستواء، وخط مجزّأ يقسم السّماء التي بالأعلى عن تلك الواقعة تحت الأرض. وفوق هذا

(1) في معظم الأسطرلابات الشّرقية هذا القسم مرقّم من 1 إلى 365 خمسة. وفي الآلات الأوروبيّة توجد حروف الأبجديّة، التي تدلّ على الـ 24 ساعة.

الأخير خمس عشرة دائرة للارتفاع الزّاوي، تسمّى «المُقنطَرات» almucanteras، وكل واحدة منها تمثّل ست درجات، وهي مرقّمة من 6 إلى 90[1] على سمت الرّأس. ويقطع هذه الدّوائر ستة وثلاثون قوساً غير مكتمل، هي أقواس السّمت «السُّموت»، مرقّمة من 10 إلى 90 بأربع مجموعات على التّوالي.

من مدار السّرطان يتشعّب اثنا عشر قوساً، هي أقواس الكواكب والأقواس الزّمنية وأقواس السّاعات غير المتساوية. وثمّة نسق آخر من الأقواس يقطع هذه الأقواس المذكورة عند خط تساوي اللّيل والنّهار، مرقمة من 1 إلى 14 هي السّاعات المتساوية أو ساعات النّهار أو الجزء من 24 من الوقت، ما بين شروقين اثنين.

وكذلك قد بُيّن على كل لوحة الارتفاع الزّاوي الذي يمكن استخدام اللوحة عنده، ومدة أطول يوم عند هذا الارتفاع. وهذه القيم مُلحقة بأسماء المدن في الجداول المتوضّعة على الارتفاع ذاته.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المساحة على الوجه الآخر من اللوحة الثانية مظلّلة في الحقل الذي يرد فيه الارتفاع واليوم الأطول، غير أنّ هذا ليس وضع بقيّة اللّوحات. وهذا ما يجعل من المحتمل أن تكون هذه الآلة الفلكيّة قد صُنعت في إحدى المدن الأربع المذكورة بذلك الحقل.

في أسطرلاب شاه حُسين تختلف مدة أطول يوم لخطوط العرض المختلفة بنسبة ضئيلة في أربع حالات من أصل ستة.

ولظهر اللّوحة الأولى تركيبة مختلفة، على اعتبارها تسمّى «الصّفيحة الأفقية»، أي لوحة الآفاق. وبما أنه قد وُضّحت لوحة تكاد تكون مطابقة لها في كتاب مستر مورلي، فأرى من غير الضّروري وصف ذلك هنا.

(1) وهي لذلك آلة «سُدسيّة». و«التّامّة» لها 90، و«النّصفيّة» لها 45، و«الثلثيّة» 30، و«الخُمسيّة» لها 18.

OUTER TABLE.

The Cities.	Mekka.	Medina.	Bagdad.	Busrah.	Shiraz.	Shuster.	* Kharfadqan ?	Isfahan.	Kashan.	Kum.	Rai.
Long.	77·10	75·20	82	84	88	84·30	84·30	86·40	86	85·40	84·21
Lat.	21·40	25	33·25	30	29·36	31·4	34	32·25	34	34·45	35
Inhiraf.	0·0	27·10	32·15	37·19	33·8	35·24	38	40·29	34·31	31·54	37·26
Kazwan.	Saweh.	Hamadan.	Semnan.	Damghan.	Bostam.	Shirwan.	Nishabur.	Meshed.	Herat.	Merv.	Candahar.
85	85	83	88	91·30	89·30	91·30	92·30	92·30	94·20	97	107·40
36	35	35·10	36	36·20	36·30	36·5	37	37	34·30	37·40	33
27·34	39·16	32·34	36·17	38·15	39·43†	44·12	45·6	45·6	44·8	42·30	75·5

INNER TABLE.

The Cities.	Tabriz.	Ardebil.	Anrwan.‡	Shirwan.	Maraga.	Kanja.	Bardi.	Lahijan.	Astrabad.	Amol.	Sari.
Long.	82	82·30	89·15	84·30	82	83	83	84	89·35	87·20	88
Lat.	38	38	38·30	40·50	37·20	41·20	40·30	36·10	36·50	36·15	37
Inhiraf.	15·40	17·1	36·20	20·9	36·17	15·49	36·27	29	18·48¶	35	36·44

* This town is written خرفادقان Kharfadqan? on the astrolabe of Shah Husein كلبايكان Kulpaikan. It is difficult to imagine that both represent the same town, but I can find no other town approaching the name in these latitudes.

† This is 83 on the astrolabe, an evident clerical error for 43.

‡ Is this meant for Amrwan, lat. 36, a little south of Astrabad, and close to Damghan?

¶ 88 on the astrolabe; clerical error for 48.

These bearings are of course anything but reliable. They are only approximate. The above table should be compared with the much more lengthy table of towns on the great instrument of Shah Husein (see "Description of a Planispheric Astrolabe constructed for Shah Sultan Husain Safawi, King of Persia," &c., by William J. Morley, 1856). Thirty-one of the thirty-four towns given on the Bagdad Astrolabe occur on that of Shah Husein, of which only eight exactly coincide in bearings.

والجزء التالي والأخير من أجزاء الآلة هو «العنكبوت»، أو المشبّك أو الشّبكة، كما يسمّى في النّماذج الإنكليزية. وهذه اللوحة مفرّغة كالهيكل عظمى، ولها أجزاء قد تمّ اقتصاصها، وتُركت حلقة داخلية وخارجيّة، وهي دائرة البروج ومدار الجدي. ومن كليهما ينتأ العديد من نقاط تسمّى «الشَّظيّة» Shaziah، وكل واحدة مرقومة باسم بعض النجوم، وموقعها عند نقطة «الشَّظيّة». ودائرة البروج مرقومة بالأبراج والدّرجات. وفي الأعلى ما بين برج القوس وبرج الجدي يوجد «المُري»، أي المؤشّر "almury"، ومقابله بالقرب من الدّائرة الخارجيّة يوجد «المُدير»، وهو زرّ صغير تُدار به اللّوحة.

وفيما يلي قائمة بالنّجوم التّسعة والعشرين:

1. رأس الحوّاء.
2. عنق الحيّة.
3. النّسر الطّائر.
4. فم الفَرَس.
5. الرِّدف.
6. النّسر الواقع.
7. نير الفكة (الإكليل الشّمالي)
8. السّماك الرّامح.
9. منكب الفَرَس.
10. الكفّ الخصيب.
11. رأس الغول.
12. العيّوق.
13. ظهر الدُّب.

وخارج دائرة الأبراج:

14. قلب العقرب.

15. السِّماك الأعزل.

16. جناح الغُراب.

17. قلب الأسد.

18. القاعدة.

19. فرد الشّجاع.

20. الشّعرى الشّاميّة.

21. الشّعرى اليمانيّة.

22. الرِّجل اليُسرى.

23. اليد اليُمنى.

24. عين الثّور.

25. مسافة النَّهر.

26. صدر القيطَس.

27. فم القيطَس.

28. ذنب القيطَس.

29. السّاقي.

وأمّا بخصوص باقي أجزاء الأسطرلاب، فالمسطرة مقسومة طولياً بما يسمّى خطّ التّرتيب "line of faith". وقرب النّهايتين كليهما صفيحتان قائمتان، تسمّى الواحدة منها «الدّفّة»، وعبر كلّ منهما ثقب لأخذ الملاحظات. ولاستخدام الآلة تثبّت أيّ من

اللوحات أو كلّها في «الأم»، مع العنكبوت في الجزء العلوي. ويتم تمرير مسمار المحور من خلالها عبر الثّقب الموجود في مركز كل منها، ثم يتم قفله بحلقة صغيرة وإسفين[1].

وعمل النّقش والحفر على كامل هذه الآلة قد تم بألطف شكل وأدقه. ورغم أنّه قد اشتري في بغداد، فقد قيل لي إنّ مصدره كربلاء.

ومَن يرغب في معرفة المزيد عن الأسطرلابات الشرقية، فعليه بالرّجوع إلى كتاب مستر مورلي المُشار إليه أعلاه، والذي من دونه ما كنتُ تمكنت أبداً من حلّ مغاليق هذا الأسطرلاب الذي وصفتُه. وحول استخدام الأسطرلاب في إنكلترا العصور الوسطى، ليس هناك أيّ بحث يبزّ «مقالة في الأسطرلاب»، للقس دبليو دبليو سكيت W. W. Skeat لجمعيّة تشوسر.

* * *

(1) تسمّى المسطرة «العِضادة»، ومسمار المحور «القُطب»، والإسفين «الفَرَس»، والحلقة «الفَلس».

4 – مقاييس وأوزان مشوّشة

لقد ذكرت سابقاً شيئاً عن العملة المتداولة في بغداد والتي تدعو للإرباك. وهنا أبيّن لكم من خلال التقرير التالي حالة الأوزان والمقاييس:

«اقتبست صحيفة هيئة التجارة عن صحيفة غرفة تجارة إسطنبول تقريراً في غاية الغرابة عن الأوزان والمقاييس المستخدمة في بغداد والبلاد العربيّة الخاضعة للحكم التُّركي الذي صدر به قانون في تُركية عام 1970 م ولم يتمَّ اعتماده من قبل سكان بغداد، حيث أبقوا على أوزانهم التقليديّة القديمة كما هو الحال في باقي أجزاء الإمبراطوريّة، وبذلك يتعرّض السّائح الذي وصل البلاد حديثاً إلى الخداع من قبل أصحاب الحوانيت والخدم بسبب عدم معرفته للمقاييس والأوزان المعتمدة. على سبيل المثال: عندما يتحدّث الطّبّاخ عن أوقية من اللحم، فعليه أن يفهم أنها أوقية كبيرة لأن اللحم والخبز والفاكهة والخضار وباقي الأطعمة تباع في بغداد بالأوقية الكبيرة التي تعادل أوقيتين ونصفاً حسب أوزان إسطنبول. ومن جانب آخر فقد يبيع البقّال الذي يعدّ نفسه متطوراً بضاعته بأوقية إسطنبول. أما القمح والتمور فيتم بيعها بالطّغار، وهو عبارة عن عشرين وزنة أي ما يعادل 78 أوقية. وحين يباع الخشب والقير والجص... يستخدم الطّغار المكوّن من 20 وزنة ذات 50 أوقية إسطنبوليّة. وبالنّسبة إلى الصّوف، فيتم استخدام المن البغدادي الذي يعادل 6 أوقيات بغداديّة و12 أوقية إسطنبوليّة. أما الجواهري فيزن مجوهراته بالمثقال الذي يعادل درهماً واحداً ونصف الدّرهم. والمنسوجات حسب نوعها، فهي تباع إما بالپك الحلبي الذي يعادل 26,25 بوصة والپك البغدادي يساوي 29,5 بوصة أو الپك الفارسي الذي يعادل 40 بوصة.

وبالنّسبة للفرّائين الفرس فإنهم قبل قص القطعة التي اشتروها يتأكدون من دقّة القياس بإجراء العمليّة التالية: يأخذون أحد أطراف الذراع باليد اليسرى ويضعونه قرب أنوفهم، ثم يمدّون الذراع الآخر بأقصى ما يستطيعون وهذا الطّول يجب أن يتناسب مع ذراع شاه. وتستخدم كذلك طرق غريبة في وزن بضائع معيّنة، فمثلاً يتمّ عدّ الجوز ووزنه بالمن ذي الأوقيات السّت. وبهدف الحصول على الوزن الصّافي يتم إنقاص الوزن من 12 إلى 10 وتقلل النّتيجة أيضاً من 31 إلى 30 وما تبقّى يتم تحويله إلى قنطار بمعدّل 30 مَن القنطار الواحد وتعقد الصّفقة على أساس القنطار. إنه لمن الصّعب فهم أصل وسبب هذه الحسابات الغريبة. يباع النّبيذ المستورد من دياربكر وكركوك والذي يستهلك في هذا المكان بالوزن أو بالأوقية الإسطنبوليّة. أما الحليب فيباع بالوزن أو بالقنينة أو نصف القنينة، ولا أهميّة لحجم القنينة حيث يتم تسوية الفرق بإضافة كمّية من مياه دجلة».



5 – رحلة بالبي من بغداد إلى البصرة

يُعدّ كتاب «رحلة غاسپارو بالبي Gasparo Balbi من بغداد إلى البصرة» في نهاية القرن السّادس عشر هاماً لاحتوائه على أسماء الأماكن التي لا تظهر في الخرائط الحديثة، لكنني لا أدّعي الآن أنني قمت بتعيينها:

في الثالث عشر من شهر مارس عام 1580، غادروا من بغدات Bagdet إلى بلسارا Balsara (من بغداد إلى البصرة) وركبوا على متن سفينة دجلة، هذا النّهر الذي يشبه نهر نيلوس Nilus (النّيل). ولم يكن آنذاك خطِراً بتراكم الصّخور وجذوع الأشجار كتوأمه الفُرات. وفي «الماكا» Elmaca ينقسم النّهر إلى فرعين أحدهما يصبّ في الفُرات والآخر في بلسارا Balsara. السّكان الذين يقطنون الجهة اليمنى من النّهر هم من العرب، أما الجهة اليسرى فيشغلها «الكرجي» Gurgi الذين دخلوا في اليوم الثامن عشر إلى «الكر» Cher التي يوجد فيها عدد كبير من الأسود والغزاة العرب وعدد لا بأس به من مربي الثيران والأغنام والماعز.

ومن هناك وصلوا إلى «إنكازيرامي» Encaserami حيث يتوّجب على كل ملاح إلقاء الخبز قرباناً لوليّ دُفن هناك. كان الهواء في هذه المنطقة من دجلة والفُرات طيباً، لأنه بعد هذه المسافة تبدأ الرّائحة الكريهة المثيرة للاشمئزاز بالظهور. أما في الليل فيكون النّهر خطيراً، حيث تتكون التّيّارات المائيّة مما يستدعي السّفن بمرافقة بعضها البعض الآخر لإخراجها من الدّوّامات عند الضرورة. وفي اليوم التالي وصلوا إلى «كازالِه» Casale (الغزالة) وهو مقر إقامة السّانياك Saniak (السَّنجَق) حيث يصبّ نهر مروان» Maroan الفارسي.

وأول ما واجههم في الخليج العربي كان المدّ، وبعدها بقليل في «كالاتيل» Calaetel كانوا يهمّون بسيرهم عند ارتفاع المدّ وإلا سيعيدهم إلى الوراء. كانت السّهول مأهولة هنا تماماً بالسكان. دخلوا إلى «كورنز» Corns وبعدها بقليل لاح لهم المكان الذي يلتقي فيه دجلة بالفُرات حيث يتمركز عدد من جنود «السّانياك» (السَّنجَق) لدرء خطر اللصوص بمرافقة مئات الأشخاص من السّرقة. كان النّهر في هذا المكان واسعاً كنهر نيلوس، فيه عددٌ كبير من الأهالي (يشبه في بعض الأماكن نهر برنت Brent). أما الطّقس فقد كان شديدَ الحرارة مما يؤدّي إلى وفاة العديدين، وأدى إلى إصابة أربعة من أفراد الرّحلة بالإنهاك الشّديد، فجلسوا لبرهة من أجل استعادة نشاطهم، إلا أن ريحاً حارّة غلبتهم وأدّت إلى اختناقهم. وفي اليوم الحادي والعشرين وصلوا إلى البصرة».

انظر پنكرتون Pinkerton في «مجموعة الأسفار والرّحلات»[1] المجلد رقم 9، ص 396.

لا بدّ أن الماكا الذي يتفرّع منه النّهر إلى فرعين يشير إلى شط العمارة أو الحيّ الذي يتفرّع من كوت العمارة. أما (الكر) فربما هي الشّاهريّة الموجودة في خريطة كيپرت Kiepert، لكن ليس لديّ المزيد من المعلومات عنها. وربما يكون الوليّ المذكور علي الشّرقي أو الغربي. ولا بدّ أن يكون نهر مروان الفارسي هو أحد مصبّات نهر الكرخ. وتشير حقيقة المدّ الذي يشاهد للمرة الأولى إلى مكان ضريح عِزرا. أما كورنز فهي بالطبع القرنة.



(1) عنوانها: "Collection of Voyages and Travels", London 1811.

6 - تقرير هاميلتون عن البصرة

يوجد في كتاب رحلات القبطان ألكسندر هاميلتون Alexander Hamilton تقرير عن البصرة يحتوي الكثير من المواضيع الشّائقة، وقد قمت بأخذ بعضٍ منها. ولقد طبعت رحلاته في المجلد العاشر من كتاب پنكرتون Pinkerton «مجموعة الأسفار والرّحلات»، لندن عام 1811، بعنوان: «تقرير جديد عن جزر الهند الشّرقيّة، ملاحظات وتعليقات القبطان ألكسندر هاميلتون الذي قام بالسفر والتجارة برّاً وبحراً في معظم البلدان والجزر التي كانت التجارة والملاحة مزدهرة فيها آنذاك بين رأس الرّجاء الصّالح وجزر اليابان من عام 1688 حتى 1733».

«تقع باسورا Bassora (البَصرة) في أقصى شرق الدّول التابعة لتركية، حيث تبعد نحو ميلين عن نهر الفُرات. تبعد المدينة التي شيّدها الإمبراطور تراجان على بعد ثلاثين فرسخاً من البحر، وتمتاز بشرف ولادة الإمبراطور الرّوماني فيليپ المشهور بالعربي. لقد بنيت المدينة أولاً على طول ضفّة النّهر حيث لا نزال نشاهد آثار السّور القديم من النُّهير المذكور الذي يقع إلى الجنوب ببعد فرسخ واحد من نهر الفُرات الذي يصبّ في أربعة أو خمسة أماكن في الخليج العربي، لكنها غير صالحة لمرور سفن الشّحن عدا القناة التي تصل إلى البصرة. تجري القناة داخل المدينة لأقل من ميل واحد بعرض ملائم للملاحة، وتستمر هكذا حتى المصبّ.

والنّهر غني بالثروة السّمكيّة، إلا أنها ليست لذيذة الطّعم باستثناء سمك صغير يشبه سمك الرِّنكة. بالإضافة إلى عدد كبير من الطّيور المائيّة البريّة كالإوز والبطّ والتّم والحذف وطيور الكروان والزّو، وتمتلئ الحقول بطيور الحجل بأنواعها المختلفة

وطيور الزّقزاق والحمام والشّنقب واليمام والقبّرات الكبيرة ذات اللحم اللذيذ والألحان الشّجيّة. أما مجموعة الطّيور الكاسرة فمنها العقاب وأنواع من الصّقور والحدأة والغراب الأسود والأبيض. ومن الجدير ذكره أن الغراب الأسود يعيش في المنطقة العربيّة بينما يعيش الأبيض في المنطقة الفارسيّة. وإذا حاول أحد الغربان التطفّل على مكان آخر، تعلو صرخات الغربان حتى يبتعد هذا الطّائر الغريب إلى موطنه.

هناك أيضاً أعداد كبيرة من السّلاحف الصّغيرة التي تسبح في النّهر، لكن أكلها محرّم حسب الشّريعة الإسلاميّة الذين يتقيدون كثيراً بتجنب المحرّمات من الطّعام. هنالك أيضاً أعدادٌ كبيرة من الحيوانات البريّة كالخنزير البرّي طيّب الطّعم، لكن جسمه هزيل. وغالباً ما يدعون الفلاحين المسيحيين إلى قتلها لأنها تتسبّب في تلف المزروعات. وإذا ما قتل مسيحيٌّ أحدَ هذه الحيوانات فإنه يأخذه إلى بيته على ظهر بغل أو حمار ويحظى بمكافأة، لأن القرآن حرّم حتى مسّ لحم الخنزير.

يملك الأهالي عدداً هائلاً من حيوانات الرّعي السّوداء البريّة والأليفة، حليبها لذيذ، لكنّ الجُبن الذي يصنع منها رديء ولا يتمّ استخلاص الزّبد منه بل من إليات الأغنام حيث يستعملونها في الطّبخ. وهم لا يشربون الشّاي لاستهلاكه مع الزّبدة الطّازجة، بينما تُعدّ القهوة رفيقاً دائماً لغليون التبغ الذي يدخّنه الرّجال والنّساء على السّواء. وفي الصّحراء الواقعة على مقربة من المدينة عددٌ كبيرٌ من الإبل والخيول والحمير والمعز والأسود والنّمور والفهود والثعالب التي يتمّ اصطيادها من فوق ظهور الخيول باستعمال السّيف والرّمح، وعلى الأقدام بالبنادق الخفيفة. وماذا عن الفاكهة اللذيذة؟ إنها متوفرة بسخاء كالرمّان والخوخ والمشمش والسّفرجل والزّيتون والتفاح والأجاص والدّرّاق والعنب الحلو المذاق كعصير قصب السّكر لكنه لا يصلح لصناعة النّبيذ أو الخل لأن كحوله خفيفة، إلا أن التمور هي الفاكهة التي تطعم ملايين البشر وتُعدّ غذاءَهم اليومي، لذا يهتمّون بها كثيراً حيث تصدّر البصرة إلى البلدان الأجنبيّة أكثر من عشرة أطنان من التّمور سنويّاً. هذه التجارة توفر العمل لآلاف الأشخاص من

بحّارة وعمّال توضيب وتعبئة هذه التمور في سلال مصنوعة من أوراق شجر النّخيل لتجفيفها. لقد اشتريت حوالي 160 باونداً من التمور الطّريّة بمبلغ اثنين إلى ثلاثة باوندات استرلينيّة، وأحياناً يكون ثمنها أقل من ذلك.

عندما كانت البصرة خاضعة للعجم، شجّعوا التجارة فيها وهذا ما جذب العديد من التجّار الأجانب للاستقرار هناك وخاصة من سُورات في الهند. لكن عندما اجتاح الطّاعون البلاد في عام 1691، قتل أكثر من ثمانين ألفاً وهرب الباقون. بدت المدينة حينها خالية من السّكان، وما لبث العرب المحيطون بالمدينة أن طردوهم وسيطروا عليها قرابة عام حتى أخرجهم الأتراك منها، ومازالت تحت سيطرتهم حتى الآن، لكن التجارة اضمحّلت عمّا كانت عليه أيام العجم والسّبب يعود إلى تعجرف الأتراك مع التجار الأجانب.

يوجد عدد كبير من اليهود في البصرة يعتاشون من السّمسرة والصّيرفة، لكن الحكومة التُّركيّة تبقي هذه الفئة مهمّشة لأسباب سياسيّة.

هنالك أيضاً حوالي مئتين من المسيحيين التابعين للكنيسة اليونانيّة، لكن لا وجود للقساوسة في هذه الطّائفة، بينما يوجد بعض البعثات التبشيريّة الرّومانيّة. ولأن رجل الدّين اليوناني لم يكن مهتماً بكسب مهتدين جدد، لم يتبقَ منهم أيّ كاهن في البصرة. وعند وجودي هناك، كان يشرف على تلك الكنيسة ثلاثة من القساوسة الرّومان التابعين للرّهبنة الكرمليّة. ولقد أعطى هؤلاء فكرة سيّئة عن الدّين، مستغلين تسامح الحكومة التُّركيّة والمسلمين معهم، فأخذوا يصنعون العَرَق المقطّر من التُّمور ويبيعونه، ويجلبون النّساء لأغراض مشبوهة. إن الإسلامَ يحرّم شرب الخمور أو تقطير النّبيذ لأن الحرارة العالية في البلاد والتربة الرّمليّة الجافة تجعل الإنسان في حالة من الهيجان وسرعة الغضب، فإذا ما ذهب الإدراك فمن الممكن تحوّل الشّخص إلى قاتلٍ أو مؤذٍ على أقل تقدير. لقد كانت الحكومة التُّركيّة تؤنّب هؤلاء القساوسة باستمرار لإساءتهم للدّين والإنسان، لكن عبثاً طالما كانت هذه التجارة تدرّ عليهم الرّبح.

وحصل مرّة أن تشاجر اثنان من البحّارة السّكارى بالسّكاكين، ومن شدّة خوف

أحدهم من العقاب تحوّل إلى الإسلام لكونه مسيحيّاً پرتغاليّاً، عندها أرسل الپاشا ضابطاً وعدداً من الجنود إلى الكنيسة لتحطيم جرار النّبيذ ومعدّات التقطير وسكب العرق على الأرض. وعند التفتيش وجد الجنود أربعمئة دولار إسپاني وساعة فضيّة جميلة فأخذوها، لكن القساوسة طالبوا الپاشا بإعادة السّاعة والمال، فما كان منه إلا توبيخهم وأجابهم أنهم يعظون النّاس بالابتعاد عن الملذات الدّنيويّة والزّهد وعليهم ترك المال في أيدي الأشخاص الذين بإمكانهم صرفه على الوجه الصّحيح، ويعرفون استخدامه أكثر من القساوسة، فطردهم ووعدهم بعقوبة أشدّ في حال ارتكابهم لإثم آخر، إلا أن حلاوة الكسب المادي جعلهم ينسون هذه الحادثة وعادوا ثانية بشهواتهم المسعورة لجني المال إلى تجارتهم القديمة في إغواء وإفساد المسيحيين واليهود والمسلمين والوثنيين، وأعادوا وضع معدّات التقطير لهذه الغاية.



7 - قصّة مؤثرة من الخليج العربي

لا تزال هناك فسحةٌ من الشّاعريّة في الخليج العربي يمكن ملاحظتها من خلال القصّة التالية التي ظهرت في صحيفة (التّايمز) بتاريخ 4 أكتوبر عام 1892:

حوت الصّحف الهنديّة التي يأتي بها البريد أسبوعيّاً قصّة جديرة بالاهتمام عن تحطّم سفينة وهلاك أصحابها. كان على متن سفينة سِملا *Simla* التي وصلت إلى بومباي من الخليج العربي في الثاني من سبتمبر شقيقان يُدعيان الأخوين لافي Lavy وهما من ماهيه Mahé ويعملان في نقل البضائع من جزر سيشيل إلى الجزر المجاورة مستخدمين لهذا الغرض مركباً شراعياً يستطيع حمل 25 طناً، كان قد قام برحلة واحدة. وفي يوم 21 يونيو، غادر المركب ميناء ڤيكتوريا وعلى متنه ستة أشخاص أكثرهم من الفرنسيين في رحلة بحريّة قصيرة تجوب الجزر المحيطة ومعهم مؤن تكفي لأربعة أيام فقط.

بعد مغادرتهم الميناء مباشرة، فاجأهم طقسٌ عاصفٌ حال دون عودتهم. وبعد أربعة أيام من مغادرتهم الميناء أدّت العاصفة القويّة إلى اقتلاع شراع السّارية الأمامي للمركب وجرفتهم الرّياح إلى أعالي الأمواج وأبعدتهم بذلك عن خط سير السّفن، فما كان منهم إلا الصّمود وتقسيم الطّعام إلى حصص صغيرة يتناوبون على استهلاكها وهم يحاولون جاهدين إبقاء مقدّمة المركب مرتفعة فوق الماء. بعد انقضاء اليوم التاسع، نفدت المؤونة وصاروا يشربون من ماء البحر حتى قضى أحدهم بعد اليوم السّابع من شرب الماء المالح والجوع وسوء الأحوال الجويّة، وبعدها بيومين توفي آخر، لكنهم في اليوم الثالث تراءت لهم اليابسة من بعيد، فتوجّهوا نحوها ونزلوا على

اليابسة بعد غرق المركب، وحالَ وصولهم توفي الشّخص الثالث.

لا بد أنهم قد قطعوا 1300 ميل في قاربهم المفتوح، لأن المكان الذي أدركوه هو راشور Rashoor المقفر أو (رأس مدركة[1] Ras Madruka) على السّاحل العربي. وبينما كانوا يهيمون على وجوههم باحثين عن شيء من الطّعام أو الفاكهة، لاح لهم من بعيد خيالُ شخص قادم نحوهم، وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما قدّم لهم هذا البدوي الطّعام بدلاً من التجهّم في وجوههم، حيث شربوا والتهموا التمور التي بحوزته بنهم شديد. كانت هذه وجبتهم الأولى بعد صيام دام أحد عشر يوماً، إلا أن الإجهاد كان كبيراً فتوفي الرّجل الرّابع مباشرة. وعندما وجدهم البدوي على هذه الحالة من الإعياء الشّديد، وضعهم على ظهور جماله وذهب بهم إلى مكان يتفيّأون فيه تحت الأشجار حيث بقوا هناك لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، وحاول جاهداً معرفة قصّتهم ومن أين جاؤوا، لكن الحديث كان صعباً معهم.

وبعد ذكره لكلمة مَسقَط، أشار الأخ الأكبر إلى أنهم يريدون الذهاب إلى هناك على الخليج العربي، فانتظر البدوي أربعة أيام أي الوقت الذي يمكنهم النّهوض فيه ومتابعة الرّحلة. وبعد مسيرة اثنين وعشرين يوماً على ظهور الجمال، أوصلهم إلى القنصل البريطاني في مَسقَط وأخذوا يخبرونه عن مغامرتهم، فأجزل القنصل العطاء للبدوي الصّادق. وبعد استراحة دامت ثلاثة أيام، تمّ استدعاء السّفينة سِملا *Simla* وأبحروا على متنها إلى بومباي على نفقة الحكومة، ومنها إلى جزر سيشيل عن طريق عدن.

* * *

(1) هكذا الصّواب وليس رأس مدروكة كما يكتبها، وهي إحدى المناطق البحرية الواقعة على بحر العرب في سلطنة عُمان، بولاية الدقم بالمنطقة الوسطى وبالتحديد في جنوب شرق الولاية.

فهرس الصّور

- مسجد زكريّا في حلب.

- مدخل قلعة حلب.

- امرأة بغدادية.

- بغداد وجسر القوارب من الضفّة الغربية.

- خان الزّاد.

- على مياه بابل.

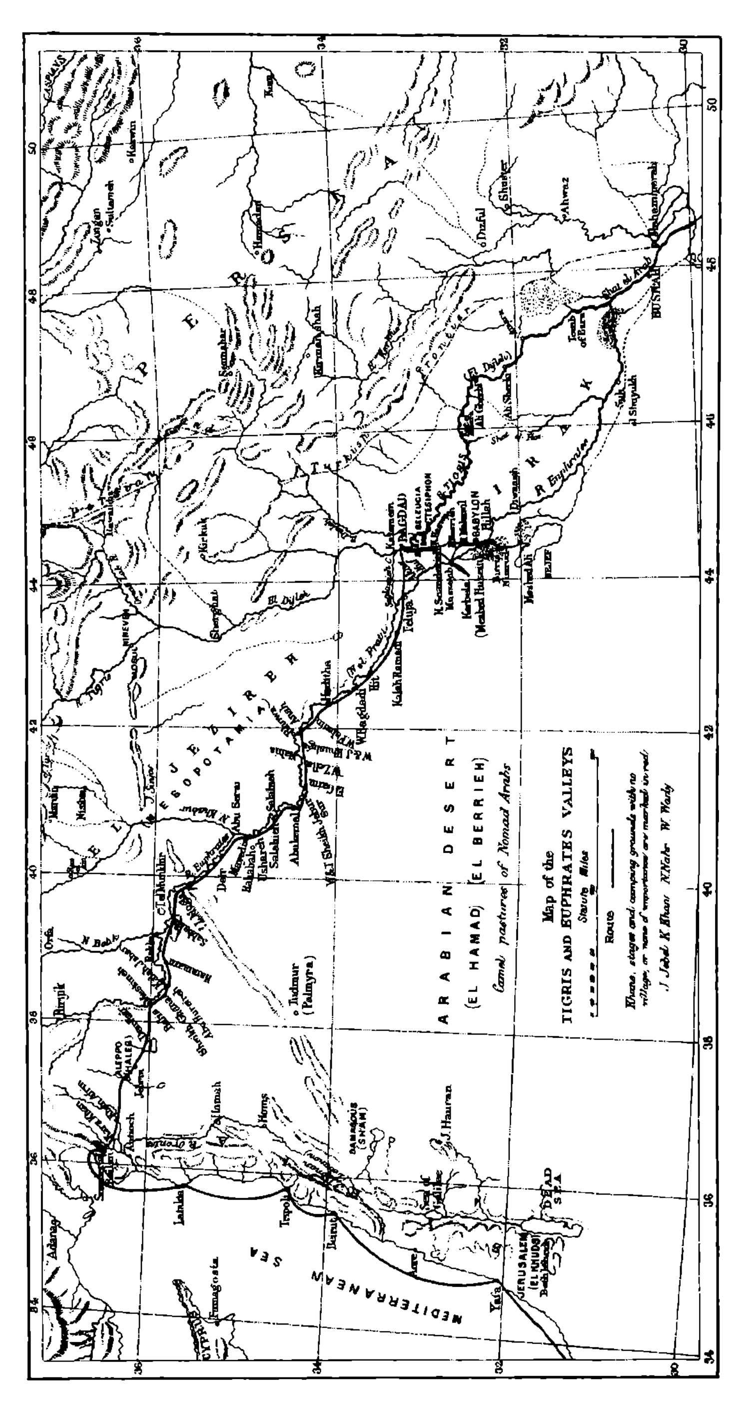
- حُجّاج في المُسيِّب.

- مضيفي وولده.

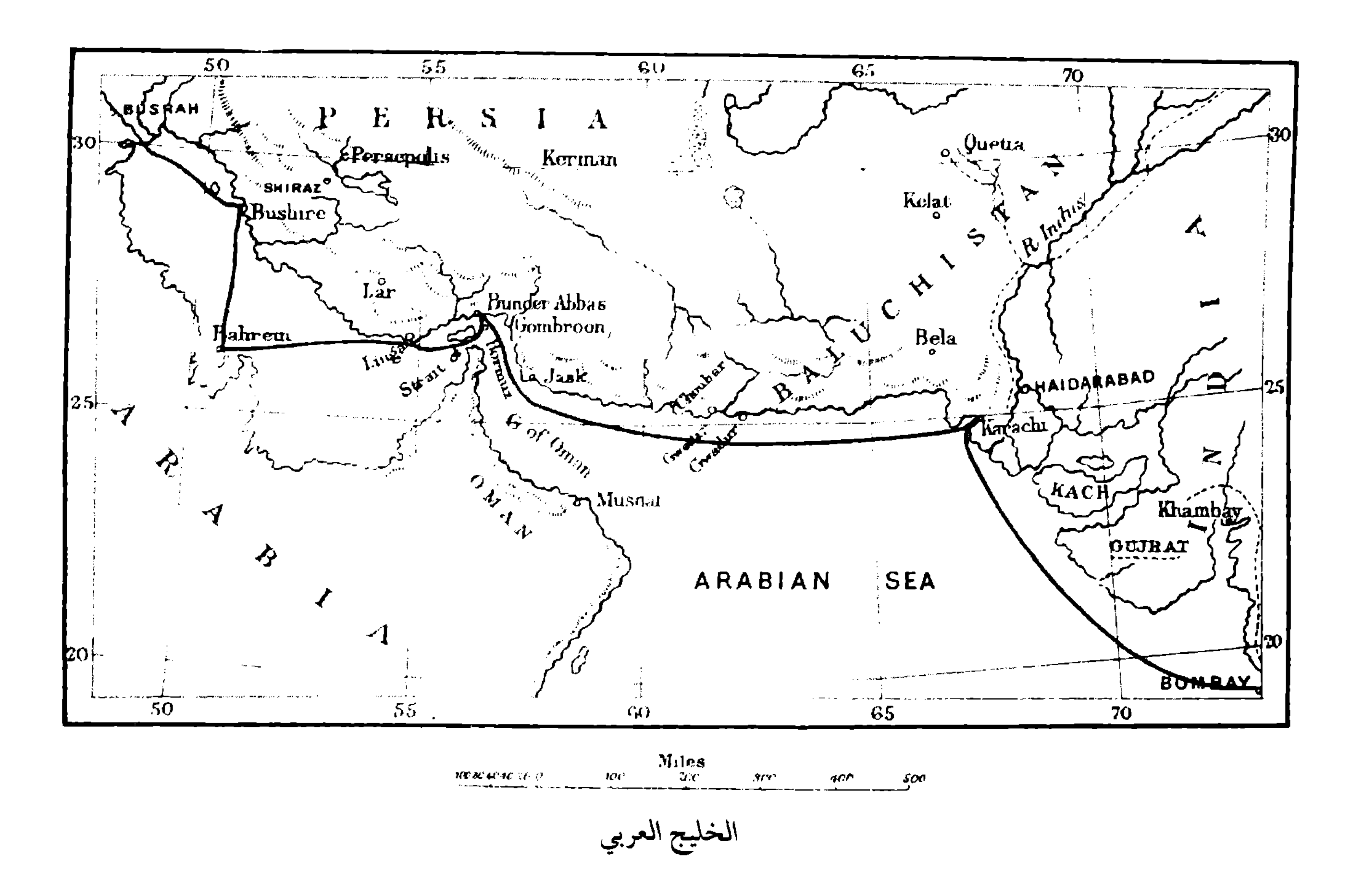
- شارع في بغداد.

-زورق بَلَم من زوارق البصرة.

- أحد أبراج الصّمت في بومباي.



طريق المؤلف من الإسكندرون إلى الخليج العربي



الخليج العربي

فهرس الكتاب

رحلة عبر الجزيرة الفراتيّة

نقدّم للقرّاء الكرام اليوم كتاباً يتناول رحلة شائقة لرحّالة بريطاني (هنري سواينسون كاوبر) قدم من أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط، وجالَ في بوادي سوريا والعراق في أرجاء الجزيرة الفُراتيّة، وصولاً إلى البَصرة على السّاحل الشمالي للخليج العربي، والبحرين وجزيرة هُرمُز ذات التّاريخ العربي العريق. فقدّم لنا نصاً مفيداً وممتعاً يمتاز اتّساع حلقة بحثه وتتبّعه لمصادر نادرة لا نجدها لدى سواه، ممّا أعطى نصّه أهميّة ومصداقيّة كبيرتين.

قام برحلته هذه إلى المشرق في عام 1893 كما يذكر في مقدمته «من البحر المتوسط إلى بومباي عبر وادي دجلة والفُرات ومروراً بالخليج العربي»، ويلفت انتباه القرّاء إلى «أن هذا الكتاب ليس سرداً لرحلةٍ خياليّة أو استكشافاً علمياً بغية إغناء كتب المؤلفين الرّحّالين»، بل هو مجرّد رواية شخصية لرحلة مفعمة بالحيويّة والوصف التّفاعلي الشّائق، ممّا يجعلها واحدة من أمتع رحلات أواخر القرن التّاسع عشر.

كتاب ممتع ومرجع مهمّ، يغلب عليه أسلوب الرّواية الشّخصية، والوصف الدّقيق مع التقصّي العلمي للدّروب والمدن والقرى والأقوام الذين صادفهم في رحلته.

السعر 80 درهم





